حالات كينونيّة

رواية

سبعُ مُوَبْجات إِيرَوْسِيَّة-صُوفِيَّة

إبراهيم جعفر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

حالات كينونيَّة

إبراهيــــم جعفــر

رواية

Deposit Number: 32427 / 2021

ISBN: 978 - 977 - 6597 - 46 - 3

© Willows House 2021

الطبعــة الأولـــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

حالات كينونيَّة

روايــة

سبعُ مُوَيْجات إِيرَوْسِيَّة-صُوفِيَّة

إبراهيــم جعفــر

في مَدِيْحِ روايةِ «كَيْنُونِيَّة أو سبعُ مُوَيْجَات إِيرَوْسِيَّة-صُوفيَّة»

الأَجـزاء 1-4 مِـنْ روايتـك الرَّمضانيَّـة[1]؛ وليـس مـشروع روايـة كـما ذكـرتَ في رسـالتك؛ تجعـل القـارئ يُحـسُّ أَنَّـه يحلِّـق في فضـاءات مِـن الخيـال بعيـدة؛ ويشـعر في نفـس الوقـت أَنَّـه يعيـش في عمـق الواقـع ولم يخـرج منـه طرفـة عـين! تُحِـسُّ أَنَّـك في كلِّ مـكان؛ وفي نفـس الوقت لسـتَ في أَيِّ مـكان! مصـدر الضَّـوء في روايتـك واحـد؛ لكنَّـه ينعكـس في كلِّ الاتِّجاهــات؛ فتجــد نفســك -تبعــاً لذلــك- في كلِّ الاتِّجاهــات! شيءٌ عجيـب! تلمـس بوضـوح ثقافـة الـرِّوائيِّ الشَّـاعرِ إِبراهيـم جعفـر الموسـوعيَّة الرَّاقيـة مِـنْ غـير تعالُـمٍ ولا ضوضـاء؛ فتـدرك أَنَّ الثَّقافـة مزروعـة في جيناتـه منـذ لم يكـن الإِنسـان شـيئاً مذكـوراً. تُسْـعِفُ كلَّ ذلـك لغـة مرنـة مطاوعـة خاليـة مِـن الأَخطـاء؛ ومقـدرة تحليليَّـة فـذَّة وغـوص في أَعـماق الـذَّات وأَرجـاء الآخريـن؛ ونظـرة سياسـيَّة ناضجـة حـين كانـت الجامعـة جامعـة والطُّـلاَّب طلاَّبـاً والسِّياسـة سياسـة. وحقّـاً

(1) وصـف الـرِّوائيُّ علـي الرُّفاعـي الروايـة بأنهـا «رمضانيـة» لأن مـا قـد كَتَـبَ هُـوَ عنـه منهـا (أجزاؤهـا الأربعـة الأولى) كانـت قـد بُدِئَـتْ كتابتـهُ في شـهر رمضـان مـن العـام 1977م، ثُـمَّ، مـن بعـد الكَـفِّ عـن الاشـتغال عليـه عِـدَّةِ سـنين، أعيـدت كتابتـه في شـهر رمضـان، أيضَـاً!، مـن العـام 1995م، ثُـمَّ توالـت كتابـةُ الرِّوَايَـةِ إِيَّاهَـا، مـن بعـدِ ذلـكَ، علـى غـيرِ تَواتُـرٍ في الغالـب، حتـى اكتـمالِ نسـجِهَا في 28 يوليـو مـن العـام 2013م.

لـكلِّ زمـن أُناسـه الَّذيـن خُلِقُـوا لـه وفُصِّـلَ عليهـم. روايتـك الرَّمضانيَّـة يـا أُسـتاذ إِبراهيـم؛ ومِـنْ دون أَيِّ مجاملـة؛ تحمـل سـمات كتابـة سرديَّة غـير تقليديَّـة؛ وهـذا النَّمـط مـن الكتابـة لا يقـدر عليـه إِلاَّ قلَّـة مِـن الكُتَّـاب في هـذا الزَّمـن المُفْعَـم بـكلِّ مـا هـو تقليـديٌّ وضحـلٌ وركيـكْ. الَّـذى أَرجـوه منـك أَنْ ترسـل لي الرِّوايـة كاملـة فـور فراغـك مـن كتابتها في صورتهـا النِّهائيَّـة؛ كي أَقـوم بكتابـة دراسـة تحليليَّـة متكاملـة عنهـا.

أُحـسُّ مـن كتابتـك الكثـير مِـن القلـق.. القلـق الخـلاَّق؛ فأَقـول لـك: «لا تقلـق مِـنْ قلقـك.. أَنـت بأَلـف خـير مـا دمـتَ تقلـق. وعندمـا لا تقلـق فتِّـش عـن ذاتـك؛ وهـذا مـا أَفعلـه حـين أَشـعر أَنَّنِـي لسـتُ بخـير».

الكاتب الروائي السوداني علي الرُّفاعي

من رسالة شخصيَّة...

***

لقد استمتعت أيما متعة بهذه الرواية. لقد أخذني نفسها السردي العالي، الحار، اللولبي، الغنائي، الخلاسي الأسلوب. انها رحلة -أو بعض رحلة- الأوجاع الجوانية، الوجودية، الأبدية لهذا الانسان، النادر، المختلف، «الغريب» (ليس بين «الناس العاديين فحسب، بل في أوساط ما يسمى ب»الطليعة المثقفة«)، ابراهيم جعفر، المنعوت هنا، لأسباب مسوّغة، وربما مريحة، بـ»مجذوب الطيب«.

ولا أشك في أن التسمية (أو «الجملة المفيدة») «مجذوب الطيب» اختيرت -فيما أرى -بعناية ذات ذكاء موح. فنعت «مجذوب» يتضمن، أوّل ما يتضمن، الدلالة الوجدانية الداخلية، الصوفية، بأبعادها الوجودية، الشعورية والشعرية. أما صفة «الطيّب» فلا يوجد -في تقديري- ما هو أنسب -وأحبل دلالة منها- لكي ترتبط بـ أو تلاصق، أو تعطى معنى أكمل لـ»انساننا المجذوب« -هنا-(وهناك؟)- (و «حكم الصفة يتبع الموصوف»!). نعت «الطيّب» نفسه -في سياق ثقافتنا المحلية على الأقل- مفعم بالدلالة الصوفية.

كما يشرفني أن هذا السرد الروائي -الغني بتقنيات أخرى- يحتل مكانة خاصة في وجداني. ذلك أنه يتحدث عن فترة دخلت أنا -في فصل ما من فصولها- في سياق صديقي «ابراهيم جعفر»، صاحب المكتب الشهير بشعبة الفلسفة بجامعة الخرطوم.

هذه أفكار تداعت مني على إثر فراغي -منذ أقل من ساعة

تقريبا- من قراءة هذا السرد الجالب للشجن، للحبور، للتأمل، وللإغراء بقراءات تالية ومناقشات.»

عادل القَصَّاص

قاص وكاتب إبداعي سوداني- من رسالة شخصيَّة

بتاريخ 2 سبتمبر، 2013م...

***

أنهيـت للتـو قـراءة الروايـة أو الرحلـة الباذخـة داخـل الـذات البشريـة بهيولهـا العجيـب، ولا شـك أنـك تعلـم أننـي اسـتمتعت أيمـا متعـة بهـذه القـراءة التـي جـاءت عـلى مـتن مواصـلات أحيانـاً وأحيانـاً في مكتـب مكتـظ بالبـشر البائسـين.

شكراً لكل المتعة يا إبراهيم

شكراً للكتابة في ثوبها الأصيل الحاذق

وشـكراً أن حظيـت بقـراءة هـذه النسـخة قبـل ورودهـا سـوق النـشر ودهاليـز المكتبـات والتوزيـع

الشاعر السوداني عبد الرحيم حسن حمد النِّيل

من رسالة شخصيَّة بتاريخ 5 يوليو، 2014م

***

الكتابُ الأوَّل

1

يتملّكُـهُ الضّجـر رُويْـداً، رُويـداً، وببـطءٍ قاتـلٍ يـسري في داخلـه. بـل هـذا الـذي يتملّكُـهُ ليـس مـن الدّقّـة في شيءٍ أن ندعـوهُ ضجـراً. هـو شيءٌ فاقـدٌ للملامـح الانفعاليـة الحـادّة، والضّجـر انفعـالٌ حـادٌّ حتـى ولـو كان سـلبياً، ففيـه «حيـاةٌ مـا» وحركـةٌ جائشـةٌ مُسـتديمةٌ وإن كانـت مُغلقـةٌ كدائـرةٍ مـن الحسـابات الرياضيّـة الخامـدة. لكـن هـذا «الـشّيء» هـو «الـلاّ حيـاة» و«الـلاّ حركـة» رُغـمَ أنّـهُ ليـس لـه ثمـةُ شـبهٍ بالمـوتِ «المـوتِ الحـسّيّ أعنـي».

يتذكّـرُ قولـةً شـهيرةً:- «لا أرجـو شـيئاً، لا آمـل شـيئاً، ولا أخـافُ شـيئاً، إنّي إذاً سـعيد». ذلـكَ هـو هـدف الديانـة البوذيـة كـما يفهمُهـا «سـوقُ» النّصـفِ منتبهـين مـن النـاس. يُسـائلُ نفسـهُ في سُـخريةٍ:- تُـرى هـل بلـغ بهـذا «الـشّيء» الـذي هـو فيـه حالـةَ «نيرفانـا» بـوذا أو «سـعادته العُظْمَـى» كـما سـمّاها وخبِرَهـا رهبـان بـوذا المُتبَتِّلـين؟ ثـمّ يُـردفُ، بمـرارةٍ مُتهكّمـة:- إن كان الأمـرُ كذلـك فـما «أرخصُهـا» وأَبْهَتُهَـا مـن سـعادةٍ لا قعـرَ لهـا! فليذهـبْ أصحـابُ الفهـمِ الزّبـدِيّ لبـوذا إلى «جحيـمٍ» يـرون فيـه حيـاة العـالم في جيَشَـانها القبـل تاريخـيّ «ليـس البـدائيّ!» حتـى ينضـج عودهـم الوجـدانيّ بمِصهرهـا الحـارق فيكفّـوا عنـا التبشـير بمسـخ الديانـة البوذيـة هـذا والـذي لا طعـم ولا رائحـة ولا نغـم لـه تمامـاً كوجبـةٍ بـاردةٍ مـن طماطـمٍ أوربيّـةٍ في شـتاءٍ شـاحنٍ

للـروحِ بالمـوتِ والتّفسّـخ النّفـسيّ الـذي لا دمَ لـه.

قـال كلّ هـذا في عقلانيـة مشرحيّـة لا يُلوِّنُهـا أيٌّ مـن الانفعـالاتِ البشريّـة، عاديـةً كانـت أم عارمـةً، بـل يغزوهـا- مثل طقطقة موسيقى عصريّـة ماسـخة- هـذا الـبَرَم أو الضّجـر، الـذي ليـس هـو، في الحـق، بَرَمَـاً ولا ضَجَـراً وإنّمـا ذبذبـاتٌ ضعيفـةٌ لحجـرٍ قَلَـوِيٍّ في شـفةٍ مـرّةٍ لصبـيٍّ عابـثٍ وشـديد الخياليّـة- صدمـةُ مُلْوِحَـةٍ راسـبةٍ في مسـتنقعٍ مفتـوحٍ للرّيـاحِ القـذرةِ لجهـاتٍ أربـعٍ محيطـةٍ لمنطقـةِ ازدهـارٍ صناعـيٍّ عـدائيٍّ! ثـمّ تذكّـر بعـد شـعراً لإعـرابيٍّ قديـمَ الحكمـةِ قـال مـا قـال في جـوفِ حـوتِ انفعـالاتٍ قارسـةٍ مـا ينضـحُ تمنّيـاً للمـوتِ- بـلا صدقٍ- ونـداءاً لأن يمَـسَّ براحـةِ «مـوتِ» الحجـرِ عـن دنيـا الأشـياء، العضويّات، والأحيـاء أمثالنـا حيـثُ لا يكـونُ مسـتولياً عليـه تَوَهُّـمُ «طيبـةِ» الحيـاة في صيرورتهـا التـي نحيـا:-

ووددتُ لـو صـارَ الفتـى حجـراً وهـل تُطيـبُ الحيـاةُ للحجـرِ؟!

هـو أدرى مـن هـذا الإعـرابيِّ- المسـتنيرَ بـلا «أوهـامِ» معـانٍ متعاليـةٍ- بالحجـرِ وبمـا للحجـرِ مـن سـكونيّة مُلهمـة وخلاّقـة تنـأى بـه عـن صـورةِ مـا تخيّلـهُ هـذا الرّجـل. لـذا فهـو لا يـرى- والعهـدةُ عـلى الـرّائي- أنّ ذلـكَ الحجـر الجليـل المبتسـم للملـحِ والرّيـحِ والمـاءِ في صمتِـهِ المكنـون صديقـاً لـه في برودتـه الاغترابيّـة عـن مـا كان لـه مـن حيـاةٍ في العظـمِ والنَّفَـسْ، في الحُـزْنِ والتَّرَقُّـب. إنَّ تلـكَ لَحَالَـةٍ أُخـرى:- سُـمّاً رطِبـاً لا رقّـةَ نسـيمٍ مُغـرمٍ تُمازِجُـهُ ولا «ساكسـفوناتَ» شـاجيةً بشـجَنِها.

هنالـك عنـد علـماء الفيزيـاء وضعيّـة للأشـياء يسـمّونها- اصطلاحـاً- «حالـة انعـدام الـوزن» وذلـكَ بالـذّات حينـما يتحدثـون عـن الفضـاء

وصواريخِـهِ ومَرْكِباتِـهِ الكومبيوتريّـة. تلـكَ كانـت حالتـه. ولمّـا غـدت هـذه الحالـة مُقابـلاً في الشِّـعور لانعـدام الـوزن في «مـادّةِ العلـم»، يُمكـنُ للمراقـبِ الفلسـفيِّ أن يُطلـقَ عليهـا- بحصافـةٍ- إسـماً مُتفكّـراً:- حالـة انعـدام الـوزن الشّـعوريّ. فالمُنعـدم هنـا ليـس كثافـة ماديّـة ملموسـة بأعضـاء الحـسِّ بـل هـو شيءٌ كأنّـهُ هـواءٌ وليـس بهـواءٍ نُشـيرُ إليـهِ بطبيعيّـةٍ لا مُـبَرِّر لهـا سـوى «طبيعيَّتِهَـا» الـلاّ تجريبيّـة عـلى أنّـهُ «الشِّـعور». دعنـا نُجـرى مقارنـةً بـاردةً ولا غنائيّـةً بـين الحالتـين. في حالـةِ انعـدامِ الـوزنِ «العلميّـةِ» تكـون الجّاذبيّـة الأرضيّـة- كـما يقـولُ العلـماء- قـد أُبطِلَـتْ فعاليّتُهـا الحركيّـة. وبمـا أنّـه- عـلى حـدٍّ مـا وصلـت إليـهِ معرفـةُ العلـمِ التّجريبـيِّ- ليـس هنـاكَ جاذبيّـة «عُليـا»- أي لا أرضِيّـة- تُجَرْجِـرُ الأشـياءَ إلى «أعـلى» إذاً- علميـاً- لا أعـلى ولا أدنى هنـاك (شـعريّاً يمكـنُ أن نُعـبّر عـن هـذا الأمـر فنقـولُ شـيئاً مثـل أنَّ هنـاكَ فقـط «هاويـةً عدميّـةً رطبـةً» أو مـا يُشـبِهُ هـذا مـن خُزْعْبُـلاتِ الشِّـعرِ!). الحالـة الأُخـرى «حالـة انعـدام الـوزن الشِّـعوريِّ» مُشـابهة عـلى نحـوٍ مُـوازٍ لهـذه. هـي، يُمكِنُـكَ أن تقُـول برصانـةٍ عقلانيّـةٍ، المقابلُ الـلاّ مـاديُّ لحالـة انعـدام الـوزن العلميّـة (ذلـكَ إذا صـحَّ الإفـتراضُ «اللاّ عقـلانيُّ» المُجَـذِّر لــ- أو الكامـنِ سِرّاً تَحـت- هـذه العقلانيّـة والـرّائي أنَّ لـكُلِّ وضعيّـة فيزيائيّـة علميّـة مُقابـلٌ في الوجـدان لا فـرقَ بينهـا وبينـهُ سـوى الفـرقَ الخطـير، والمُبهـمَ في آنٍ، بـينَ الحيـاةِ والمـوت!).

ليـس هنالـكَ أدنى أو أعـلى، أكثـفَ أو أرقَّ، في «لا انفعـالِ» هـذا البـشَرِيِّ الـذي نكتُـبُ عنـهُ بحياتـه. ليـس هنـاك- أعنـي تحتهـا- أيُّ مُحـرّكاتٍ نفّاثـة لاتِّجـاهِ انـسرابِ مـا تحتويـه «مـا لا تحتويـه، عـلى الأرجـح» الحالـة موضـع الوصـفِ مـن لاءاتٍ عاطفيّـةٍ:- لا أمـل ولا

إشراق، لا وهـج ولا بهجـة، ثُـمَّ لا يـأس ولا رجـاء، لا مألوفيّـة ولا لامألوفيّـة:- فقـط غُبـارٌ ناعـمٌ ولا مُسـمَّىً بمـرضٍ أو عَـرَضٍ جسـديٍّ مـا يتمَثَّلُـهُ في هيئـةِ الشّـخصِ الخارجيّـةِ «أهـي خارجيّـة؟!» يُقِيْـمُ حيـثُ مـا يُفـتَرَضُ أن يَحِـلَّ مـا ندعـوهُ- في لغتنـا الكاسِـحَة المُكَسَّـحَة- نفسـاً أو حتّـى، بغمـوضٍ يدّعـي عمقـاً ليـس لنـا أن نُنازعُـهُ!، روحـاً.

بعيـداً عـن كلِّ جـلالٍ قُـدُسيٍّ أو أرضيٍّ، عَبَثِـيٍّ أو مُكابِـدٍ (كَبَـدِيٍّ) تكـونُ صـيرورةُ ذلـكَ الفـردِ مُنْزَلِقَـةً أو مُتَزَلِّجَـةً عـلى فـراغِ أيَّـامٍ لا أَسْـنَانَ لديهـا ولا عيـون..!..........

2

لكـن عـمَّ تتحـدّثُ أيُّهـا الرّجُـلُ، أيّهـا الـرّاوي لهـذه الأخبـار عـن مـن لا عُمْـرَ لـه- هـذا الهُـلامُ الـذي لا يحـوزُهُ مـكانٌ أو زمـانٌ موفـورٌ بعافيـةِ الحُـزنِ، عافيـةِ السَّـعدِ، أو حتـى عافيـةِ «الانتِبـاهِ» البُـوذيِّ التـي هـي مـن هذيـن «بَـيْنَ بَـيْنْ»؟ هـل لهـذا الهُـلام سـوالفُ طويلـةٌ ولحيـةٌ لا أُنْسِـيَّةٌ بيكاسَـوِيّةٌ تُقـذِفُ بصورتِـهِ في أذهاننـا إلى مجـالاتٍ قصيّـةٍ في انبهامهـا، في لا معاشـيّتِها وانهزامِهـا المنسـحبِ إلى داخـلٍ مُكَـوَّرِ الفـراغِ كبيضـةٍ ذهـبَ عنهـا أبيضُهـا وانسـحقَ أصفَرُهـا إلى غُبـارٍ نحيـفٍ لا اسـمَ لـه سـوى العـدم (البعـضُ قـد يُسـمِّيهِ المـوتَ، ولكـن ذاكَ شيءٌ آخـرٌ لـهُ جلالتُـهُ التـي لا يَمَسَّـها فنـاءٌ ولا عـدم)؟

لا.. ليـس لذلـكَ الأُنـسيِّ غرابـةَ أطـوارِ فنّـانٍ لا مُتْتَمٍ للاسـتهلاك، تلكَ الـدُّودةُ الحضاريّـةُ «صاحبـةُ الفخامـةِ». إنّـهُ بسـيطٌ تمامـاً بـل وعـلى شيءٍ مـن خِشُـونَةِ بـدويٍّ أو فـلاّحٍ لم يهَبْـهُ عيشُـهُ الطّويـل في المـدن أناقتَهَـا الماكـرةَ أو تهذيبهـا المُزَيّـن بحديـثٍ بَطِـرٍ كخُبـزٍ نـادٍ أجنَبِـيٍّ في عاصمَـةٍ «وقحـةٍ» عـالمَ- ثالِثِيّـة». لا اختـلافَ لـهُ عـن الأَهْلِيِّـين سـوى مـا يُلاحظُـهُ فيـه بعـضُ النـاسِ أحيانـاً مـن «اندهاشَـةٍ» تتسـرَّبُ مـن رُوحِـهِ إلى عينيـهِ دون أن يعنيهـا وعيـهُ أو حتّـى يعلمهـا:- ذلـكَ أنّهـا مُلاحظـةٌ لا تعـودُ «مَلَكِيَّتِهـا» إلى ذلـكَ «الوعـيِ» (كان أحـدُ معارفُـهُ من الإسـلاميِّين النّاشـطين يدعـوهُ، دون أن يتوقّـع أن يطلُـبَ منـهُ تفسـيراً

أو أن يعـترضَ عليـه باسـتنكارٍ منطُـوقٍ أو مُضْمَـرٍ، باسـمِ «المُنْدَهِـش»).

تعـوَّدَ دائمـاً أن يعتقـدَ عـن نفسِـهِ أنّـهُ، بثيابِـهِ المُهمـل الاعتنـاءَ بهـا وبوجهِـهِ الـرَّثِّ الـذي لا تَمَيُّـزَ لملامحِـهِ التـي لا «بُهْـرَةَ» حيَّـةَ مـا تُسـوِّرُها بهالـةٍ زيوسـيّة أو لا زِيَوسـيَّة، لا يُصلـح لأن يكـونَ محبوبـاً عنـدَ الفتيـات. يأخُـذُ ذلـكَ ببداهـةٍ راسـخةٍ ولا يقُولُـهُ فقـط مـن بـابِ «الشّـفقةِ الذّاتيّـةِ» وإن كان لا يخلُـو مـن تلـكَ. إنّـهُ مرسـومٌ في هيئتِـهِ، في أصابعِـهِ الطّويلـةِ عندمـا يُشـيرُ بهـا إلى الأمـام في لا ثقـةٍ أصليّـةٍ، في صمتِـهِ، ثُـمّ في شـكلِ وجهِـهِ العريـضِ بعيـونٍ ناحلـةٍ كعيـونِ مُسـافرٍ لأيّـامٍ عـلى قطـارٍ بُخـاريٍّ بطـيءٍ عـبرَ برّيّـةٍ غبشـاءٍ إلاَّ مـن بعـضِ شُـجيراتٍ قصـيرةٍ وكثّـةٍ تتناثـرُ فيهـا عـلى مسـافاتٍ تَـرْدُمُ «الفجـوةَ» بينهـا رمـالٌ حارقـةٌ.

هـذا اسـتطرادٌ فقـط عـلى أسـاسِ مـا هـو مُعَـرِّفٌ لحـالٍ لذلـكَ البـشَرِيّ الـذي ماتـت عنـهُ أوهامُـهُ وخيالاتُـهُ التـي كان «حيّـاً» بهـا قبـلَ زمـانِ ذلـك الحـال. فـما «لا حياتُـهُ» التـي واتتـهُ مـن بعـدِ ذلـك «القَبْـلِ» إلاّ – تقريبـاً– صـورةُ هـذا المـوت وقـد تجسّـدت في النّفـسِ وفي البـدنِ اللاّمُبـالي ضبابـاً في ضبابـاً في ضبـابْ!

3

قديماً، وقبل ما يُقارب العامين من آن ‘حالتِهِ’ تلك، هذا كانت تأتيه وَمَضَاتُ انفعالٍ وإبراقٍ منها هذه الومضةُ التي سنُمسِكُ ببعضِ شعاعها في الكتابةِ الآتيةِ (هو كان لا يزالُ- بطريقةٍ جانبيّةٍ وكسولةَ الشّعورِ طبعاً!- يرجو (أهو رجاء؟) أن يغدو ذلكَ الإبراقُ مطراً من عواطفٍ شاعّة).

ذات يومٍ، فيما هو عائدٌ من الكليّةِ التي يدرُسُ فيها شهادته الجامعية الأساسيّة إلى الدّاخليّة التي يسكنُ بها، تعثر في طريقه بأحدِ معارفه القُدامى الذي كان- في ذلك الوقت- طالباً بكليةِ التّجارةِ في جامعةِ القاهرةِ- فرع الخُرطوم. وقد دعاه ذلك الشاب الطويل القامة النحيل ذو النظرات المائلة إلى المرح والحيويّ في حركة جسده الدائبة أثناء الكلام، في انحنائه، في أصابعه المشيرة إلى «فوق» وهو يتحدّث... في.. وفي...، إلى رحلةٍ خاصةٍ بنفرٍ من الأصدقاءِ ومعارفِ الدّراسةِ. قال له، وهو يميلُ قليلاً إلى الناحيةِ اليُمنى من حيثُ هو واقفٌ ويُطرقِعُ بأصابعه طرقعةً خفيفةً:- كيف يا إبني معاك لو قلت ليك عندنا رحلة مجنونة جن حا نعملا قريب.. حا تحضرا معانا ولاّ بتعمل فيها ما عندك رغبة في الحاجات دي زي ما هي عوايدك طوّالي؟ أجابهُ فوراً:- دي فعلاً الحاجة الأنا عايزة في الوكت ده.. وأضاف، بصوتٍ ثقيلٍ كوقعِ خُطى جُنديٍّ على أرضِ

الشّارعِ المُكلّفِ بحراسته بعد انتهاء مواعيد التّجَوُّلِ الليليِّ، أنا موافق بس ورّوني الميعاد عشان أحضّر مشاعري. لم يقل الآخر شيئاً بعد ذلكَ بل انصرفَ هادئاً على غيرِ ما يُتَوقَّعُ من شخصٍ خفيف الروح مثله. اختفى وراء تلكَ البنايةِ البُنِّيَّةِ العاليةِ القابعةِ وراء إحدى داخليات البركس بجامعةِ الخرطوم حيثُ كان يسكنُ من نروي حكايته:- ذلك الطالب بجامعة الخرطوم، كليّة الآداب أو، كما دعاهُ زميلُ دراسته الإسلاميُّ، ذلك «المُندهِش».

جاء ميعاد الرحلة. ارتعشت أصابعُهُ قليلاً كبقايا سيجارةٍ في يدِ مُدخّنٍ عاشقٍ وأضاءَ وجهه بتوُقُّعاتٍ مُبهَمة وحادّة مثل تلك الآمال الخائبة الغامضة التي تصرُّ في عنادٍ لا جدوى منه على أن تأخذ لها مكاناً حُلُمِيّاً «يقظَوِيّاً» في قلبِ من هو ممسوسٌ بها. هل يعتريهُ شيءٌ من قرقعاتِ ذلك النّصل الذي يرتعشُ لمجرّدِ توهُّم أنه قد اختُرِقَ به من الدّاخل، ذلكَ «الحبُّ»؟ لا.. لا.. هوّشَ بيده طارداً هذه الخواطر العالية بعيداً عن مجالِ جسده الواقعيّ كأنّها بعوضٌ يتهيّأ ليُولِمَ من دمه قُوتَهُ كفَافَ يومِهِ. شرع في ارتداء قميصه الأبيض المُخطّط بمربّعاتٍ سوداء صغيرة تتناثرُ عليه كقطيع قططٍ سوداء تلعبُ على قمّةِ جبلٍ إبيضَّ رأسُهُ ببعضٍ من شُعيراتِ ثلجٍ قصيرةٍ وجافّةٍ. أدخلَ قدميه بإهمالٍ ساخرٍ ومُتَعَمَّدٍ في صندلٍ مفتوح المقدّمة والجّانبين، بُنّيَّ اللّون مثلَ طوبٍ محروقٍ بنارٍ شديدةَ البوخ في فرنٍ من أفرانِ الطّوبِ السّناريِّ العريق أو قُل مثل كلبٍ صغيرٍ أحرقت بشرته المسافات اللاّهثة تحت شمسِ حيِّ الفلاّتة بكوستي: تلكَ اللاهبة الممزوجة برائحةِ السّمكِ النّاشفِ الشّديدة السّطوة والجّذب، الآسرة بالنّفورِ

القـويِّ الـذي تُخلِّفُـهُ في أنـفِ مُتَشَـمِّمِها المُمَغْنَـط بـ«عروقهـا». ثـم مـضى بغـير عنايـة نحـو بـاب الحجـرة، و«هَـبْ» إلى خـارج الدّاخليّـة حيـثُ صفَّـحَ وجهَـهُ هـواءُ شـارعِ النّيـلِ الدّافـق بالحنـينِ إلى غراميّـاتٍ قديمـةٍ هـي دومـاً أوّل الغراميّـات. ذلـكَ إذاً روحٌ مُـواتٍ لبـدءِ رحلـةٍ مرحـةٍ وخفيفـةَ الـرُّوح كأغـاني الصّبـاحِ القديمـة.

كلُّ شيءٍ عقـدُ جوهـر زانـهُ الـ..... ماذا ؟! شـيئاً مثل «الوجـه المليح» أو شـيئاً «روحيّـاً» آخـراً مـا ينتهـي وصفُـهُ الجَّـمَاليُّ بصـوتِ «يِيْـح» آخـر كـما في «الملـ..ييـح». هكـذا يمـدحُ البُرهانيّـة في حضرتهـم الخميسـيّة الطّرِبَـة .. طروبـاً كان ومملـوءاً بهـذا المديـح المُرنِّـح لعـودِ القلـبِ والخيـالِ، ذلـكَ التّوقُّع لمِسْـكٍ ما يَمَسَّـهُ مـن «نـاس ليـلى» الـلاّئي «جَنْ» هـذه المـرّة ليـسَ بعـدَ «ليـلِ جَـنْ» بـل في جـلاءِ «حرَّايـةِ» الصّبـاحِ الرّحيمـةِ الرّاقِشَـةِ، بـدأت خُطواتُـهُ تضَّطَـرِبُ بعطـرٍ خفِـيٍّ يُغَرْغِـرُ سـيقانَهُ مـن عصبَها الجَّـوفِيِّ إلى أطـرافِ جلدهـا البُنِّيّـةَ اللّـون وكثيفَتَـه. تـمّ تقديمُـهُ لبعـضٍ مـن «نـاس ليـلى». أحـسَّ باكتئـابٍ مُفاجـئٍ وخيبـةٍ غريبـةٍ أعجزتْـهُ لوهلتـين عـن التّواصُـل. غـار في ذلـكَ الجّانـبِ الآخـرِ، الوَحْـشِيِّ أو الحُـوشِيِّ مـن روحِـهِ- أي في صـورةِ «المعـرّي» التـي تتقمّـصُ ركنـاً مـن نفسِـهِ اللاّسـياقَ لهـا في خشـونةٍ حزينـةٍ وغالبـاً في لحظـاتٍ ماكـرةٍ مُراوِغَـةٍ يُظَـنُّ بهـا خِفَّـةً وخُلُـوّاً. نفـضَ عنـهُ الصّـورةَ المُكايِـدَةَ في حركـةِ هـزّةِ كتـفٍ خفيفـةٍ وتعـثُّرِ قَـدَمٍ مالـت إلى الجّانـب الأيمـن مـن الصّنـدلِ في غيـظٍ مُتشَـنِّجٍ وغـيرِ مـرئيٍّ، إلاّ قليـلاً ولعـينٍ فاحصـةْ. ضحـكَ للفَتَيَـاتِ وابتسـمَ ابتسـامةً لا وِجهَـةَ لهـا ثُـمَّ صمـتَ طويـلاً- بطريقـةٍ طبيعيّـةٍ تمامـاً. تنهّـدت إحداهُـنَّ بصـوتٍ مسـموعٍ عـلى مقربـةٍ مـن مجـالِ وجهـه الحيـويّ «أو جسـد وجهـه الأثـيرِيِّ، إذا تفاصحنـا بلغـة

الباراسـايكولوجي» ولكنّهـا لم تقُـلْ شـيئاً سـوى ذلك العـذاب اللاّمنطوق «اللاّمفهـوم رُبّمـا؟ حتّـى لهـا؟» الـذي ارتَسَـمَ بوُضُـوحٍ- يبـدو أنَّ لا أَحَـدَ غـيره مُمْكِنَـةٌ لـه قراءتُـهُ- عـلى وجههـا. كان اسـمُ تلـكَ التـي تنهّـدت سوسـن. الأُخـرى التـي لم تفعـل كان اسـمُها سـميرة. الأُولى تـدرُسُ التّجـارةَ في جامعـةِ القاهـرةِ- فـرع الخُرطـوم والثانيـة في جامعـة الخُرطُـوم، كليّـة الآداب، شُـعبة اللُّغـة الفِرنسِـيّة. الأُولى قمحيَّـةَ اللّـون وعـلى شيءٍ مـن القِصَرِ في القـوامِ وذاتَ وجـهٍ ضاحـكٍ ويـدان تتراقصـان أمامهـا حينـما تمـشي خفيفـةً داخـلَ ثوبِهـا الأصفـر المُـزَوَّق بخُطـوطٍ ليمُونيّـةٍ خفيفـةٍ. الأُخـرى لا يسـتطيع أن يتذكّـر لونهـا بالضّبـطِ رُغـمَ أنّـهُ يعـرف أنّـهُ حتـماً ليـس أسـوداً أبنوسـياً أو قمحيـاً «ربّمـا كان أبيضـاً أو عـلى درجـةٍ مـا مـن درجـاتِ الحُمْـرَةِ «الشّريفيّـة» التـي تعتـزُّ بهـا «سراً» بعـضُ فتيـاتِ سـودان الوسـط والشّـمال؟» أُه... ثوبُهـا ليـس زاهيـاً بالألـوان الأفريقيّـة الكرنفاليـة كـما وأنّهـا أنيقـةٌ بشـكلٍ يدعـو إلى الرّيبـةِ في أصلِهـا الرّوحـيِّ وفي ابتسـامها البـادي الانفتـاح عـلى المقتنيات العصريـة والعطـور المُدْلِجَـة في صَلَـفِ الصّناعـةِ الغربيّـة التـي لا تـشَرُّدَ «جـان جينـيَّ» ولا صعلكـةً رامبويّـةً مُباركـةً فيهـا. باختصـار:- إنّ الأُخـرى لا تعنينـي في شيءٍ طالمـا أنّهـا لا مسُـوقة بـأيِّ ريـحٍ جذريّـةٍ و.... و.......... إلى آخـرِ هذيـانِ شـعراءِ آلهـةِ عصـورٍ سـلفت ورحنـا نبنـي فوقهـا دُخاننـا العدمـيَّ الـذي ليـس لـه أيُّ عـروقٍ شـفّافةٍ مـن نـدٍّ أو صنـدلٍ أو قِرْفَـةٍ، ضُفْـرَةٍ... الـخ.. الـخ. أيضـاً لا ينقطـعُ الهذيـان؟! تنفّـسَ عميقـاً وجـذبَ هـواء ماكينـات العربـات المسرعـة عـسى بنزينُهـا وزيتُهـا الصّافِـرُ بالتّشـنُّجِ وقلـقِ المعـاشِ الباتِـرِ- ذلـكَ البُصـاقُ البائـثُ في فـمِ صائـمٍ بَعُـدَ عنـهُ إفطـارُهُ!- يُبْهِـتُ انتشـارَ خواطـره الهائمـة. ثـمّ أمعـنَ في مُحاولـةِ «الواقعيّـةِ» بلمسِـهِ لجسـدِ بـصِّ الرّحلـةِ المِعـدنيِّ

الصّلبِ إلى حدِّ السَّأَمِ و...... التَّسالي! ركبَ البصَّ إذاً. ذلك فعلٌ لا خيالَ فيه ولا انفعالاتٍ فوقَ طبيعيّة أو «مِيتافيغِيظِيّة» (كما تقولُ إحدى صديقاتي الرّائيات!).

سارت العربةُ في شارعٍ مُلتَوٍ ككتابةٍ قديمةٍ مجهُولةٍ على حجرٍ بكهفٍ سِنَّاريٍّ قديم! نسيمُ الصّباح الصّحيح «وليس العليل!» كان يهبُّ برفقٍ على شبابيكِ بصِّ الرحلةِ الهادرِ بصوتٍ خَشِنٍ تعبٍ وضاحكٍ معاً. كان في أغوارِ ذاتِهِ إحساسٌ رائعٌ بالكائناتِ- فقيرُها وغنيُّها، ضئيلُها وقويُّها- وهي راقدةً على مخدّاتِ سلامٍ ناعمةٍ لا يَمْسَسْها بشرٌ أو عدُوٌّ. وقد كان يتعمَّقُ ذلكَ الإحساسُ عندهُ فقط بفعلِ النّظرةِ التي لا جُهدَ فيها إلى وجهِ المرأةِ القَمْحِيّةِ الأُولى التِّي شاءَ نجمُ سَعْدِهِ أن تجلُسَ إلى جُوَارِهِ. استقامَ على جُودِي الإنعامِ الأُنثَوِيِّ الغنائيِّ إذاً. هكذا كانت رحلتُهُ ذاكَ اليوم:- حياةٌ وذكرى.

4

ضجَّ الفضاءُ حوله بأصواتٍ لاغطَةٍ بشتّى الهمهماتِ السّريعةِ الانطلاق في الهواء بالنكاتِ، بأحلامِ يقظةٍ فجّةٍ، ببذاءاتٍ مُمَلَّحةٍ بالمكرِ الاجتماعيِّ الماهرِ، بالبراعةِ والرّياضةِ، السّوقِ، التّحايُلات اليوميّة على المعاشِ المُعانِد، الهِلا-ريخيّاتِ، أجساد العابرات، الكَيْفِ والكَيْفِ، ثُمَّ لُزُوجةِ «الكَوارِعِ» الشَّهِيَّةِ في مساءاتٍ مُتْخَمَةٍ بالكلامِ الفارغِ الأنيسِ، المُشَتَّتِ والمليءِ كفمٍ أُشْبِعَ للتّوِّ بلبنٍ طازج الدّفء. ماذا بعدُ لَدَيْكَ خلفَ كلِّ هذا غير هذه الحياة الجّارية خارِجُكَ كأشباحِ أوراقِ خريفٍ غافلةٍ عن موتها إذ تسقُطُ صفراءَ على إسفلتِ الضَّجَرِ وزيتِ العرباتِ المُتَفَحِّمِ باحتراقاتٍ مُهترئَةٍ و«مُهْرِيَةٍ» للنّفسِ؟ الإنتعاظُ البطيءُ لعُضْوِكَ داخلَ السَّراويلِ الضّيِّقةَ بالعرقِ والشَّمسِ وبيولوجيا الاشتهاءِ الخاملِ؟! هل يكفي ذلكَ؟ ثُمَّ ما هو وأيُّ أهمِّيّةٍ يتدثّرُ بها زهوُهُ الطُّحلبيُّ البطيء؟!

كرةٌ خضراء من السَّبانخِ المعصورِ بماءٍ ساخنٍ تتقيّأ خِيُوطَها النّباتيّة الزَّلُوقة من بين ثنايا

تَنَفُّسِهِ:- إنّهُ السَّأَمْ!

وقوفاً كانوا وجالسينَ على مقاعدٍ إسمنتيّةٍ قديمةٍ من بقايا عهودٍ خلت استحكمت فيها على أرواحِ العبادِ عيونٌ خُضْرٌ لغرباءٍ

مـن جُـزُرٍ بعيـدةٍ اسـتبدلُوا دعـةَ النّهـرِ والجُلبـابِ واللّـبنِ البـدويِّ الطَّـازج الخشـن بِدُخَـانِ الماكينـات، البُنْيـان المُتَفَنْكِـهِ وإفرنجِيَّـاتٍ علميّةٍ سـمّت أوّلَ جامعـةٍ بالبـلادِ كُلِّيَّـةً تذكاريّـةً للحاكِـمِ آنـذاكَ بأمـرِ الملِكَـةِ «المُبَجَّلَـةِ طبعـاً!»:- غُـردُون.

هتـفَ هاتـفٌ إذ رآهُ «مُفَرْجَخَـاً» عـلى أحدِ تلـكَ المقاعِـدِ التّذكاريّةِ:- المحـاضر لسّـع مـا جـا يـا فيلسـوف؟! قالهـا بهُـزْءٍ طبيعـيٍّ لا شَـيَّةَ فيـه وبِرَنَّـةٍ لا يُمازِجُهـا أيُّ حَـرَجٍ مُحَـشْرِجٍ للصَّـوتِ. وقـد ذكَّرَتْـهُ لهجـةُ ذلـك الهاتـف في قـول مـا قـال بنُكتـةٍ مُعدِيـةٍ بضحـكٍ مـلآنٍ بالعافيـةِ رُغـمَ عُرْيِهـا الـلاَّ مُسـتحي وبسـاطتها الأصليّـة.

الثّامنـةُ ولّـت هاربـةً إلى انفسـاحِ الأبـدِ [أو- بمـدى أوسـع- **ذكريـات الأمـس ضاعـت في ضمـير الأبـدِ**- كـما يتطـرّبُ السّـودانيُّ التـاج مصطفى متهدّجَـاً في أغنيتـه «**موكـب الذّكريـاتْ**»......] ولم يـأتِ ذلـكَ المُحـاضرُ «المُحـتَرَمُ طبعـاً!». فلتعُـدْ أدراجَـكَ إلى الكسـلِ والسّـهوِ الميّـتِ والثّرثـرةِ المعدنِيّـة للأشـياءِ والبـشرِ:- إلى الدّاخليّـة. هكـذا خاطـرَ نفسـه وقـد كان يطبـعُ، رُغـماً عنـهُ، نظـرةً يُشَـكُّ في أنّهـا مُتَرَفِّعَـة وناقـدة عـلى وجهـِ الحـيِّ بالسّـأم. ابتسـمَ لذلـكَ الأمـرِ في خُبْـثٍ مُحَلِّـلٍ نفـسيٍّ نافـذ البصـيرة:- ذلـك الخُبْـثُ المُمتِـعُ السّـامي في درجتِـهِ العاطِفِيّـة!

- إزّي الحال يا شاب

قالهـا لـه عابـرةً شـخصٌ لم يـرَهُ قـطَّ مـن قبـل. وكان ردّهُ الفـوريُّ– والـلاّ مُكـترث طبعـاً– هـو الكلمـةُ المُسْـتَغْرِبَةَ اللّهجـةُ:- أهـلاً وسـهلاً. قـال لـه الشّـابُّ الـذي لا يعرفُـهُ:- هـل إنـتَ مجـذوب الطّيِّـب؟- أيـوه أنـا هـو. ردّ مجـذوب الطيـب عليـه بهـدوءٍ صبـورٍ. ابتسـمَ العابـرُ

المجهولُ بمرحٍ خفيفٍ وقال:- في الحقيقة مُش أنا العايزك لكن في بِتْ واقفة هِنا عايزاك تَشُوْفَا.

- وين؟!
- قريب ياخينا
- لحظة!

كان كأنّهُ قد نساها بعد أن رآها قبل أُسبُوعٍ وبعضِ أيّامٍ. إلاّ أنّهُ ما أن رآها حتى أدركَ توّاً أنّ ذلكَ ليس إلاّ غفلةً دفنتْهُ مؤقَّتاً تحتَ رُكامِها المُنْشَأ كُتُباً ومُحاضرات. حقاً يلوح له الآن أنّ الفتاةَ ظلّت راقدةً أو مُختَبِئةً خلفَ ذلكَ الرّكام مُنتَظِرةً- بصبرٍ أُنثَوِيٍّ ناعمٍ- لحظةَ رؤيتها كي تطلَّ في داخله بوجهها الذي لا يدري لماذا يتمثّل لخياله دائمَ الابتسام رُغمَ أنّهُ لم يره من قبل في عمره سوى مرّةً واحدةً. تذكّر، دون علاقةٍ واضحةٍ ما، إنشاداً بُرهانياً «صُوفياً» قديماً يترنّمُ مُتْتَشِياً «دعْ جمالَ الوجهِ يظهَرْ لا تُغَطِّي يا حبيب» وارتجفَ قلبُهُ بحنانِ امرأةٍ ناضجةٍ عشقَتْ للمرّةِ الثّالثةِ ولم «تُنْجِبْ» زواجاً من تجاريبِها بعد. كان المُنشِدُ البُرْهانيُّ يلبسُ ثياباً مُبخَّرَةً بالسّحابِ الرّماديّ للرُّؤيا الدُّخانيّة لحضرةٍ شاذَلِيّةٍ خميسيّةٍ في ليلةٍ سَكْرى بالنّسيم. نسمةٌ مُشْرِقَةٌ بالانتعاشِ وزهرةٌ مُتَفَتِّحَةٌ على وجهٍ مُرْتَوٍ بالرّجاءات االسَّاذجَة والطَّريّة مثل شجرةِ حنّاءٍ يانعةٍ «تَشُبّانَ» عليهِ من حيثُ ينبُعُ الفمُ الأُنْثَوِيُّ المبتسم. بدا له في عينيِّ البِنْتِ ما يُشْبِهُ الشَّوقَ- أو ما توهّمَ أنّهُ الشّوقَ. سألتْهُ فوراً عن حالِهِ وفهمَ حالاً ذلكَ السّؤال على أنّهُ تحرٍّ عمّا حدثَ له من أشياءٍ وانفعالاتٍ منذُ أن رآها وحتى اللحظة.

صمتَ ولم يُجِبْ. تداعت لـه خواطـرٌ مُجيبَـةٌ في النّفـسِ وكان صداهـا كلامـاً شـعريّاً مُهلْوِسَـاً و»نيِّئـاً» في فنِّيّتِـهِ:- «كان ميـلادُ جموحـي يـومَ أن رأيتُـكِ، وكان ميـلادُ تلـكَ اللغـة- النّشـوة التـي يتهـاوى في شـمسِ ضُحاهـا زَبَـدُ العبثِ، زبـدُ «لا شـيئي القديـم» الـذي خُيِّـلَ إليَّ أنـه قـد ذهـبَ هبـاءاً آنـذاكَ ثـمّ فـارَ وطفـا «عندمـا كُنـتُ كأنّنـي قد نسـيتُكِ». ثـمَّ ذهـبَ هبـاءاً الآن إذ تطلّـينَ عـليَّ مـن داخـلي وخارجـي بِداخِلِـكْ وخارِجِـكْ».

خلـقٌ كثـيرٌ أحـاط بهـما ذلـك اليـوم. أحـسَّ، بعـذابٍ لا تفسِـيْرَ لـه، بأنّهـا لم تـأتِ إليـهِ وحـدهُ. لكنّـهُ متّـع نفسَـهُ بهـذا العـذاب- عـبر حيلةٍ جماليّـةٍ معروفـةٍ للشُّـعراء- وحوّلـهُ إلى أُغنيـةٍ وتريّـةٍ وأوركسـتراليّة عربيّةٍ-سـودانيّةٍ سـتينيّةٍ. بـدا مبنـى «بوفيـه النّشـاط» أمامهُـما وهـما يُسـيران جنبـاً إلى جنـبٍ في حـرجٍ خصيـبٍ باللّـذّةِ. كثـيرون يعرفهـم عابـراً وسريعـاً «أي خارجيّـاً فحسـب» حيَّـوهُ باهتـمامٍ خـاصٍّ ومُسـتَطْلِعٍ ونطقَـتْ عيُونُهُـم باسـتنكارٍ غامـطٍ لحقِّـهِ- كـ'فيلسـوفٍ' وانطـوائيٍّ صامـتٍ- في النّشـوةِ الطَّبيعيّـةِ لصُحبـةِ فتـاةٍ جذّابـةٍ ومُؤْنسـةٍ. فـرح بخفّـةٍ خَفِيَّـةٍ واسـتولى عـلى أحاسيسِـهِ عجـبٌ سـكرانٌ مـن اختِصـاصِ الرّحمـةِ الإلهيّـةِ لـه بهـذا الضَّحِـكِ البسـيطِ الكامِـلِ الـذي لا شَرْخَ ولا شِـنَّةَ فيـه.

5

«ذلـكَ هـو ديـنُ القَيِّمـة»، أصـداءٌ قُرآنيّـةٌ قديمـةٌ تعـودُ إلى ذاكـرةِ المدرسـةِ الإبتدائيّـةِ تُحَـوِّمُ بتهوِيْـشٍ في رأسِـهِ العريـضِ الجّبهـةِ رابطـةً نفسـها، بطريقـةٍ غيبيّـةٍ مـا، بوجـهِ «سوسـن» وضحكِـهِ الغريـزيِّ. طفلةٌ كانـت هـي، كـما رآهـا في خيالـه القهقـريِّ الحركـة، تُعابـثُ رفقـاء دراسـتها الصّغـار حجـماً وتهويمـاً في حصّـةِ الدّيـن وقـد تغافَلَـتْ، بـبرمٍ لا فـكاكَ لهـا منـه كـما ولا تتخَيّـل لـهُ سـبباً، عـن الحضُـورِ المَهيـبِ لتلـكَ اللِّحيـةِ القُرَشِـيَّةِ والملامـح المهمومـة الجّاهشَـة بالوقـارِ وبعـضِ بُـكاءٍ مخفِـيٍّ لشـيخٍ في الخمسـين يُعَلِّـمُ الصِّبيـان والصّبايـا أمـور آخرتهـم منـذُ ثلاثـينَ عامـاً. هـل مـرَدَّ ذلـك التّغافُـل والعبـث الجّـريء عائـدٌ إلى عنادهـا الـوراثيِّ وشَـكِّها الأوّليِّ في أنّ كلَّ ذلـك الـذي يُبادِرُهُـم بـه الشّـيخ مـن كلامٍ وفعـلٍ وإيمـاءٍ مـا هـو إلاّ مسرحـةً لداخلـه الدّنيـويّ «العاشـق لمـا هـو واضـحٌ، شـهيٌّ، ملمـوسٌ ولذيـذٌ» وتصعيـداً لـه إلى صـورةٍ لا يسـتطيع أن يكونهـا حتّـى ولـو «مـاتَ» هـمّاً بتحقيقهـا أو صبـا لهـا بـكلِّ ليـالي سُـهادِهِ العبـاديِّ الطّويلـة القاسـية النّحيلـة؟!

ربمـا هـو- بدافـعٍ مـن علمِـهِ الأليـمِ بذلـك التّناقُـض الـلاّ محلـول- قـد شـعر ببعـضِ البُـكاءِ المخفِـيِّ الـذي وسـمَ كلَّ عمـرِهِ بوقـارٍ تقـيٍّ لا سـبيلَ لـه إليـهِ كـما يـدري يقينـاً. ربّمـا قـد قرأتْـهُ الطّفلـةُ وحَلُمَـتْ بمـا لـه مـن نفـسٍ في صـورةٍ فانتازيّـةٍ لا قُـدرةَ أو مُكْنَـةَ لهـا عـلى رسـمِها

جسداً من فهمٍ، فلسفةٍ أو شعرٍ. هذا الذي هو فيه من حياةٍ وحزنٍ لا سبيلَ إليها إلى اختراقِ كثافته وصِمَاخُ عظمِهِ لا «كَدَّةَ» لها فيها تُمسِكُ خيالها وحسَّها عن السَّرَحَانِ في غرابتِهِ وأساسيّتِهِ لتشكيلِ صورةِ الشّيخِ الشّخصيّة المُهيْبَة والأبويّة، الرّحيمة القاسية، البدويّة الجّافّة ثمّ، رُغمَ كلِّ ذلكَ أو بسببٍ من كلِّ ذلك، المقهورة بهمٍّ دنيويٍّ ساحقٍ ينُوءُ على حجره، على ذكورته الخشِنة بكلاكلٍ وسلاسلٍ يابسةٍ من رمادٍ حامضٍ وحارٍّ كذلكَ الذي «يُدمَّسُ» به الفولُ السّودانيُّ في بيوتِ الطِّينِ العريقةِ. الطّينُ هو ذلكَ الذي انصرفَ خيالُ سوسن الطّفلة إليهِ- في انجذابٍ ضدِّيٍّ حنينٍ- عن ما لـ«دينِ القَيِّمَة» وما للشيخِ من أسىً دُنيَوِيٍّ يُقَمِّصُهُ ذنبَ أن يحيا وأن يَحِسَّ ما يحسُّ وأن يُوْرَدَ موردَ الصّول أو القامقائم الدّينيِّ الذي يبثُّ في الصِّبيانِ اللّواهي ما شرَخَهُ من جدٍّ وصبرٍ ونزالِ قَنَىً قواسٍ مع النّفسِ، العالمِ والنّاسِ، النّاس الوسواس الخنّاس ... وهَلُمّجَرًّا .. وهَلُمّجَرًّا... و«هو هكذا إذاً!».. إلى نهاياتِ جُملِ الحيرةِ والارتِباكِ الطويلة المفتوحة كنافذةٍ من هواءٍ على البحرِ الأحمرِ الذي شقّتْهُ عصا موسى قديماً بقُوَّةِ توراةٍ لا قُدرةَ لنا على أن نكونهُ هنا والآنَ في هذه «الشَّقْلَبَةِ» الكائنة، الفانية:- هذه الأبديّة من الزّمن «الجَّقْلاب»!

تخيّلت سوسن- وهي وحيدةً في حجرتها النّائية عن هذه الثّرثرة الرّاشقة لها بصورِ أحلامٍ أُولى عنها تستَبِدُّ بذلكَ الشّارد الشّعور- الطِّينَ اللّيّنَ الرّماديَّ الغامقَ بفعلِ امتزاجِ الماءِ به وتخَلُّلِهِ لعروقِهِ وأنسجتِهِ المسقِيّة بحياةِ دودٍ و«صَرَاقِيْلٍ» مُزبدةً دوماً باللّزوجةِ الحسيّةِ القديمةِ ذاتِها، الكونيّةِ الهيُوليّةِ ذاتها:- صنعت سوسن في

خيالها من كلِّ هذا بيتاً ذا أرضيّةٍ مكسيّةٍ برملٍ ناعمٍ أخّاذِ الفَضَّةِ يزدهرُ بتلقائيّةٍ نافذةٍ على شواطئ قرى النيل الأبيضِ الشّرقيّةِ القديمةِ الأسماءِ والأرواحِ والنَّفَسْ.

كان ذلكَ البيت معلّقاً على رأسِ جبلٍ مُعْشِبٍ بخُضرةٍ ريفيّةٍ عفويّةٍ، نائياً عن العمارةِ ومُرتَمِيَةً صورتُهُ (ظلُّهُ، توأمُهُ) على رمالِ شاطئٍ نُهيرٍ يخترقُها في القلبِ تماماً مُنْدِياً لها بماءٍ معينٍ منه نما النّبتُ واخضرَّ على هامةِ البيتِ مُكَلِّلاً لها بتاجِ ملكيَّةٍ ذاتِ ضفائرٍ؛ مَلَكِيَّةٌ مُضادَّةٌ لأيِّ مجدٍ من الضِّرابِ والجّوهرِ- الطِّعانِ وإنعامِ الخزِّ، الدِّيباجِ ولمعةِ الإيواناتِ المُذَهَّبَةِ؛ بسيطةٌ كاملةٌ لا تَوَثُّبَ من طِماحٍ وزهوٍ فِرُوسيٍّ يُكدِّرُ سماحَها أو «يكسِرُ» قُوَّةَ طاعتها الأصيلة والمُنسجِمة مع ذاته وكونها الأوّل الفصيح النَّغم والحياة. ثمّ كان ذلكَ البيتُ أيضاً يُمازِجُ في تكوينه مناخ الجّبلِ بجلالهِ المهيب الحضور ومناخ السّهل بامتداده القلبِيِّ المطروح- هناك مفتوحاً على الأُفُقِ في طلاقةٍ سهلةٍ وحرَّةٍ من قلقِ المسافاتِ الذي «حُتِّمَ» على الإنسانِ أن يُجَرِّبَهُ عناءاً ووصباً نفسياً باطناً مُخَرْبِشَاً له بأظفارِ رغبةٍ لا إرواءَ لِعَطَشِها للسّيطرة والحكم، التّفسير والاستهلاك. الرّملُ قُلتُ كان فارشاً لأرضِ ذلكَ المنزل:- رملُ سهليٌّ كذلكَ الذي يزدهرُ بتلقائيّةٍ على شواطئِ قُرى النيل الأبيضِ الشّرقيّةِ القديمةِ الأسماء والأرواح والنَّفَسِ. كيف اجتمعَ جبلٌ وسهلٌ ورملٌ نهريٌّ قرويٌّ كهذا في الصّورةِ «المُهَوِّدَةِ» لذلك البيت؟ هذا سؤالٌ لا تُجيبُ تهيُّؤاتُ روح سوسن عليه بشيءٍ سوى ضحكٍ غريزيٍّ صافٍ وممتلئٍ بذاتهِ حتّى الشَّرَقِ بالدَّمعِ والذِّكَرياتِ، الرّحيلِ واتّحادِ الأمداءِ والمشاهد جميعاً في لونٍ مُفردٍ

صافٍ لا اسمَ لهُ سواه.

خرجت سوسن من حجرتها «الحقيقيّةِ» في بيتِ آلها «الحقيقيّ» في الصباح التالي لهذه التّهيُّؤات إلى الشّارعِ حيثُ الدّوابِ والهوامِ والرّياحِ في مرحها المُشاغبِ تجعَلُ لأجسادها وأثيرِها «ذلك ما هو للرّيحِ واللاّ مرئيِّ من الهوام» ضجّةً خاصّةً ورائحةً خاصّةً يمتزِجُ فيها فوحُ النِّفتالين والمسكِ والدّمِ الجّافِّ والقشِّ والبالوعاتِ الملتمعُ ماؤُها النّفّاذُ بعفونةٍ حيّةٍ جاذبةٍ ومُنَفِّرَةٍ معاً. تلكَ حركةٌ وحياةٌ مُختَرَقَةٌ بالموتِ العنيفِ الخاطِفِ كالهمُودِ المُفاجئ لدوّامةِ إعصارٍ أو بخُورِ جنِّيٍّ أوقده وأطفأه بغتَةً في خفاءِ الهواءِ النّحيل. كان ثوبُ سوسن يتمرجحُ بلامُبَالاةٍ أليفةٍ ومُتَفَهِّمَةٍ على مَلاءَةِ ذلكَ الهواء المُبَخَّرَةِ بأنفاسِ الحَيَوَاتِ من النّاسِ والحيواناتِ من حشراتٍ طنّانةٍ وخيولٍ تَجُرُّ عرباتها الخشبيّة العتيقة وحميرٌ يُسخِّرُها باعةُ المياه في ذلكَ الحيِّ الجّديدِ والنّائي من المدينةِ لاصطيادِ أرزاقهم الشّحيحة من بين فكّي أسدِ الحادثاتِ الجّاريَةِ في رتابةٍ لا تعي ما هي فاعلةً بأرواحِ النّازلينَ عليها. ضحكت بمرحٍ حزينٍ إذ رأت بائعةَ الشّاي تُجاهدُ كي تُبقِي على نارِ شايِ الصّباحِ- المُوقدة في شارعٍ جانبيٍّ مُزْدَهٍ بصيحاتِ قُمْرِيَّةٍ على شجرةٍ عجوزٍ حكيمةٍ- حيّةً وَسَطَ ذرّاتِ غُبارٍ لا تكِفُّ عن لطمها بجُرْأَةٍ لاهيَةٍ. ناح بوقُ عربةِ كومرٍ قديمةٍ تتدحرجُ ببطءٍ على تُرابِ ذلكَ الزُّقاقِ فجفلت القُمرِيّةُ على الشجرة العتيقة وطارت بأجنحةٍ كَسْلَى إلى حائطِ بيتِ طينٍ خَرِبٍ لا تُؤنِسُهُ أيُّ حيواتٍ بشريّة. شمّت سوسن، بحنينٍ عميق الجّذور، رائحةَ عطرِ «بِنْتِ السّودانِ» من المكانِ الذي أَنِسَتْ إليهِ القُمْرِيَّة من ذلك الحائط. ومن جوفِ الرائحةِ

سال جـدولٌ مـن الطَّمـي والقَـشِّ النَّهْـرِيِّ الخفيـف «أُمْ صُوْفَـة وغيرُهـا مـن أعشـابٍ نيليّـةٍ تنمـو عـلى جـذعِ المـاء» وواتتهـا ذكريـاتٌ قديمـةٌ أطـلَّ في عُمْقِهـا وجـهُ ذلـكَ الشّـاب- ذلـكَ الحالِـمُ الـذي التقتْـهُ في رحلـةٍ عابـرةٍ ذاتَ يـومٍ مشـهود.

انتبهـت الفتـاةُ الهائمـةُ بأغنـامِ إبليـسِ الذّكريـاتِ عـلى أصـواتٍ ورُشـاشٍ دقيـقٍ يتناثـرُ مُغَمْغِـمَاً عـلى الهـواءِ مـن أفـواهٍ تقـفُ عـلى مُرونـةِ أجسـادٍ راكضـةٍ بقلـقٍ مُجَعَّـدِ الجَّبْهَـةِ إلى حيـثُ يَفْلِـقُ السّـكونَ هديـرُ ماكينـةٍ مُدَرْوِشَـةِ الصَّـوتِ تجُـرُّ وراءهـا جسـداً معدنيـاً صـدئَ الزُّرقـةِ لبـصٍّ شـيخٍ مُصـابٍ بـدرنٍ رئـوِيٍّ مزمـن. سـعلت سوسـن لا إراديـاً مـا أنَ واجـه أنفُهـا مُكْرَهـاً دخانَـاً كثيفـاً تصاعـدَ وراء البـصِّ الشّـيخ مُخلِّفـاً ذيـولاً طويلـةً مُلتويـَةً شـبيهةً بتلـكَ التـي يتنفَّسُـهَا كـومٌ كبـيرٌ مـن أوراقٍ عتيقـةٍ حُرِقَـتْ لِتَوِّهـا. التـوى أحـدُ أصابـعِ قدمهـا اليُمنـى فجـأةً وهـي صاعـدةً إلى جـوفِ البـصِّ المتنفّـسِ بوخـاً بشريـاً وشـيئاً مـن روائـحٍ أخـرى تـتراوح بـينَ المُلُوحـةِ الخفيفـةِ لتسـالٍ قُـشِّرَ لتَـوِّهِ وقُـذِفَ بـه بإهـمالٍ مـن نافـذةِ البـصِّ، النّفـاذ الطّبيعـيّ المثـير، بخـوفٍ غريـزيٍّ، لجسـدِ أُنثـى يتنهَّـدُ بإيماءاتِـهِ المكتومـة (ذلـكَ الرّقـصُ أو التّابُـو اللّيـليّ، المـاء الخصـب أو، فقـط، الغابـة!)، ثـمّ هـواء التّلَهُّـف عـلى الأفـواه وأعضـاء الجّسـد لوصـولٍ مـا، غايـةٍ مـا وراحـةٍ ليسـت لا قـرارَ لهـا بـل مُسـوَّرَةً رُغْـمَاً عنهـا بزمـنٍ ومـكانٍ، بسـاعةٍ مـا وألفـةٍ مـا. تشـمّمت كلَّ ذلـكَ بتسـامحٍ طيّـبٍ في الوجـهِ والعيـونِ ورجفـةٍ خفيفـةٍ طوعيّـةٍ في الشِّـفاه. إنّهـا ذاهبـةٌ للسُّـوقِ، لحياتِـه، لنُحاسِـهِ المـضروبِ دومـاً عـلى أيـدٍ خَفِيَّـةٍ تجـرُّ خيُوطَهـا المعدنيّـة الشَّـفَّافة حـدَّ العـدم، حـدَّ الهـواء، مـن خلـلِ أجسـادِ، قلـوبِ وعصـبِ كائنـاتِ ذلـك المـكان

الأجّـاجْ- خصوصاً حناجرهـم! تمْتَمَـتْ لكُمسـارِيٍّ البـصِّ بجُملَـةٍ مـن أُغنيـةٍ ركيكـةٍ دون أن تعـي بذلـكَ وهـي تدفـع بالنقـودِ ببـطءٍ لا يُشـبِهُهَا البتَّـة إلى داخـلِ يـدِهِ الممـدودة إليهـا بمهـارةِ صائـدِ أسـماكٍ عجـوز. ضحـكَ الكُمسـاريُّ ولولـبَ طريقَـهُ وسـطَ الأجسـاد اللاهثـة بالسّـعيِ، التّأَلُّـقِ المُفاجـئِ والصّمـتِ، إلى حيـثُ صـفٍّ آخـرٍ مـن مقاعِـدِ الرّاكبـين. لوهلتـين صمتـت سوسـن والتفتـت بغتـةً نحـو بـاب البـصِّ، نحـو الخـارج حيـثُ اصطدمـت نظرتُهـا اتِّفاقـاً بوجـهٍ شـاحبٍ أليـف. كان الوجـهُ يحمـلُ جسـداً ممتلئـاً ليـس لحـدِّ البَطَـرِ بـل لحـدٍّ يخلِـقُ انطباعـاً غامضـاً بكـرمِ العـرقِ، النُّبْـلِ الأخلاقـيِّ دون مجـدٍ أو ثـروةٍ. ذلـكَ مـا يَشْـعُرُهُ النَّاظِـرُ الجّديـد إليـهِ إذ أنّـهُ سرعـانَ مـا يتبـدّد مُزَّقَـاً مـن ريـحٍ ضائعـةٍ حـين تسـديد كـرة البـصر الثانيـة:- شيءٌ مـن الجّـاز ورائحـةٌ بخـورٍ غريـبٍ تفـوحُ مـن وجـهِ ذلـكَ المـرئيِّ وبالأخـصِّ مـن عينيـه السّـاهمتين؛ تلـكَ هـي حقيقتـه المُخيبـة حتـماً لآمـالِ كلِّ شـخصٍ ليـس لـه سـوى إدلاجـاً يوميـاً في المعـاشِ ولا معـاد. لكنّـه هـو ذاتُـهُ لـه نظـرةٌ أُخـرى إلى نفسِـهِ إذ أنّـهُ يُوغِـلُ في توهُّـمِ ذلـكَ الـشَّيءِ الأخـيرِ عنـهُ إلى درجـاتٍ مـن الشّـكِّ والكآبـةِ الحيّـةِ المازجـةِ حنينـاً غامضـاً وحـيرةً فيـما يُمكـنُ أن يفعلَـهُ بحياتـه برعشـاتِ طـربٍ قصـيرةٍ وغامضـةٍ تبعثُهـا- غالبـاً- الموسـيقى والقـراءة- رُبَّمـا!- فيـه. تعرّفـت سوسـن في الوجـه عـلى شـخصِ مجـذوب، مجـذوب الطيِّـب، لكنهـا لم تتيقّـن تمامـاً مـن ذلـكَ إذ تدحـرجَ هيكلُـهُ إلى الخلـفِ بغتـةً حينـما أسرع البـصُّ مـن حركتـه الصّاعـدةِ نحـو المحطّـة الأخـيرة، إلى السّـوقِ وحياتـه الفائـرة بأقنعـةِ «مايـا» السّـعيِ وسـياطِ الرِّغـابِ المُزْبِـدَةِ أفعـالاً، كلـماتٍ، سـلاماً، تحايـا عابـرة، أزيـاءاً، ارتجافـاتَ واضطِّـرابَ أجسـادٍ تترنّـحُ في معمعـةِ دنيـا مُعلَّقَـةٍ عـلى حبـلِ مصـيرٍ ليـس لنـا سـوى أن نتحسّـسَ

اتّجاهَـهُ فينـا بغريـزةٍ قديمةٍ-جديـدةٍ هـي «العيـش».

سـارت سوسـن ضاحكـةً، باسـمةً وهيِّنَـةً كـما هـي دومـاً، إلى قلـبِ ذلـكَ المجـالِ الصَّخّـاب. عـادت إليهـا لوهلـةٍ في الخيـالِ صـورةُ ذلـك «الولـد» وتلـكَ الرّحلـة البعيـدة ثـمّ رؤيتهـا الخاطفـة لـذاتِ انطبـاعِ وجهِـهِ الـذي التقتْـهُ بـه آنـذاكَ- ثـمّ مـرّةً بعـدَ ذلـك في الجّامعـة- وقـد «حُـشِرَ» لهـا كُلُّ هـذا في الفنـاءِ الرَّمـليِّ لأرضِيَّـةِ البيـتِ الـذي حَلُمَـتْ بحقيقتِـهِ في الليلـةِ الماضيـةِ. أطرقـت إلى الأرض فلمحـت حصـاةً صغـيرةً تتدحـرج مـن «بُـوزِ» حذائهـا إلى ظـلٍّ وحائـطٍ قريـبٍ ثـمّ تسـترخي بـاردةً هنـاك ومرخيّـةَ الأُذن لأصـواتِ الظّهـيرةِ وحياتهـا الأخـرى الجّائشـة في الطبيعـةِ والتِـماعِ الطّـيرِ بالعـرقِ والوشوشـةِ النّاعسـةِ التّعِبَـة لقيلولـةِ أُنسـه عـلى شجرِ نيـمِ شـارعِ المجلـسِ البلديِّ، مصلحـةِ المسـاحةِ والمحكمـة الأهليّـة. تمنّـت راحـةَ تلـكَ الحصـاة للحظـةٍ لكنّهـا سرعـان مـا قذفـت بذلـكَ المُنـى بعيـداً في وسـط الغبـار الواقعـيّ الـذي يتناثـر عـلى حـوافِّ إسـفلتِ «شـارعِ الدِّويـمِ» المهـترئ الـذي عبرتـه الآن إلى «ميـدانِ الحريّـةِ» وهـي عائـدةً مـن شـأنٍ صغـيرٍ اسـتفسرت عنـهُ مـن أحـدِ معارفهـا مـن ضبّـاطِ المجلـسِ اللاّمعـين بياقاتهـم المنشـاة، أزرارهـم الفضِّيّـة وسـلطة ردائهـم الوقـور عـلى بُسـطاء النـاس ومسـاكينهم. تنهـدت نفسـاً قصـيراً إذ تخطّـت سـوق الجّلـود وروائحـه النّفّـاذة الممزوجـة بهـواءٍ منفـوخٍ بالنُّكريـن، الغِـراء ونكهـةِ كعـوبِ أحذيـةٍ جلديّـةٍ وقوالـبِ خشـبٍ مُنـشَّرَةٍ عـلى الممـرّات بـين أكشـاكِ بيـعِ الأحذيـةِ المحلّيّـة المنتـشرة في خـطٍّ ليـس يبعـد عـن سـوقِ الجِّلـودِ سـوى يـارداتٍ قليلـةٍ. إلتفتـت ببداهـةٍ إلى الـوراء بانحنـاءةٍ خفيفـةٍ للجّانـب الأيمـن مـن جسـدها القصـير الرّشـيق

الضّاحك سماحاً وإلفةً ماكرةً إذ سمعت هدير ماكينة لوري سفري وهو يعبر مُتراخي الحركةِ إلى طرفِ «ميدانِ الحرِّيّةِ» الشّماليِّ حيثُ ستقفزُ منهُ بجَلَبَةٍ بدويّةٍ عمائمٌ شتّى تزخمُ الهواء بلغطها وصليلِ سيوفِ سعيها الخشن إلى لقمةٍ سريعةٍ وعابرةٍ في مطعمٍ عتيقِ البناءِ والرّائحةِ ليس له- كالعادة- سوى اسمٌ موغلٌ في تهكُّمِهِ مثلُ «أضواء المدينة»، «إشراقة الصّباح»، «الجّندول» والذي منه من عناوينٍ ناعمةٍ وبسكويتِيّة! انطلقت ضحكةٌ خشنةٌ وقويّة السّاعدين كفلاحة كُردُفانِيّة في الثلاثين من العمر وراءها ولكن ما أن أرسلت نظرةً جانبيّةً بطيئةً، مُدَلّلَةً ومُنذِرَةً في ذاتِ الحين حتى خفتت الضحكة تدريجياً وانسحبت إلى الهواء، إلى الفراغ بأعلى الأشجار حيثُ أفزعت طائراً خفيف القلب وقد كان سادراً، كأنّما هو على سفرٍ لا مُنتَهى له، بين غُصنٍ وآخرٍ فطار في صَفْقَةِ جناحٍ واحدةٍ إلى جوفِ السّماء الزّرقاء الشّرقيّ حيثُ ستطلعُ الشّمسُ غداً كبيرةً وخاطفةَ لونين بُرتقاليٍّ وبَمْبِيٍّ فوقَ رأسِ كلِّ من يرى الأشياءَ حسّاً وعياناً – ذاكَ يُكفيها ولا أملَ لها، في الزّمنِ «الدَّوَابَارِيِّ» الذي نتنفّسُهُ الآن قرناً فقرناً منذُ أن فقدت الأرضُ رائحتها الأُنثويّة الأولى، في أن يُسخّرَ لها قلبٌ «يُلقِي السّمعَ وهو شهيدْ».

في مرأى بصر سوسن الآن بِرُوْشٌ وكُشكٌ يُباعُ فيه شاي اللبن حين يَهْلَكُ العصرُ ويدُسُّ النّسيمُ روحه في الشّمسِ الغاربةِ فيرتدُّ طمياً حيّاً:- تلكَ حياةُ دعاشِ المغارب الكوستاويّة في الخريف أو في الصيف الذي ارتوى عطشُهُ بماءِ الغروبِ آخراً!! الآن الوقتُ نهارٌ وذلك المكان سامهُ الذّبابُ خسفاً وخلا إلاّ من رمادِ كانُونٍ ميِّتِ الفحمِ وفي حالِ كونِه منتظِراً- ضَجِراً؟! ملُولاً؟! أم جامعاً

نفسَـهُ خيبـةً ولهفـةً معـاً؟! إلى ذلـكَ المـكانِ سـيروحُ مجـذوب الطيـب وصديقُـهُ منصـور حيـثُ سـيجدُ الأخـيرُ قلبَـهُ فجـأةً بَوَّابَـةَ أغصـانِ حنَّـةٍ مفتُوحـةٍ عـلى عينـيِّ مجـذوب الطيباالملتمعتـين بـسِرِّ خُطـى سوسـن قُربَـهُ ذلـك النّهـار. إنّ هـذا حتـماً لفـي الوعـدِ لهـما حينـما يحـلُّ عـلى الأرضِ ضيـفُ المسـاء.

حـلَّ عـلى الأرضِ ضيـفُ المسـاء لكـن الـرُّوح كانـت، في ذلـكَ اليـوم، عـلى غـيرِ مـا رام حسُّـها التّلقـائيُّ، مُشوَّشَـةً حزينـةً رُغـمَ بقيّـةِ خـبرةِ نشـوةِ خُطـى سوسـن النِّهاريّـة تلـكَ قـربَ المـكان ذاك. راوح الصديقـان ذهابـاً أوّلاً، ثـمّ جيئـةً ثانيـةً، إلى ومـن شـايِ «كانُـونِ» ذلـك المُلتقـى والـذي شـالَ رمـادُهُ الآنَ نـاراً حيّـةً وبَوْخَـاً خفيفـاً (أي ليـس «طَابِقَـاً» كذلـكَ الـذي وصفَـهُ شـاعرُ الحَقِيْبَـةِ العتيقِـيِّ) انثـال مـن مـا عـلاه مـن كَفَتَـيْرَةٍ مُسْـوَدَّةٍ، لكنّهـا حميمـة وأليفـة كرائحـةِ أجسـادِ مـواشٍ في شَـوْفِ راعِ مـواشٍ وليـس في شَـوفِ تاجرهـا. هـما قـد جلسـا سـويّاً الآن- مجـذوب الطيـب ومنصـور- وبينهـما كوبـا شـايٍ طويـلان وعريضـان يتلمَّظَانَهُـمَا بسـأمٍ مُشـتَهٍ وكأنَّ لا حـدَّ للحظتِهِـما معهـما سـوى سـقفِ انتظارهِـما إلى أن «يتـلاشى» الشّـاي فيهـما كأنَّمـا بقُـوّةِ دفعِـةِ الخاصّـة وليـس باختِيارِهِـما «الشّـافِطِ» لـه.

آهِ لو كنتَ معي نختالُ عبره

في شراعٍ تسبحُ الأنجُمُ إثره

حيثُ يروي الموجُ للشّاطئَ سرّه

حُلْـمُ ليـلٍ مـن ليـالي كليُوباتـرة ... كيلوباتـرة .. كيلوباتـرة ... كيلُوباتـرة .. كيلوُباتـرة ..... أيُّ .. الـخ .. الـخ .....

هكـذا مـضي الكابـلِيُّ يُغنّـي- صاقـلاً بصِنْعَـةٍ أنيقـة التَّثَقُّـف- أُغنيـة «الجّنـدول» بلحنهـا الابنِ شـاطئي

[نسـبة إلى الفنـان السـوداني عبـد الرحمـن بشـير «ابـنَ الشّـاطئ» والـذي تغنّـى بهـذه الأُغنيـة قديمـاً في الخمسـينات وسـجّلها في الإذاعـة السّـودانيّة] ذاتـه وبـلا تنويـعٍ عليـهِ سـوى بُطئـاً مدنيّـاً مُحَـكَّكاً أحبّـهُ فيـهِ البعـضُ ولا يزالـون. حـين بلـغ دندنـة كيلوباتـرة كيلوباتـرة... كيلوباتـرة.. كيلوباتـرة... ودخـلَ في «أيُّ ....» انعطفـت العربـةُ الصّالـون الحاملـة لأُغنيتـهِ في جهـازِ تسـجيلها شـمالاً عـلى حـينِ غـرّةٍ كاشـفةً، عنـد امتـزاجِ ضوئهـا الأمامـيّ بالنّـورِ الكاشـفِ لمنحنـى الشّـارعِ الـذي صـادفَ أن «وَقَـعَ» آنـذاكَ تمامـاً عـلى وجـهِ السّـائق، عـن هيئـةِ رجُـلٍ أو، بالأحـرى، طـرفِ عُمَامَـةِ رجـلٍ معـاً وجبينـه الوجيـه اللاّمـع الواسـع وعينيـهِ اللّتـين كأنّهـما- وإن لم تعِيَـا- كانتـا مؤتلقتـين دومـاً بكـثرةِ التَّمَثّـلِ ببيتـي شـعرِ لُبَيْـد بـن ربيعـة العامِـرِيِّ القائلـين:-

وإن تسـألوني عـن النّسـاءِ فـإنّي ... خبـيرٌ بـأدواءِ النِّسـاءِ طبيـبُ
إن شـابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُـهُ ... فـما لـهُ في وُدِّهِـنَّ نصيـبُ

انثنـت العربـةُ خاطفـةً نحـو دربٍ طينـيٍّ ضيِّـقٍ كَزُقَـاقِ بيـوتِ «عَرَقِـي» أُخفِيَـتْ عـن أنظـارِ أصحـابِ

«الفضيلَـةِ الباهِتَـةِ» المُتجَمِّـرة بغيظهـا «الأُخـروِيِّ» القـاسي العينـين والقلـب........ و..............

«كان الفحـمُ يلتَمِـعُ تحـتَ ضـوءِ الشّـمسِ القـويِّ إذ هـو يتناثـرُ مـن بـينَ ثقـوبِ جَوَّالاتِـهِ المثقوبـةِ المترادفـة في مخـزنٍ بالعـراء في تلـكَ الجِّهـةِ القريبـةِ مـن شـاطئ النّيـل الأبيـض بمدينـة كوسـتي. ميزانُـهُ،

حينَ يُسَوِّيه حاج أَبَّكَرْ بيديهِ مُمَهِّداً لبيعِ زِنَةِ كيلُوَّين فحماً للصبيِّ مجذوب- الذي يتراءى خيالُهُ الآن مُغَيِّماً ومُرتَجِفاً كموج سرابٍ في أُفُقِ صيفِ قريةٍ نيليّةٍ و«حسَّانِيَّةٍ» أليفةِ القِدَمِ و«التَّخَلُّفِ»، كان يترجرجُ تحت الشّمس كأسنانِ مِنشارٍ ضوئيٍّ مُتطايرةً في فضاءِ المزارع المجاورة...»... تلفّحَتْ هذه الجُزئيّة، التي هي بلا معنىً إن صُفّت في إطارِ عودةِ مجذوب الطيب وصاحبه منصور من لقائهما «الشَّايِيِّ» [من «شاي»] الذي خُتِمَت إلفتُهِ قبلَ لحظتين من الزّمان، شعورَ مجذوب الطيب بالضّبط في اللحظةِ التي كان فيها منصور يُحاوِلُ «اسْتِمْخَاخَ» العَطَنِ الأخيرِ اللّذيذِ لِتُمْبَاكِهِ قبل أن يقذفهُ بعيداً عن أسفلِ شفتهِ وفي غُبارِ المدخَلِ الذي يلي السّوق من شارع «آلِ فرح» أصحابَ «النَّوبَةِ القَادِريّةِ» العريقين في ذلكَ الجُزءِ من حيِّ «العُراقَابِ» الذي كان يسكنُ فيه مجذوب.

6

مساءُ الشّاي مع صاحبه منصور في يومِ «ذكرى» خُطى سوسن قربَ مُستَكَانِ شاي الصديقينِ المسائيّ هو ذاتُ المساء الذي انثنت فيه يداهُ كاتِبَتَين رسالةً مِلَهْوِجَةٍ ولاهجةٍ بكلامٍ عفويٍّ خُطَّ بالأخضرِ المُتَعَثّرِ والمُرتجفِ- قليلاً- بما يُشبِهُ الهوى أو بانثيالِ ألوانِ رسّامٍ تنزانيٍّ مُفْعَمٍ بالغابةِ، لهوِ القَرَدَةِ الخَليِّ أو- فقط- بالطّمْي والماء...! عند انفضاضِ الكلامِ عن نفسِهِ ألصقَ- اتِّفاقاً- ورقةً أُخرى أو ورقتين، خلفَ ورقة الرسالة المُفردة، بها (بهما) قصيدةً أو قصيدتين- لا يذكُرُ الآنَ «عِدَادَ» ذلك- ثمَّ كَرْفَسَ جَمْعَ الورقِ بعنايةٍ ودودةٍ داخلَ ظَرْفٍ ليس فيه- لحُسْنِ الحظِّ!- شُبْهَةَ ابتِداعٍ، أناقةٍ أو تَفَنُّنٍ.

كان ذلك في ليلةِ «وَقْفَةِ» عيدِ الفطرِ المُبارك. ويذكرُ مجذوب الطيبأنّ أكشاكِ بيع الملابسِ الجاهزة والخُردُواتِ والعطور والزّيناتِ المنزليّةِ الصغيرةِ، الحُلي النحاسيّة، الفضيّة، المعدنيّة وكلّ «بهاراتِ» الفقراء الجّماليّة كانت آنذاكَ على هَيْلَمانٍ و»زيطٍ وزمبريطٍ» شديد. ثمةُ، كذلكَ، باعةٌ منتشرون على الأرضِ بلا ساترٍ لبضائعهم «المُنْبهِلَةِ» عن تُرابِ الأرضِ والخلقِ سوى ملاءاتٍ، أو بعضِ مُشمَّعاتٍ، مُلوَّنةٍ منشورةً، طوليّاً، على جانبيٍّ شوارعٍ منها ما هو مُسَفْلتٌ وما هو غيرُ مُسَفْلت. حيثُ كانت الشّوارعُ مُسَفْلتَةً

كان المرءُ لا يفـرزُ بـين النـاس والعربـات إذ يتزاحمـون معـاً وتتـمازجُ أصواتهـم الآليّـة والإنسـانيّة معـاً في سـيمفونيّةٍ رعويّـةٍ- مدنِيّـةٍ عـلى الشّريـطِ- المعـبرِ الضيِّـقِ اللاّمـعِ، فيـما بـين أضـواءِ السّـوقِ والبيـعِ، بالسّـوادِ العتيـقِ، كـما والمُدْلَهَـمِّ أيضاً بالـ...حُفَـر! أحيانـاً كانـت تـواتي الواحـدُ منهـم، فجـأةً، رغبـةً في الـشِّراء كـما الحاجـةِ في التَّبَـوُّل فيُفـرغُ «مثانـة» نقـوده الخشـنة في أيـدي باعـةٍ سريعـي البديهـة الماكـرة والنّكتـةِ الشِّرائيّـةِ الماهـرة. آنمـا يفعـل ذاك البـشريُّ مـا فعـل كان يحـسُّ بنفسـه مُفرغَـاً مـن الرَّغبـات، لا كقدِّيـسٍ حُـرِّرَ مـن قيـدِ مـا قـد كان يمتلكـه يمينُـه (ويسـارُهُ أيضـاً!) بـل كشـاربِ قهـوةٍ مسـائيّةٍ عجـوزٍ تمازجـت في خيالـه صـورٌ يتداخـلُ فيهـا حـسُّ حريّـةٍ خفيفـةٍ لطيفـةٍ مـع حـسِّ خُسـارةٍ غليـظٍ الطَّبـع واليديـن. توقّـف مجـذوب، بـلا علَّـةٍ ظاهـرةٍ، عنـد غرابـة حلـول كلمـة «اليديـن» في هـذا السِّـياق وقـال لنفسـه إنّهـا ربمـا كانـت «نافـرةً» عـلى نحـو غامـضٍ مـا عـن كنـه مـا قـد يعنيـه كلُّ هـذا الـكلام «المِهَـتْرِش». لكنّـه انـصرف، بحيلـةٍ ذهنيّـةٍ عفويـةٍ، عنهـا إلى مـا لا يُشـبهُ في شيءٍ شـأنَ ورودهـا هنـا وسرح في تهاويـل رسـومٍ سـايكو-روحيةٍ عتيقـةٍ عـن الكتابـة، الـرّوح، الجّسـد، البـلى، الأزل ومـا لـفَّ لَـفَّ ذلـك مـن تهويمـات المجانـين والشـعراء. ثـمَّ ردّه ذلـك إلى أرضِ رسـالته التـي كتبهـا، ذاكَ المسـاء، إلى سوسـن.

فكّـر مجـذوب، برهـةً، في كـون أنـه قـد يهـدي، في مسـتقبلٍ أليـفٍ مـا، شـيئاً صغـيراً وعاطفيـاً لسوسـن. ربمـا يكـون ذلـك حقيبـةً يـدٍ عـلى تلـك الهيئـة التـي يقـول عنهـا، مازحـاً، أنهـا شـبيهة بمجلّـة **الدَّوحـة** القطريـة أو سلسـلةَ مفاتيـح سـاذجة منحوتـاً عليهـا حـرف السّـين أو أيّ شيء عامّـيٍّ أخـر مـما يهديـه بسـيطو القلـوب إلى مـن يحبّـون. وربمـا

تمنى هو، بسذاجةٍ سرِّيّةٍ حلوةٍ، أن تهديه هي، لو كان العصر سابقاً لزمان مناديل الورق وأدوات البلاستيك المُمَكنَنَة، منديلاً مُطرَّزاً بيديها، حريرياً أبيضاً و«مَشْغُوْلاً» بِقَطِيْفَةٍ- تماماً كذلك الذي غنى له سيّد خليفة قديماً بشعورٍ طربٍ جيّاش. ثم صرف ذلك التفكير عن نفسه، في البرهة اللاحقة لتلك، حينما تذكر أنّ لسوسن- على ضحكها اللعوب وانسياب حركة هيئتها الإنسانيّة على نحوٍ ينطوي على طيبةٍ بلديَّةٍ عريقة- جانباً آخراً «ذهنانياً»، أو لا طبيعياً، فيها تحاول هي أن تصقله بدراساتها الأدبية ومغامراتها، أو بالأحرى استكشافاتها، السِّياسيّة الأريبة أو التي تبدو «أريبة». فذاكَ الجانبُ الأخير لا يتناغم، في خياله الغريب، وصورة هدايا ساذجة وذات رومانسيّة مدنية كتلك التي هوّمت في تصوُّرها نفسه في البرهة السابقة. أها ... هو الآن كان عند الرُّكن الذي يبدأ عنده شارع الدِّويم حينما يتجه نحو «الحلّة الجّديدة» وتبدّت له «ثلاجة الموز» العتيقة مظللةً بضوءٍ شاحبٍ منعكسٍ عليها من عربة «الباسطة» المجاورة. حيا شبح الإنسان الذي كان واقفاً وراءها بكلمةٍ منغّمةٍ مطوّلةٍ وعالية الترجيع ما زاد عليها شيئاً من اللوازم الاجتماعية الموروثة:- بلاّ ....ل. ثم تفنّن، من بعد ذلك، في قلب استعمالات الكلام اليومي للناس بإظهاره مثل «هَبْلَسَاتٍ» لا متوافقة وأحايين قولها العادية وأهدى ذلك كلّه، أيضاً، للبائع البشوش بَلال. رد بلاّل عليه سلامه المُخالفَ ذاك دون أن يستغرب مفرداته «المُهَتْرِشَة» تلك (آن ما بدأ رده عليه كان صاحب «الباسطة» يُناوِلُ، بشبح يده اليمنى، زبوناً ما زنة كِيلُوَّينَ من الباسطة. وآن ما انتهى منه كانت يده تدخل في جيبه، بلا اكتراثٍ محبَّبٍ، ما حشره الآخرُ فيها من نقود).

ومـا أن تجـاوز «طبليّـة» بَـلاّل الأليفـة حتـى وقعـت عينـا مجـذوب، للحظـةٍ خاطفـةٍ، عـلى عينـي سـيّدةٍ ناضجـةٍ مليحـةٍ وذاتِ طلعـةٍ مدنيّةٍ باذخـةٍ؛ أنيقـةً مُدجَّجَـةً بالملابـس والزينـات تمهّلـت بحنـانٍ صديـقٍ- ويـا للغرابـة!- أمـام وجهـه المهـوّش المحيّـا والتفاصيـل، ثـم التفتـت بعيـداً، متأوِّهـةً في تـوقٍ نسـائيٍّ عميـق. لعلّهـا رأت فيـه وتمنّـت صـورةً تحتانيّـةً أخـرى لـه- ولهـا؟- بهُتـت آنـذاك ثـمّ عـادت، مـن بعـد حـينٍ، إلى الحيـاة عـلى أيـام رفقتـه لأولادٍ وبنـاتٍ مثـل ذاك «الرّيحـاني» الخـرافي الغائـب وأبي ربيـع، ثـمَّ أسـماء ومُوازياتهـا مـن البنـات الـلاتي كـنَّ- ومـا يزلـن، بمعنـىً كينـونيٍّ مـا- قائمـاتٍ فيـه عـلى هيئـةٍ تَفَلْسَـفَ هـو، زمانـاً، في تسـميتها بمسـتوى «ياريـت أحبِّـكْ» [و تلـك هـي أغنيـة للسـودانيِّ الطـروب محمـد حسـنين أبـو سريـع]، ثـمّ يـأتي، مـن بعـد ذلـك، آخـرون مِـمَّا يـلي- مـن جهـة اللـه- الأُخـر والعامّـة.

كان قـد كتـب، في رسـالته لسوسـن، أنَّ عهـداً مـن الصداقـة، التـي ربمـا تنفتـح- مسـتقبلاً- عـلى غيرهـا مـن مشـاعرٍ ممكنـةٍ هـو كل مـا يريـده- ببسـاطةٍ- مـن حيـثُ هـي كائنـةً. كان ذلـك مبـاشراً وليـس فيـه أيُّ شيءٍ مـن حـسِّ التملُّـصِ والمـداورة المتوجِّسَـةَ مـن صـدٍّ قـاسٍ مـا الـذي كثـيراً مـا يكتنـفُ كتابـات الأولاد الأولى للبنـات. أمـا قصائـده المضمومـة هنـاك فـما كانـت سـوى «هذيانـات» كائـنٍ رأى في ذاتـه شـاعراً موجـوداً في طـرفِ نفـيٍ كان يتنامـى فيـه، وقتـذاكَ، رُويـداً رُويـدا. ذلكـم مـا كان يحـدث بـه نفسـه في آن رضائـه عنهـا، وهـو قليـلْ. أمـا في أحـوال سـخطه الكُثـيرة عـلى نفسـه فقـد كان لا شَـوفَ لـه في هاتيـك القصائـد سـوى أنهـا ليسـت متجـاوزة- إلاّ قليـلاً- كونهـا ثرثـرات شـفقة ذاتيـة وهلوسـات. عينـا المـرأة العابـرة الخاطفتـان

الحانَّتـان كانتـا، عـلى طريقـةٍ غامضـةٍ وناعمـةٍ مـا، تؤكّـدان لـه المعنيـين السـابقين في نفسـه (وفي قصائـده) وتفضحانهـما- ولـو لحظيّـاً فقـط. ذلكـم رغـم أن البقيّـةَ مـن روحهـا وجسـدها لا تبـدو مطلقـاً أنّ لهـا علاقـةَ، قريبـةَ أو بعيـدةَ مـا، بمـا هـو فيـه ومـا هـو عليـه مـن هيئـاتِ حيـاةٍ أو شـعور!

في صبـاح العيـد نهـض مجـذوب، بتثاقـلٍ، مـن سريـره في السادسـة صباحـاً، بالضّبـط، عـلى صـوتِ نَوْبَـةِ الأحمَدِيِّـين الرّانّـةَ الجَّانَّـةَ عنـد بـدء الشـارع الـذي يُكمـلُ رسـمَ جـزء الصّليـب الفوقَـانِي مـن ملتقـى الشـوارع الثلاثـة المتمثلـة في طـرفي شـارع بيـت آلـه الأيمـن والأيـسر وشـارع ثالـث نـازل إلى تحـت.

اشـتملت البيـت رائحـةُ كعـكٍ نفَّـاذة وبـوخ شـاي لـبنٍ صباحـيٍّ عتيـق. كانـت أمُّ مجـذوب الطيـب والبنـات منشـغلات في إعـداد الإفطـار وآنيـة تقديـم الكعـك والحلـوى للزّائريـن والمباركـين السّريعـي التمتمـة والهمهمـة بــ«كلّ عـامٍ وأنتـم بخير» و«كلُّ سـنة وانتـو طيبين» و«تعـود الأيّـام- بالصحّـة والسّـلام» وبقيـة هاتيـك اللّـوازم الاجتماعيـة طيبـة النوايـا. كان هـو يحـبُّ- بطفولـةٍ لا يخجـل منهـا- ترديـد أمثـال تلـك التّحيـات للنـاس بمناسـبة وبـلا مناسـبة، عيـداً كانـت الدّنيـا أم غـير عيـد. ثـمَّ هـو يحـبُّ كذلـك أن يتخلّـل أصـواتَ النـاس آنـاء أدائهـا صـوت المذيـاع وهـو يرجّـع صـدىً، بالعـودِ، لأغنيـاتٍ عيديّـاتٍ مثـل «ياعيـد تعـود يـا عيـد/ بالخـير علينـا جديـد». أمـا «خصـامُ العيـد» الـذي يقـول عنـه السـودانيُّ الشَّـجيُّ صـلاح مصطفـى إنّـه «حـرام» فـكان يترقَّـبُ أن يُحـدَّثَ عنـه في الظّهـيرة ومـا بعـد أن تسـتقرَّ «تَقَلِيَّـةُ» الإفطـار، التـي يكـون قـد اسـتمتع بهـا في ديـار جـيرانٍ مـا، في بطنـه

وتنساقُ مع عُصاراتها الباطنة، خليَّةً وسهلةً! آنذاك يكون صديقُ مجذوب الطيبالمسمّى، من قِبَلِ جدَّته، عبد العزيز «شيطان الفُودَة» قد لمَّ حلاوته وكعكه من بيوت الأقربين والصحاب وآب إلى سكنه وحجرته الطينية الحارة ذات الفُرَج الهوائية الصغيرة وراح يُجرِّبُ، بطفولةٍ معاندة، كتابة أشعارٍ عاميَّةٍ ما كان همه منها سوى أن تُلقى- بشغفٍ رومانسيٍّ شفّاف- على صديقين أحدهما هو مجذوب الطيب والآخر هو المغني و«سفينة التنقّل البديع»... أوه ذلك «الخضرُ» الطَّريف.......!

ضحكٌ انفجر في نفس مجذوب الطيب إذ تصور هيكله وابن الجيران- سيّدَ المزاج الأنيس- شمس الدين وهما يدخلان معاً إلى منزل عائلة سوسن- ذلك الكائن في الطّرف الشمالي الغربي من المدينة. ثمَّ لاحت له شمسٌ في ظلال بعض حناياه ورآها فيه شمس الدين، فيما بعد، بجلاء لم يملك معه إلا الابتسام بفهمٍ حنينٍ ورعشةٍ موحيةٍ في العينين. كان صديقُهُ تماماً في تلك الهنيهة- وما يزال (أين أنتَ منّي الآن يا شمس الدين؟ إنّي أودُّكَ بحرقةٍ غريبةٍ وطيبةٍ! هكذا قالت خواطر مجذوب الطيب في اللحظة التالية لكتابة هذا الكلام).

هتفت فيه إحدى البنات أن تعال وخُذِ الشاي. كان «كسرُ» الصِّيام ذاك لذيذاً إذ تمازج فيه طعمُ الكعك الفردوسي وهبابُ دخان الشاي إذ يتصاعد من الكوب مشوباً بنكهةِ لبنٍ نَيِّئٍ خفيفة.

كان شايُ ذلك العيد هو ما جسَّدَ، بانمشاجه في ارتجافه بالحلم بلقاء سوسن، ما كتبه مجذوب الطيب ذاتَ ذكرى واتته فيما بعد ذلك، بسنينٍ، حيثُ قال هناك:- **رائحةُ لبن شاي الصباح تُريحني**

كثيراً حينما تدخل في مشاعري .. تتهدهدُ حناياي بنعومةٍ كأنّني في حضرةِ فتاةٍ خجولةٍ .. أنظُرُ إلى المسافةِ الحنينةِ السَّاهمة أمامي بعينين مغرورقتين بالطِّيبة .. أخجلُ قليلاً إذ أكتشفُ في نفسي فرحاً طفلياً بالحياة .. «إنني يا «ندى» لستُ سوى شافعٍ يلهو بحصى الشَّواطئ التي لا تُداني إلا قليلاً وفي ليلةِ حضور الشَّياطين الخضراء الصغيرة التي تلعبُ في قلبي في أُمسياتٍ مُفرَدَةٍ وغريبةٍ....».

هل أتَّبِعُ الهوى؟!.. وهنيئاً شربتُ شاي الصّباح ثمَّ سرتُ في ذلك الطَّريق.. تلقّفتُ هواءه.. نفذت إليَّ رائحةُ «لِسْتِكْ» عربةٍ محترقٍ ورأيتُ طفلاً يقتربُ من أُمِّهِ خائفاً ومُشيراً بيده لذلك «اللِّسْتِكْ» المحترق.. تُشجِّعُهُ الأمُّ، بصورةٍ غير متوقَّعة، على الاقتراب من «اللِّسْتِكْ» وشمّ رائحة النّار... يرتعدُ خوفاً وينكمشُ على نفسه ويُبكي.. يندسُّ في حضن أمه ويشمُّ رائحتها- فلكلِّ امرأةٍ رائحةٌ خاصّةٌ لا يعرفها إلا من يُحامِمُها!- التي تذكره كثيراً بتلك الرائحة الأُنثوية المميزة للطين اللّين الذي يلعب به مع خُلصائه من الأطفال في أحوالِ بعده عن أُمِّه فيُرجِعُهُ إليها بألمٍ حسِّيٍّ شديد الوقع على جسده كأنّه ارتطامُ السَّاقِ فجأةً بطرفِ سريرٍ مهجورٍ ومُهمَلٍ في رُكْنِ بيتٍ أليفٍ في مساءِ شتاءٍ قارس البرد...

ذاكَ الوصلُ بالحالِ إيّاه كان- طبعاً- وصلاً آخراً مُنَسَّجاً في كُوفِيَّةٍ «صُوفِيَّةٍ» أخرى. لكنه- عندما كان ماشياً مع شمس الدِّين في ذلكَ الصباح البعيد إلى ديارِ سوسن- كان جنينيَّاً فيه، هيوليَّاً ومُنبهماً في صورةِ بيتِ طينٍ ورملٍ أتى ذكره، قبل حينٍ من الدَّهر، في هذه الحكاية.

كان بيتُ آل شمس الدين ملاصقاً لبيت آل مجذوب. وكانت

لشـمس الديـن درّاجـةٌ مزيَّنـةٌ بتزاويـقٍ بلاسـتيكية ملوّنـة وسـلّةٍ مُضَفَّـرَةٍ بالسّـعف وذات سـيورٍ جلديّـة مزركشـة كان يُحبُّهـا كثـيراً ويُدلِّلُهـا كابنـةٍ لـه. شـهيرةٌ كانـت تلـك الدّرّاجـة في الحـيِّ بحيـثُ أنَّ الجميـع كانـوا يُماهُونَـهُ بهـا ولا يفصلـون بـين اسـمه ودرَّاجتـه إلاّ في أحـوالِ عـدمِ الرِّضـا النـادرة- نسبيّاً- عنـه. مـا كانـت هنالـك طريقـةٌ طبعـاً في أن يجتمـع شـمس الديـن ومجـذوب- أو حتَّـى أيُّ شـخصٍ محتمـلٍ آخـرٍ- معـاً عـلى سرجِ هـذه العجلـة- البنـت الصغـيرة. ذلـك أوَّلاً لعـدم إطاقـة وُسـعها الخفيـف لأكـثر مـن ثِقَـلِ راكـبٍ واحـدٍ. وثانيـاً، وهـذا هـو الأهـم، لغـيرة شـمس الديـن الشـديدة منهـا وعليهـا.

كان موقـف الحافـلات الذاهبـة إلى، كـما والآيبـة مـن، حـيِّ سوسـن مزدحـماً في ذلـك «المغـيرب» بخلـقٍ كثيريـن كانـوا إمـا ذاهبـين إلى أقاربهـم وأصدقائهـم القاصـين للتهـاني والأمـاني بالعيـد المـبرور أو عائديـن منهـم. بيـد أن ذلـك لم تُخفّـف فيزيائيتـه الكثيفـة الباهتـة من ترقـب مجـذوب الطيـب الرومانتيـكي الغامـض. قلنـا «غامـض» لأنـه مـا كان في بالـه صـورة جليـة مـا- ولـو عـلى مستوى التصـور المُهَـوِّم، ورُبَّمَـا الواهـم؟- لمـا يُمكـن أن يأمـل في سريانـه بينـه وبـين سوسـن مـن انفعـالات وأفعـال وأشـياء. هـو مـا تَنَفَّـس فيـه حـيٌّ، اللَّهُـمَّ إلاّ بعـضُ نمنمـةٍ عاطفيّـةٍ ودغدغـةِ وعـدٍ مبهمـةٍ، خفيفـةٍ، ثـمَّ حزينـةٍ وخائفـةٍ كذلـك. مـن أيـن واتـاه ذاك الحـزن وذاك الخـوف؟ لا يـدري. ربمـا كان بقيّـةً فحسـب مـن أحـوال المعـرِّيِّ الـذي بداخلـه.

النـاس، في ذلـك اليـوم، كانـوا ناعمـين ولطيفـين عـلى نحـوٍ غريـبٍ. و«المغـيرب»، رغـم ظلمتـه الخفيفـة، كان متهلـلاً كـما الآكل كعكـة بركـةٍ مـا (كانـت تُشَـمُّ فيـه، لمـن لـه خيـالٌ وسـيعٌ، رائحـةُ ذلـك الكعـك

الخـاص نافـذةً بـروحِ غيـبٍ (أو غيـابٍ؟) مؤكّـد!). ذلكـم كان مُبَـشِّراً بعذوبـةِ عـذابٍ مـا. فـما كان لليـوم البهيـج ذي الظلمـة الخفيفـة المشـوبة برائحـة كعـكٍ- كتلـك خصوصـاً- أن يكـون مجـردَ وعـدٍ بفـرحٍ اجتماعـيٍّ بسـيطٍ وحسـب.

كان البيــت أليفــاً، فطريــاً ومثقفــاً في ذات الحــين- كأنــه بيــت «جمهوريِّـين» أنيسـين ومهذّبـين. وخطـوات مجـذوب الطيـب وشـمس الديـن الأولى إلى فنائـه كانـت مشـوبةً- خصوصـاً عنـد مجـذوب- بخـوفٍ خفيـفٍ وعـدمِ ثقـةٍ لذيـذةٍ في الجّسـد والـذّات. كان الأول يرتعـش- عنـد ناحيـة مجـذوب- بـشيء مـن الترقـب الـذي يـرى فيـه صورتـه غـير متوائمـة- عـلى نحـوٍ غامـضٍ- مـع **ظاهـر** مـا ترغـب فيـه حميميـة جسـد سوسـن. أمـا الثانيـة- ذات مجـذوب- فحديثهـا عجـب. فهـي كانـت- في ذات الحـين- آملـةً في فتـحِ معـانٍ شـعوريٍّ مـا يُلقـى عنـد سوسـن وحزينـةً- باسـتباقٍ غريـبٍ- مـن أن الأمـر لـن يعـدو، في نهايتـه، كونـه موديـاً بهـا إلى واحـدٍ مـن تلـك الالتباسـات العلائقيـة السُّـدى (أو «الهـلام») التـي كثـيراً مـا تتـورط فيهـا ذات مجـذوب الطيـب الكائنـة- كثـيراً وليـس دومـاً- في النفـي.

البيـتُ كان لـه فنـاءٌ طويـلٌ، عريـضٌ وذو مهـلٍ، رغـم أنـه كان خـالٍ مـن الخـضرة باسـتثناء شـجرة عنـد الحائـط الأيـسر تتـدلى فـروعٌ منهـا، فوقـه، إلى الشــارع. مــا كان مفروشــاً برمــلِ «عبــد المنعــم عــوض» [شـاعر سـوداني مجيـد!]، بيـد أنـه كان مـوحٍ بـه بقـوةٍ لمـن لـه خيـالُ أو ألقـى الحـسَّ وهـو جديـدُ.

في أم سوســن لمــح مجــذوب الطيــب عروبــة ســويّة البــداوة ولا مكـر مـدني بهـا. أمـا في شـقيقتها الصغـرى فقـد شـفَّ اسـتطلاعاً نجيبـاً

وثقافة غريزية لا شيء من طفولية مغيظة فيها. أما الأخريات من أخواتها فما رأى فيهُنَّ شيئاً سوى سمرة بارقة وابتسام:- نموذجان لزوجتين أنيستين يتخطّفهُنَّ المعلمون من الرجال ويخاف منهما التجار والمتباهون من المغتربين.

أُتِيَ بالشاي. صُفّت الأكوابُ والتمعت شمس أصيلٍ خفيفةٌ، كرقراقٍ على نافذةٍ، بين زجاجها والشاي. برقت عينا صاحب مجذوب الطيب قليلاً إذ تذكر، دون أيّ مناسبةٍ، أول «عصريّةٍ» شرب فيها مريسةً عند «إندايةٍ» بطرف كوستي الشمالي الذي كان، آنذاك، حيّاً من القشِّ يُدعى «زندِيّة». العلاقة بين ذاك الشاي وتلك المريسة وهّجت جلده بضوءٍ خفيفٍ عتيقٍ فاح على ملامحِ وجهه مثل ليمونةٍ خاطفةَ لونين- صفرةً وخضرةً مندغمتين.

عند قعر الكرسي الذي جلس عليه مجذوب الطيب كانت هنالك قطّةٌ متوثبةٌ إلى الأعلى قليلاً- رغم أنها داريةً أن ما بيد مجذوب الطيب ليس هو سمكاً ولا لحماً! ما كان لبراغماتيّة المعاش المعتادة- فيما يبدو- أيّ دخلٍ في تأليف تلك القطة على ما هي عليه. لكنها- وذاك قد يكون غريباً قليلاً- كانت عارفةً بأن ذاك الإنسان على علاقةٍ، في تلك اللحظة، بها وبما تمثله في ذاك الأصيل بعينه من ذاك الزمان والمكان. ومض ذلك في عيني القطة وفي عيني مجذوب الطيب على وسمِ تفاهمٍ خفيٍّ- وآسٍ؟!- جارٍ في خيوط الهواء الدقيقة/الرقيقة الواصلة فيما بين هاتيك العيون.

تلمّظت القطة بشفتيها قليلاً عندما رشف مجذوب الطيب أول جرعةٍ من الشّاي المبهّر بالهبّهان الذي قُدّم إليه- كأنما كانت هي الشاربة. اهتزّ الهواءُ بضحكةٍ مفاجئةٍ من سوسن إذ تلمّست،

على نحوٍ حسيٍّ طريف، حوافَّ بعضِ ما كان جارياً. يبدو أنها قد مسّت نُشارةً خشبيّةً مبلولةً ما، ممدودةً في الخفاء بينها ومجذوب الطيب والقطة، فأوصلتها بكهرباءِ ما كان سارياً.

مضى الكلام خفيفاً وأنيساً وتواردت معه خواطرٌ لسوسن عن لحظةٍ قديمةٍ رأت فيها صورةً لمقبلِ ما أتى الآن، بيد أنها لم ترَ له نهايةً زمنيّةً-اجتماعيّةً معيّنة. لم تر- ذلكم يقول- في مجذوب الطيب عريساً أو شريكاً واضحاً على هيئةٍ عينيّةٍ ما، في تلك اللحظة، بل رأته كائناً\طيفاً رومانسياً منسحباً- بعد حينٍ ليس طويلاً جداً من زمان ذلك اللقاء- إلى داخلِ وردةٍ كوستاويّةٍ، خضراءَ أخرى ما كانت هي، رغم كلّ تاريخه العاطفيّ الحقيقي، أو المتوهّم، العمق معها، غايةَ مطاف سعيه على سبيل البنات.

تعالى صوتٌ طفليٌّ مُرِنٌّ من الشارع منادياً على أختِ سوسن الصغرى بأن تهب إلى الشارع وتلعب. كانت في الصوت بحة شكوى وغيظ ضمنيّة من أن أفراح- وذلكم هو اسم أخت سوسن الصغرى- ما عادت تهتم بشئونهم الصغيرة اللذيذة إذ عدّت نفسها من الكبار فارتدت فستاناً أزرقاً خالصاً كسيّدةٍ وأدت دور مؤانسي الضيوف الوقورين. علت وجه أفراح غبرةٌ خفيفةٌ ولوت شفتها السفلي إلى اليسار قليلاً، في تعبيرٍ غير ذي بالٍ عن الازدراء. ركضت التي كانت صائحةً باسم أفراح إلى داخل البيت، مدّت لسانها خارجاً في اتجاهها، دون مبالاةٍ بضيوف البيتِ خليقةً بشاربِ «عسَلِيَّةٍ» عتيقٍ وصادح الصوت، قهقهت بانطلاقٍ فائقٍ (بل «فَايِقٍ») وانثنت جاريةً إلى «سوقِ حَرِّ» اللعب وهي لا تلوى على شيء. بعد ذلك غيّرت أفراح فستانها الذي يُشَبِّهُها بالكبار وارتدت

شيئاً طفلياً ذا كشاكيشٍ وألوانٍ فيما كانت ضاحكةً على نفسها، وعلى تلك الصائحة، في سماحٍ طريف. جعلت تلك الحادثة الصغيرة سوسن حقلاً من الاهتمام والذكرى فهمست لمجذوب، على نحوٍ جانبيٍّ، بكلامٍ صغيرٍ ما شاءت- رغم وضوح صوتها به- لصاحبه شمس الدين بأن «يسمعه»- لا، بل لأن «يفهمه». ذلك الكلام الصغير ما كان، في الحقّ، سوى تنويعٍ على «ثيمةٍ» قديمةٍ واصفةً لمجذوب الطيبفي ذاتها وعالقةً في بال سوسن الدرامي-السياسي. هل كنتَ لاعباً، يا مجذوب، بالدمى وجارياً على الشوارع كما تلك الطفلة تماماً أم أنك- كأختي أفراح- كنتُ، منذُ البدء، ناضجاً، كما أنت الآن، بشيءٍ مبهمٍ ما كان أن تكون لكَ فيه «نفقة»؟ ذلك كان كلام سوسن الصغير وقد بدا، آنذاك، مغلفاً بضحكها الأسمر وابتسامها المدني الظّريف.

هل كان الكلام إياه مفتتحاً لخصوصيةٍ قريبةٍ ما في العلاقة بين مجذوب الطيب وسوسن؟ لا، إنه لم يكن كذلك بل، على العكس منه، هو قد فتح هوّةً اجتماعيةً معينةً فيما بين سوسن ومجذوب الطيبما كان لها، كما هو بادٍ في مرآة مجذوب، أن تُردمَ بأيّ تدابيرٍ ممكنةٍ ما لزمانٍ قادمٍ أو مكان. ذلك سيُرى في كلامٍ وجارياتٍ صغيراتٍ آتياتٍ في هذه الحكاية.

إن من شافه الربُّ في زاويةٍ بعيدةٍ من الناس، ثمّ ناشه بسهمٍ مائلٍ لا شكَّ في أنه سيظلّ زائغ الجَّنب الشمال حتى يؤوب إلى أهله، إلى «قديمته» التي ستأتي في مقبل الزمان. ذاك ما عرفه مجذوب، في سنينٍ آتيات، بل وحتى بعد ذهابه في النفي بعيداً عن الوردة «الخضراء» الكوستاويّة الآتية بعد سوسن- تلك التي

قال لها، بعد حينٍ من دهرٍ ملتبسٍ بالغناء المجروح بـ«الخَدار»، «هذا فراقٌ بيني وبينِك»، ثم كان ذلك آخر عهده الكينوني- وليس الزماني- بها، إذ أنّه لاقاها في خُلَسٍ مصيريةٍ أخرى.

سوسن قمحيّة وليست «خضراء». وذلكم ينبئ عن أنّ دربه ونجمه سيتوازيان- قريباً- مع دربها ونجمها فلا يتلاقيا- ليس في الزمان، على الأقل؛ ربما في الأبد؟! لكن من يدري باشتمالاتِ شؤون الأبد سوى من يصيرُ أبدا؟...... حكمةٌ بُدهيّةٌ، لكنها مكينةٌ في الشعور، أليس كذلك؟

في ذلك الآن انفلتت «أليس كذلك؟» أخرى من شمس الدين. كانت تلك موجّهةً نحو سوسن وخاتمةً لسؤالٍ منه لها عن مزيج الجّبن بالطحنيّةِ وكيف أنّ له مذاق ذكريات المدرسة القديمة. لم تقل سوسن، في الردّ على تلك الـ«أليس كذلك؟» سوى تمتمةٍ لـ«نعم» خافتة مصحوبة بابتسامةٍ ذات ماضٍ حنين. فلقد واتاها، متوالياً في الذكرى مِرارا، ذلك الخيالُ العنيدُ العتيدُ للبيت الرملي المفروش.. الخ.. الخ.. مما قاله الراوي قديماً في هذه الحكاية.

بلغ الأنسُ بالجمع لحظةً كان فيها منهمكاً في الحديث عن «حزبِ صقر البَلَعَان» الحاكم وذلكما الوزيرين، زِيري النساء، الذين كانا ما منشغلينَ بشيءٍ سوى ما سمّاه أحد النقاد- في رده الانفعاليّ المُسفِّ على زميلٍ آخرٍ له اتّهمه بـ«الكُورِيَّة» المسرفة في موسيقاه- بفعل «الحشِّ في القّش»- وقد حذفت المجلة الناشرة لذلك الكلمة الأولى من العبارة إياها ووضعت نقاطاً في محلّها، معربةً بذلك عن حياءٍ هو، دوماً، على ما يقول الناس- وليس على ما **يفعلون**- رقيب. إنّ أخبار ذلك الحزب لطريفةً ومؤسية.

لكنا لـن نـورد منهـا هنـا شيء سـوى بعـض «التفكُّهـات» الشـعبيّة علـى أحـد الوزيريـن إياهـما. سوسـن- التـي كانـت لهـا ميـول يسـارية واضحـة- حكـت واحـدةً مـن تلـك عـلى الجمـع المؤتنـس فـما كان مـن المـكان إلا أن ضحـكَ مـلء رئتيـه فنفّـث عـن شيءٍ مـما كادت أن تنفتـق بـه روح ذاك الزمـان المرتوقـة زيفـا. قالـت إن ذلـك الوزير/الزِّيـر كان، ذاتَ يـومٍ، ممتطيـاً خيـل حديـدٍ لـه ذي أبّهـةٍ وسـيادةٍ وسـادراً، «فايقـاً» ورائقـاً، في شـوارع الخرطـوم وكاسـيت ذاك الفنـان اللقطـة، بعمامتـه الطويلـةِ والمـدورة عـلى رأسـه مثـل «وِقايـةِ» قهـوةٍ ضخمـة، يعمـهُ في غنـاءٍ مـا بلـغ فيـه «ومـات الحسـود بالسّـكّري» حتـى تمايـل الوزيـر/ الزّيـر طربـاً وزهـوًا بالحيـاة العضويـة التـي فيـه وزغـرد، مرضاةً لنفسـه، بصـوتٍ مسـموع، ضحـكَ، شَـتَم- كالعـادةِ- أعـداء الأمـة الإسـ... – لا، إنهـم لم يجعلوهـا، بعـد، «إسـلاميّةً» في أوانـه ذاك!- ثـمّ تفـلَ من شـباك الفارهـة ذات المكيفـات «السّـنينة» وقـال قولـه ذاك ولم يسـتغفر اللـه لـه ولنـا وللمسـلمين أجمعـين...

عـلى قارعـة الطريـق كانـت تقـف واحـدةٌ مكينـةٌ في زينتهـا القاهرة ومـادةً الرّدفـين في حسـيّةٍ مشـهّيةٍ- بـل مـدرّةٍ للبـول، كـما يقولـون!- في اتجـاه حوائـط المنـازل المقابلـة للشـارع الكبـير... رغـم سرعـة انفلات رصاصـة سـيارته اسـتطاع الوزير/الزّيـر أن يشـمّ رائحـةَ الأنثـى الصاعـدة مـن بطـن جُبّهـا السّـفلي ومـا كان عطرهـا المجاهـر للنـاس بلجاجتـه الإفرنجيّـة، في مخيلـة سـواه مـن النـاس، سـوى إبـرٍ سـائلةٍ برشـاشٍ سـقطت منـه، جُزافـاً، خيـوطٌ فاجـرةٌ عـلى نافـذة الوزيـر العنكبوتيّـة فالتقطهـا هـو بدعـارةٍ جديـرةٍ بصيتـه السياسيِّ المجيـد، ثـم تأهبـت فيـه أعضـاءُ صائـد غـزلانٍ متـورطٍ في أوهـامِ مُلـكٍ عضـوضٍ، عـلى

الطبيعـة، للانقضـاض... لكنـه مـا درى أيُّ تمثيليـةٍ هازئـةٍ بمقامِـه اللئيـم كانـت في انتظـاره...

كانـت «المـرأة المُلَطْلَطَـةُ» تمـشي ببـطءٍ محاكيـةً، في ذلـك، بخُبـثٍ نفسـانيٍّ غنـوج، سـائقَ سـيّارةٍ عجـوزٍ يدفـع بعربتـه «الفلوكسـواجن» العتيقـة، عِنْـدَ عصريّـةٍ رائقـةٍ وبمـزاجٍ تذكّـرٍ مُتمهّـلٍ، عـلى شـارعِ النّيـلِ الامدرمـانيِّ وعنـد ضفّتـه الشرقيـة المحاذيـة لمبنـى الإذاعـة السـودانيةِ الكولونيـاليِّ القديـم. لكنّهـا مـا كانـت بريئـةً في «تمثّلهـا المِزاجـيِّ» ذاك، بـل كانـت تُمازجُـهُ، ليـس كمثـل ذلـك العجـوز النوسـتالجيّ، بـلا تذكّـرٍ أو همّـةٍ رومانتيكيّـةٍ مـا أو أيِّ شيءٍ مـمّا إليـهِ، وعليـهِ، النّـاسُ يتوقـونَ ويحزنـون! كانـت ‘قَاهِـرَاً’ بعطرهـا وتخشـلُعها المرتّـب وفـقَ حسـاباتٍ عصريّـةٍ شـهويّةٍ قـرنَ عشرينيّـةْ. هـبّ منهـا، إلى ذلـك الصعلـوك العتيـد المـؤازر بآلـةِ الدولـة الإيفانيّـة- أو قُـلْ «القَرْقَوشِـيّة»- الرهيبـة، نسّـامُ مُـدوّخٌ بحسـيّةٍ طاغيـةٍ غشـيمةٍ ومليئـةٍ بمـا يُشـبهُ رائحة السّـمك العـاري:- البلبـوط الفرعـوني الـذي لا يخـشى مـن عريـه شـيئاً، بـل يـراهُ لباسـاً وزينـةً وعَـمَارَاً أمـام المنتبذيـنَ بعيـداً مـن النـاس والحيـوان....

أيـوه أنـا مـا بجيبُـو بي كُـسِّي ده الـرّزق وشُـغلي حـار ومويتـو نـار ويـلاّ يـا بـلاوي بـلا لمّـه شـوفُو ليكـم فـول اكلُـوهُ وجمـل رخيـس غُـزُّو فيهـو أوهامكُـم دي! هكـذا كانـت «طُزُّهـا» الفاجـر، القَاهِـرْ، سـائرةً، بلسـانِ الحـالِ، كـما والمقـالِ الفصيـحِ البـذاءةِ والتّشَـفّيَ الشّرّيـر، فيـما بـين الخلـق أجمعـين، إلا مـن رحـم اللـه، عندهـا، مـن أسرار التّجّـار والكُبـارات والضّبّـاط وآل الأُمُونـات البايعـين وبالعـين يحمـدُوا سـيدُمْ!

تثنَّـت «المـرأةُ المُلَطْلَطَـة» وتنطّعـتْ وكشـفت قليـلاً- بـل كثـيراً- عـن سـاقها ومـا تحـت لباسـها لـذاك الصائـد، الضابـط و»الجَّعَبَـة

الكبـيرة» الموهّطـة في السُّـلطان وحديـد الـضِّراب السَّـنِين والصّولجـانْ.

كانـت «المـرأة المُلطْلَطَـة» محتفيـةً بغيـظٍ ذي ظـلالٍ موحشـةِ القسـوةِ ومديـدةٍ في ماضيهـا المشـبوه بالإعتـمالِ النّـاريِّ الهيّـاج لانفعـالات الشّـهوةِ، الجّشـعِ ورغبـةٍ ساديّة-ماسوشسـتيّةٍ في الإنتقـامِ. لكنّهـا كانـت، مـع أو بسـببِ، كلِّ ذلـك لا تـرى في نفسـها سـوى تقمّـصٍ شـخصيٍّ لقـدرٍ مـاضٍ عريـقٍ يتشـبّثُ بحقوقِـهِ الإنتقاميّـةِ الرهيبـةِ فيهـا، أي ضحيّـة تامّـةً، بـلا زيـادةٍ ولا نُقصـان. **للآخريـن أن يـرُوا 'عَوَجَـةَ رَقَبَتِهَـا' إن يشـاؤوا.** أمّـا هـي فليـس لهـا سُـلطانٌ عـلى تلـك 'العوَجَـة'!.... «إنّ خطايـا الآبـاء تتنـزّلُ عـلى الأبنـاء». هكـذا قيـلَ في الإرثِ الكلاسـيكيِّ الإنجيـليّ اليهوديّ-المسـيحيِّ. «تلـكَ خُطـىً كُتِبَـتْ علينا/ومـن كُتِبَـتْ عليـهِ خُطَـىً مشـاها». هكـذا قيـلَ في إرثِ بعـضِ الشّـعرِ العـربيّ الكلاسـيكيِّ. والمـرأةُ «المُلطَلَطَـة» تستمسـكُ (ولـو 'لا شـعوريّاً')، كقشّـةٍ طافيـةٍ، بـكلّ ذلـك الكلام المسـنود بالثّقـلِ الذّكـوريِّ لنـماذجٍ كتلـكَ مـن الحكمـة السـلفيّة الغابـرة. وهـذا كلّ مـا في أمرهـا! هـذا كُلّ مـا في أمرهـا!

تلـوّت «المـرأةُ المُلَطْلَطَـةُ» باتّجـاه السـيّارة الفاخـرة لـذاك الـرّأس الماجـن الكبـير- ذلـك الـرأس النِّكّيـتْ العربيـد- في الحكومـة المعلومـة الظافـرة أبـداً بـإذنِ العليـم الكريـم!

بعـد تمهّـلٍ واسـتطرادٍ وعنعنـاتٍ لغويّـة- وغـير لغويّـة- شـديدة (منهـا ومـن الـرّاوي) أتـت سوسـن إلى «لفّـةٍ» أساسـيّةٍ في حكايتهـا، في طُرفتِهـا السياسـيّةِ تلـك. (دوت، في تلـك اللحظـات، لسببٍ غامـضٍ مـا، في ذهـن مجـذوب الطيّـب، ذكـرى صـوتٍ لحظـة إنقضـاضٍ إعلامـيٍّ حـادّةٍ في طفولتـه وأيـامِ صبـاه وشـبابه. إنّهـا تلـك اللحظـةُ الإعلاميّـةُ

المُكبّرةُ الصّوتِ التي كثيراً ما كان يصلُها، في ذلك الجّزءِ من الحلّة الجّديدة بكوستي الذي كان يَسْكُنُ فيه مجذوب الطيّب، مُعلنُ أولاد عكاشة في كوستي حين ينبري، فجأةً، صائحاً في غبارِ الظّهيرة وترابِ بيوتِ الحلّةِ الجّديدةِ المُسخْسَخِ بالحراراةِ والرّمادِ وهُلامِ الضّوءِ الأغبش:- مرّيخ/رابطة.. رابطة/مرّيخ.. قنابل الباذوكا، مدافع الهاون.. مرّيخ/رابطة.. رابطة/مرّيخ.. قنابل الباذوكا/مدافع الهاون.. مرّيخ را.... را.... الهاوُن.... ثمّ يتلاشى الصّوتُ ويندمجُ في هشاشةِ الظّهيرةِ وسأمها الذي يتلمّظَهُ المُتسكّعون بدعةٍ غافلةٍ عن العنى ومرتاحةٍ، في كثيرٍ من أحوالها اليوميّةِ، في 'يأسها' اللذيذ الطّعم والنّغم والرّائحة، تماماً كما قد يقولون في بعضِ إعلانات المشروبات الباردة المصحوبة بـ«الموسيقَىْ» والزّيطة والزّمبريطة الملحّة على عمومّ النّاسِ (والحيواناتِ) بالشّراء، الشّراء، الشّراء- ولا مفَرْ!). تدلَّعت وتَسَحْسَحَتْ «المرأة المُلظلظة» عند وقوفها بِبَابِ الملعبِ! بعينيِّ قردٍ عجوزٍ طشومٍ وانبهالٍ جريءٍ وفاضح ولا شيَّةَ، ولو بالغلط، من الحياءِ فيه حرَّكَ الزّير/الوزير رجله اليمنى، ثمَّ اليسرى، بالتواءين محسوبين، من تحت بدّالى السيارة وفتح بابها في حذرٍ ماكرٍ كأنّه ما كان رأى شيئاً داهماً قادماً إليه وما كانت هناك، من قبلِ، لَظْلَظَةٌ تُدانِيه ولا يحزنون! طبعاً ما صدَّقته المرأة وانثنت، بوضوحٍ جريءٍ وصارخٍ رغم أنّها لم تقل كلمةً، إلى المقعد الأماميّ بجواره، مُخشْخشَةً فيما بين ذلك فستانها وتزاويقه الصغيرة، قصرهاالعابث الماكر وداقّةً، في قهارةٍ، السّاقَ فوق السّاق. لكنّها لم تلبث على ذلك سوى لمحةٍ أجرت خلالها نظرةً ظافرةً إلى رفيقها الثوريّ الظّافرِ فوجدته متحلّبَ الرِّيق بريالةٍ قديمة خبيثةٍ لم يحاول حتّى أن «يبلعها» على حرجٍ عجلٍ فيخفيها فرضت بأثر

ما جهرت به وعادت امرأةً جالسةً بأناقةٍ وتحسُّبٍ حصيفٍ وكأنّها سيّدةً وزوجةً ذات عشرةٍ وحِفاظٍ قديمٍ حصينْ! فتح الوزير/الزّيرُ، هنيهةً، فاهه باستغرابٍ منشدهٍ في شأنِ ذاكَ التّحوّلِ البهلوانيّ البارع، لكنّه عاد فصمت ولم يقل شيئاً ومضت فارهته، حديدةً شديدةً، ناعمةً وملساء، إلى الكبريّ الذي سيودي بهما إلى تلك المدينة فيما وراء النّهر حيثُ وكره المحروس، لكن بدَسٍّ وخِفيَةٍ، بأمرٍ، وبُندُقٍ، جلالة الجمهورية السودانية الثوريّة الثّانية المنتصرة أبداً و.. و.. إلى آخره مما يقول فصحاء المجون السياسيّ العتيق!

في داخل المنزلِ ذي الغرفتين، الذي تعمّد صاحبه أن يجعله غفل المرأى و'شعبيّاً'، كانت هنالك طاولة طاولة خشبيّة جديدة، بنيّة اللون وغامقة حتّى تكادُ تكونُ سوداء وُضعتْ في وسطها قُنِّينةُ نبيذٍ فرنسيٍّ واحدةً وكبيرة، مع كأسين زجاجيّتين صغيرتين. كانت هنالك، أيضاً، زجاجة مياه معدنيّة بلاستيكيّة مركوزة عند رُكنٍ يمانيٍّ من الطّاولة وبجانبها كوب ماء زجاجيّة طويلة. أما على جانبي الطاولة فكان هنالك سريرين حديديّين صغيرين مفروشين بملاءتين حمراوين حمرةً داكنة، كَبديّتين ومزوّقتين برشارشٍ ملوّنة، زرقاء وخضراء على أطرافهما. الجوُّ، في تلك الصالة، كان، إن غمرته حياة البخور والشّعوذة الأنثويّة المحبّبة والزوّار الخفيّين من ناس بشير ترتر والحبشيّ والذين منهم بروحها، قد يُذكّرُ الإنسانَ بشأنِ يومِ شهوةٍ شعبيّةٍ وسَاذجَةٍ (بل وطيّبةٍ!) وعذبة الخطيئة (دون عمقٍ أو تفكُّرٍ أو أرق) قضاه في بيت حبشٍ شعبيٍّ من بيوت الدّيم. لكنّ نزعَ الرّوحِ إيّاها وانسلالَ بَخُورِها عن ذلكما السريرين وتلكما الملاءتين وديكورهما وناسهما، بل وحتّى عن تلك الخمر

«الذَّاهِبَـةِ» بزهوهـا الغـربيِّ عـلى الطاولـة، سرعـان مـا يُبـدّد عـن الإنسـانِ ‘وهـمَ’ تلـك الذكـرى ويُعيـده إلى حقيقـةٍ متجشّـأةٍ بوضـوحٍ خسيسٍ ماكرٍ مثـلِ فـوحِ ريـحٍ تحتـانيٍّ، أصفـرٍ وكبريتـيٍّ خبيـثٍ يُتَحايَلُ عليـه بـكلِّ عطـورِ الإسـتهلاك البرجـوازيّ الفاجـر والقَاهِـر فـما تُبـدّلُ تلـكَ مـن طبعـهِ الخسيءِ فتيـلا. كانـت هنالـك غرفتـان في البيـتِ- كـما ذكـرتُ. وواحـدةٌ مـن تلكـما الغرفتـين كانـت هـي غرفـة نـومِ صاحـبِ (أو أصحـاب؟) البيـت (أو«غرفـة العمليّـات»، كـما قد يُسـمّيها، غالبـاً، الوزير/الزّيـر ضاحـكاً بغمـزةٍ ماجنـةٍ نَكـرة). دخـل الوزير/الزّيـر وقِطعتُـهُ المُلطَلَطَـة، إلى خاصّـة تلـك الحجـرةِ، بعـد الـشّرب والإسـتكانةِ والسّخسـخة. لكنّـه مـا أدرك أنّ «المـرأة المُلطلطـة» مـا كانـت تـشرب مـن خمـره الفِرنسَـيَّة إلا قليـلاً، ثـمّ تـدسُّ لـه فيهـا، خلسـةً، مـا لا يعلمـه. كان ‘ذلـك الـذي لا يعلمـه’ مسـحوق عـروق (أو إِرُوقْ، كـما يقـول أهلنـا الهوسـا) بلديّـة تقـوّي عضـو الذّكـورةِ وتشـدّهُ شـدّاً فاضحـاً وبائنـاً مـا أن تـرى عينـا حاملـه الهميـم- حتّـى ولـو كان طاشـماً طشـمةً إذّا- ثوبـاً نسـائيّاً جُـرَّ عـن سـاقيهِ وكشـف مـا كشـف مـن صميـمِ ذلـك المثلّـث الـذي سـعت بشريّـةٌ كثـيرةٌ عـلى سـبيل النفـاذ منـه إلى سرّه الشّـهيِّ، قرنـاً فقرنـاً، فلـم تنفـذ ولم تـزل!

كان الوزير/الزّيـر، تحـت إلحـاح همـس «المـرأة المُلطلطَـةِ» الغنـوج، يـشربُ بجهـادٍ دونـه جهـاد الضاربـين باليـمانيّ المسـلول. وعندمـا أوغلتـهُ تلـكَ «الوليّـةُ» بعيـداً في مـا بعـد تمام السّـكرِ بـدأت تنـزع عنه، مُضاحكـةً، ملابسـه جميعهـا، قطعـةً فقطعـةً، لكنّـه مـا كان هـو بـذاتِ واديهـا ولا يـدري بـأيّ أرضٍ تزغللـت نفسـه إلا أنّ عضـوه «الثّـوريّ» كان منتعظـاً بقـوّةٍ وغلظـةٍ جلفـاء تفكّهـت بهـا «المـرأة المُلطلطَـة»

وضحكـت كثـيراً حتّـى شرقـت بدمعهـا غربـا، ثـمّ ألفـت أنفاسـها، عـلى غـيرِ مـا كانـت تُريـدُ منهـا، تفـحُّ بوحيـحٍ متصـاعٍ ببـطءٍ، ماكـرٍ وحـارٍّ وثخـين. لكنّهـا أمسـكت نفسـها عنـهُ بعنـفٍ مُضـادٍّ شـديدٍ، فقـد كان غيظُهـا منـهُ كظيـماً منـذ عهدهـا الأوّل بـ»عـادٍ» وجنرالاتهـا «السَّـوْرَوِيِّيْنْ». بشـيش بشـيش جرجـرت المكينـة المُلظلظـة عطورهـا وزينتهـا القاهـرة، مـع جسـد الوزير/الزّيـر المتدحـرج حثيثـاً، إلى سـيارة الوزير/الزّيـر القاعـدة أمـام بـاب المنـزل الغُفـل. وبعـد أن تأكّـدت تمامـاً مـن خلـوّ الشّـارع مـن العابريـن القليلـين (كان الوقـت حـوالي الواحـدة صباحـاً مـن يـومِ الجُمعـة) حشرتـه حـشراً سريعـاً في عربتـه وألقـت بـه، كيفـما اتّفـق، عنـد المقعـد المجـاور لمقعـد السـائق، لكنّهـا جعلت رأسـه منكوسـاً إلى الأسـفلِ، تحوّطـاً. اتّخـذت هـي مـكان السـائق وقـادت الفارهـة- بمـزاجٍ رائـقٍ لشَكْشُـوْكَةٍ سـودانيّةٍ شربـت سـجارتها الطازجـة بعـد أن ناكهـا، برفـقٍ حنـين، عشـيقٌ ظريـفٌ- إلى منزلـه بتلـك الضاحيـة المُريّشـة في الخرطـوم بحـري. كان حارسـا المنـزل، بملابسـهما المدنيـة البسـيطة وسـلاحهما الخفيـف المخفـي، نائمـين في راكوبـةٍ جانبيـة صغـيرة أنشـأت بقـرب بـاب المنـزل مـن اليمـين. ضربـت الشّكشُـوكةُ الرائقـةُ المِـزاج بـوري العربـة شـديداً وعنيفـا. كانـت تُـدرُك- بخـبرةٍ أنثويّـةٍ وغريزيّـةٍ لا تُخطـئ- أنّ امـرأة الوزير/الزّيـر الفنجريّة الوسواسـة سـتصل إليـه في سيّارته قبـل الحارسـين النائمـين إذ أنّ أولئـك لـن يفكّـرا في النهـوض مـن نومهـما قبـل ضربـة البـوري الثالثـة (بحكـم قانـون التّلاتـة السـوداني المعـروف، كـما وقانـون ’أدّيهـا صنّـه شـويّه يـاخ‘!) فيـما هـي سـتنهض تـوّاً حينـما تُميّـزُ، في لمحـةٍ متوجّسـةٍ، صـوت بـوري سـيارته المألـوف عندهـا كصوتـه تمامـاً. هـي سـتُبحلق فيـه حينـذاك- قالـت الشّكشـوكة المُلظلظَـة لنفسـها في لهـاثٍ مغتـاظٍ وغيّـاظ-

مشـدوهةً ومُعوجّـة الفـم ثـمّ، هـا هـا هـا،she will face the music!، كـما يقـول الخَوّاجـاتْ... كانـت- طبعـاً- قـد تركتـهُ، مـن قبـل ذلـك، قائمـاً عنـد مقعـد قيـادة سـيّارته، عـاري الجّثـةِ تمامـاً ومُنْتَعِـظَ العُضْـوِ «الثَّـوريِّ» انتعاظـاً جلفـاً وإدّاً، وانسـلَّت، في خِفَّـةِ ضلاليّـةٍ خبـيرة، إلى زُقـاقٍ هـادئٍ مجـاور، ثـمّ إلى أقـرب تاكـسيّ يخطفهـا، في حـرزه الحريـز، إلى بيتهـا في شـمالِ ذات المدينـة العاصميّـةِ السـودانية العريقـة.

في الصبـاح التـالي، ختمـت سوسـن القمحيّـة القِصَـيْرَة حكايتهـا ضاحكـةً بتشـفٍّ سـياسيٍّ عتيـد، كانـت كلُّ وكالاتِ ’الضّلَلَـه‘ للأنبـاء (إذ لم تكـن هنالـك مَوْبَايْـلاتٍ بعـد) تبـثُّ أخبـاره فيـما بـين الغبـار، زيـت العربـات، البـكاسي، الباصـات، سـتّات الشّـايَات، المطاعـم والمحـلاّت، شـدر المقاهـي الفئويـة والجامعيـة، ثـم، أخـيراً، في ذاتِ أجـوافِ المكاتـب الرّطيبـة المُكيّفـة. لكـنّ الصّحافـة الإجتماعيـة والرياضيـة، بأبـوابِ ’شـماراتِها‘ النّمّامـة حتّـى بأتفـه الأخبـار عـن «سـتّاتِ الشّـايِ» ومـن تدعوهـم لوافديـن»، لم تُـورد، ولـو بالغلـطِ والحيطـة الذكيّـة، مـن شـأنه البديـع ذاك شـيئا- لكـنّ ذلـك معلـومٌ مـن ’دينِهـا‘، في ذلـك الزّمـانِ، بالـضّرورةِ، كـما وأيضـاً بالإجـماعِ السّـكُوتِيْ!

ثـمّ، بَعْـدَ أسـبوعينَ بالضّبـطِ والدّقّـةِ والتّـمامِ، كان مقهـى «الإتّحاديّـينَ» اللّنـدنيَّ والوايتليـزيَّ [كـما قـد تُـصَرِّفُ وصفـاً لـهُ مـن كلمـة Whitelees] يضـجُّ بخـبر الوزير/الزّيـر في طبعـةٍ جديـدةٍ مُنّقحـةٍ ومزيـدة. وقـد تفكّـه بـذاك النبأ-اللقطـة ساسـةُ المقهـى أولئـك وهـم طربـون ونـيّرو الوجـوه والجسـوم ولابسـين هـدوم كـمان! ثـم أعقـب مـا هـم فيـه ببعـض شـايٍ («بي بسـكويتو وحالـو») وقنـانٍ خوّاجاتِيَّـة مزخرفـة الصّنعـة ولم ينسـوا، طبعـاً، العَوْرَبَـةَ باسـم تلـك **الثـورة**، التـي

هـي دومـاً قادمـةً ودومـاً شـعبيّةً وديمقراطيّـةً وكـذا وكـذا إِيّـةً!
كـما- وذاك نافـلٌ- قالـوا عنهـا- تمامـاً كاللذيـن سـاطوا العبـاد والبـلاد
مـن قبلهـم- إنّهـا سـتكون- كالعـادةَ- ظافـرةً ومنتـصرةً أبـداً، أيضـاً بإذن
ذاتِ «اللـهِ» الـذي مكّـن (لما يعلمُـهُ أو لا يعلمُـهُ؟) مـن سـبقهم عـلى
الكُـرسيِّ المجيـد وكأنّمـا هـو لا دخـلَ لـه بمـا هـم بـه جميعـاً ينبحـونَ
ويُهَاتُـوْنْ!

7

هنالـكَ، في المبنـى الرئيـسي لجامعـة الخرطـوم وعنـد الناصيـة الغربيـة لشعبة التاريـخ بكليّـة الآداب، كانـت هنالـك ثلّـةٌ مـن طلاب «اليسـارِ الدّيمقراطـيِّ» تتصايـح فيـما بينهـا، بكلـماتٍ حـادّة الإيقـاع، عـن التاريـخ، الثـورة، البرجوازيـة الصغـيرة (فهـم لا يَهْبشُـونَ الكبـيرةَ إلا لُمامـا!) و«الـصراع اليومـيّ» طبعـاً! كانـوا، آنـذاك، قـد يتحاشـون عمـداً أن يحـشروا، في أحاديثهـم، تلـكَ العبـارة الماركسـيّة الرهيبـة الموغلـة، ضمنـاً، في الوعيـدِ (**التّاريخـيِّ** كالمعتـاد!) بالويـل والثبـور والزمهريـر القـادم، وهـي عبـارة «الـصّراع الطّبقـي»! ربمـا هـم كانـوا، في ذلـك، مجـرّد أبنـاء **أصـول** مهذبـين ولا يريـدون أن يجرحُـوا، بشـبهة اتّهـامٍ مـا، بعـض رفاقهـم ممـن يسـميهم مجـذوب، بفكاهتـه المعهـودة وذات التفلسـف المضمـر، «شـيوعيّين بنـات» (هـو لـه تفرقـةٌ مَرِحـة قديمـةٌ، كـما وسياسيّةٌ-سـايكولوجية، بـين مـن كان يسـميّهم «شـيوعيِّ النّضـال» ومـن كان يسـتطرفُ بـأن يدعوهـم «شـيوعيّ بنـات». لكنّنـا لـن ندخل هنـا في تفصيـل بعـض نماذجـه المتهكّمـة لهـؤلاء ولأولئـك). أو ربّمـا هـم كانـوا، في ذلـك وبالأحـرى، بُرجماتيـين لا شـعوريّين يحاولـون، لحسـابِ مسـتقبلٍ ممكـنٍ مـا، أن يخفـوا، في أنفسـهم، ذاتَ ظـلّ ذاكَ الـذي هـم علنـاً يزدرونـه ويصفونـه، فيـما بينهـم وبينهـم وبـين غيرهـم، في جفـاءٍ متجهّـمٍ ومتقشّـفٍ، بأنّـه منبـئ عـن «تطلّعـاتٍ برجوازيّـةٍ»؟

ما كان علينا أن نوغل بعيداً في ذاك التّفلسُفِ النّفسانيِّ العميق. فالذي علينا به- هنا والآن- هو أنّ سوسن، القمحيّة القِصَيْرَة الضاحكة، كانت، آنذاك، مُستغرقَةً، ظاهريّاً على الأقلّ، بكليّتها الإجتماعيّةِ (والسياسيّة؟) في ذلك كلّه فيما كان مجذوب الطيب يرقبها، ساهماً وبغيظٍ خفيفٍ، من على مقعده الحجريّ العالي الكائن بقرب مكتب كليّة الآداب والذي عمّده بعضُ الطُّلاّبِ، بظرفٍ لا يخلو من خُبث، باسم «حجر الفلاسفة».

يرجع جذر تلك التسمية، بحسب بعضِ الرّواة وذاكرةِ مجذوبٍ، إلى آخر السبعينات من القرن الماضي (العشرين) أو أوّل عام في ثمانيناته (1980-1979). وقد أُطلقَ الإسم على البُقعةِ إيّاها (**التاريخيّةِ**، قطعاً!) حينما رأى ثلّةٌ من الطلاب، بكاميرات عيونهم الـClose Up، أن مجموعة الأربعة (وقيل «عصابة الأربعة») التي كانت تدرس بكالوريوس الشرف في الفلسفة آنذاك، ومجذوب الطيب من بينهم، قد كانت تكثّف لقاءتها الأكاديميّة السنيّة عليه وعنده (إذ لم يكن يتّسع سطحه لجلوسهم عليه سويّاً في آنٍ واحدٍ)، بانتظامٍ يوميٍّ، خصوصاً في أيّام اقتراب عهد إيفان الإمتحانات الرهيب. ويستعيدُ تذكّرُ مجذوب الطيب أنّ «إيفان الرهيب» ذاك كان عصره (الذي هو نقيض عصرِ رشيد الخلطات والونسات والسهرات، الرّحلات والبهجات والأسابيع والشّمارات!) يأتي، منذراً وعبوساً، في شهر مارس من كلّ عام، ولا يخطئ ميعاده أبدا رغم مجاهدات «جبهة كفاح الإمتحانات»- تلك البعثيّةُ ذاتُ الأصول القومية العربية العريقة التي «لا غرو أنّها [كانت، حينذاكَ،] تأتلقُ» وممّا إلى ذلك من الكلامْ والسّلامْ! «مُنذراً وعبوساً»، قلتُ،

فقد كان الطلاب، تمشّياً مع عدائهم الشعبيِّ الأصيلِ والغريزيّ (بل **والصّحيِّ** كذلك، كما يجرؤ مجذوب الطيب أحياناً ان يصفه بتجديفٍ فلسفيٍّ عنيد!) للإمتحانات العامّة التي كانت تُعقدُ- بحزمٍ ولَزْمٍ- فيه، يشيرون إلى ذلك الشّهرَ، بغيظٍ طفوليٍّ ماكر، باسم «مارس شهر الكوارث».

لكنّ رواةَ ومؤرّخين آخرين يؤكّدون، عياناً بياناً، أنّ تلك التسمية يعودُ أصلها وفصلها إلى شخصيّةٍ طلابيّةٍ واحدةٍ، معيّنةٍ ومعروفةٍ باسمها ورسمها. هم يُروّجُون لـ«نظريّتهم» تلك بحماسةٍ جادّةٍ ومتجّهمة ولا فُكَاهَةً ذكيّةً فيها وكأنّما هم أساتذة تاريخٍ أكاديميّين وتقليديّين (أو قل «نطاسيِّي وقائع») يروون، بأهميّةٍ رصينةٍ وزائدة عن اللّزومٍ، دقائق تفاصيل الأحداث الثانوية للثورة الفرنسية- الأوربيّة المجيدة، بالضّرورة (فكلُّ شيءٍ أورُبّيٍّ هو، قطعاً، مجيدٌ لديهم طبعاً!). تلك الشخصيّة- يقولُ أولئكَ بحزمٍ جادٍّ إلى درجةِ أنّه لا يفلح إلا في أن يبدو، على الرُّغم منه، كوميديّاً لرائيه النفسانيّ- الجّماليّ البصير- هي، على التّعيينِ، ذلك الطالب ذو الكاريزما العضويّة («العنصريّة»)، رغم بساطة هيئته وزيّه الخارجيِّ، عيسى أبو دِقن. كان عيسى أبو دقن إنساناً ذا لحيةٍ كاستّرويّةٍ [نسبةً إلى فيدل كاسترو] متفكّرةٍ يجلسُ، فوقها برأسه وتحتها ببقيّةِ جسده وكأنّها حدٌّ ضمنيٌّ فاصلٌ ما بين جزئيّ الجسد إيَّاهُمَا، على ما وسمهُ الطُّلاَّبُ، من بعد ذلك، باسم «حجر الفلاسفة». وفيما هو متأمّلٌ، لهُنيهاتٍ طويلةٍ، في الفراغ الممتدّ أمامه- تجاه وفوق شعبة التاريخ التي يكمن، خياليّاً، وراءها ووراء شعبة الإقتصاد والساحة التي وراءها (والتي ما كانت قد حوّلت إلى كافتيريا بعد) شارع

النيـل بأشـجاره الخـضراء الكبـيرة والماهلـة، كـما والنيـل ذاتـه، سـيّدُ الإسـمِ والصّفـةِ- تجتمـع عليـه، في وقـتِ العصرِ أو المسـاء، لحىً يسـاريّة أخـرى ذات جبـاه عاليـة ومتقطّبـة بجديّـةِ مفكّريـن ثوريّـين جـدد، ثـم يبـدؤون جميعـاً، فيـما بينهـم، رطانـةً ثقافيّـةً «عاليـةً» لا يـدرك لهـا، في الغالـبِ، عمـوم الطـلاب الآخريـن رأسـاً أو ذيـلا. مـع ذلـك كلُّـه، أو بالتّـوازي وذلـك جميعـه، كان عيـسى أبـو دقـن، مـن ناحيـةٍ أخـرى مكمّلـةٍ لشـخصيّتهِ، إنسـاناً دارفوريّـاً خدومـاً وأريحيّـاً، بسـيطاً في كلامـه وهيئتـه الخارجيـة، كـما ومريحـاً في أنسـه وصحبـت، لـذا كان كثـيرٌ مـن زملائـه الطـلاب مـن دفعتـه والدُّفـع التـي بعـده، والتـي مـن ضمنهـا دفعـة مجـذوب، يسـتغربون، بصـدقٍ سـاذجٍ، كيـف يتـأتّى لـكلِّ ذلـك الـكلام العـالي التفكّـر- والـلا مفهـوم عندهـم، في الغالـبِ وبالطّبـعِ!- أن يطلـعَ مـن هيئتـه الريفيّـة الطيّبـةِ والأخوأخوانيّـةِ تلـكَ؟ ذلكـم كأنّمـا خـمّاراتُ عجـينِ أهلـهِ النّائـينَ هنـاكَ، في ضهـاري فـاشر أبـو ذكريّـا، مـا كان منظـوراً منهـا عندهـم أن تحـوزَ عـلى مقـدرةِ أن تمـزجَ طينـةَ مـن يـأكلُ منهـا بنَفَـسِ التفكّـرِ والفهـمِ العالمـيِّ والإنسـانيِّ الرفيـع الـذي كان كائنـاً فيـه.

كانـت سوسـنُ القمحيّـةُ القِصَـيْرَةْ مَحكَّـرةً، كـما قلـتُ، في نُـصِّ قبيلتهـا السياسـيّة المجيـدة. وكانـت القبيلـةُ تمـزجُ جـدّاً بهـزل حـول شـؤونٍ محليّـة وعالميـة كثـيرة. كانـوا يقولـون اشـياء متناثـرة ومتحمّسـة، كأناشـيد طازجـة خرجـت لتوّهـا، مـن فـم هتّافـةٍ «وطنيّـين» محترفـين، للمـلأِ الأدنى. وبـين ذلـك كلّـه كانـت كلـماتٌ مثـل «الحتّـة دي» و«الحتّـة ديـك» و«الحاجـة دي» و«الحاجـة ديـك» و، عـلى الأخـص، «الزّولـة دي» و«أنـا ختّيـت فيهـو راي» و«دِي بتّتِـم كيـف؟»، ثـمَّ-

سـكتة قصـيرة- «بِتْتِـمْ عـبر النّضال اليومـي طبعـاً»، وخلافهـا مـن الـذي منـهُ، تَتَطَاقَـشُ في هـواء الحـرم الجامعـي العتيـق. وأحيانـاً، عندمـا تتمركـزُ في وسـطهم لحيـة شـديدة الثقافـة والتنـوّر (وغـير قياديّـةً في الغالـب!) قـد تُرمَـىْ بحـذرٍ- خوفـاً مـن اتّهـامٍ، مضمـرٍ أو معلـنٍ، بالصفويّـة **والأكاديميّـة** (وليس **التهويميّـة**، فتلـك وصمـة ٌ طبـق الأصل محفوظـةً في رفّ اتّهـامٍ خشـبيٍّ عريـق يخـصُّ، بجـزمٍ باتـرٍ، أناسـاً مثـل مجـذوب الطيـب ومـن هـم إليـه في مِـزاج التَّرمنُـس والتّوجـدُنْ [مـن «رومانسـيّة» و»وجُوديّـة»]!)- كلـماتٌ مثـل «البنيـة» و»النّـص» و»العلامـة» و»الكولونياليّـة» وبعـض «المـا بعديّـات» و»المِيْتَـاتْ»، ثـمَّ أسـماء خواجاتيّـة كبـيرة وناشـفة مثـل دي سوسـير وألتوسـير وجوليـا كريسـتيفا وباختـين وأيـوه، الخوّاجـة الفرنسـاوي داك اسـمو منـو؟ أيـوه، جـاك دريـدا (أوْوَيْ!) في الهـواءِ الخَـلِيِّ الـذي بينهـم. كانـت سوسـن ترتـدي، آنـذاك، ثوبـاً بلـونٍ شـبيهٍ بلـونِ زهـرةِ نبـاتِ العويـرِ الورديّـةِ الشّـفّافةِ، ثـم كانـت ضاحكـةً وباديـة الحيويّـة والتّوثّـب، رغـم مـا تخلّـل مـا هـي فيـه، أحيانـاً، مـن نظـراتٍ مروحيّـة خفيفـة الإسـتغراب (أو ربّمـا التّهكّـم؟) تجـاه مجـذوب الطيـب الراسـخ، بتهويـمٍ صـافٍ وحزيـنٍ قليـلاً (أو كثـيراً؟)، عـلى حَجَـرِهِ الفلسـفيِّ، العتيـد. وكان يبـدو عليهـا، آنمـا تكـونُ هـي ممارسـةً لذلـكَ، أنّهـا كانـت تتوقّـع ان يـردّ مجـذوب الطيـب عليهـا نظراتهـا تلـك بإيمـاءةِ اسـتجابةٍ جسـديّةٍ مـا، مثـل نظـرةٍ عابـرةٍ ومرّكـزةٍ أو ابتسـامةٍ خفيفـةٍ سـاهمةٍ مـا أو حتّى تشـكيل كلـماتٍ مـا مهموسـةً، مـن عـلى البعـدِ، عـلى شـفاهه الرّهيفـة، لكنّـه ظـلّ صامتـاً، ثـمّ لم يُخـف وجهها عنـه، رُغـمَ حيويّتـهِ الضّاحكـة، أنّهـا، لسـببٍ غامـضٍ مـا، لم تكـن راضيـةً بـأن يَـصْرِفَ عنهـا هـو (أو ربّمـا أيُّ وَلَـدٍ آخـرٍ مـا يراهـا، مـن عـلى مسـافةٍ مـا، في ذاتِ الهيئـةِ والظّـرف)

حتّى نظر الإيماء الجسديّ المستجيب. لكن.. هل كانت تلك الإستجابة التي كانت ترومها منه في ذلك الزمان الماضي البعيد مجرّد أيِّ استجابةٍ ما والسّلام أو استجابةٍ **معيّنةٍ ومخصوصة**؟ ذلك شيءٌ لم يستيقن منه مجذوب الطيب أبداً في ذلك الزمان، بل وهو لم يَخبر عنه لنفسهِ (أو بنفسِهِ)- كما قد يَخبرُ امرئٌ ما بمجردِ فعلِ سَرَيَانِ وجَرَيَانِ التّقادمِ والإستعادة- أيَّ حقيقةٍ ذاتِ أهميّةٍ عينيّةٍ نفسانيّةً أو حياتيّةً ما حتّى وهو في زمانهِ الحاليِّ الكائنِ على مسافةِ سنينٍ قصيّةٍ عن موقعِ ذلكَ الزمانِ الماضي البعيد. فكلّ ما بات يعرفه عن تلك الحادثةِ الماضويّةِ الغابرةِ هو حالُ كونِها، حينذاكَ، ومضةً 'عاش على إشراقها'- كما في شعر صدّيق مدثّر وغناء عبد الكريم الكابلي- زمناً وجيزاً ثمّ 'انقضت عجلى وما أصغت [إليه]'- والإستعارةُ لا تزالُ من صدّيق مدثّر والكابلي- ثمّ أتاهُ، من بعدِ ذلكَ، حينٌ من صمتٍ طويلٍ أعقبتهُ محاولةُ للإستمرارِ، دون سببٍ بيّنٍ أو حتّى جدوى ظاهرة، في تفصيل فكرة استعادة روائيّةِ قديمةٍ لها في زمان حياتهِ الخلافيِّةِ الحاليّةْ.

عندما تفرّق ذلك الجّمع، الذي كانت سوسن ضاحكةً في وسطه الزّاخم، سلكت سوسن طريقاً عاد بها إلى جانب كليّة الآداب المؤدّي، عبر حجر الفلاسفة وممرٍّ أرضيٍّ آخرٍ، إلى ساحة مكتبة الآداب، ومن ثمّ إلى الباب الخلفيِّ للكليّة حيث عبرت، من بعد ذلك، إلى الشارع الرئيسيِّ المؤدّى، عبر طرف مقهى النشاط الجنوبيِّ ومحلّ حلاق الجامعة وكلية القانون، إلى خارج مبنى الجامعة وإلى شارع الجامعة حيثُ المواصلات العامة المتجهة، غرباً ثمّ شمالاً وعبر كوبرى النيل الأزرق، إلى مدينة بحرى (ثالث

مـدن العاصمـة السـودانيّة المثلّثـة) وشرقـاً إلى مركـز مدينـة الخرطـوم، بمكاتبـه ومصالحـه ودواوينـه الحكوميّـة العتيـدةِ وسـوقَيْهِ الإفرنجـيِّ والعـربِيْ. لكنّهـا، عنـد وصولهـا عنـد حجـر الفلاسـفة تمهّلـت قليـلاً كبـصِّ مواصلاتٍ عـلى وشـكِ أن يبلـغ محطّـةً مـا في خـطّ سـيره. كانـت حريصـةً عـلى أن تجعـل تمهّلهـا ذاك يبـدو غـيرَ مقصـوداً أو- بعبـارةٍ أخـري- معنيّـاً، عـلى نحـوٍ مـا، بـشيءٍ آخـر غـير ذلـك الجالـس عـلى حجـر الفلاسـفة، بـشيءٍ مثـل تلـك الصحيفـة الحائطيـة التـي ألصقـت وراءه عـلى الحائـط العـاري مـن الطـلاء، أو ذلـك الوجـه الـذي حيّاهـا، بإيمـاءةٍ عجِلـةٍ، مـن عنـد الجانـب الشرقـيِّ لـه، أو حتّـى ذلـك الطائـر البُنـيِّ الغامـق الصغـير (الـذي يدعـوهُ الأهلـون باسـم «ود ابـركْ») الـذي هبـط، آنـاء طيرانـه، فجـأةً إلى مسـافةِ متريـن فـوق الجالـس عـلى الحجـر (مجـذوب) ثـم انثنـى مرتفعـاً، مـرة أخـرى، إلى سـمائه الفسـيحة، مكوّنـاً بحركـة طيرانـه تلـك شـكل نصـفٍ بيضـةٍ غـير مـرئي. إغتنـم مجـذوب الطيـب فرصـة تمهلهـا ذاك وبـثَّ، في اتّجاههـا، بنظـرةٍ جانبيّـةٍ سريعـةٍ، كلمـةً واحـدةً فقـط:- سوسـن....! اسـتجابت لندائـه بـأن هرعـت، بعصبيّـةٍ حاولـت أن تخفيهـا باتّخـاذ سـمتِ هيئـةٍ مهنيّـةٍ محايـدة، إلى ناحيتـه، ثـمّ وقفـت، سـاكنةً، عـلى بعـد بوصاتٍ قليلـة جدّاً منـهُ كادت تجعلهـا تحـسّ وَقَعَـانَ أنفاسـه، مـن عـلٍ، عـلى رأسـها. لم يضـع هـو زمنـاً في أيِّ تمهيـداتٍ جانبيّـة أو 'لطافـات' اجتماعيّـة زائـدة، بـل سـألها، بصـوتٍ خافـتٍ وبسـيطِ النّـبرة رغـم خشـونته الخفيفـة، عـن مـا فعلـت بشـأن الـردّ الـذي طلبـه عـلى رسـالتها إليـه- تلـك التـي أرفقهـا، قبـل مـا يقـارب الشـهر، إليهـا بصحبـة بعـضٍ مـمّا أطلـقَ عليـهِ، حينـذاكَ، تسـمية «محـاولات شـعريّة». صمتـت سوسـن، إزاء هـذا السـؤال الواضـح، لهنيهـةٍ كثيفـة الأنفـاس وكأنّ نَفْسَـهَا قـد كُـسرتْ،

عـلى حـينَ غـرّةٍ، بذكـرى واقعـةِ- أو لعلّهـا خـبرةِ- مـاضٍ شـديدة الأسى. لكنّهـا سُرعـانَ مـا لأَمَـتْ- عـلى الأَقَـلِّ في الظاهـرِ الإجتماعـيِّ- كسرهـا المباغـت ذاك وقالـت لمجـذوب، في صـوتٍ أنثـويٍّ مـوازٍ لصـوتِ مجـذوب الطيـب في صفـة خفوتـه وخشـونته الخفيفـة:- «القصايـد احتفظـت بيهـا لأنَّهـا جميلـة، لكـن جوّابـكْ شَرَّطُّـو لأنّي عايـزاك تبقـي لي، لـو أمكـن، صديـق وبـس و...» [«مـا دايـره منّـك جوّابـات تانيـه لـو سـمحتَ»]. كذلـكَ أتـمّ مجـذوب الطيـب بقيّـة حديثهـا ذاك في داخـل صمتـه الصّديـقْ. قالـت سوسـن كلمـة «صديـق» تلـك بتهكّـم خفيـف- أو بمـا أحـسّ مجـذوب، عـلى الأقـلّ في لحظتـه تلـك، بأنـه «تهكـمٌ خفيـف»- وأرفقتهـا بابتسـامةٍ صغـيرةٍ وكأنّهـا كانـت تحـاول أن تُخفـي شـيئاً آخـراً- شـعوراً آخـراً مـا، إنجذابيّـاً أو نفوريّـاً- تحتهـا كانـت خائفـةً، خوفـاً غامضـاً، مـن أن يلتقطـه مجـذوب، بكيفيّـةٍ مـا، ثـمّ يسـجّلهُ، بتهويـمٍ مُركّـز، في الصفائـح البيولوجيّة-النّفسـيّة لذاكرتـه الوسواسـةِ، أو- قـل- واعيتـه الليريكيّـة العتيقـة.

ومضـةٌ/ عشـتُ عـلى/ إشراقهـا/ وانقضـت/ عجـلى ومـاا أصغـت إليّـا/ كلمـةٌ... ومضـةٌ/ عشـتُ على/إشراقهـا/ وانقضتْ/عجـلى ومـا/ أصغـتْ إليّا/كلمـةٌ... ثـم تقطّـعَ، تدفّـقَ، صـوتُ مجـذوب الطيـب (صـوتُ ذاكَ «الجالـسُ عـلى حجـرِ الفلاسـفةِ») مليّـاً وحزينـاً، وفي ذات الوقـت- ويـا للتناقـض- منتشـياً، بغنـاء صِدّيـق مُدَّثِّـر وعبـد الكريـم الكابـلي السِّـتينِيِّ المشـبُوبْ.

الكتاب الثاني

1

ربما قال الرواي، في ثنايا الحكي السابق، خيوط أشياءٍ وتصاويرٍ عن حالات حدثية صغيرة تصلح لسردٍ شجيٍّ- أو غيرِ شجيٍّ (لازم نقول دي!)- ما. لكنّه نسي، من بعد ذلك، تلك الخيوط وأهملها في ركن بيت عنكبُوتِ روايته المهترشة، ثم انصرف، بوسوساته الفالتة، عن كلِّ ذلك الـ»ما» إلى حجاويه (القد تكونُ أم ضبيبينيّةً عند بعضِ متصفّحيها) عن مجذوب الطيب وعن سوسن والجامعة ومغامرات الوزير-الزير وشيوعيّي الجامعة، ثمّ إلى خطرفاته الشديدة العديدة الأخرى. هو- الآن- يبدو ذاهلاً عن كلّ ذلك نحو حكاية- رواية ربّما- جديدة كان قد بذر بذرتها في شبه جملةٍ، فيما يذكر، عن بنتٍ، عن وردةٍ كوستاويّةٍ خضراءَ، قال لها مجذوبٌ، ذاتَ أفولٍ («يا قول عادل القصّاص!»):- «هذا فِراقٌ بيني وبينِك!».

أيوه، ها هو الكلامُ عن البنتِ، عن الوردةِ الكوستاويّةِ الخضراءِ، التي كان اسمها بدريّة، وعن شأنها مع مجذوب الطيب:-

<u>رسالةٌ- قُبَيْلَ الـ «هذا فِراقٌ بينِي وبينِكْ»- من مجذوب الطيب إلى بدريّة:-</u>

لا تدعيني في المنتصف.. لا حقَّ لي عليكِ بفعلِ شيءٍ ما ولا حقَّ لي على أيٍّ أحد.. لكنّي اشتقتُ وبروحي هسيسُ ثعابين الأحزان

الخفيّـة.. وبي عصـفٌ موجـيٌّ مـن الحنـين.. هـل أحتَضنُـكِ خيـالاً.. طيفـاً.. أيـنَ أنـتِ؟!

كان ذاك الحديـثُ، بحسـب تخريـج ذاكـرة الـراوي اللولبيّـة، في فبرايـر مـن ذاك العـام في منتصـف الثمانينـات، فيـما جـاءت الـ»هـذا فـراقٌ بينـي وبينُـكِ» في سـبتمبر منـهُ. ويلهـجُ الـراوي، بتأثُّـرٍ غريـبٍ، بـأنّ تلـك الـ»هـذا فـراقٌ بينـي وبينُـكِ» قد قالهـا مجـذوب الطيب ذات ظهـيرةٍ تغـدّى فيهـا فيـما بعـد بـ'مُـلاحِ خُـدْرَةٍ' شـهيٍّ البـوخ والنّكهـة وبـأن مـكان ذاك القـول كان هـو الـدربِ الطينـيِّ التِّحتـانيّ الكائـن وراء اسـبتالية مدينـة كوسـتي والبـادئ، شـمالاً، مـن عنـد حديقـة البلديـة و»سـينما كوسـتى الوطنيّـة».

لكـنّ بدريّـة (بحسـبِ عِرْفَـة مجـذوب الطيـب الكانـتْ باينـة ليهـو في داكْ الوَكِـتْ) مـا كانـت عـلى علاقـةٍ بـكلِّ خصوصيّـاتِ (أو خاصيّـاتِ) ذلـك «الوهـم» الـذي كان هـو فيـه. نعـم، هـي كانـت طيّبـة. ذاك كان واضحـاً لمجـذوب الطيـب مـا يكفـي، أو ربّمـا بأزيـدَ قليـلاً مـمّا قـد كان سـيُكفي. لكنّهـا- أي تلـك الطيبـة- كانـت، فيـما عُلِـمَ مـن الطّبـعِ بالـضرورة، مـن جِنـسِ «الطيبـة التقليديّـة» إيّاهـا والتـي تُغِيْـظُ عندمـا تنقلـبُ عـلى ذاتِهـا المنفتحـة وتغـدو مأسـورةً بالوصايـا العتيقـة والألـواح التـي خطّهـا، بنَفَـسِ ودمِ القرابـةِ والأوشـاج القبليـة (العتيقـة أيضـاً)، آبـاءَ مـا كان لهـم تصـوّرٌ لهيئـةِ و'موقـفِ' الإنسـانِ الـذي كانَ، حتـماً مقضيّـاً، قادمـاً عـلى إثرهـم، لا لـكي يمحـوا رسـومهم بـل لـكي يُعمّـقُ مـا هـم كانـوا فيـه مـن أصـولٍ فيـما وراءِ- أو تحـتِ أو فـوقِ أو حتّـى بـينَ- الأوشـاجِ ودم القرابـةِ ذاكْ.

كانـت بدريّـةُ تخـشى، بغمـوضٍ مُمتِـعٍ، مـن أنْ تكـونَ، لزمـانٍ

طويـلٍ، وحيـدةً في حقصتِها مـع مجـذوبْ. ذلـك رغـم كلّ كلامهـا، الخافـت الصـوت والبائـن العفويّـة، عـن نبلـه وقولهـا- الـذي كان هـو، حينـذاكَ، معتقـداً، دونَ شـيّةٍ مـن شـكٍّ مـا، بأنّـهُ كان «فاهـماً» لـهُ، بـل هـو قـد ظـنّ، آنـذاكَ، كذلـكَ بأنّـهُ كان هنالـكَ «حنـانٌ طبيعـيٌّ أكيـدٌ يتلبّسُـهُ»- لـه بـأن «كان دايـِرْ كلُّ يـومْ تعـالْ».

رغـم ذلـك ظلّـت «كان دايـر كلّ يـوم تعـال» مـن مرويّـات تاريـخ التمتـمات الذاتيـة الأساسـية لنَفْـسِ- أو نَفَـسِ- مجـذوب الطيـب فنُقِشَـتْ (دون أن يُـدركَ- حتّـى هـو نفسـه- ذلـكَ بوضـوحٍ) في صلصـالِ فهـرس عفويّاتـهِ المُخضْرَمَـةِ العريقـة. ثـمّ صـارت، عنـده، كـما بـدا لـهُ، كمثـلِ كلامٍ لا يني يتـواردُ، تلقائيَـاً، عـن خاطـرهِ متـى مـا تمنّـى أن تُجرّبُـهُ امـرأةٌ مـا، خصوصـاً إن كانـت تلـكَ زّينبيّـةً شـديدةً في لونهـا.

خـلاص! أو ألاسْ Alas! هـو كانـت قـد سـبقتْ وخُتِمَـتْ عليـهِ قَوْلَةْ «كان دايـر كلّ يـومْ تعـالْ!» البَدْرَاويّـةْ. «يـا ربّي هـل هـل طارينـي قلبُـو ويحـب دوام أكـون بقُرْبُـو:- هـذا هـو الـكلام يـا ابـنِ الصبابـاتِ وهلاويـسِ أربـاعِ وأنصـافِ، ثـمّ وأثمّـانِ (نعـم وأَثْمّـانِ!)، الذكريـاتِ القديمـةْ». هكـذا قـال مجـذوب الطيـب لنفسـه عنـدَ مُنعطـفِ دخـولِ الحـوشِ الأوّلِ لكلامـهِ مـع بدريّـةْ. بـل هـو قـد كتـبَ ذاك الـكلام في مـا شَـبُهَ رسـالةً، رغيفـةً، طازجـةً، تلقائيّـةً، غـيرَ ذاتِ مدخـلٍ أو حشـوٍ غـيرَ ضروريٍّ أو في مـا شَـبُهَ لمسـةً أوّلانيّـةً كان هـذا هـو مـا لَهَـا:-

خواطر متناثرة بحريّة......

أسـائل نفـسي حـين أغيـبُ عنـكِ، هـل تتذكّرينـيْ؟ وتـرفُّ في داخلي تسـاؤلاتُ الأغنيـةِ المتوجّـدة:- يا ربّي وكتـين يقعد براهـو ويتذكّر الماضي

.. في الوكتِ داكْ هل يفتكرني؟ هل «تفتكرينني» في «الوكتِ داكْ» يا [بدريّة]..؟!.. أشعرُ أنّي، وهذه حقيقةٌ، فقد عقدنا مذهبنا على الصّدقِ لطيفاً كان أم جارحاً، أشعرُ أنّي قد أُصبتُ بهوسٍ إسمُهُ الذّكرى فأنتِ بدأتِ تكونينَ معي حتّى حينَ لا تكونينَ معي..! أصبحتِ تعيشينَ معي من البعيدِ، في الدّاخلِ تحيينَ وفي مسالكِ الدّماء «من بعيد بتعيش معايا، في فؤادي وفي عيوني وفي دمايا».. جمالُ الصّدفةِ قد تجلّى في أروعِ قمّةٍ حين كانت صدفةُ لقائنا. هذا ما شعرتُ بهِ الآنَ بعمقٍ.. إنّكِ- وقد لا تُصدّقينَ- تتسربينَ إلى الدواخلِ وتُسرينَ ببطءٍ، لكن بعمقٍ، في القلبِ وفي الرُّوحِ.. ونشيدي لكِ، الذي هو نشيد أيامي هذه والقادمة، أن أغنّي لكِ:- «أنا في شخصِكْ بحترمْ أشخاص وطبعاً عندي احترامِكْ خاص»... هل تصدّقينَ أيّ إحباطٍ ويأسٍ كنتُ أحملُهُ قبل أن ألقاكِ وأيّةُ سوداويّةٌ كانت تسكنني؟ بعضُ ما حكيتُ لكِ عنها كان يسيراً.. كنتُ سوداويّاً وحزيناً.. ورُغمَ ذلكَ كنتُ فَرِحَاً بذلكَ في زمانٍ قادمٍ لأنّني كنتُ حيّاً! ثمّ أتاني زمانُ موتِ الشعورِ حتى حسبتُ أنّ قلبي لن يخفق بمشاعرٍ عميقةٍ بعد اليوم، لن أحيا بعد اليوم، فالبرودةُ وموتُ الشّعورِ قد ختما على قلبي بختمهما الأبديّ حتّى كتبتُ قصيدة «موت الشاعر» الذي هو موتي، وحتى الشّعر- جذوة التوقّد والحياة- ماتَ فيَّ.. مِتُّ قبل انتهاءِ الحياةِ وأنا أعي جيّداً بأنه أسوأ من الموتِ بعدِ انتهائها..!

قد لا تُصدّقِيْنَ، والمُنى أن تُصدّقي لأنّي أخافُ جدّاً أن أُكْتَبُ عندَكِ كذّاباً وأنتِ ببراءتِكِ الحلوةِ تكرهينَ الكَذِبَ والكذّابينَ و«الكذب الفيهو الشّر داك- زي ما قلتي لي مرّة بي صدق وبي

بساطة جميلة ونافذة للقلب»، قد لا تُصدّقينَ أنّكِ باعثةَ الفرحِ في داخلي وباعثةَ التوهّج بعد عمرٍ مديدٍ من الغثيانِ والرتابة والقتامة وموت الشّعور.. بعمقٍ أحسّكُ الآنَ «جُوّه أعماقي نور، كلماتْ» وكما قُلتُ لكِ:- أحبّ أن أراكِ في ما تشائينَ من الأوقاتِ ولو استطعتُ لكنتُ معكِ صبحاً ومساءاً، صحواً ومناماً.. و«إنشاء الله إنتِ ما تمسخي أبداً» بس «أوعى أنا أمسخ ليكْ».. شوقي لكِ أصبحَ يحتويني عندَ كلّ مرفقٍ وعندَ كلّ زمانْ..*!* صَدّقينِي..

هذا عبيرُ صدقٍ أنفُثُ منهُ الآنَ ما أستطيعُ بعد أن شعرتُ بعمقٍ بشيءٍ من هذه المشاعرِ الرومانسيّةِ جدّاً التي كنتُ أحكيها يغمرُ قلبي ويأبى إلا أن يجدَ لهُ مَخْرَجَا، يأبى إلا أن يُقالَ وإلاّ اختنقْتُ بهِ.. وأنتِ لم تُعلّمينني الكتمان يا عزيزة النّفسِ.. يا *[بدريّة]*.. والمنى ألا أكونُ جارحاً في كلّ ما قلتُ ولكِ سلاماً جميلاً وِذكراكِ الجّميلةُ معي دائماً لذا «لا دُنيا بتزيلا ولا آخرة بتمحاها» كما قال المغنّي وقد صدقَ حقَّ الصّدقِ وبلغَ منتهاه..*!* «ولاّ مُشْ كِدَهْ يا *[بدريّةْ]*»..؟

ليل *9/2/1981* – يوم الإثنين، الساعة *12.22* *[ليلاً]*..

مجذوب الطيّب – *5* آدابْ.

ملحوظة:-

قد يكونُ ما قُلتُ خارقاً لعقدِ صداقتنا الذي لم نُحدّدْ له وقتاً معيّناً ينتهي فيهِ إلى شيءٍ آخرٍ «حبٍّ مثلاً» وتركنا ذلكَ للظّروف، وقد يُعبّرُ عن ما هو أعمق من الصّداقةِ وأقوى.. لكنْ ما حيلتِي وهذا ما جالَ بنفسي وليس لي سوى التعبيرُ بصدقٍ عنهُ.

عندَ التصاقِ بدريّة به في داخلِ بصٍّ رحلة رابطة أبناء كوستي كان مجذوب الطيب يتَشَهَّاها، بحياءٍ غامضٍ، برغبةٍ جنسيّةٍ معتمةٍ بخوفٍ صبيانيٍّ لذيذْ. شحَّ قلبُهُ، حينذاكَ، بوميضِ قطرتين خاطفتين من الماءِ النديْ. ثمّ تذكّرَ، دون رابطٍ عقليٍّ واضحٍ، ومضاً صباحيّاً، ريشيّاً، خفيفاً، بعيداً، كان يراهُ، في الذكرى، على أوراق نبتاتِ جرجيرِ متشبّثةً جذورُها، بجلاءٍ غرافيكيٍّ، بطينِ جرفٍ عند شاطئ النيل الابيض وحذاء الجهة الشرقية من مدينة كوستي.

كانت الرّيحُ رقراقةً، وكانت شمسُ الصباحِ باردةَ اللّهيب. وكان مجذوب الطيب عندَ إيلافِ بدريّة المحتمل- ليس تماماً، بل نصفيّاً وبسهومٍ مُهوّشْ. كما وكان أيضاً مُداخلاً- في نفسِهِ- بشيءٍ من المعرّيْ، بشيء من استيحاشٍ متنبّئٍ هو النقيض المباشر لذاكَ الإيلافْ. كان البصّ متدحرجاً على صباحه الهفهاف بهبابيهِ الهَمْبَرَيْبِيّة فيما هو يكحُّ، على إسفلتِ شارعهِ الطويلِ، خيوطاً نفّاثةً من دخانِ عادمِهِ الصّدئِ العليلْ. كانت بُنيّاتُ الرّحلةِ تجلو الهواءَ بالضّحكاتِ والوجوهِ النّاعمةِ المتغامزةْ. وكان مجذوب الطيب- ربّما بِنَسَبٍ من المعرّيِ الذي داخَلَهُ ورغم إيلاف بدريّة المحتمل- حزيناً (مع كلّ ذلك الذي سبق)، في مكانٍ تحتانيٍّ غريقٍ من نفسهِ، على نحوٍ لا يصفهُ الكلام. ذلكم رغم التصاق بدرية الغريزيّ بهِ عند مقعد البصّ الخشبيّ المبطّنِ بإسفنجٍ برزت بضعةٌ من أطرافهِ المتآكلة من بين شقوقِ غلافٍ بلاستيكيٍّ مُخضرمْ. غمزتْ إحدى الفتيات الشيطانات بعينيها ناحية بدريّة ومجذوب، ثم غروَدَتْهُمَا وأمالتْ رأسها، ذي الشعر الأسودِ الناعم المسرّحِ الكثيفِ، قليلاً إلى يمينها- فيما كان مجذوب الطيب وبدريّة على يسارها- فبدا طرف فمها

الأيسر مائلاً إلى أعلى في شبهِ انفراجةِ فَرْجٍ شهوانيّةٍ جعلت عيناها تومضانَ- لوهلةٍ- بتضمينٍ مكّارْ. لم تعجب بدرية هيئةُ تلك البنتِ فحزمتْ لها وجهها المُدوّرَ في صُرّةٍ واحدةٍ، في كرةٍ واحدةٍ مُكرْفَسَةَ الجّوانبِ وأطلقتْ، في وجهها مباشرةً، «هـهْ!» كبيرةً، ومُستخِفَّةً!

لكنّ تلكَ البنتِ لم تُدِرْ، مع كلّ ذلك، وجهها تائبةً إلى الجّهةِ الأخرى. لم تَدِرْ هي، توّاً ومن بعدِ ذلكَ، الخدّ المسيحيّ الأيسر إلى اليمين، بل تمعّنتْ قليلاً- بتصنّعِ أنّها قد فوجئتْ بردٍّ فِعلٍ زائد الحساسية (أو ربّما الحماقة) ولا يستأهله 'الحدث الصّغير'- في الكرةِ المُكَرْفَسَةِ، الفاتحةِ السّوادِ (أو الخَدَارِ)- التي كانت هي، حينذاكَ، قاعدةً في مكانِ وجهِ بدريّة- قبل أن تُعيدَ وجهها، ببطءٍ سينمائيٍّ مُعاندٍ ومُتعمَّدٍ، إلى وضعه الأوّلِ الباسمِ الثّرثارِ، البُنّيِّ وذي العينين الفاجرتين القَاهِرَتَيْنْ.

[في موازاة تذكارية مختلفة السياق والنكهة عن تلك الصورة سيشتهي مجذوب، في سنينٍ بعيدةٍ قادمة وفي بلادٍ عجميّةِ النَّفَسِ (وبطفولةٍ شديدةَ الإنجراحِ بالغيابِ كثيراً ما تواتي، على حينَ غرّةٍ، بعضَ الملهوجةَ قلوبُهُم، من الشعراءِ خصوصاً، بالحساسيةِ والوهمِ آنما يدرجون- قليلاً أوكثيراً- حول سنةِ عمرهم الخمسين) صديقةً قديمةً باسمةً كان قد عرفها وحانَنَها من بعدِ حصولِ حالِ «هذا فراقٌ بيني وبينكِ» فيما بينه وبين بدريّةٍ. طويلةَ الجّسدِ والصّفاتِ، كانت تلكُمْ الصديقةُ، وذاتَ شمرةٍ داكنةٍ ومُمَلّحةٍ بالضّحكِ الكبيرِ الفصيحِ وإيناسِ ظهيراتِ جَلَسَاتِ الحنّةِ الأنثويّةِ الخريفيّةِ أو ربّما القهوة].

هبت، فجأةً، ريحٌ باردةٌ من شباك البص المجاور لحيث كان

مجذوب الطيب وبدرية يجلسان، ملتصقين وفي أنفاس بدرية ظلت هنالك بقايا غيظ من «حركاتِ» تلك الفتاة التي لم تكن «في شكلِ ورود» فيما مجذوب الطيب فيما هو معلومٌ من طبعه بالضرورة، كان يقهقه لا مبالياً بذاك الشأن الفائت، وإن كان آسفاً- بلا اكتراثٍ أو، على الأدق، بلا جديةٍ ظاهرةٍ- على ضياعِ «موهبةِ» ذلك الوجه «الشّريفيِّ» في حاجةٍ فارغةٍ ومقدودةٍ كتلك المشاغبة. لكنّ تلك الريح سرعان ما لفحت، باستدراكٍ رحيمٍ، وجه بدرية فاستعاد ذلك الوجه حياءه الطبيعيّ الغامض، عذريته الخضراء الشبابيّة، ثمّ إيماءَ ابتسامٍ خفيفٍ ومنصرفٍ إلى خواطرٍ خاصّةٍ، لذيذةٍ ومبهمةْ.

ثمّ واتى بضّ الرحلةِ نعاسٌ خفيفٌ سرّبهُ إليهِ، بشيطنةٍ، شرودُ عطرِ بناتِ الرحلةِ فيهِ وانمزاجُهُ (اللا مَحريَّ التّواؤُمُ ربّما) بهوائه المعتّقِ بصدأ قديمٍ صديقٍ بهِ شيءٌ من طعمِ رائحةِ ماءٍ بائنةً فيهِ- بكيفيّةِ عنايةٍ ما، **طبيعيّةٍ** وغامضة- نكهةٌ مُخرّمةٌ وقديمةٌ أو هي شبيهةٌ بتلكَ التي قد تُوافي مِعدناً متناثراً دقيقُه من على هيكلٍ مُتداعٍ لطاحونةٍ قرويّةٍ قديمةْ.

وعلى باب ذكرى طفولةٍ مبهمةَ النّبعِ تمايل البضُّ، فجأةً، بانتشاءٍ حزينٍ إذْ استوت أمام وجهه («وش التّيمسِ ذاك!») ذاتُ الخُضرةِ الستينيةِ-الغنائيّةِ القديمةِ لحدائق جامعة الخرطوم في بلدةِ سوبا، قبل أن يكحّ كحّتينَ قصيرتينَ ويصمت، متمهّلاً في تدرّجهِ بالصمتِ فيما كان بناتُ وأولادُ جامعة «الفرعِ» الكوستاويّينَ، إلا قليلا، يُطَرقِعُونَ أجسادهم، إلى رحابةِ خارجهِ الماهلة، في وثباتٍ مفعمةٍ بجيشانٍ من ليست له «حيلةُ» معاشٍ لنفسهِ سوي خلل «توهّمها» أبديّةً وخالدة (أو كما قد يقولون، عادةً، بأنّ فيلسوفاً

أورُبّاوِيّاً ما من القرن الثامن عشر الميلادي، بالذات، قد أتى بمُتَرَدَّمِهِ قبلي أنا الأفريقيُّ الهامشيُّ- الحَشَرِيُّ – النّكِرَةْ! «ولا مُش كده يا معاينين هنا؟!»).

«إلا قليلاً» هذه قد عنت هنا، بالجّزْمِ، ذلك الإسلاميُّ الذي كان، منذ أن كان طالباً في «فرعهِ» تلك، مالئًا، بفيزيائيّةٍ حرفيّةٍ، لمركزه الذي هو- كما في «ماشاءَ اللهِ» الزّينين الطّزيانين- لحمته وسُداه حتّى وإن لم تنم عنه، من فرطِ غيظٍ إنسانيٍّ عريق كظيمٍ، أعين سياسيين وصحفيين موتورين!

قد كان ذلك الـ»إلاّ قليلاً» شخصيّةً إسلاميّةً جهبوذةً من أولئكَ المأذونَ لهم بأن «يُحققّوا»، في ملفوظاتِ دنياواتهم المُسْهبَةِ، مقامات «لا حاكميّةَ إلا لله» و»السّاكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسْ»، كما و»المجدُ للمجاهدينَ في كابُولَ والجّبال». لكنّه كان مستثنىً من لزومِ ما لا يلزمُ من الملبسِ والهيئةِ المتوائمينَ، تقليديّاً، مع تلك المقامات:- الجلباب واللحية والوجهُ المؤكّدةَ عليه، كأنّما بتحايُلٍ مضمرٍ ومتعمّدٍ، علامةُ «غُرّةِ الصلاةِ» المسودّةُ خصوصاً، على جباهِ العاملينَ عليها من المِزواجينَ الأتقياءْ.

ويتذكّرُ مجذوبُ، آناءَ استعادتهِ المغتاظةِ لهيئةِ ذاكَ الإسلاميّ الفطحول، أنه كان هنالك رسّامُ كاريكاتيرٍ شديدَ الموهبةِ كان يدرسُ، عندَ أواخرَ سبعينات القرن الماضي وأوّلَ ثمانيناتهِ، في كليّة العلوم بجامعة الخرطوم له تصنيفات ‘فنيَّة’ و‘أيدولوجيَّة’ دقيقة لأحوال الإسلاميين الإجتماعية والسياسية في كلٍّ من الجامعة الإسلامية وجامعتي الخرطو و»الفرع» فلقد رسم، في كاريكاتيرٍ محضورٍ وخفيفِ الدّمِ واللّونِ بيد أنّه عميق الذكاء والباصرة،

جـدولاً تفصيليـاً طريفـاً مبيّنـاً لتلـك التصانيـف والأحـوال في دقـةٍ شـديدةَ الجّدّيّـةِ في ذاتِ تلهّيهـا ومرحهـا الـلاذع.

قسّـم الكاريكاتيرسـت الفنـان، في رسـمه ذاك، الإسـلاميين إلى فئـات ثلاثـة مختلفـة بحسـب مقاديـر اندراجهـا، قربـاً أو بعـداً، في معيّـة الحيثيـات الإثنولوجيّـةِ والطوبوغرافيّـةِ الضروريّـةِ لتصـوّرِ اسـتقامةِ أيِّ معـاشٍ ليـبراليٍّ ممكـنْ. ففـي الطـرف اليسـاري الأقـصى مـن جـدولِ قوائمـه تلـك وضـع فئـة «الإتجـاه الإسـلامي» في جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم. ثـم جعـل لفئـة «الإتجـاه الإسـلامي» بجامعـة الخرطـوم موقـع الوسـط («واسـطةَ العقـدِ»، كـما قـد يقولـونَ في كلامِ الرّنـينِ التقليـديِّ) مـن ذاك الجـدول فيـما هـو جَنّـبَ فئـة «الإتجـاه الإسـلامي» في جامعـة أمدرمـان الإسـلامية إلى طـرفِ اليمـينِ الأقـصى مـن رسـمِ ديوننـا الإقتصاديّـةِ والإجتماعيّـةِ المُجَدْوَلَـةِ ذاكْ.

في قائمـة جامعـة الخرطـوم جعـل الرسـام الإختـلاط، مثـلاً، بـين الأولاد والبنـات الإسـلاميِّي والإسـلاميات الإتجـاه، حـلالاً ومباحـاً، لكـنّ ذلـكَ ليـس عـلى إطـلاقِ القاعـدةِ (كـما قـد يقـول الفقهـاء الملتحـون جهـاراً نهـاراً بحمـدهِ وشـكره تعـالى، أو تمامـاً كـما جـاءَ في الأثـر!)، فهـو حـرامٌ- طبعـاً- إن تجـاوز قاعـات الجلـوس والـدروس، الضـوءَ والشـمسَ ووضـحَ الخـارجِ البائـن، وحـرامٌ- كذلـكَ- إن كان حقصـاً في شـبه الضـوء، فيـما بـين الضـوء والعتمـةِ، أوفي العتمـةِ عديلـةَ الـرّأسِ! كذلـكَ تفنكـه الرّسّـامُ الطّربـانُ بشـأنِ اللّبـاسِ الوسـواسِ الخنّـاسِ فصـيّره حـلالاً، إن كان إفرنجيّـاً، في جامعـةِ الخرطـوم، عـلى أن لا تتجـاوز إفرنجيّتُـهُ حـدَّ الصّـدعِ بمُشَـهّيَاتِ الجسـدِ الوضيـحِ الصريـحِ بمـا يخالـفُ النّـصّ البتيـعَ في مُوجبـاتِ الكسـوةِ الفضيلـةِ وآدابهـا. ونـصّ فقـه الرسـم الطريـف

الحريـف، كذلـك، عـلى أنّ الهيئـة الأخـيرةَ مـن الإفرنجيّـةِ توغـل قطعيـاً، في الحُرْمَـةِ والكُفرانيّـةِ القُـراحِ إن هـي، جملـةً، اختصّـتْ بهـا الإنـاثُ وإن هـي، تخصيصـاً، جلبـت، عـلى سـوءِ عـورةِ ذلـكَ (والعيـاذُ باللـهِ!)، معهـا ظلمـةً وحـلاوةً وطـراوةً و»مَنَجَـاً» (وتلـك قطعهـا الـراوي مـن رأسـه ومـا كان يعـرفُ لهـا، أصـلاً، أيّ معنـىً!)، ثـمّ غَنَجَـاً.... أمـا في جامعـةِ أمدرمـانَ الإسـلاميّةِ فقـد جَعـلَ الرسّـامُ المُتَهَكّـمُ ذلـك جُلَّـهُ، في مـا بـين جمهـورِ الإسـلاميينَ، باطـلاً وحنبريـت (تمامـاً كـما قـال شـيخنا البروفسـور الشـهير عـن «الشـعر الحديـث» ومـا بـه مـن «تخابيـث»!) في أصلـه وفصلـه ووصلـه.

ثـم أتى الرّسّـامُ ذو الجّنـانِ إلى جامعـةِ القاهـرةِ، فـرعَ الخرطـوم- تلـكَ الحنينـةُ السّـكّرةُ، وحـلاوةُ اللّـبنْ!

مـا الـذي، يـا كاشـفَ، قـد رأتهُ عـينُ ذلـك الولدِ («الـذي دنيـاهُ كانت هاهنـا»)، في رسـوماته السوسيو-سياسـيَّةِ تلـكَ، عنـدَ الحـوشِ الحـضريِّ- المـدنيِّ لـذاك «المـاء» (مـا دمنـا نحـنُ مـن **مـاء**) المُشـجّر دومـاً- كثـوبِ حفـلِ صُبحيّـةِ عُرسٍ سـودانيٍّ سـبعينيٍّ مـن عَيْنَـةِ ذاكَ الذي يُصـدحُ فيهِ، غالبـاً، بالأغنيـة التّـاج مكيّـة [نسـبةً للمطـرب السـوداني التّـاج مـكّي] الأليفـة المطلعهـا «حبيّـت عشـانَكْ كسـلا»!- بِبَنَـاتِ خُـضْرَةٍ ونَّاسَـاتْ؟

هنـا الهجلبـة والهجيـج واللّـون والنّفَـس وشـهوانيّة الهـواءِ بالرّغائبِ المنتـثرةِ رَيْـدَةً ونـاراً إبراهيميّـةً بـاردةً وسـالمةْ. هنـا لا فرعـونَ التّأصيـلِ ولا جنـوده المحتشـدون، والمحشـودون، بالأناشـيد الفجّـة في فصاحتهـا الكلاسـيكية ولا صحـوةٍ فُرقانيّـةٍ شرسـةٍ تحـصي عليـكَ خطـوكَ وضحـككَ المجلجـل وفوضـاكَ في التّزيّـي وانبهالـكَ بالفرفشـاتِ، بالحيـاةِ وببهـاراتِ الشّـعورِ الفالتـة، رغـم أنّ ذلـك كلّـه لم يكـن، في ذاكَ الزّمـان، قـويّ

الغشـامةِ كـما في سـنينٍ لاهوتيّـاتٍ خلاصيّـاتٍ، بـل ومَشْرُوعِحضَاريّـاتٍ، كـنَّ- حتّـى في ذلـك الزّمـانِ النُّمَـيْرِيِّ الإشـتراكيِّ والـلا مركـزيِّ الكبـير!- مُنــذراتٍ، بِتَقْوِيّــةٍ دَعوِيَّــةٍ وماكــرةٍ وناشــطةٍ واســتثماريّةٍ، بإمــاراتِ قـدومٍ وخيـمٍ، إمـاراتِ ابتـلاءِ قهقـريِّ الزّمـانِ ومُـتراصٍّ كبنيـانِ المؤمنـين الطّهرانيّـين الشـادّ لبعضـهِ بعضـا!

تلـك، إذاً، هـي «الفَـرع»، يـأ أيّهـا الرسّـامُ صاحـبُ عـينِ القـط- تلـك العـينِ التـي هـي، معـاً، حذرةً/يَقِظَـةً وتضمينيّـة. وأنـتَ، حـين رسـمتَها، كنــتَ قــد رميــتُ فيهــا- مــن وراءِ ظهــرِ ميثـاقِ الإسـلاميين العتيـد، الأصفـرِ، القديـم ورغـماً عنـه- بـذارَأ عينيّـاً للعـبٍ ليـبراليٍّ مسـتقبليٍّ فيه رجـاءٌ وحيـاة لَيْسَـهُما كـما حيـاة ورجـاءِ الفتـح وغـزوة غزيـةٍ التـي يغـزو معهـا المـرءُ إن غـزتْ! ثـمّ- أيّهـا الفنّـان- كأنّـكَ، مـن جهـةِ قُـوّةِ فـنٍّ قديمـةٍ خفيّـةٍ فيـكَ (منـذُ عهـدِ «الحكمـةِ» والعبـادةِ الأولى) ومتسـترّةً بقنـاعِ العقلانيّـةِ والسّـخريةِ، كنـتُ مهيّئـاً دومـاً للوثـبِ، عـلى حـينِ غـرّةٍ، وراءَ ذاك الحائـط الـذي أنْشِـا (أو «أنشـؤوهُ») سـوراً وقيـداً لانطلاقـكْ. أنـتَ- ببعـضِ كلامٍ آخـرٍ- قـد فلفلـتَ- بشَـفْتَنَةٍ فنّيّـةٍ سـائغةٍ كـما لقمـةٍ هيّنَـةٍ- خُبْـثَ عـينِ ذاك «الميثـاقِ الأصفـرِ العريـقِ» إذ شُـفْتَ- برسـمكِ- أنّـهُ، مـن جهـةٍ، حـاضَّ- بميكانزميّـةِ تناقـضٍ ماكـرٍ ومُـرَاءٍ- عـلى التّشـارُسِ ضـدّ مـن قـد يُحسـبُونَ أنّهـم «قـد بدّلـوا دينهم» (ليـس وطنهـم؟!)، ومـن جهـةٍ أخـرى حـاضٌّ عـلى التنعّـمِ والطيّبـاتِ، بـل و»حـرثِ» و»غـرسِ» النّسـاءِ والبنـاتِ، عِنـد- ويـا للضّحـكِ المـرِّ اللّوتريامـونيِّ [مـن «لوتريامـون»]- مـن هـم، ولـو كـره مـن هـم- بالنيّةِ المبيتـة ومسـبقاً- كافـرون، عنـد «هـي للـه، مـا للجّـاه؟!» راسـخونْ.

نرجـع لذلـكَ الـ»إلا قليـلاً» ونـرى كيـف أنّـه كان، بـسرورٍ كاريزمـيٍّ

مُتوهّمٍ، يُوهّطُ نفسه وجسده (بما فيه ذلك الجزء الذي «له إيقاع» منه- كما جرى في كلام بعض الخُبَثَاء!)، دونَ «قَشّاتٍ مُرّاتٍ»، في ذاتِ ذلك الوضع القاهرِ، غصباً، لشاهده بذلك الضّحك اللوترياموني المُرِّ الذي ذكرنا وبعيناتٍ أخرى من التفتّتِ بالغيظِ حتى عند من كانوا- مثل الشاعر السوداني سر أناي في قصيدته **Just Because....** [ترجمة:- إبراهيم جعفر، باسم «فقط لأنّني....»]- مُرَكَّزِيْنَ عند خطّ الرزانةِ، الهدوء والإبتسام الطيّب المحايد والساخر أو- كآخرينَ- قائمين، أبداً ومهما يكن، عند زرقة السماحة الاهليّةِ العريقةِ تلك!

كان ذلك الإسلاميُّ الوجيهُ، ذلك الـ»إلاّ قليلاً»، شاعراً جهبوذاً ومطبوعاً ومنشوراً- بالطّبعِ- وثوريّاً- بالطّبعِ- ومُنْشِداً- بالطّبعِ- بالمجدِ والشّوكةِ الطاعنةِ، الغالبةِ، والظّاعنةِ أبداً- بالطّبعِ- في فتحها المُبهرجِ بالتّمكينِ وجثثِ الآخرين- الكافرين، بالضَّرُوْرَةِ والتّضمينِ معاً- الباطلةِ الفطيسِ التي أُهِلَّ بها لغيرِ اللهِ فردّ لها، **حرفيّاً**، اللهُ- طبعاً كما هو دأبه وشغله الشاغل في المرويّاتِ المعتّقةِ الصّفرةِ لرفاقِ «برّاءِ ابن عازبِ» الزمانِ- كيدها في عينِ **نحرها**.

ثمّ كان ذلك «الجّوهرُ الفَرْدُ» كذلك، لاستثنائه المُحكمَ النّزول عن ركوب «لزوم ما يلزم» في الملبس و«بِزّافِ المِزْيَان»، لابساً، في ذلك اليوم عندَ رحلةِ رابطة أبناء مدينة كوستي إلى حدائق جامعة الخرطوم ببلدةِ سوبا، قميصاً كنغوليّاً ملوّناً بأرضانيّةِ/إيكولوجيّةِ ذائقة أصحاب دين الفطرة (بلى **دين الفطرة!**)؛ بوثنيّةِ الغابات الأولى وأمّ الفنون! ومن تحت ذلك القميص كان هو مرتدياً بنطال شارلستونٍ إفرنجيٍّ فضفاضاً من الأسفل كسروالٍ عصريٍّ فسيحٍ ومُجّملاً بكلّ الألوان الحيّة الأصلانية للـ»البدائيّة الأولى»،

بـكلام الغربانيّـة الإسـتهلاكيّة الماجـدة، أوقـل «الجاهليّـةِ الأولى»، بـكلام الإسـلامويّة المشروعحضاريّـة. وبـكلّ ذلـك الـزّي الظريـف، الخفيـف الـرّوح، كان ذاك «الجوهـر الفـرد»- ويـا للغرابـة!- محاطـاً بسـورة «الثـورة الإيرانيـة» الهوسيّة كـما وهاتفـاً- في قصيـدةٍ (عصـماء كالعـادةِ أو جزمـاً!) لقـي لهـا مجـالاً للتصَـوُّتِ عنـد نـاس الرحلـة الكوسـتاويّة الغافلـين- بـ»المجـد للمجاهديـن في كابـولَ والجّبـال»- تلـكَ «اللّواكـةُ» الإسـلامويّة الكلاسـيكيّة الراسـخة. ثـمّ أنّ مـن عجائـب الدّنيا السـودانيّة السّـبع أنـه لم يكـن، كذلـك، مسـوّراً، في تلـك الرّحلـة، إلا بالبنـات الـلاتي لم يكـنّ يومـاً ذوات براقـعٍ شـاهدةً عليهُـنَّ بصحبـة رسـول الزمـان الإسـلامي السـوداني الجديـد أو حتّـى بمـا قـد يُشـبّهُ لهـنَّ بـه فقـد كـنَّ سـافراتٍ، موضونيّـاتٍ وهجيجيّـاتٍ وعصرانيّـاتٍ وونسـيّاتٍ قَاهِـرَاتٍ لا يُجـدي معهـنّ- يـا للفـرح!- أيُّ «قسـمٍ لـذي حجـرْ»! ..... لكنّـي لسـتُ بالغـاً مـن أنبـاء ذلـك الجوهـر الفـرد ودرة زمانـه الـلألاءة [بـلى:- الـلألاءة في عـين أيّ زول!] مـما هـو مـن بعـد ذلـك وحتـى حـين توهّـطُ ذلـك الجـزء الـذي لـه «إيقـاعٌ» منـه شـديداً في اسـتثماراته الرأسـمال- إسـلامويّة الباذخـة فبلـغ، في مـدارجِ سـلالمِها المشروعحضاريّـة الصاعـدةِ، مـن الكِـبَرِ عتيّـا!

نرجـع إلى مجـذوب الطيـب وبدريّتـه وأنسـهما وأخبـار مـا جـرى بينهـما مـن سـذاجاتٍ- بالـضَّرُوْرَة- في حـين ذلـك اللقـاء الأول، ثـم مـا سـلف بينهـما مـن بعـد ذلـك اللقـاء الأول ولغايـة سـيرة يـوم رسـالة «هـذا فـراقٌ بينـي وبينُـكِ» ومـا شَرْبَكَـهُ الزمـان، مـن بعـدِ ذلـك، فيـما بينهـما أو، عـلى الأدقّ، في مـا ولى مجـذوب الطيـب مـن بعـضِ ذلـك الـذي شَربكـه الزّمـانُ، مـن بعـد ذلـك، فيـما بينهـما.

2

في صباحٍ قادمٍ آخرٍ، في بلادٍ أخرى والراديو الإنجليزي كان يروي حكايةَ عن واحدةٍ خَوّاجيّةٍ إسمها «أماندا جونز»، تبسّمت، في خاطرِ مجذوب، صورةُ «عصفورتنا الضّاحكة» (وذلكم إسمٌ حركيٌّ كان قد وهبه مجذوب الطيب لها في رسالةٍ عفويّةٍ لمن لها الإسمُ حينما كانت تِلكَ بعيدةً عن البلدِ ودفءِ البيتِ (والمطبخِ بالبيتِ) وكائنةً في بلدٍ نفطيّةٍ «النّاس فيها ما لَوْنَا»، كما في عبارةٍ من لوازمِ كلامها الظّريف، حفرياتِيّةً وأثيرةً. كانت تلك «العصفورةُ الضّاحكةُ» قمحيّةً صُفَيْرَاءَ غامقةً وذاتَ فصدةٍ على خدّها [لا يذكر مجذوب الطيبالآنَ إن كان ذاك الخدُّ هو الأيمن أو الأيسر – أو حتى ربّما الخدّينَ معاً، رغم أنّ ذلك قد يكونُ تفصيلاً مهمّاً جداً عند روائيين كلاسيكيين من أمثال فكتور هوجو الفرنساويِّ تخصيصاً!] وملآنةً بطربٍ وضحكٍ وأنسٍ أرضيّين-مؤنّثينَ لا ينفذان من خزينتها الحيويّة إلا ليُبَدّلُ بحزنٍ ضاحكٍ عميقٍ فيهِ- أيضاً- ذاتُ الحياةِ وذاتُ الأنس! تبدّى الوجه، بل الجّسد، الباسم، آنذاك، لمجذوبِ، نازلاً من السلالم الغربية [التي يكون راكبها إمّا آتياً من جهةِ الشّمالِ، جهة مكتب كلية الآداب، أو من جهة الجنوب، جهة باب الكليّة الخلفي المؤدي إما إلى مقهى النشاط، من جهة، أو إلى شارع الجامعة الوسيع من الجهة الأخرى] لشعبة الفلسفة بجامعة

الخرطوم، الواقعة فوق شعبة اللغة العربيّة بكليّة الآداب بالضبط، وهاتفاً بضجّةٍ أنيسةٍ بالحبّ المفتوح الذي لا يطلب لنفسه شيئاً، عذراً أو عِوَضاً:- مجذوووووب، مُنغّمةً، مطوّلةً وأنثويّةً بامتياز- كما قد يقول المثقفون- فيما يغني هو في نفسه بعفويّةٍ جديرةٍ براهبٍ بوذيّةِ زَيْنٍ صينيٍّ قديمٍ وشاعرٍ:- **مناي اشوفك طالع/يا بدرٍ من قِدّام/والفرحة تملا عينيكا/لمن تقولي كلام؛ مناي اشوفك طالع/يا بدرٍ من قِدّام/والفرحة تملا عينيكا/ لمن تقولي كلام؛ مُناي اشوفَكْ طالع/يا بدرِ من قِدّام/والفرحة تملا عينيكا/لمّن تقولي كلام** (مُثلّثةً بلا أغلظ الإيمانْ!).

كانت تلك «العصفورة الضاحكة» تعملُ سكرتيرةً في ذاتِ شعبةِ الفلسفةِ التي كان يعمل بها مجذوب الطيبمساعداً للتدريس، أول»حلّةِ التّدريس»، كما كان هو نفسه يسمّي وظيفته بهَضْرَبَةٍ طبق الأصلْ! لكنّي لا أزيد هنا عنها، في هذا المقطعِ العرضيِّ من الحكيِ، أيَّ شيءْ.

ثم انسربت صورة «العصفورة الضاحكة»، بغتةً، في الخواء الصناعيِّ المعادي لهواء برد ذلك الشتاء البريطاني الغائم وانسحب مجذوب- موشوشاً ومشوّشاً ببقايا تمتماتِ تجديفٍ وسُبابٍ تحتَ صُرِّيَّةٍ ضدّ السّماء وكلّ إنسها وجانها العابدين وغير العابدين- إلي متابعةٍ نصفيّةٍ- شرودةً ومستسلمةً مثل فكرةِ انتحار موجعةٍ ما لا تنفذ أبداً رغم عيانها وبيانها التخييليّ والحسّي الذي هو دوماً «يكادُ ولمّا يفعلِ»- لصوت بثِّ ذاك الراديو الإنجليزي الذي كان مفترضاً فيه- بعنادٍ ذهنيٍّ تثبيتيٍّ رِغاميٍّ- أن يكون أثيراً لديه والذي كان، حينذاكَ، محاولاً، بتهدّجٍ متقّفٍ دراميكيٍّ الرّصانةِ، بَلْفَ

سامعه واستدراجه إلى شرك إصغاءٍ إلى ربعِ ساعةِ ذلك اليوم من حكايةٍ إذاعيّةٍ يوميّةٍ مُسَلْسَلةٍ لروايةٍ ذاتِ عرباتٍ مجرورةٍ بالحصينِ وبيوتٍ لندنيّةٍ فكتوريّةٍ وشرابِ شوكولاتة ونساء ثرثارات متوسطات العمر كان قد كتبها، قديماً، ذلك الصديق الأليف القديم:- شارلس ديكنز.

3

ربّمـا كانـت بدريـة، تلـك «البِـتْ الخَـدْرَه» التـي تعـرّف بهـا مجـذوب الطيـب في رحلـة رابطـةِ أبنـاءِ كوسـتي بجامعـةِ القاهـرةِ- فـرع الخرطـوم، هـي (مُجّـرّدْ؟) المنبئـة السـابقة الممهّـدة لانتسـاج، بـل وامتـزاج، شـخصيّةِ وحكايـة [حيـاة] صداقـة مجـذوب- البلسـميّة الخاصّـة القائمـة، بالـكادِ، عنـد حافّـةِ الحـبِّ أو الخصوصيّـةِ الشـخصيّة المفتوحـة- مـع «العصفـورة الضاحكـة» بحيـاة مجـذوب الطيبالجامعيّـة اللاحقـة:- ذلـك الـذي «سـمّوه» مسـاعد تدريـسٍ بشـعبة الفلسـفة بكليـة الآداب بجامعـة الخرطـوم وكان قـد يقـال عنـه- لـو أنـه لم يكـن «هـوّ هـوّ» (بمعنـى «الريـدة لسّـع هـيِّ هـيَّ!») أو كان في «سُـودان غَـيْرْ»- إنّـه- بـكلام مسلسـلات المصريـين شـديدةَ اللّهجـةِ والتَّسريـةِ والأتَـرْ- «أدِّ الدُّنيـا!»

كان مجـذوب الطيـب وبدريّـة مُختلـين، لكـن ليـس وحدهـما أو بنفسـيهما، بجنـب النّهـر. كان مجـذوب الطيـب ملتصقـاً- تقريبـاً وليـس شـديداً- بجسـدِ بدريّـةِ وشـامّاً نَفَسَـهَا في مـا بـين فتحـاتِ أنفـه وقصبـة عنقـه ثـم حلقـه المنفتـح- هكـذا [تخيّلُـوا هنـا صـورة إنفراجـةٍ، خفيفـةً ومُسْـتَمِخَّةً قليـلاً، مـا بـين أسـنانه وشـفتيه]- عـلى فمـه وعـلى هـواء آخـر النّهـار الـبرّانيِّ الخفيـف. كان «الإِتْنَـيْنْ اللّيلـةْ ويـنْ...... « [أو شـيئانَ مـمّا كان هـو مـن مَثَـلِ ذلِـكَ!] جالسَـيْنَ عنـد ضفّـةِ تهـدّل

النيل الأبيض بالإنشرار أمام بصريهما فيما أعشابٌ- مثل تلك التي كانت تجمعها طفولة مجذوب الطيب بكوستي كلّها تحت اسم «أم صُوفةْ»- تتردقدق عليه، طافيةً، ثمّ خليّةً لم تُغادرْ أبداً، حتّى ولو بمقدارِ شبرٍ أو بشَيْشٍ واحدٍ (فقطْ لا غَيْرْ......)، من «مُتَرَدَّمِ» نِيْلِهَا الأهليِّ القديم.

دار حوارٌ خفيفٌ فارغٌ كان مليئاً بالكلام الهايف العذب الدّقاق [أو ما قد تدعوه جنتلمانيّةُ اللُّغةِ الإنجليزية المُغِيْظَةُ باسم «فارغاتٍ عذبة»] فيما بين مجذوب الطيب وبدرية فأُكمِلَ، بذلكَ، علاجٌ آنيٌّ بسيطٌ لمجذوب:- **دون حقنة أو مشرحة** (يا قول شيخ البُرعي). نعم، كان مجذوب، بالفعلِ ولوهلاتٍ كاملاتٍ، تامَاً ومبسوطاً بجلسته «البدرانيّة» تلك. (لكن الأسمح من ده ذاتُو حقيقة أنّو كان هو ذاتُو، أيضاً-كذلكَ وبَرضو، شاعراً بانبساط البِنيّة الخدرا العريان العديل من قعدتنا ديك معاهو!).

ربّما كانت وهلات تلك الفرحة الكاملة البسيطة هي التي دخلت على مجذوب الطيب (على الأقل؟!) ببذرةِ ذلك الكلام الذي قلنا- قريباً من بدايةِ «كتابنا الثاني» هذا- أنّ مجذوب الطيب كان قد كتبه لبدريّة عند المنعطف الأول لما قد سماه الراوي شيئاً مثل «أولِ دخولِ الكلامِ إلى الحوشِ» في شأنِ نثاراته المَرويّةِ عن حكايةِ «الوردة الكوستاويّة الخضراء» مع مجذوب:- كلام **خواطر متناثرة بحريّة؛ ياربّي هل طاريني قلبُو** وما لحقه، أو سبقه ولحقه معاً، من قولة **كان داير كلّ يومْ تعالْ.**

لكن تلك الخلوةَ [ربّما- ببساطةٍ- بحكم أنَّ طبيعة الدنيا «زي الموج» (كما باح لنا شاعر ومغنِّي الأغنية السودانيّة الثمانيناتيّة

الشـهيرة] لم تـدم حتّـى لمـا قـد يُكفـي مـن مخـزونِ زمـنِ بعـضِ 'الإعترافـاتِ' الإنسـانيّةِ **الأصليّـةِ**، القليلـةِ والصّغـيرة و **الأساسـيّةُ** و**الكبيرة** مـع، أو **بالضبـط** «بسـببِ»، كلّ ذلـك. غايتُـو جملـة القـول هـي أنّ الـكلامُ الشّـويّة الـذي كان، آنـذاكَ، هـادلاً بـين بدريـة ومجـذوب الطيبقـد-ALAS!- بُـترَ عنـد لحظـةٍ كانـت كأنّهـا كانـت محسـوبةً بتـمامٍ قـدريٍّ دقيـقٍ فقـد هـدر مايكروفـونُ الرّحلـةِ المُكَرْكَـبُ المُجشّـأُ الصَّـوتِ ينـادي النّـاس بـأن «يَهَلْمُّـوا» إلى مائـدةِ غدائهـم الجّماعـيِّ حتـى يُبكّـروا، مـن قبـلِ نهايـةِ العـصرِ، ببـدءِ الجّـزء الثـاني والأخـير مـن برنامـج الرّحلـة.

عنـد نهايـة زمـان الرّحلـة وهـلاك عِصـير ذلـك اليـوم انفلـت ذلـك الشـغب الطـلابي الحيـوي ولـوى عـلى «شيءِ» الباصـاتِ حتّـى يُوصّـلُ الأولادُ منـه إلى خـارج دار اتحـاد طـلاب جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم وبعـضُ البنـات مِنْـه (إذ ليـس كُلّهُـنَّ كُـنَّ يسـكُنَّ في «داخليّـةِ المقـرن») إلى داخليتهـنَّ الوسـيعة الحـوش والمظلّلـة بشـجرِوبللِ مـاءِ النّيـلِ الأبيـضِ الماهـلِ ونسـيمِ أواخـرِ نهـاراتِ الصّيـفِ، الإكتوبـريِّ وأوائـلِ النّوفمـبريِّ خصوصـاً، عنـد مَقْـرَنِ النيلـينِ الخرطومـيِّ العتيـقْ.

لكـنّ بدريّـةَ سـهت، بعفويّـةٍ أنثويّـةٍ يبـدو أنّهـا كانـت- تقريبـاً- سـابقةَ التّبطّـن في شـعورها، عـن النـزول مـن بـص الرحلـة عنـد بوابـة «داخليّـة المقـرن» الكبـيرة، الحديديـة العريقـة، فانفرجـت شـفتا مجـذوب، بلطـفٍ تلقـائيٍّ- «لا شـعوريٍّ» خفيـف، بمـا كان قـد يُشـبه- إلاّ قليـلاً- فلـقَ صبـاحِ نيّـةِ ابتسـامةٍ مُضْمَـرَةَ الرّجـاءْ. ثـمّ «هـبّ جانـا النسـيم عليل/طـول يـا ليـل......». شيءٌ مـن غنـاء «الحقيبـة» السـوداني لعلـع فجـأةً- مثـل ميرغنـي المأمـون وأحمـد حسـن جمعـة- في جـواء

مجـذوب، لكـنّ ذلـكَ كان قليـلٌ فمَـشْيُ المسـاءِ قـد هـدأ فيـه، بعـد وهلـةِ آهٍ أو آهتـين (أو «هَـوْيْ هَـوْيْ» واحـدة أو اثنتـين)، حتـى كاد أن يصـيرَ مثـل العاقـب محمـد حسـن في خفـوتِ ظلامـه الهامـس- هدهدةَ شـعورٍ في كونـه قبـل أن يمسّـه اللـه بيـدهِ التّحتانيـةِ التـي هـي هـذه الدّنيـا وهـذا التناسـخ...... ثـمّ همسـت بدريـة بخفـوتٍ شـديد كأنّهـا كانـت مسـتحييةً حتّـى مـن أن تُسْـمِعَ نفسـها ذلـك التهـدّج الـذي كوّرَهَـا غـرّةً:- **يـلاّك قدّمنـي لي الدّاخليّـة يـا حلـو!** اندفقـت هـذه الجملـة الكاملـة البسـيطة، أو البسـيطة الكـمال والتّـمام، تـوّاً بثـورةِ التأثّـرِ العاطفـيِّ البَـكّاءِ فيـه فانـبرى مهلوسـاً بكلامـاتٍ بـدت، ظّاهريّـاً، «مـا لا هـاش معنـى» [تمامـاً كـما هـو كثـيراً شـأن تلـك الكلـمات التـي يقولهـا مُعلّقُـون رياضيّـون ومذيعـون لمباريـاتِ كـرةِ قـدمٍ عندمـا تُطـيِّرُ أفواههـم، بميكانيكيّـةٍ تلقائيّـةٍ، عبـاراتٍ مـن أمثـالِ:- «كـورة مـا لاهـاش معنـى؛ شـوتة مـا لا هـاش معنـى؛ رميـة مـا لا هـاش معنـى»] وهـترشَ (هكـذا فقـط ولا غـيرْ!) بتسـاقطٍ عفـويٍّ لثمـراتِ التّداعيـاتْ:- **يـا حلُـو⁈ ده كلام شـنو يـا بـت النـاس ⁈ إنـتِ اللـه مـا ليـك ولي يـا بـت نـاس اللـه القُـدَامْ دَيْـلاكْ⁈ تـاني أنـا حـا أودّي روحـي ويـن منّـك ومـن جاياتـك والجايـات مـن أتَـركْ في الفانيـة الفايتـة دي⁈** ثـمّ ختـم ذلـك كلّـهُ بـشيءٍ مثـل بضعـةِ نتـفٍ غـير مرتّبـةٍ مـن بعـضِ الـكلامِ العاطفيّ-الدّاخـليِّ لمثقّفـين وحدانيّـين متشرديـن في خرطـوم الثمانينـاتِ مـن القـرنِ العشرينـيْ المـاضي:- **هـل هنـاك شيءٌ أعـذب مـن جـرأة البنـاتِ الخُـضْرِ الخجـلات حينـما ينزلـن عليـكَ، فجـأةً، بمطرقـةِ مطـرِ بوحهـنَّ العلى-حـينَ -غـرِّي⁈**

***

حينـما رجـع مجـذوب الطيـب إلى غرفتـه بداخليّـة «كردفـان» بمجّمـع «داخليّـات البَرَكْـسْ» بجامعـة الخرطـوم التقـى- عنـد ردهـة الداخليـة الطويلـة المصطفـة عـلى جانبيهـا، كعربـاتٍ قَمَـرَةِ قطـارٍ، غـرف الطـلاب التـي كان هـو يسـكن بإحداهـا- بـذات طالـب كليـةِ التّجـارةِ في جامعـةِ القاهـرةِ- فـرع الخُرطـوم («ذلـك الشـاب الطويـل القامـة النحيـل ذو النظـرات المائلـة إلى المـرح والحيـويّ في حركـة جسـده الدائبـة أثنـاء الـكلام، في انحنائـه...... إلـخْ...... إلـخْ») الذي كان قـد دعـاه، قبـل عامـين أو مـا زاد عليهـما قليـلاً، لرحلـةٍ لـذاتِ رابطـة أبنـاء كوسـتي بجامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم كان قـد تعـرف فيهـا عـلى تلـك القمحيّـة التـي لهجـت تاريخيّتُـهُ الخاصّـةُ بالتأشـيرِ عليـه- بتثبيـتٍ تلقـائيٍّ مـوحٍ- أوّلاً بـأن يناديهـا غنائيّـاً، مُرّجعـاً صـدى صـوتَى عبـد الكريـم الكابـلي وصدّيـق مدثّـر، وثانيـاً بـأن يُسـمّيها في نفسـهِ:- **ومضـةٌ/ عشـتُ عـلى/ إشراقهـا/ وانقضـت/ عجـلى ومـاا أصغـت إليّـا/ كلمـةٌ... ومضـةٌ/ عشـتُ على/إشراقهـا/ وانقضتْ/عجـلى وما/أصغـتْ إليّا/كلمـةٌ...**

كان مجـذوب، حينـذاك، في سـنته الأخـيرة في كليّـة الآداب، شـعبة الفلسـفة وكان ضمـن دفعـة الأربعـة «عصابـة الأربعـة» المتخصصـين في درجـة الـشرف فيهـا. الثلاثـة الآخـرون هـم كانـوا مولانـا طـه والشـابان العصريـان (بتسـمية زميـلٍ سـاخرٍ الفكاهـة) نـادر وطـارق. وعندمـا شـاف مجـذوب، عنـد يسـارِ وجهـه ونظـره، صاحبـه طالـب كليـة التجـارة المـرح، المهـذار، كان يفكّـر، بوجـهٍ مناسـبِ العبـوسِ والتقطّـب الضروريّـين، في محـاضرة التاسـعة مـن صبـاح غـدِ ذلـك اليـوم والتـي وعـد فيهـا زميلـه في دراسـة درجـة الـشرف، «الشـابّ العـصري» نـادر،

بـأن يلتقيـه قبلهـا، بربـع سـاعة، في «مكتبـة الفلسـفة» حتـى يدلّـه علـى مـكاني مرجعـين مهمـين في الفلسـفة الغربيـة المعـاصرة كان قـد انتبـه لفائدتهـما العمليـة في «تسـمين» مذكـرات محاضرهـما المتخصـص في تدريـس فلسـفات ديفيـد هيـوم وأمانويـل كانـط [كانـت] والأسـقف بـيركلي. ولمـا كان ذلـك التفكـير، السـليم طبعـاً، والمسـتقيم الخـطّ (تقريبـاً)، آنـذاكَ مختلطـاً، في رأسـه، بتعرّجـاتٍ تهويميّـةٍ لذيـذةٍ لبقايـا كلام بدريـة لـه في ذلـك المسـاء وبهيئـة خـضرة وجههـا الباسـم المـدوّر ورَوَقَـانِ عينيهـا آنمـا مـا كانـت تحـكي لـه عـن شـخصيةٍ كانـت تشـعر بأنهـا شـبيهة بـه في مسلسـل مـصري مُسَـمَّىً «أديب» لم يفهـم مجذوب الطيـب (أو لم يشـأ أن يفهـم؟)، لوهلـة، مـا هـذر بـه، ضاحـكاً، ذلـك الطالـب النّحيـل، المَـرِح، في وجهـه، عـلى سـبيل التحيـة «المَكنيّـة»، مـن غنـاءٍ قديـمٍ لعثـمان حسـين:- **يـا حبيبـي قلـتَ لي/في اللقـاءِ الأوّلِ/ بـين همـس السّـنبلِ/وخريرِ الجّدولِ/سـوف تلقـاني ولكن/مـا التقينـا/ مالتقيينـاااا......** لكـنَّ بدريـة ومجـذوب الطيـب كانـا قـد التقيـا- **بالفعـل**- كثـيراً مـن بعـدِ ذلـك.

مـازَجَ لُحمـة وسُـدى (مـا السُّـدَىْ؟!) مجـذوب الطيـب الجّسـديّة، في بقيّـةِ ذلـك المسـاءِ الأوّل، شيءٌ مثـلُ بـذرةِ إنـذارٍ خفـيٍّ- تحسّـسٍ خفـيٍّ- بوجـعِ مفاصـلٍ غامـضِ الأعـراضِ والأمزجـةِ سـيواتيه في مقبـلِ أيّـامٍ سـيعيشُ فيهـا في خـارجِ البـلادِ ويُشـكّلُ عظمـةً ضروريّةً/أساسـيّةً مـن هيـكلِ علاقتـهِ الحسـيّةِ بذلـك العـالمِ الجّديـدِ حيـثُ سـيتوفّزُ- حينـاً فحينـاً- في هيئـةِ عيشـهِ اليومـيِّ الملـولِ فيـهِ، في «قراءاتـه» [«كتابتـه»] ، في تحسُّـسِـهِ وتخيّلـهِ الجّـماليِّ الأعمـى البديـع وفي «الـذي هـو مـن ذلـكَ» مـن جملـةِ مـا قـد يقولـه شـاعرٌ حـداثيٌّ مفعـم التّوسـوسِ

بخرافاتـهِ النّفسـو-فنيّةِ الخاصّـةِ، بـل الشـديدة الخصوصيّـة والتّهتّـكْ... ثـم توكّـدَ في مجـذوب، بظليّـةٍ مُدرّجـةٍ، حبّـةً فحبّـةً (كي لا أكتـبْ «شـيئاً فشـيئاً»!)، شـعورٌ أهـليٌّ حميـمٌ وحزيـنٌ (بأهليّـةٍ كذلـكَ) هـو (في مـا يَعِـنُّ لمـن يكتُبُـهُ الآنَ) مـن ذاتِ أصـلِ هيئـةِ تلـكَ الشّـعوراتِ التـي قـد تُناغمُـهُ في وقـتِ سـماعِ أغـاني السُّـودان الأوركسـتراليّة القديمـة، خصوصـاً تلـك التـي عنـد «خيـطِ» أغنيـةٍ مـن امثـالِ أغنيـةِ إبراهيـم الكاشـف التـي يتشـوّقُ فيهـا، بعاطفـةٍ فاضحـةِ البسـاطةِ، إلى أن *[ي]* **طـير بي فـوق بي غـرب السّـوق**، وإلى أن *[ي]***روقَ دمُـهُ** بمجـرّدِ سـطوةِ **فعـلِ** اللّقـاءِ القاهـرِ اللّطـفْ.

المهـم خُـذْ بالَـكْ يـا زولْ، فذينكـما الأثنـين كانـا- ببسـاطةٍ- عنـدَ منتصـفِ مـا لم يكتمـل بينهـما مـن بعـدِ ذلـكَ أو حتّـى لحظـة افـتراق سـبيليهما الدّنيويـين إلى حياتـين اجتماعيتـين مختلفتـين:- **لا تدعينـي في المنتصـف...... إلـخ**- الرّسـالة.

4

كان مجـذوب الطيـب يـزور بدريّـةَ، في «داخليّـة المُقْـرَنْ»، مـرّةً فيـما يـتراوح عمومـاً، بـين كلّ أسـبوعين، ثـلاث أسـابيع أو شـهر. لكنّهـا لم تكـن تـزوره أبـداً في «جامعـة الخرطـوم» إذ هـي، لسـببٍ لم يشـأ أبـداً أن يسـألها عنـهُ ولم تُفصـح هـي عنـه مـن تلقائهـا، لم تَمِـلْ، أبـداً، إلى أن يراهـا أصدقاؤهـما ومعارفهـما، المُشْـتَرَكُونْ وغـيرُ المُشـتَرَكِين، وهـي دارجـةً معـهُ في «مقهـى النشـاط» بجامعـة الخرطـوم أو في أيِّ دربٍ آخـرٍ مـن «دِرَيْبَاتِهـا». وفي إحـدى زياراتـه لبدريـة في «داخليـة المقـرن» كان مجـذوب الطيبمشوّشاً ببعـض أسـئلةٍ خاصّـةٍ ملحّـةٍ حـول طبيعـة علاقتهـا بـه وامتداداتهـا الممكنـة في المسـتقبل. لكنـه كان متوجّسـاً مـن دحرجـة تلـك الأسـئلة في اتجـاه بدريـة وخائفـاً **عليـه** (لكـن ليـس **عليهـا!**) مـن إجاباتهـا الممكنـة- أو التـكاد تكـون، بحسـب حسـه في تلـك اللحظـات، **حتميّـة**- عليهـا وتداعيـات تلـك الإجابـات التـي كان هـو، بحسّ معرفـةٍ شـعريِّةٍ مبهمـةٍ، يراها باتـرةً، قريبـةً و...... بـلى...... حزينـة. ذلـك الخـوفُ الأوّليُّ-البـدئيُّ، الخـاصُّ المعنـى والتَّحسّـسِ، قـد وكّدتـه، فيـما بعـد، الرسـالتان اللتـان جاءتـا في أول هــذه الحكايـة، وهـما رسـالةُ/جملةُ «**هـذا فِـراقٌ بينِـي وبينِـكْ**» والـرسالةٌ التـي هـي «**قُبَيْـلَ الـ»هـذا فِـراقٌ بينِـي وبينِـكْ**» ومـا تسـوّى بينهـما مـن شـدِّ حبـلِ أحاسـيسٍ ومُضمـراتْ. أوّل تلـك المضمـرات قـد رُمـي بـه، ككَـوٍّ

ريحٍ على بابٍ بعيدٍ وطرفيٍّ ومنعزلٍ، في يوم لقاء التشوّشِ والأسئلةِ تلك. طبعاً فهم القارئ، ضمناً أن موضوع تلك الأسئلة هو، كلّه، السؤال واعترافات السذاجة التي اندفقت (خطأً أوعفواً؟)، من مجذوب الطيبإلى بدريّة، في رسالة الـ«**خواطر [الـ]مُتناثرة بحريّة** ففتقت رتقاً وخرقت (بـ«الرّبّما») «عقداً» افتتن تذبذب «الوردة الكوستاويّة الخضراء» في غزلِ نسجه بسذاجةِ فطرةِ مكرِ الحياءِ الأنثويِّ وتسويرات هرم «القيم» الإجتماعيّة المُضافةْ.

كان وجهُ مجذوب، حين ترك بدرية في ذلك اليوم، مُوَرّطَاً في سحنةِ زعلٍ لم يستطع جهد حكمته- الشعوريّة منها واللا شعوريّة- تقنيعه، بتمامٍ كافٍ، او اخفائه فتحصّلَ، من ذلكَ، أن قالت له بدريّةُ، في لقائها القادمِ به، إنّها، في تلك الليلةِ، قد **حلمتَ *[بهِ]* و[هو*]* زعلانْ**.

5

كان مجـذوب الطيـب يشـترك، أحيانـاً، في قـراءات شـعريّة بـدار اتحـاد طـلاب جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم كان يقيمهـا، ضحـى كلّ خميـسٍ، المنتـدى الشـعري بجامعـة القاهرة-فـرع الخرطـوم. وكان مجلـسُ ذلـك المنتـدى النّهـاريُّ يضـمّ شـباباً وشـابّاتٍ مختلفـين في الطبيعـة الشـخصية والإجتماعيّـة، في المنـزع الفكـري والسـياسي، كـما وفي الكتابـةِ فقـد جمـعَ، في سـلّةٍ واحـدةٍ ملوّنـةً ومفتوحـةً، الكلاسـيكيُّ والرّومانتيـكيُّ والتفعيـليُّ والقصيدُ-نـثريُّ والـ...إلـخ... إلـخ... إلـخ... إلـخ. لكـنّ مجـذوب الطيـب كان أشـدّ ميـلاً، مـن بـين كلّ أولئـكَ، إلى ثلاثـةِ، أو أربعـةِ، أصدقـاءِ فنانـين وبوهيميـين، في جملتهـم أو- عـلى الأقـلِّ- **في حـالِ كونهـم معـاً**، كانـوا جميعهـم ينتمـونَ إلى «حـزب البعـث العـربي الإشـتراكي» وكان واحـدٌ منهـم ناقـداً أدبيّـاً جيّـداً وشـهيراً، لكنّـه عجيـبٌ في تواضعـه وتهذُّبـه العفـويِّ السّـهلِ والـلا غيّـاظْ، وآخـرٌ كان شـاعراً شـديدَ الحيـاءِ والرّقّـةِ وإبراهيميّـاً أخـضراً! نعـم، كان لمجـذوب، بجانـبِ هـؤلاء، أصدقـاء قريبـون آخـرون في دنيـا عاصمـةِ تلـك الأيّـامِ منهـم ذلـك الشـاعر الشّـهير والرّامبـويّ، ذلـك الإنسـان والطفـل، الـذي كان- أحيانـاً- يقـرأ أشـعاره الجديـدة في المنتـدى، كـما ومنهـم، كذلـك، ذلـك الشـاعر الآخـر، العميـق التديّـنِ والهـدوء، لكـنّ الصّاخـبَ في احتجاجـهِ الشّـعريِّ الجّـارفِ العـارم الجديـد، لكـنّ هذيـنَ، وأصدقـاء «سـياقيّين»

آخريـن، لم يكونـوا يجيئـونَ إلى هنـاكَ بوفـرةٍ ومِـزاجٍ تقييـلٍ أنيـسٍ، عَلَىْ-كيفـيٍّ وغـيرِ متعجّـلٍ مثـل ذينكـما الصديقـين.

في أحـد المسـاءات دُعِـيَ مجـذوب الطيـب إلى أن يقـرأ شـيئاً مـن قصائـده في أمسـيةٍ شـعريّةٍ نظّمتهـا «جمعيّـة الـتراث واللغـة العربيـة» في جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم. وكان رئيـس تلـك الجمعيـة، الذي هـو- بالفعـلِ- قاطـرةِ بُخارِهـا الثقافيّـةِ الديناميكيّـةِ، يُسـمّى أبُـوهُ باسـمها ولا يُتَصَـوّرَ لـه، بالـكادِ، في الخيـال والواعيـةِ اليوميّـةِ الطلابيّتـين، آنـذاكَ، رابطـةَ قـربى ونسـبٍ وشـيجةٍ أوثـقَ بـأيِّ شيءٍ، أو حتّـى أيِّ شـخصٍ، آخـرٍ خلافهـا. (لكـنّ ذلـكَ، عـلى كلٍّ، لم يمنعـه، في مقبـل الأيـام، مـن أن يتـزوّجَ زميلـةً لـه في الجامعـةِ وعـلى سـبيلِ «القوميّـةِ العربيّـةِ» العريـضِ ومـن ثـمّ يُسـافران، بعـد سـنينٍ قليلـةٍ مـن تخرّجهـما مـن جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم وزواجهـما، إلى دولـةٍ عربيّـةٍ قديمـةَ العهـدِ بالنقـوشِ والمُدوّنـات الخرائـدْ. ثـمَّ لم يقرعهُـما عـن الهجـرةِ إلى الدّولـةِ إيّاهـا كـونُ أنّهـا، في الخيـالِ الشـعبيِّ المدينـيِّ، كانـت مظنونـةً طرفـاً عتيقـاً في ثنـائي «ضيـاعِ الزّمـنِ» الإغـترابيِّ الشّـهير.)

جـاء مجـذوب الطيـب إلى تلـك اللّيلـةِ- وهـو يتذكّـرُ ذلـكَ، الآنَ، بضبابيّـةِ صبـاحٍ خرطومـيٍّ شـتائيٍّ بعيـدٍ فائـحٍ، ضمنيّـاً أو إيمائيّـاً، ببـوخٍ/ ببـوحٍ خفيـفٍ لرائحـةِ ثمـراتِ طماطـمٍ صغـيرةٍ جديـدةٍ نُـشرَتْ، للتـوِّ، مـن داخـلِ كراتينِهـا عـلى ملايـاتٍ مُنْمَزِجَـةَ الأسـافلِ بـترابِ أرضِ سـوقِ الخـضرِ والفاكهـةِ بمدينـةِ بحـري السـودانيّةِ- مـن حيـثُ كان يسـكنُ (بالخُرطُـومِ)، عزّابيّـاً وحديـثَ التّخـرّجِ مـن جامعـة الخرطـومِ بدرجـةِ الـشرف الثانيـةِ العليـا في الفلسـفة Honour Part II- Upper Second Class، في أحـدِ الشّـوارعِ المتفرّعـة، مـن حيـثُ الجّهـةِ التـي تـلي «حـيِّ

السّـجّانةِ» الشّـعبيِّ العريـق، عـن «شـارع كـبري الحريّـةِ»، كـما كان يسـمّيه النـاس عفويّـاً. لم يكـن ذلـك الشـارع الجانبـيُّ بعيـداً عـن «سـوق السّـجّانةِ» القديـمِ بجنـوبِ مدينـةِ الخرطـوم. كـما ولم يكـن هـو، كذلـك، إلا عـلى مسـافةِ مـا قـد يكـون شـارعين (لا يذكـر مجـذوب الطيـب ذلـك الآنَ بالضّبـط) مـن ذلـك الشّـارعِ الآخـرِ (الجانبـيِّ أيضـاً) الـذي كانـت تقعـدُ عـلى ركنـه «أجزخانـةُ السّـجّانةِ» بحائطهاالـذي كانَ، آنـذاكَ، مُصفـرّاً بألـوانِ ملصـقٍ دعـائيٍ كبـيرٍ لحبـوب «الكافينـول»، لكـن صفرتـه تلـك كانـت (عـلى الأقـلِّ- أو ربّمـا حتّـى «عـلى الأكـثرِ»- في مـرأى الذّكـرى المُشَـوّشـة) مشـوبةً، في ذاتِ الوقـتِ، بِشَـيَّةِ ضيـاءٍ ليمـونيٍّ طفيـفٍ روَّقَتْـهُ (أو عسـاها «تَرْيَقَتْـهُ») عليهـا خطـوطُ، أو لمسـاتُ، أو حتّـى «لثغـاتُ»، خُـضْرَةٍ خفيفـةْ. عنـدَ مرمـى العـينِ اليُمنَـىْ لتِلْـكَ الأجزخانـةِ (بحسـبِ القـادم إلى «شـارع كـبرى الحريّـةِ» مـن عِنْـدَ تقاطـعِ «شـارع الأجزخانـةِ» بـهِ) كان، فيـما يخطُـرُ لمجـذوب الطيـب بحنـانِ دُخَـانِ شـايِ لـبنِ مَغـاربِ أليـفْ، ينبهـلُ (غـيرَ سـائلٍ في «أيِّ حـدٍّ» أو في «أيِّ حكومـةٍ») سُـوْقُ الفـولِ المـصريِّ المُصلَّـحِ والسّـمكِ المُحمّـرِ واللّـبنِ الحليـبِ الـدّافيءِ ومديـدةِ الحلبـةِ [المهلّبيّـة، في كلام المصريـين] والشـاي الأحمـرِ- البـوّاخِ وكثـيرِ السّـكّرِ- و...... و...... عـلى مُجـرّدِ قارعـةِ طريـقِ مواصلاتِ «الباصـاتِ الحُمْـرِ» الكبـيرِ الـذي كانـت الأجزخانـةُ تفتـحُ عليـهِ.

كان برفقـةِ مجـذوب، في ذلـك المسـاء، صديـقٌ ناقـدٌ وقـاصٌّ شـديدَ الفقـرِ لدرجـة المـرحِ والهذيـانِ، بـل والفـرح، الضّاحـك- الأسـيان، بكونـهِ معفيّـاً- في مجـازِ الشّـاعر البولنـدي الحديـث، أوتـو أوربـان- مـن «جُهـدِ تزيـينِ بيـتِ عائلتـهِ بشـجرةِ كرسـماسٍ متلألئـةْ». كان بيـتُ عائلـةِ ذلـك

الصّاحبِ الفنّانِ قريباً من حيثُ مكانِ سكنِ مجذوب الطيب في حيِّ السّجّانةِ بجنوبِ مدينةِ الخُرطوم وكان يعمل في «كُبّانيّةِ الخرطوم» (دار الهاتف) بأجرِ حبّاتٍ قليلةٍ من الفول السّودانيِّ المُدمّسِ، كما يجوزُ- في أحدِ المجازاتِ المُعرّبةِ- القول. لكنَّ بقدرِ أسى فقرِ ذلك الصّديق (لدرجةِ أنّ فطورَ الجُّمعةِ في بيتهم ما كانَ، في غيرِ قليلٍ من الأيّامِ، يحتوي على شيءٍ غيرِ كسرةٍ بماءٍ وبصلٍ وزيتِ سمسمٍ أو رغيفٍ بالزّيتِ والسُّكّرْ) كان فكره وخياله وقراءته وكتابته شواسعاً ومُنفتحاتَ ولم يشتملوا فقط على مجرّدِ تواصيفٍ «سوسيولوجيّةٍ» و»واقعيّةٍ» لا تُودِي في الغالبِ، بحكم ضيقِ ماعونِها الضّروريِّ، إلا من حالِ قمعٍ تاريخيٍّ قديمٍ وعتيقٍ إلى حالِ قمعٍ أعنفَ في تاريخيّتِهِ رُغمَ أنَّ جذره الفكرو-سياسي هو- بلا ريبٍ- حداثيٌّ وجديدْ.

أهـا...... مضى مجذوب الطيب وذلك الصديق إلى الليلة الشعريّة المقامة في ساحة مُجَمّعِ مباني جامعةِ القاهرةِ- فرعِ الخُرطُوم الرئيسيّةِ حيثُ كانت تُقامُ أركانُ نقاشِ تنظيمات الطلاب السياسية المختلفة بجامعة القاهرة- فرع الخرطوم والتي كان، حينذاكَ، أبرزها وأنشطها- بخلاف تنظيم «الإتجاه الإسلامي»- تنظيما البعثيين والناصريين («القوميين العرب») وتنظيم الجبهة الديمقراطيّة وتنظيم الإخوان الجمهوريّين.

في تلك الليلةِ قدّم القارئينَ ذلك الصديقُ «الأخضرُ الإبراهيميُّ» وكان أوّلهم الشاعر السّوداني المعروف محمد نجيب محمد علي، ثمّ تلاهُ شاعرٌ آخرٌ كان قد درس في مصر آناءَ «فَجّةٍ» ما فيما بين أواخر سبعينات ومنتصف ثمانينات القرن الماضي (القرن العشرين).

لكـن لا يخطـر لحافظـة الـراوي (ولا لحافظـةِ مجـذوب) عنـه، الآن، مـن سـيرةِ مـا جـرى لـه في «عارِيّـةِ» أيّامـهِ السـالفةِ سـوى أنّ اسـمه المعلـوم الكامـل كان يبتـدئُ بكلمـةِ «الفاتـح»، أو «محمـد الفاتـح»، وأنـه كان قـد أصـدر ديوانـاً، باللغـة العربيـة السـودانيّة (العاميّـة)، كان اسـمه، فيـما يَظُـنُّ الآنَ الـرّاوي ومجـذوب الطيبمعـاً، «الدّفُوفَـة» وأنّـهُ، أخـيراً، كان ينتـفُ شـعره المُهـوّش المنكـوش بحيويّـةٍ إنفعاليّـةٍ شـديدةٍ أينـما كان هـو جاهـراً بقـراءةِ قصائـدٍ متّسـمةٍ (في بقيّـةِ ذكـرى الـراوي ومجـذوب الطيبعنهـا) بتفعيليّـةٍ غنائيّـةٍ صَنّاجـةٍ وبجيشـانٍ لفظـيٍّ وموسـيقيٍّ عنيـف...... ثـمّ كان آخـرُ أولئـكَ القارئـين الشّـاعرُ السّـودانيُّ (المعـروف كذلـك) عبـد القـادر الكِتَيَّـابِيْ الـذي كان هـو، عـلى تخصيـصِ الإشـتهار، مؤلّـفَ أغنيـةِ الفنّـان السّـوداني الرّاحـل مصطفـى سـيد أحمـد (ومـن قبلِـهِ، للدِّقَّـةِ، أغنيـةِ الفنّـان السـوداني المقيـم سـبف الدّيـن محمّـد أحمـد المُكنّـى باسـم «سـيف الجّامعـة») البادئـة بتعبـير «لَمَحْتِـكْ [أو [«كَحَلْتِـك»، في التّحريفـاتِ المُدنَفـةِ لأولادٍ مثـلُ الصديـق القديـم عثـمان جـوني] وقُـتَّ بـر آمن/بديـتْ احلَـمْ......» ومُنشـئَ الدّيـوانِ الشّـعريِّ المُسـمَّى «رقصـة الهيـاج». ومـن قبـلِ ذلـكَ الآخـرِ جـاء ترتيـبُ، و»أُسْلُوبُ»، قـراءة صاحـب روايتنـا هـذي- الـذي شـاءَ شـوقٌ لا شـعوريٌّ غابـرٌ لنـا أن نُسـمّيهِ «مجـذوب»- لثـلاثٍ، أو أربـعٍ، مـن «حَشِيْشَـاتِ» كلامـه الشّـعريِّ، العـربيِّ السّـودانيِّ والعـربيِّ الفصيـح، الـذي كثـيراً مـا قيـلَ لـه عنـه- سـواءاً بِنَيّـةِ، أو ببـابِ، مـدحٍ أو بِنَيَّـةِ، أو ببـابِ، قـدحٍ مُضمـرٍ أو غـيرِ مُضْمَـرِ- إنّـهُ تأمّـليٌّ ومُتفكّـرٌ، بـل و-هـا هـا هـا.... هـئْ هـئْ هـئْ....- فلسـفي عَدِيْـلْ كِـدَهْ كـمانْ- **هَـاكْ الفَلْسَـفَةْ دِيْ!**

كلُّ مـا يذكـره مجـذوب- الآنَ- مـن تلـك الليلـةِ كان شـيئين:- ظهـور بدريّـة الخاطـف عندهـا وملاحظـة عابـرة ضاحكـة قالهـا لـه صديقـه القـاص والناقـد الـذي كانَ اسْـمُهُ بابكـر عبـد الرحيـم والـذي اصطحبـه، مـن مَضـاربِ حـيِّ السّـجّانةِ الخُرطُومـيِّ، إلى هنـاكْ. لكـنّ مجـذوبَ، لسـببٍ تـامِّ الغمـوضِ، يتذكّـرُ، أيضـاً، قبـل اسـتحضاره الآنيِّ للحظـةِ ظهـورِ بدريّـةِ تلـكَ عنـدَ الليلـةِ الشّـعريّةِ، جُمْلَـةً قالتهـا لـه «العصفـورةُ الضّاحكـةُ» مـن بعـدِ ذلـكَ الحـدث (حـدث ظهـور بدريّـة عنـدَ الليلـة الشّـعريّة) بسـنينْ. كانـت تلـك الجُّملـةُ تقـولُ شـيئاً مـن كلامِ «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» يبـوح لمجـذوب، في رسـالةٍ منهـا إليـه مـن أحـدِ بلـدانِ «الشَّـيْك الخَـدْرِيْ» العربيّـة، بأنّهـا تخـشى أن تعـود هـي مـن اغترابهـا للسـودان ولا تلقـاه هنـاك فـ»تحتـارُ هـي» [في أصـلِ الرّسـالةِ إيّاهـا كان آخـرُ تلـكَ العبـارةِ هـو كلمـة «أحتـار أنـا» التـي قـد تحيـل، تـوّاً، عنـدَ ذاكـرةِ عاطفـةِ أهـلِ السّـماعِ الغنـائيِّ العريقـين، إلى أغنيـة «يـوم المهرجـان» الشـهيرة التـي يُـردّدُ فيهـا أبـو الفـنِّ الغنـائيِّ السّـودانيِّ الرّاحـلِ، إبراهيـم الكاشـف، لازمـة «أحتـار أنـا... أحتـار أنـا... أحتـار أنـا... أحتـار أنـا........ تريريريـرا تريـرم...... تريريريـرا تريـرم.......].

لم يكـن تخيّـل مجـذوب الطيـب وحسّـه قـد أمسـكا، ولـو حتـى في الظّـلَ- في الإحتـمالِ، بتصـوّرِ إمـكانِ حضـورِ بدريّـةِ لتلـكَ الليلـةِ الشـعريّةِ بالـذّاتْ. وكان ذلـك، في الحـقِّ، غريبـاً جـدّاً عليـه في تلـكَ الأيّـامِ، خصوصـاً وأنّ خَوَاطِـرَهُ الغَبْيَانَـةَ كانـت، دون انتباهـه المبـاشرِ أو حتّـى «كَيْتَـاً» في انتباهـه المبـاشرِ، كثـيراً مـا كانـت تكـونُ، آنـذاكَ، مَشْـغُولَةً بسـذاجةٍ شـديدةِ الجّمُـوحِ و»الهيافـةِ»، برسـمِ و»تطريـزِ» بدريّـةِ، وهـي دومـاً لابسـةً ثوبـاً أخـضراً ليمونيّـاً مُـوَرَّدَاً، وهـي

تظهـر أَمَامَـهُ، فجـأةً، في أماكـنٍ كان مسـتبعداً لـه، لأسـبابٍ عمليّـةٍ و»عقلانيّـةٍ» واضحـةٍ، أن يُلاقيهـا عندهـا مثـل ليـس «بـابَ المَسْـجِدِ» وإنّمـا «بَكّانَاتَ»كـدارِ اتّحـاد طـلاب جامعـة الخُرطـوم، سـوق الخـضر والفاكهــة في مركــز مدينــة الخرطــوم أو، FOR THAT MATTER، مدينــة الخرطـوم بحـري أو سـوق حـيّ الصحافـة الخرطومـي المركـزي، عجّـة وهجّـة سـوق الفـول المـصري المَصَلّـح والسّـمك المحمّـر والشـاي ومديـدة الحلبـة المترامـي قُبَالَـةَ العـينِ اليُـسرى لـ»أجزخانـةِ السّـجّانة» أو حتّـى سـطوح مكاتـب دار اتّحـاد طـلاب جامعـة الخرطـوم مـن حيـثُ كان طـلاب بعـض داخليـات «البَركـس» بجامعـة الخرطـوم غـير البعيـدة مـن «سـينما النّيـل الأزرقْ»، ومـن بينهـم مجـذوب، يشـاهدونَ، بَلاشَـاً، الأفـلامَ دونَ أيِّ «خَلِـطٍ» أنيـسٍ أو بزيانـوس! مـا علينـا (**بالنِّسبة لينـا مـا بُتَيْنَـة ومـا جمييـل ليـه تسـيبني ده كلام مسـتحييل......!**) المهـم هـي كانـت قـد حـضرت ولم يـرى مجـذوب الطيـب حضورهـا إلا خاطفـاً، كـما ولم يكـن أبـداً متأكـداً مـن مدّتـهِ ولا كيـف كانَ ولا متـى قـامَ أو قعـد. فقـط هـو، لحـوالي دقيقـةٍ ونصـفٍ، لمحهـا خطفـاً، آنـاءَ قراءتـهِ لآخـرِ قصيـدةٍ لـه في الليلـةِ الشـعريّةِ وكان عنوانهـا- فيـما يظـنّ الآن- «إلى مجهولـةٍ رائعـةٍ قـد تطـلُّ ذاتَ يـوم»، وهـي تقـومُ مـن مقعدهـا وتُصلـح- قليـلاً- مـن شـأنِ ثوبهـا ثـمّ، بلفتـةِ وجـهٍ- أو رأسٍ- جانبيّـةٍ إليـهِ وهـو عنـد منصّـةِ القـراءةِ وبطيـفِ بسـمةٍ هادئـةٍ وحزينـةٍ، تـروح بعيـداً عـن المـكانِ، مخلّفـةً وراءهـا غيـماً معلّقـاً بينـه وبـين الجُّمهُـورِ السّـامعِ، بينَـهُ وبـينَ المـاضي الـذي لم يَفُـتْ تمامـاً، ثـمّ- وهـذا هـو الأهـمُّ أو الأكـثرَ تحسيسـاً لمـا سـوف يـأتي- بينـه وبـين القادمـاتِ مـن الأيّـامِ واللّيـالي التـي لم تكـن هـي- بعـدَ- (بمعنـىً خـاصٍّ وسَـمْحٍ) حُبـالَى ولا يحزنـون.

أمّـا ملاحظـة بابكـر عبـد الرّحيـم لمجـذوب- التـي قلنـا عنهـا آنفـاً إنّهـا كانـت عابـرة وضاحكـة- فقـد كانـت هـي أنّـه فيـما كان مجـذوب الطيـب يقـرأ، في تلـكَ الليلـةِ الشّـعريّةِ، قصيـدةً لـه فيهـا إشـاراتٌ مُخصّصـةٌ إلى شـيطانٍ ذي سـبعِ رؤوسٍ ولسـبعِ مهـاوٍ عدميـةٍ ومـا شـابه ذلـك مـن خُزُعبُلاتِ التَّرنيمِ،أوالتَّزْنِيْـمِ [بتـصرّفٍ في «تَزَانُـمِ» القاصّـة السـودانيّة منـى أبوزيـد محمـد صالـح]، الشّـعريِّ جـرى- في روايـةٍ بابكـرِ الحفـصيِّ عـن «عاصـم»- بعـض أطفـال السّـامعين (أكرمهم اللـه)، في هلـعٍ حقيقـيٍّ، بعيـداً عـن ذلـكَ المـكان المهجـوس وأبنـاءِ «أُمْ بُعُلاّتِـهِ» الذيـن كانـوا يبـدونَ، آنـذاكَ، أنّهـم كانـوا، بِخُبْـثٍ لا تُخطئُـهُ الأذنُ، زاحمـينَ- عـلى الأقـلِّ- لأرجـاءِ قصيـدةِ مجـذوب الطيـب تلـكَ وصوتـهِ، بـل ونَفْسِـهِ، في الليلـةِ تلـكَ بالـذّاتْ، بجيشـانِ تمـرّدٍ غريـزيٍّ غامـضٍ- أو مُلغـزٍ- لكنّـه، في ذاتِ الوقـتِ، شـديدٌ وذو حمحمـةْ.

في لقـاء مجـذوب الطيـب التـالي مـع بدريّـة لم يشـأ هـو أن يُشـيرَ إلى حضورهـا الخاطـف، يومـذاك، عنـد ليلـةِ القـراءات الشـعريّة. هـو لم يشـأ ذلـك لأنـه أحـسّ بأنهـا مـا كانـت تُريـد لـه- لسـبب تـود، لا شـعوريّاً، أن تخفيـه أو ربمـا أنهـا، في الأسـاسِ، لم تكـن تدريـه- أن **يعلم** أنّهـا كانـت **هنـاكَ** في تلـك الليلـةش وأنّهـا قـد رأتـه، في ذاتِ الوقـتِ، وهـو يقـرأُ الشّـعرْ.

كانـت ليلـة اللقـاء التاليـة تلـكَ هـي ليلـةَ حفـلٍ ختامـيٍّ لأسـبوعٍ ثقـافيٍّ أقامتـه رابطـة أبنـاء كوسـتي بجامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم وكان مُغنّـي تلـك الليلـة هـو المطـرب السـوداني الرصـين الرزيـن عثـمان حسـين. كانـت بدريّـة تحـبّ عثـمان حسـين كثـيراً، هـو وعبـد الكريـم الكابـلي الـذي كان هـو، في تلـك الأيـام، مغنيّهـا الأول والمفضّـل (قـدّر

مجذوب الطيب ذلك من كونِ أن أول شريط كاسيت غنائي كانت بدريّة قد سلّفته له، في أول لقاءٍ جمعهما بعد تلك الرحلة التي تعارفا فيها على بعضهما البعض، ليسمعه كان للمطرب عبد الكريم الكابلي ومن كونِ أنها كانت تُرجّعُ، هامسةً ومدندنةً لنفسها، مطلع أغنية «حبّك للنّاس» وتوصيه، بما خُيل إليه أنّه نَفَسُ شجنٍ خاصٍّ قديمٍ، بأن يستمع، في ذلك الكاسيت، مليّاً إلى أغنيةٍ بعينها كان يرددها المطرب عبد الكريم الكابلي ويبدؤها شاعرها بمطلعٍ وصفيٍّ لسهرةٍ كانت محتفلةً (كما يقولون) بكلِّ الزهورِ والندى والجمالِ والبشاراتِ، لكنَّ تلك جميعُهَا- كما يتأسّى الشاعر-كانت **لغيرِهِ:- كنتَ في حفلة جميلة الليلة...... كنتَ في حفلة جميلة الليلة...... كنتَ في حفلة جميلة الليلة......)**.

6

هـذا المشـهد الأخـير مـع بدريّـة أعـاد، آنـذاكَ، مجـذوب- تلقائيّـاً وكأنّمـا كان هـو، آنـذاكَ ورُغـمَاً **عنـه**، في حـالِ انعطـافٍ لا شـعوريٍّ فيـه نحـو مـا ظنّـهُ «ترفيـعَ» آليّـاتِ دفـاعٍ لازمـةٍ عـن تماسـك «المثقّـف الذّهنـانيِّ» فيـه ضـدّ «تعاويـذِ سـحرِ ونعومـةِ الأنوثـةِ الهُلاميّـةِ- إلى زمـانٍ غابـرٍ (لكنّـه ليـس شـديدَ «الغَـبَرَان») كان هـو فيـه موغـلاً في الثقافـة والسياسـة ومتّخـذاً لنفسـهِ سِـمْتَ معتـزلٍ إختيـاريٍّ ذي حـذاءٍ طمبـوريٍّ مُهلهـلٍ، شـعرٍ آفـرويٍّ وبناطيـلِ كوردورايـت و......و...... وابتسـامةٍ محصّنـةٍ بوعـيٍ تميّـزٍ ذاتيٍّ مُتَوَهَّـمٍ [مـا كان قـد يسـميّه، أحيانـاً، «كبريـاء الفنّـانِ»] وشـديد الرّصانـة (مـع ذلـك هـو كان ممزوجَـاً بنهـوضٍ، بنَفْـثٍ، صلصـاليٍّ تحتـانيٍّ عنيـدٍ لأحاسـيسِ اسـتثارةٍ مكتومـةٍ عمـداً). وذلـكَ تـركَ مجـذوب الطيبيقلّـب يديـهِ، وعينيـهِ، بلهوجـةٍ ووسوسـةٍ وسـهومٍ أصيلِـيْنَ فيـهِ، في مُتنوِّعـاتٍ مـن أوراقـه القديمـة المنتميـة لفـترة «الثانويـة العليـا» مـن دراسـته ولجانـبٍ مـن سـنته الدراسـيّة الأولى في كليّـة الآداب- جامعـة الخرطـوم. وقـد لقـي مجـذوب- مـن بـين هسـيس كلّ ذاك الهردبيـس الورقي العتيـق الرائحة والمُذكّـر، بإيمـاءٍ طفيـفٍ، بـشيءٍ مثـل بقايـا فـوحٍ قديـمٍ رائحـةِ فلـير دامـور أو ريـف دور (ليـس «بـتّ السّـودان»!)- سـفراً صغـيراً مكتوبـاً، بخـطٍّ يـدٍ طريـفٍ وعجيـبِ التَّلـوّي أو التِّلـوِّي، عـلى كرّاسـة مدرسـيّةٍ

مُخضرَمَـةٍ ومسـطّرة ومـن ذلـك النـوع القديـم الحَنِـيْنْ الـذي كانـت تطبعـه وزارة التّربيـة وتجعـل في وسـط غلافـه مسـتطيلاً بحجـم ثلثـه تقريباً مطبوعـةً عليـهِ، بسـوادِ حـبرِ آلـةٍ كاتبـةٍ قديمـة «الموضـة»، كلمـة «جمهوريّـة السّـودان الديمقراطيّـة» وتحتهـا عناويـن فرعيـة (جانبيـة) صغـيرة هـي «المدرسـة»، «الطالـب»، «الفرقـة»، «المـادّة» و«السـنة الدراسـية» كان عـلى الطالـب أن يملأهـا حسـب رزقـه المـوروث والمكتسـب مـن الإنتبـاه والنّظـام و«الشّـطارة». تحـت ذلك المسـتطيل، بتلـك الكُرّاسـةِ المدرسـيّةِ المُخضرمـةِ، كانـت مكتوبـةً عبـارةُ «مصلحـة المخـازن والمهـمّات عطـاء رقـم -10/75/76بفـرق أن الحروف الـواردة في تلـك العبـارة كانـت مكتوبـةً بحـروفِ الهجـاءِ الهنديّـة وليـس العربيّـة). كان العنـوان الـذي سـمّى مجـذوب الطيبـه ذلـك السّـفر الصّغـير هـو «موجـزٌ لتاريّخيّتـي وأشـياءَ أخـرى». بـدأ مجـذوب، تـوّاً، يقـرأ في ذلـك السّـفر القديـم بانتبـاهٍ غريـبٍ وكأنّمـا كان الحدث/الموقـف الـذي كان هـو قـد كُتِـبَ، أصـلاً، لإضاءتـهِ وتفسـيره قـد عـاد، مـن جديـد، حيّـاً في خواطـرهِ أو كأنّمـا كان هـو، بكيفيّـةٍ مـا، مُلزَمَـاً، آنـذاكَ، في نفسـه برُجعـى لولبيّـة لـه يشـهده، عندهـا، بعينـين حاضرتـين:-

موجز لتاريخيّتي وأشياء أخرى (1977)

موجز لتاريخيتي (1977)

مقدمة:-

هنـا ذاتٌ تسـعى.. وتسـعى.. نحـو تحققهـا منـذ البـدء.. منـذ التخبـط في الظـلام..... وبإيجـازٍ.. حتـى انفتحـت لهـا معـالمُ نـورٍ جديـد... وأزاحـت عـن وجههـا الوهـم الأوّل... أو الجهـل.. بعـد حـدّةٍ

ورفضٍ ومعاناة.. ثم أزاحت عن وجهها «الوهم الثاني».. لتنطلق من مرتكز... كانت نواته مغلَّفة داخل... «الوهم الثاني».. ساعيةً نحو قمة.. «إنسانية حقاً ومتحررة»...... فلتسعى.. ولتسعى.. ولتُمجّد قبل أن تموت.. وليكن شعارها في الفكرِ هذا:-

.... «يجب أن نواصل السّير نحو الحقيقة... ولو تحطّمت تحتَ أقدامنا ألفُ عقيدةٍ قديمة...»...

البداية:-

ولدت في يوم من أيام يوليو 1957 وأنا لي الآن من العمر نحو 19 عاماً ونصف.. أي لا أزالُ شابّاً...

كنتُ.. في رعاية أبوين.. من بلدٍ واحد... وطفولتي كانت هادئة.. فقد كنتُ طفلاً صامتاً.. كأنّ الهدوء قد تأصّل في أعماقي منذ البدء... ليعلّمني كيف أفكّر فيما بعد... وكيف أسعى نحو التسامي... وكانت أسرتي- ولا تزال- شأنها شأن بقية الأسر المسلمة.. تلقنني.. وتخلق لي قيمي.. أو «كأي طفل أحسّ بالتشيُّئِ في عمل أهلي»، كما يقول الوجوديّون.. إذ هم الذين يحددوا أفكاري ومأكلي..! وملبسي..! مشربي..!.. أي كنتُ.. كأيّ طفلٍ صغيرٍ.. وككثيرينَ من الناسِ في هذه الأيام..!!.. أو كمعظمهم.. في إخضاعِ قيمهم الفكريّة.. والأخلاقية لقيم أهلهم دون مناقشة.. أو في العمل بفلسفة.. «التسليم والخضوع...»... و... «إلغ عقلك وسلّم...»... ثمّ رويداً رويداً.. بداتُ أميلُ لتحريرِ عقلي.. سيّما وأنّي كنتُ، منذ صباي، ميالاً لأن أقرأ.. وأفكّر.. وأسلك بوعي... فبدت تنمو في داخلي نظرة خاصّة للدين.. بوصفه المخلّص.. وغرقت في بعض

صور التصوف... وشغفت به باعتباره .. «حضرة روحانيّة جميلة في ظلّ الإله الكامل».. مما دفعني للإرتماء في أحضان البرهانية... باعتبارها تهيؤني للتعامل بسلام مع الناس.. وازدهار السلام والطمأنينة في نفسي...

ورويداً.. رويداً.. جاء الطور الجديد.. المرحلة الثانية التس سأسميها مرحلة «ما بعد البداية»... فإليها.. يا أيّها.. «الإنسان»...... أدعوك...!...

ما بعد البداية:-

ثم.. رويداً.. رويداً.. أدركتُ أن التصوف على هذا النحو.. « والغرق في العبادة والتسبيح» إنما هو نوع من الهروب وبدأت أفكر في أن يكون إيماني ذلك اقتناعاً... «وهذه هي خطوة التحرير العقلي الأولى»... وبدأت أغرق في كتابات مصطفى محمود.. و»حواره مع صديقه الملحد» ليقوى إيماني.. وخرجت في ذلك الوقت القصائد الإلهية التي تُشتمّ فيها رائحة «الإيمان الصادق»... وبدأت أقرأ نقده لـ»نظرية التطور».. وكتاباته العاطفية والدينية خاصة.. مثل كتاب «الرحلة إلى الكعبة» وغيره.. أي كنت في مرحلة تبرير إيماني.. وإخطاء الآراء غير الدينية بأيّةِ وسيلة.. أي في محاولة للإيمان عن عقل.

ثم بدأت رويداً.. رويداً.. أعتبر وأميل إلى اعتبار.. أنّ الوجود البشرى.. رغم إحساسي ببعده عن القيم والمثل... يمكن إصلاحه عن طريق الدين.. ولشغفي بالخير.. و»روحي الشاعرية الخيرية عن الله» بدأتا أميل.. عاطفيّاً.. إلى إنكار وجود الشيطان.. وملت لاعتقاد وجود الملاك «لروحه الجميلة فقط...»...

ثـم كانـت كتابـات محمـود محمـد طـه بدايـةَ عهـدٍ جديـد..... بـدأت بقراءتها وأنـا طالـب في طريقـه لدخـول «الثانـوي العـالي»... ثم كان رفـضي لفكـرة الملاك والشـيطان واعتبارهـما «روح الخـير والـشر في الإنسـان».. وازداد تأثـري بكتابـات محمـود حتـى شـك النـاس في أمـر انتـمائي للجمهوريـين الذيـن ينظـر إليهـم النـاس بعـين.. الإرتيـاب.. بـل و.. «الكراهيـة».. ثـم آمنـت بنظريـة التطـور بعـد نقاشـات مسـتفيضة مـع صديقـي الإنسـان الرشـيد الـذي هـداني لبـدء الطريـق.. لبـدء الوعـي.... ثـم فقـدت إيمـاني بالجنّـةِ والنـار.. واعتبرتهـما مجـرد رمـوز قرآنيـة.. للتربيـة بالخـوف... والطمـع «وهـو رأي محمـود».. لكنـي هنـا كنـت أقـول إن اللـه هـو واضعهـما وليـس محمّـد النّبـيْ...!..

التفتُّح التّاريخي.. واليقظة الكبرى من الوهم..!

ثــم... وكالمسـتيقظ مـن النـوم... عـلى صـدى صيحـةٍ غريبـةٍ.. عميقـةٍ.. بـدأت بالـتردد والخـوف... ببـث الشـجاعة في نفـسي... عـلى التفكـير في المسـألة الخطـرة... والدخـول «في اللعبـة التـي يعتبرهـا أفراد مجتمعـي خطـرة مميتـة...».. بـدأت بالشـكّ الـذي يصحبـه الخـوف.. والتمـزّق.. الشـك في وجـود ذات اللـه.. اللـه الـذي كان عنـدي العـلي القديـر...؟! تصـوّر ذات شـخص.. في السـابعة عـشر تقريبـاً... يفجؤهـا هـذا الشـك.. المؤرق.. وهـذا القلـق والحـيرة اللذيـن هـما أكـبر منهـا.. كيـف تكـون معاناتهـا..!.. عـلى أيـة حـال تلـك كانـت تجربـة حياتيـة... بـارزة ورئيسـية في حيـاتي (تجربـة غنيـة وممتعـة وخطـرة).. مليئـة بالمعانـاة... والقلـق.. والبحـث.. البحـث [البحـث الـذي كان وعـائي الذي يحتوينـي- كـما في إشـارة أدونيـس في «أغـاني مهيـار الدمشـقي»...]... ثـم كانـت محـاضرة يلقيهـا أحـد النـاس في المدرسـة لإثبـات «وجـود

الله».... خرجتُ منها أكثر شكّاً.. وبدأ الإلحاد يصور لي نفسه كشيءٍ خطرٍ.. وغريبٍ.. وجميلٍ في نفس الوقت.. وبدأت كلمة الوجوديين:- «أنا موجود.. أنا حر.. إذاً فإنّ الله لم يعد موجوداً» ذات جاذبية غريبة وخطرة... وترددت مع خفقاتِ قلبي كنداْ للتحرر... ولتتفتح أمامي آفاق جلاليّة أبديّة.. وجاءت قصيدة الشك.. التي كانت كأنّها الحيوية الآخريّة.. والإنتفاضة الأخيرة للحمامة المذبوحة.. ضدّ ما تريد أن تصير إليهِ، رغم وصولها للشكّ العميق.. المقلق.. المعذِبْ... و«القلق الوجودي»...

وثمّ.. فكّر العقل.. وفكر.. وتردد... ثم قررت أن «أسير في المسار الخطر لمداه الأقصى» وداخلتني قناعةٌ عقلانيّةٌ بأنّ الله ليس موجوداً! لكنمّا ترددت في نفسي جملة نيتشة التي كان يرددها صديقي الرشيد دائماً:- «إنّ الله قد مات، ألا تشتمّونَ رائحة العفن...!..».. وتمثّل لي- بواسطة العقل- أنّ ذلكَ وهمٌ وخرجت القصيدة التي مثلت «يقظتي الكبرى» تلكَ:- «قومي يعبدون الوهم/وأنا قد خرجت/من مغارةِ الوهمِ نقيّا»...

ثمّ سرى في داخلي ذلك الشعور الوجودي بتفاهة الإنسان.. وحيوانيّته... بعد ما ازددتُ معرفةً ازددتُ حزناً.. ورفضاً.. وجاء «عالم الحلم بالإنسان الإنسان»..

ورغبتي في إبداع «الإنسان الإنسان»، في داخلي، حفّزت إرادتي على.. «السمّوّ بشخصيّتي» عن الصفات الحيوانية.. وانحفر في أعماقي قولُ فيلسوفٍ أمريكيٍّ اسمه نورمان أو برون:- «الإلحاد الحقيقي هو أن تُصيرَ إلهيّاً».. تنمّي في ذاتِكَ صفاتِ الألوهيّةِ الجّميلة.... فقد كانت قاعدتي الأخلاقية الأساسية «ولا تزال»

ليسـت في التمسّـكِ بالصفـات الإنسـانيّة.. خوفـاً مـن إلـه.. أو طمعـاً في جنّتِـهِ «لا أتـربّى بالخـوفِ.. والطّمـع..».. وصـار مقيـاسي الاخلاقـي الفلسـفي- أنـا وصديقـي الرشـيد- «التمّيـز عـن الحيـوان»... ونتجـت في ذواتنـا الكراهيـة العميقـة للإنسـان الحيـوان «ذلـك الـذي يعيـشُ في القشـور» وجـاء الشـعر ليُعـبّر:- فلتكـره الإنسـانَ..!/ذلكَ الـذي يعيـشُ في القشـور..... وأحسسـتُ «بعمـق مأسـاتي».. وهـي مأسـاة الإنسـان الـذي هـو مجبـورٌ أن يبقـى مثـل الحيـوان.. ويـأبى ان يبقـى مثـل.. الحيـوان..!... وفي الشّـعر:- «لا فسـقٌ يأتيـه.. الإنسـان الإنسـان../مجبورٌ ان يبقـى مثـل الحيوان../ويـأبى أن يبقـى مثـل الحيوان../وهنـا يـأتي كـون الرفـض المأمول.../عمـق الرفـضِ.. وعمـق الحـزن...» هنـا يكـونُ للإنسـانِ «شرفُ المحاولـة».. للتخلّـص مـن صفاتـه الحيوانيّـة.. عـسى يكـون هنـاكَ بعـض النجـاح.

ورغبتـي في الخير للإنسـانية.. وعـدم الوقـوف في الحياد بل المشـاركة في سير التاريـخ.. مـع إلحـادي.. والإعتقـادات القديمـة التـي كانـت في داخـلي والتـي تصـوّر لي الحـزب الشـيوعي كطريـقٍ وحيـدٍ للخـلاص «الإقتصـادي» وبصفتـه الحـزب الوحيـد الـذي يحمـل أفـكاراً إلحاديّـة.. جذبـتُ إليـهِ.. وسـجّلتُ نفـسي فيـه.. لكنّنـي منـذ شـهورٍ مـن انضـوائي فيـه بـدأت تتكشـف لي حقيقـة أخطـاء الماركسـية... والشـيوعيين.. ثـم كان الإدراك.. بـأنّ الحـزب الشـيوعي ليـس هـو الـذي سـيحقق آمـالي.. في «تطـور الشـخصية الإنسـانيّة».. إصغُـوا إليَّ- إذاً- في حديثـي عـن:-

إزاحة الوهم الثاني....

هـذه الإزاحـة.. لـ«الوهـم الثـاني».. كانـت نواتهـا مغلّفـة داخـل الوهـم الثـاني نفسـه... منـذ البدايـة تظهـر ملامحـي.. المتأثـرة

بالوجوديـة.. والآراء النقدية الجديـدة.. للماركسـية.. وإعجـابي بمبـدأ:- «يجـب أن نواصـل السـير نحـو الحقيقـة ولـو تحطمـت تحـت أقدامنـا ألـف عقيـدة قديمـة».. وهـو مبـدئي الفكـري الأسـاسي، الـذي يعـبّر تمامـاً عـن رغبتـي في التحـرر الفكـري.. وأإن «لا أؤمـن بـشيءٍ إلا وعيـوني مُفتَّحَـة..»... وسأسـتطردُ في وصـف هـذه المرحلـة.. أكـثر مـن السـابقات.. لأنهـا المرحلـة الحاليـة والأخـيرة... بـدأت انتقـاداتي- وصديقـي الرشـيد- بالتنديـد بالسـلوك الفعـلي الأخلاقـي الـذي يسـلكه كثـير مـن الشـيوعيين وتعارضـه مـع أخلاقياتنـا التـي نحـاول أن نجعلهـا سـامية. ثـم تطـوّرَ ذلـكَ إلى نقـدِ الآراءِ الماركسـيّةِ نَفْسِـهَا.

1. أبـدأ هنـا مـن فكـرة المادّيّـة الديالكتيكيّـة التـي تقـول بـأنّ «البنـى الفوقيـة مجـرد انعـكاس لنمط الإنتـاج... والماركسـيّون يصورون ذلـك كأمـرٍ حتمـي... وعلاقـة البنـى الفوقيـة بنمـط الإنتـاج هـي عندهـم علاقـة المعلـول بالعلّـة... هـم لا ينكـرون دور البنـى الفوقيـة ووظيفتهـا ولكـن الفكـرة عندهـم تنبثـق لأنهـا ضروريـة لإنجـاز مهمـة جديـدة..! «كـما يقـول سـتالين».. ويعنـي ذلـك «أن المهمـة حتـى قبـل أن تتحقـق تسـتدعي الفكـرة التـي ستسـهل إنجازهـا». إذاً فالفكـرة «يفرضهـا ويبعثهـا فـراغٌ لتمـلأه..».... ولكـنّ هـذا يشـعرنا كأن البنيـة الفوقيـة هـي انعـكاسٌ للمهمـة الإجتماعيـة التـي لم تتحقـق بعـد، إنعـكاسٌ لمـا لا يوجـد بعـد».

مـن هـذا الـذي نقلتـه عن سـارتر يتضـح لنـا أن الفكر ليس انعكاسـاً للـمادة وليـس «رد فعـل دماغـي فحسـب»- وكـما يتسـاءل سـارتر تسـاءلتُ أنـا هنـا:- «كيـف يمكـن للـمادة أن تولّـد فكـرة المـادة؟»- ولكنـه «**وعـي** بظـروف قائمـة بعـد الشـعور بالحاجـة لتغييرهـا»...

وإبـداع عـالم جديـد «في الحلـمِ كغايـة».. فالدمـاغ لا يفكـر.. وإنمـا ينقـل «ويعكـس فقـط» مـا بالخـارج.. وهـذا الإنعـكاس ليـس هـو الفكـر بـل الفكـر نبـع ليـس نتاجـاً مـن الدمـاغ بـل قـد يكـون نتاجـاً لمشاعر الخـوف بعـد شـعور الكائـن الحـي بحياتـه «وهـو أول درجـات الحيـاة..» ومـن ثـمّ تولـد **وعيـه** ليكافـح الظـروف.... وهنالـك دليـل علمـي عـلى أن الفكـر لا ينبـع مـن الدمـاغ «ليـس الدمـاغ يفـرز الفكـر كـما تفـرز الكبـد الصفـراء..».. وهـو أن أدمغـةً.. لأكـبر مفكريـن في أعمـق حـالات تفكيرهـم قـد فحصـت ولم يلاحـظ أي اسـتهلاك.. إلا بدرجـةٍ تافهـةٍ جـداً.. ولا أي نشـاط وحركـة.. إلا بمقـدارٍ بسـيطٍ جـداً.. للدمـاغ.. فكيـف لم يتأثـر الدمـاغ ويتغـير ويتحـرك إذا كان الفكـر منـه.. مـع هـذا الجهـد العقـلي العميـق؟!...

وهنالـك القـول بوجـود ديالكتيـك للطبيعـة... مـع أن الديالكتيـك يفـترض أن يكـون «كليّـا».. ووحـدة المتناقضـات فيـه تنتـج «تركيبـاً جدليّـاً» يختلـف عـما سـبق.. ولا يمكـن إعادتـه لمـا سـبق.. والحـال هـو أن هـذا ليـس في الطبيعـة.. لأن المتناقضـات أو بالأصـح «المتعارضـات» تتفـق وتنتـج حالـة يمكـن إعادتهـا لمـا سـبق.. فأيـن التقـدم.. والتركيـب الجـدلي الجديـد في ذلـك؟.. فمثـال المـاء الـذي يتركـب مـن ذرتـين أوكسـجين.. وذرة هيدروجـين هـو مثـال «حالـة، أوضعيـة، فيزيائيـة» وليـس «تركيبـاً جدليـاً» وذلـك لأن باسـتطاعة العـالم أو الشـخص أن يرجعـه لعنـاصره الأولى.. في حـين أن الفكـر عندمـا يرتقـي ويوحـد بـين أفـكار أرقـى والعنـاصر الصحيحـة مـن الفكـر القديـم لا يمكـن أن يرجـع.. بـل ينطلـق للأمـام.. لتـبرز فيـه تناقضـات جديـدة.. ومـن ثـمّ مرحلـة جديـدة.. وهكـذا......

2. وكما قال ماركيوز:- «إن التنبؤية العلمية لا تتطابق مع الحالة المستقبلية التي توجد فيها الحقيقة. ويبدو ان التأكيد القوي على دور الخيال... متناقض مع الطبيعة العلمية الصارمة التي جعلتها النظرية النقدية [وهو هنا يقصد الماركسية بوجه متميز] دائماً معياراً لمفاهيمها. إن هذا المطلب الخاص بالموضوعية العلمية.. هو الذي جعل النظرية المادية تتفق على نحوٍ غيرِ معتادٍ مع العقلانية المثالية».

والحقّ أنه، كما قال ماركيوز أيضاً، «وبدون الخيال تظل كل المعرفة الفلسفية في قبضة ما هو قائم أو ما هو ماضي وتكون مقطوعة الصلة من المستقبل الذي هو الرابطة الوحيدة بين الفلسفة والتاريخ الحقيقي للبشرية»...

3. عند الماركسين، أو الشيوعيين، الجماعة هي أساس المجتمع.. ويسحق الفرد سحقاً تاماً. قال ماركس:- «إنه من قبيل قلب الأشياء أن يُعدّ الفردُ غايةً في ذاته وإعتبار المجتمع وسيلة لتحقيق أغراضه».. وهذا خطأ.. لأن المجتمع السليم إنما هو **وسيلة** (بالمعنى الجيد لهذه الكلمة) لإنجاب الفرد المتطور والناضج الشخصية.. واعتبار المجتمع هو الأهم يؤدي إلى إهمال اعتراضات الأفراد واعتبارها «نوايا ذاتية قليلة الأهمية» وبما أنّ هؤلاءِ الأفراد يعارضون فهم «موضوعياً.. وبصرف النظر عن نواياهم الذاتية وآرائهم.. عملاء للبورجوازية».

4. كلّ أفراد المجتمع عبيدٌ للمال يستحقون الشفقة وليس الفقراء وحدهم.. كما يقول الشيوعيون. فالإشتراكيّةُ «ليست إنقاذاً للفقراء والعمال وحدهم فهي، في جوهرها، ليست سحق الأغنياء

وإعطاء أموالهم للضعفاء وإنما هي إنقاذٌ للجميع في كلّ المجتمع الرأسمالي»، كما يفهم ويقول صديقي «الرشيد».

5. إن التقدم المادي لا يساوي شيئاً ولا قيمةَ له إذا لم يرافقه تقدم روحي. هدف الحضارة، قبل كلّ شيءٍ، هو التسامي بالإنسان أو «تطور الشخصية الإنسانية»، كما يقول ألكسيس كارلايل، وليس الرفاهية المادية وإشباع الحاجات فقط كما تقول، بوجهٍ عام، نظرية الحرية عند ماركس.

وكما يقول ماركيوز «تدعيماً لرأيي»:- «إن تمييز السعادة بأنها شرط الهناءة الشاملة لحاجات ورغبات الفرد أمر مجرد وغير صحيح طالما أنها تتقبل الحاجات والرغبات على أنها معطيات مطلقة في شكلها الراهن».

ويقول ماركيوز أيضاً:- «بدون الحريّة والسعادة في العلاقات الإجتماعية للناس تظل البشرية مصابة بالجور القديم حتى مع وجود أكبر زيادة في الإنتاج وحتى مع القضاء على الملكية الخاصة».

6. الشيوعية تتعرض لمرض البيروقراطية وعبادة الفرد، كما حدث في عهد ستالين.. وذلك لأن الحزب يعيّن «المناضلين» باعتبار «نضالهم فقط وتضحياتهم» قواداً يديرون الدولة كما يشاؤون.. ومن احتكار المهام تنشأ البيروقراطية.. وعبادة «المناضلين» حتى إذا أخطأوا في الإدارة أو لم يستشيروا غيرهم فيها.

7. بما أن الفكر الشيوعي هو، عند أهله، الفكر التقدمي الوحيد وهو فكر الطبقة العاملة الإشتراكي ولا صحيحَ غيره «كما يتردد في كتابات الشيوعيين».. إذاً فهو الذي يقود.. وبالتالي هو الذي

يمثل وعي الجماهيرى لذا فيمكن أن يقود الحزب الجماهير بإرادته هو.. فتنشأ سيطرة الحزب الواحد (كما في روسيا) أو «نظام الحزب الواحد».. وفي أحسن الأحوال «باعتبار الحزب طليعة البروليتاريا» تنشأ سيطرة الطبقة الواحدة «البروليتاريا» لذا كل من يعارض لا يُنظر فيما يُعارض به ويدرس بل يُنظر لأصله الطبقي.. فإذا كان «برجوازيّاً» اعتبر نقده- مسبقاً- ضاراً.. كمثال سارتر وغيره عندما ينقدوهم يقولون بأنهم «أدوات برجوازية ضد الماركسية» مما معناه أنهم يضعون في حزبهم الخير المطلق- وفي أحوال أحسن قليلاً في «البروليتاريا»- ولا يرون خيراً- بمعنى مطلق- في «الآخرين» الذين هم دوماً،عندهم، لهم أمراضٌ في أنفسهم ومعايب تجعلهم لا يأتون بأيِّ شيءٍ صحيح فأيّ نقدٍ يُوجه للماركسية يغدو **مسبقاً**، وفق ذلك، كاشفاً عن عيب في نفسِ من قام بالنقد وليس عن عيبٍ في النظرية فذلك يُكشفُ عنه دوماً بالسلب بأنه- كما أبان سارتر- «ذو أصول برجوازية» ليس إلا.

8. الشيوعية مدرسة من مدارس الإشتراكية. بمعنى أن كلّ واحدٍ يمكن ان يكون إشتراكياً دون أن يكون شيوعياً لانه يستطيع أن يصل لإشتراكيته من خلال ظروف بلاده الخاصة وتراثه الفكري الخاص.. فالعربي مثلاً له أصول ثقافية في تراثه الإسلامي تتميز بالروح الإشتراكية.. وهناك نماذج إشتراكية إسلامية كعمر بن الخطاب وأبي ذر.. وبعض الجماعات الإشتراكية التي نشأت في زمن العباسيّين.. لذا فالشخص يستطيع أن يصبح إشتراكيّاً مسلماً.. أو غير مسلم وليس ماركسياً باعتبار أن الماركسية هي- في الأصل- تتويجٌ لتراث فكري فلسفي أوربي يبدأ من القديم حتى هيجل ثمّ ماركس.

من هذا يتضح أن الماركسية أدارت ظهرها للدين تماماً.. وأيضاً يتضح من الملاحظات نظرة الشيوعيين إلى الدين باحتقار واعتبار كثيرون منهم أن الإنسانَ إذا ألحد فإنه يجب أن يرمي كل الدين وراءَ ظهرهِ حتى جوهره الأخلاقي الإيجابي.. لا أوهامه فقط.. ويعتبر كل ما قالته الماركسية صحيحاً.. ذلك مع أن في الدين عناصر ثورية توصل للإشتراكية وعناصر أخلاقية تربي الثوريين العظام. ويتضح لنا- كذلك- أن قول الشيوعيين واعتقادهم بأن لا اشتراكية بلا شيوعية هو وهمٌ فقط.. كما قال صديقي «الرشيد».

9. إن أحداً لا يجب أن يغلق نفسه داخل فكرٍ معيّن تحت اسم «الإنضباط الحزبي» بل أن يكون إيمانه بهذا الفكر معرضاً للنقدِ دائماً ويجب أن يقرأ الآخرين المعارضينَ جيداً حتى ينقدهم- وليس كما يفعل كثير من الشيوعيين إذا أوصيتهم أن يقرأوا لسارتر مثلاً وصفوه بأنه «برجوازي منحط» وأداروا عنك الظهر فقط- وأي خاطرة نقد تخطر في باله يجب أن يسير بها حتى النهاية ولا يحاول أن يبررها ويُخطؤها بأي وسيلة باعتبار فكره هو الصحيح فقط وأن هذه الخاطرة «ذات أصول برجوازية»- مثلاً- أو كما يقولون في الأحزاب الشيوعية :- «ليس هناك غير حقيقة واحدة هي حقيقتنا».. وأنا أتذكر أنني كنت أتحدث مع أحد الشيوعيين الذين يعتبرون قيادات.. ولم أقل له إن الماركسية بها أخطاء أو شيء كهذا.. بل قلت له فقط إن الماركسية مرحلية وعندما يتحقق لها ما تنادي به ستفسح المجال لفكرٍ آخر «وكنتُ آنذاكَ في الحزبِ إيّاه» فاتهمني بأنني «تحريفي..!..» وحذرني من «التحريفيين»..!! إنّ «الماركسيين الرسميين»، يقولُ روجيه غارودي، «هم أولئك الذين

لا يبرحون- بدعوى واجب الولاء الحزبي- يخضعون عقولهم لتعاليم كنيستهم الرسمية». هذه جملة ساخرة تعبرعن رأيي بكثيرٍ من الدقة كأنها صدىً لفكرتي.

10. وكما يقول غارودي:- «إذا نحن اعتبرنا الرسم الخيالي المعروف باسم «المراحل الخمس للتطور التاريخي- الذي وُضع انطلاقاً من تجربة تطور المجتمعات الغربية- إذا نحن اعتبرنا هذا الرسم حقيقة مطلقة ومكتملة، وأردنا بأيّ ثمن أن ندخل فيه- مثلاً- تطور بعض المجتمعات الأفريقية أو الآسيوية، فإننا بذلك نبتعد عن المناهج العلمية [أو «الواقعية».. كما أقول أنا...] لنعود إلى فلسفة للتاريخ نظرية معتقدية، ونشوه تفكير ماركس نفسه، لا سيّما وأنه هو نفسه أثار هذه القضية في حديثه عن «صيغة الإنتاج الآسيوية».. وهذا ما يفعله الشيوعيون في كثير من الأحزاب.. «يعتبرون هذا الرسم حقيقة مطلقة لكل المجتمعات».. وقد قال ماركس وأنجلس «لا تستطيع- أي هذه المجردات- «هذه المراحل الخمس» أن تكون منهاجاً أو مخططاً تخيلياً يمكن بموجبه ترتيب العصور التاريخية».. ويواصل غارودي بقوله إن «الجدليةَ ليست بالمخطط الخيالي القبلي نصفّح به الأشياء ونفرضه عليها بإجبارها على الدخول في سرير بروكوست هذا». [وبروكوست هذا هو قاطع طرق يوناني قديم- ذكر في الأساطير والأدب الشعبي- يسلب المسافرين المال ويمددهم على سرير من حديد فيقطع أرجلهم إذا كانوا أطول منه.. أو يشدّهم إذا كانوا أقصر]. وكما يقول غارودي أيضاً:-

11. «إن الإقتصاد إنما هو وجه رئيس من وجوه صلاة البشر

بالطبيعة وهو، في الجملة العضوية لهذه الصلات التي تتولد انطلاقاً منها التقنية والعلم والفنون، يلعب دوراً حاسماً.. ولكن دون أن يكونَأبداً بمفرده المحرك الوحيد الذي يصبح كلّ ما عداه ظاهرة عارضة».

أو، على الأكثر، كما يقول سارتر:- «نمط إنتاج الحياة المادية يسيطر بوجه عام على الحياة السياسية والثقافية والإجتماعية»... وكثيرٌ من الماركسيين يغفلون عبارة «بوجهٍ عامٍّ» ويجعلون الإقتصاد «متحكماً» في الظروف الأخرى.

ولكنه، في الأحقِّ، كما قال ماركيوز:- «وإلى المدى الذي تكون فيه الفلسفة مع هذا في حالة سلام مع تحديد الإنسان بظروفه الإقتصادية تربط نفسها بالقمع». وكما قال ماركيوز كذلك:- «الإنسان يمكن أن يكون أكثر من مجرد ذات عاملة في عملية الإنتاج.. في المجتمع الصناعي».. وأضيف أنا هنا عبارة «أكثر من مجرد «حيوان اقتصادي»..»...

12. الحتمية التاريخية عند الماركسيين خطأ.. ويبين ذلك اعتقادهم بأنه في المجتمع الرأسمالي يزداد الفقراء فقراً والأغنياء غنىً.. وبأن ذلك شيءٌ حتميٌّ من صفات المجتمع الرأسمالي تتقلص بموجبه الطبقة الوسطى تدريجياً مع أنه، الآن وفي المجتمع الأمريكي، أخذت رواتب كثير من الناس تزداد- لأن الحاجة إلى العمل الذهني أصبحت أكثر من الحاجة إلى العمل اليدوي- وهذا يستدعي تخريج طبقة وسطى «أو برجوازية صغيرة» باستمرار.. فتزداد أجور أعداد أكبر- ولكن دون أن تقارن مع مكاسب الرأسماليين الكبار- من أصحاب الطبقة «الوسطى» من المهندسين

وأشـباههم «التكنوقراطيـين».. وهنـا تتقلـص «البروليتاريـا» باعتبارهـا الطبقـة الأكـثر فقـراً وطبقـة «الأعـمال اليدويـة الخشـنة» لتكـبر الطبقـة الوسـطى أو «البرجوازيـة الصغـيرة» بازديـاد الحاجـة إلى العمـل الذهني و«التكنوقراطيـين».

13. وهنـاك عنـد الشـيوعيين الإعتقـاد بـأن الثقافـة ليسـت أكـثر مـن دعايـة ووسـيلة تحقـق بهـا الغايـات أو الأهـداف القصـيرة الأمـد.. في خطـةٍ إقتصاديـةٍ أو في مـشروع سـياسي. وأيضـاً توظيـف الأدب والفـن في مدرسـة واحـدة معينـة- مـع أن الإبـداع يفـترض في ذاتـه الحريـة والتعـدد- وتُحتّـم انضباطـه مـع خـط الحـزب حتـى ولـو كان خـط الحـزب عـلى خطـأ. نعـم يمكـن للأديـب أن يلتـزم لكـن يجـب أن لا يلزمـه إلا شيءٌ واحـد هـو «الرغبـة في تطـوّر الشـخصيّة الإنسـانيّة».. او الرغبـة في «خلـق كائـن إنسـاني أسـمى».. أو «كائـن يحيـا حيـاة الفكـرِ والشّـعور بعمـق.. كائـن حـر.. ويحسـن التـصرف في حريتـه الفرديـة المطلقـة..»....

يناير 1977.

[كُتِبَ هذا من منتصف شهر يناير حتى نهايته تقريباً].

<u>أشياء أخرى (1977)</u>

- لـو كان هنـاكَ لـكانَ غـيّرَ هـذه الحيـاةَ إلى أخـرى مشرقـة ومتألقـة بلمحـة عـين.. كـما يـروى في كتـب السـحر.. والخرافـة القديمة.. كتـب حـين كان الحلـم والخيـال بديـلاً للوعـي.

- أحـسّ أحيانـاً- وقـد يكـون كبريـاء- أن مـا اكتـب فيـه حـسٌّ نشـوئيٌّ متطـوّر لا يملكـه في البـشر إلا رأس حربـة صغـير... رأس سـهم

البشريـة المبـدع للإنسـان الآتي..!

- «وأنـا الـذي حمـل الصبابـةَ وحـدهُ لم يفـتُرِ...»:- عزيـزتي.. نختلـفُ تماماً.. ونجـبرُ عـلى العيـشِ معـاً.. لـذا أفهـم جيّـداً لماذا يكـونُ الآخـرُ جحيـماً..

.1977

<u>بقية قصة مفقودة كان اسمها «طفولة»...</u>

....

....

....

...... «سـوبرمان* البطـل الجبّـار..» قـال أحدهـما في سـهوم. ثـم أردف «زمـان يـا..... تِذكَـر قصـص سـمير وميـكي*.....» عاشـت العينـان في رحـاب الذكـرى الماضيـة وبـدأ اسـتيقاظ الذاكـرة. إنتعشـت الذاكـرة وارتعـش الصـوت «السـاحرات.... وبنـدق*.. سـوبر بنـدق*...» وحكـوا حكايـا وحكايـا عـن الأبطال الخارقـين كالمعجزة.. الوطـواط*.. البرق[1]...

ثـم تجلـت فيهـم روح الفكاهـة الطفوليـة وحكـوا.. حكـوا عـن حكايـا يحملهـا قلـب الطفـل.

وفاحـت رائحـةُ ذلـك الدخـان مـن النـوع الخـاص المتميـز.. تـاوه أحدهـما.. وضـع يـده باسـترخاء عـلى الأرض... وتـرددت في خاطـره كلـمات «زمـان.. زمـان... طفولـة... السـاحرات.. العفاريـت.. الرجـل الـذي يطـير..» وحـكى لصاحبـه عـن هـذا الـذي اسـتلب خاطـره.. تصافيـا وضحـكا...

(1) أبطال في حكايا الطفولة.

ثــم كالخارجَـيْنَ مــن حالــةِ ذهــولٍ مُحبّــبٍ وقفــا.. ابتــدآ المــشي.. كان ثالثهـما صامتـاً طيلـة هـذه المـدة.. انتفـض واقفـاً بهـدوءٍ.. ماجـت فيــه الخواطــر.. وابتــدأ الغنــاءْ... وابتــدأت رحلــة العــودة في ذلــك الطريـق المظلـم ظلامـاً خفيفـاً جميـلاً.. كالظـلام الـذي يحدثـه ضـوء القمــر الشــاحب... غنُّــوا.. غنُّــوا.. ثــمَّ صمتُــوا....

دارت في رأس الثالـث جملـة وتسـاؤل:- «هـل حقّـاً هكـذا؟».... «لن نكــون أحــراراً إلاّ عندمــا نكــفُّ عــن العمــل مــن أجــل المــال وعندمــا نفعــل مــا كنَّــا نتمنَّــى أن نفعلَــه عنــدَ طفولتنــا»[1]

وكوحــيٍ قــدسيٍّ امتــلأ القلــب بالكلــمات الأخــيرة... والتــي أخــذت تتثبّــت بــإصرار في جــوف الوعــي كأنَّهــا تفســير عظيــم، كأنَّهــا تبــصّر عظيــم وبــإرادةٍ قاهــرةٍ أخــذ يــردّد كمــن يتملّكــه خيــالٌ نافــذٌ بعمقــه.. ولا فــكاكَ منــه:- «وعندمــا نفعــل مــا كنّــا نتمنــى أن نفعلــه أيــام طفولتنــا.... هــل ذلــك حقّــاً؟!... وعندمــا نفعــل مــا كنــا نتمنــى أن نفعلــه أيــام طفولتنــا... هــل ذلــك حقّــاً... وعندمــا............»

وانضغطــت كلمــة «نتمنّــى»... نفــذت في أعــماقِ القلــب.. نتمنّى... نتمنّــى.. نتمنّى......

الجمعة والسبت:- 2 و3 /8 /1977.

---

(1) جملة لجيري روبين من كتابه «هيّا إلى الثّورة».

7

كان «موجز لتاريخيّتي»، ومعه الـ»الأشياء الأخرى»، قد كُتِبُوا في مرحلةٍ دراميّةٍ طريفةٍ ومُضمرَةِ الحزنِ، في ذاتِ الوقتِ، من «تطوّرِ شخصيّةِ مجذوب الطيب النّفسيِّ والإجتماعيِّ»، كما قد يقولونَ- بتَفَاصُحٍ- في أروقةِ ومُدَرّجاتِ السايكلوجيين والأنثروبولوجيين الأكاديميين. فقد كان مجذوب الطيب قد انكبَّ على كتابةِ ذلك «الموجزِ» الذي كان قد اشتغل عليه (ما بين آناتِ سَمَعَانَاتٍ شديدةَ العاطفيّةِ لما كان يُشير إليه بعضُ «الغُلظاءِ» باسم «أغاني نُص النّهار») في نهارات عطلةٍ دراسيّةٍ من جامعة الخرطوم قضاها في كوستي. كانت «الذهنيّة» التي «سوّرَتْ» ذلك الإشتغال قد «تُفهمُ» على أنها كانت- أو يُمكن لها أن تكونَ قد كانت- (كما في القول المحتمل لناقدٍ أدبيٍّ من أُنَاسِ تلكَ الأيّامْ) بمثابةِ «بديلٍ إبداعيٍّ وفكريٍّ لشكلِ الإستقالةِ التقليديِّ». لكنّ تلكَ حكاية قد تبدو، في الظّاهرِ، مألوفةً وصغيرةً لكنّها، في التحسّسِ اللا شعوريِّ، قد تبدو، بمعنىً ما، أيضاً، كبيرةً بشكلٍ ربّما لم يكتشف مجذوب الطيب (والراوي) كامل أبعادهِ في حياته التي «أتت»، من بعد ذلكَ، حتّى الآنْ. لذا يشعر الرّاوي (الذي هو «أنا») أنه من غير المناسب (أو أنه لا يميلُ إلى) حكايتها هنا الآن ومن ثمّ يُستحسنُ إبعادَها عن أفقِ المحكيِّ عنه في هذه اللحظاتِ الحاضرةِ-الماضيةِ في هذا الكتابْ.

قلنـا، قبـلاً، إنّ عـودةَ مجـذوب الطيـب لذلـكَ «الـكلام القديـم» ربّما كانـت هـي، عـلى نحـوٍ مـا، تعبـيراً عـن حنـينٍ دفاعـيٍّ إلى زمـانِ صِبـا ظـنَّ فيـه مجـذوب الطيـب صـورةً لنفسـهِ رآه فيهـا «مثقفـاً وسياسـيّاً، معتـزلاً ومتقشّـفاً أو زاهـداً بالـضرورة، لكنّـه متماسـكٌ في ذاتِ ذلـك الإعتـزال، التقشّـف أوالزُّهـد» ثـمّ باتـت تلـك الصُّـورةُ، الآنَ، مُهـدّدةً (كـما ظـنَّ) بمـا سـمّاه «التّهـدُّلَ» أو «التَّهَـدُّجَ» [أي بمـا سـمّاهُ، بكلمـةٍ واحـدةٍ أخـرى، «الغنائيّـةِ»!] بفعـلِ حضـورِ الأنثـى المتذبـذب الغامـض والسّـحري بغرابـةٍ ماكـرةٍ ونشـوةٍ مُغْوِيَـيْنْ.

ثـمّ ربّمـا كانـت بدريّـة قـد أُنـذِرَتْ (هكـذا كان هـو قـد ظـنَّ بخياليّـةٍ تامّـةَ المجّانيّـةِ والتّلقـاء) بذلـك الجانـب الـذي توهّمتْـهُ «بـارداً ومنفصـلاً ولا شـخصانيّاً» فيـه حينـما، في مجيئهـا الخاطـف إلى «الليلـة الشّـعريّة»، رأتـه، لبُرهـاتٍ، وهـو يقـرأ آخـر قصائـده قبـل أن «يترجّـل» عـن المنصّـة ويعـود إلى حيـثُ مـن قـد شَـافَتْهُمْ هـي، آنـذاكَ، عـلى أنّهـم «عامّـة العاطفيّـينَ مـن النّـاس». هـل كان في مجـيء وذهـاب بدريّـة الخاطـف، إلى وعـن، «تلـك الليلـة» شيءٌ مـن التّعبـيرِ الغريـزيّ عـن خوفهـا مـن ذلـك «الجانـب الـذي توهّمتْـهُ بـارداً ومنفصـلاً ولا شـخصانيّاً» فيـه؟ وهـل كانـت عـودة مجـذوب، (التـي كانـت تبـدو غريزيّـة) إلى ذلـك العهـد الـذي ليـس هـو «شَـدِيْدَ الغَـبَرَانِ» مـن صباه، خـلال قراءتـه الغريبـة الإنتبـاه، لـ«موجـز لتاريّخيّتـي وأشـياء أخـرى»، مُعلّلَـةً- فعـلاً- بمـا سـبق وأن ظننّـا أنّهـا كانـت مُعلّلَـةً بـهِ؟ ذلكـما سـؤالان ربّمـا كان مـن الأفضـلِ، للمتوازنـين و«الحكيمـينَ» مـن النّـاس، أن يتركوهـما وحدهـما ويعيشُـونَ فقـط مـا هـم فيـه ((Goddamit! كانـوا يعيشـون. لـذا هـما لـن يُجـابُ عليهـما هنـا بـأيٍّ إجابـةٍ يمكـنُ

لها (ولـو نسـبيّاً؟) أن تأخـذُ هيئـةَ صـورةٍ تأمّليّـةٍ واضحـةٍ أو «نظـامٍ» مُرتّـبٍ مـن «التّفلسُـفْ». ربّمـا عـوّل بعـض القارئـين عـلى أن يلقـوا شيئاً مـن ذلـكَ (أو، عـلى الأقـلِّ، مـن «حـسٍّ» ذلـكَ) في ثنيّـاتِ، وطيّاتِ، هـذا الحـكي الـذي أغامـرُ أنـا (الـرّاوي) بـه الآنْ. لكـنَّ «العُهْـدَةَ»، آنـذاكَ، تكـونُ، بالـضّرورةِ، عليهـم وحدهـم إذ سَـيُلْزَمُ، وقتَهـا، كلٌّ منهـم بـ»طائـرِهِ» الـذي هـو «في عنقـهِ».

قـد يفهـم القـارئ، مـن جهـةٍ ثانيـةٍ (لكـنّ ذاتَ علاقـةٍ أكيـدةٍ)، أنّ ذلكـما الحدثـين الصغيريـن (حـدث مجـيء بدريـة إلى الليلـة الشـعريّة وذهابهـا الخاطفـين عنهـا وحـدث عـودة مجـذوب الطيـب إلى ذلـك العهـد الـذي ليس هو «شـديد الغـبران»...... إلى آخـره) كانا، عمليّـاً، أوّل شـقّينَ في الـشّرخ الـذي اتّسـعَ، فيـما بعـد، بـين مجـذوب الطيبوبدريّـة وأوصلهـما إلى ذلـك «الموقـف المتذبـذب» بينهـما الـذي أودى بمجـذوب الطيـب إلى أن يكتـب، بتلقائيّـةٍ تامّـةٍ، أوّلاً رسـالة الـ»خواطـر [الـ] متناثـرة بحريّـة» وثانيـاً رسـالة «لا تَدَعِيْنِـي في المنتصـف...... إلـخْ». بـلى، هـما قـد كانـا، عمليّـاً، كذلـكَ وأنـا لا أملُـكُ هنـا إلا أن أوافـق القـارئَ، دون أيِّ «نقنقـاتٍ» جانبيّـةٍ ممكنـةٍ، عـلى مـا شَـافَهُ فيهـما.

أظُـنُّ أنّ هنالـكَ لقـاءاً آخـرَ تـمَّ بـين بدريـة ومجـذوب الطيـب بعـد ذلـك اللقـاء وقـد جـاءَ بعـد فـراقٍ بينهـما كان طويـل المـدى لحـدٍّ مـا وكان يبـدو، رمزيّـاً، لمجـذوب، أنـه عـلى علاقـةٍ معنـىً مـا بالـكلام السـابقِ وبالحدثـين الصغيريـن السـابقين. لم يكـن ذلـك القـاء اختلائيّـاً، بـل كان جماعيّـاً إذ «تورّطـتْ» فيـه معهـما أطـرافٌ أخـرى ممـن قـد كانـوا، حينـذاكَ، عاشـقينَ وعاشـقات أو «مشـاريعَ» عاشـقينَ وعاشـقات فهـو قـد تـمّ في «الميـدان الغـربي» بجامعـة الخرطـوم- المبـاني الرئيسـة

(وقُبالةَ ذلك المطعم الصغير الذي سمّاه الناس، فيما بعد بـ»السّوق الشّعبي») وكان بمناسبة احتفالٍ رسميٍّ بتخرّجِ دفعةِ مجذوب الطيب من طلاب وطالبات جامعة الخرطوم الجامعيين وفوق الجامعيين.

بعد انتهاء المراسيم الرسمية لذلك الحفل وتسليم الشهادات الأكاديمية، الجامعية وفوق الجامعية، للحائزين عليها (وقد كانت من بين تلك شهادة بكالوريوس الآداب، بمرتبة الشرف الثانية العليا في الفلسفة، لمجذوب الطيب وذات الشهادة، بمرتبة الشرف الثانية الدّنيا في الجّغرافيا، لصديقيه و»بلديَّاتَيْهِ» عبد الرحمن إبراهيم وعبد المنعم مختار) ذهب مجذوب، وزميلاه الخرّيجان، عبد الرحمن إبراهيم وعبد المنعم مختار، بصحبة بدريّة وبنتين أخريين أصبحت إحداهما فيما بعد زوجةً وفيّةً لعبد الرحمن إبراهيم، إلى «استديو فارتي»، بعمارة التاكا- شارع عطبرة، لكي يأخذوا صورةً تذكاريّةً لهم، مع البنات، بمعاطف التخرّج المستأجرة قبل إعادة تسليمها، في أواخرِ نفس اليوم أو على الأكثر قبل الساعة الثانية عشرة من صباح اليوم التالي، إلى مكتب كليّة الآداب الكائن عند الناحية الغربية من الميدان الصغير الذي كانت تحفه جنوباً شعبة اللغة العربية ومن فوقها شعبة الفلسفة، وشمالاً كان ينفتح على شارع كليّةِ الآدابِ الوَسْطَانِي المطلَّ عليه «حجر الفلاسفة» من جانبه الجنوبي والمبنى ذي الطابقين الذي كان يشتملُ على شعبة التاريخ وبعض القاعات الدراسية الكبيرة من جانبه الشمالي. أما شرقاً من ذلك المكتب (مكتب كليّة الآداب) فقد كان يقفُ، كلاسيكيّاً في الهيئةِ والسّلطةِ، مكتب السيّد عميد كليّة الآداب

بسـكرتيرته التـي تخصّـه وحـده فيـما تخـصّ السـكرتيراتِ الأخريـاتِ «مناطـقُ نفـوذٍ» ليـس لـكُلٍّ منهـا إلا أن تَضُـمَّ، في كلّ أيّـامِ حلوهـا ومُرِّهـا، سـوى سـكرتيرةٍ واحـدةٍ والسّـلامْ.

بجانـبِ تلـك الصـورة الجمعيّـة (التـي اسـتلمها عبـد الرحمـن إبراهيـم، مـن «اسـتديو فـارتي»، نيابـةً عـن الباقـين إذ كانـت بحوزتـه اسـتمارة الدّفـعِ والإسـتلامِ المختومـة) كان كلٌّ مـن الخِرّيجـين الثلاثـة قـد جعـل لنفسـه، تمشـياً مـع تقليـد افتخـارٍ إجتماعـيٍّ عريـق، صـورةً كلاسـيكيّةً كبـيرةً يتسـلطنُ فيهـا وحـده (أو شيءٌ مـن هـذا المثيـل) بمعطـفِ التّخـرّجِ الرّسـميِّ وهـو يُمسـكُ بشـهادته الجامعيّـةِ في يـده اليُمنـى (كعصىً لمـوسى) بمـا يُفـترض فيـه أنـه مـن المناسـبِ لـهُ، دومـاً وبـلا منازعـة، أن يكـونَ إحسـاسَ إفتخـارٍ عظيـمٍ بإنجـازٍ.... حسـناً.... هـو الآخـرُ عظيـمْ. لم يكُـنْ مـن اللائـقِ بالشـهادةِ الأخـيرةِ، في العـرفِ كـما وفي الحسّـنِ الشّـخصيِّ والعـامِّ كذلـكَ، أن يسـتلمها ابـنُ آدمٍ آخـرٍ غـير ذلـك الإبـنُ آدمِ الـذي «فُصِّلَـتْ» عليـهِ. لكـنّ مجـذوب الطيـب لم يشـأ، أبـداً، مـن بعـدِ ذلـكَ، الذّهـابَ إلى «اسـتديو فـارتي» **وَحْدَهُ** لـكي يقبـضَ، بيـدِ «الحـوزةِ العلميّـةِ» العتيـدةِ، عـلى تلـكَ الصّـورة المؤطّـرة المُذهّبَـة، لذلـكَ ظلّـتْ تلـكَ، بـكلّ رصانتِهـا وزينتِهـا الرّسـميّةِ البـاردةِ الرّزانـة، كائنـةً وحدهـا عـلى الحائـطِ المُزيّـن الملـوّنِ لذلـكَ الأسـتديو السّـودانيِّ الشّـهيرِ والمحـترمِ مـا شـاءَ لهـا مالكُـهُ والزّمـانُ والبِـلى أن تكـون.

ربّمـا يسـتطيعُ قـارئ هـذا «الـكلام» أن يربـط، مبـاشرةً أو ضمنيّـاً، عـدم اسـتلام مجـذوب الطيـب لصـورةِ التّخـرّجِ الكبـيرةِ تلـكَ مـن «اسـتديو فـارتي» بـشيءٍ مـن (أو رُبّمـا، عـلى الأدقِّ، بنـواحٍ من) المشـاهدِ

الحكائيّـةِ و»النّفسـانيّةِ» التـي صُـوّرت ووصفِـتْ فيـه أو تلـك التـي لم (وربّمـا لـن) تُصـوّر، بعـد، أو تُوصـف فيـه أو ربّمـا هـو لا يشـأ، أو لا يسـتطيع، ذلـك. لكـن ذلـك، عـلى كلّ حـالٍ، ليـس هـو شـأناً حاليّـاً، أو حتّـى مسـتقبليّا، لـراوي هـذه الحكايـة، فالمهـمّ لـه، الآنَ وفيـما بعـدَ معـاً، أن يُمـضي، لولبيّـاً، في التّداعـي بهـا إلى نهايتهـا أو، بالأحـرى، إلى انفتاحهـا عـلى نهايتها ولهـا، خـلالَ وآنـاءَ ذلـكَ ومـن بعـدهِ، أن تُـضيءَ بنفسـها مـا قـد تُـضيءُ مـن شـؤونها أو تُظَلِّـل، أو حتّـى تُعتِّـم، مـا قـد تُظَلِّلُ أو حتّـى تُعتِّـمُ، مـا قـد تُظلّـلُ، أو تُعتّـمُ، مـن شـؤونها فهـي- في غايـةِ اليـومِ- «شيءٌ» هـو، بـكلِّ اعتمالاتِـهِ ووضوحـهِ وسرّهِ وغموضـهِ واحتمالاتـهِ ومآلاتِـهِ، ليـس أكـثرَ، أو أقـلَّ، فحسـبْ، مـن **حيـاة**.

8

طالت فترة غياب مجذوب الطيب عن بدريّة، فهو، بعد حفل التّخرّج، كان قد ذهب إلى كوستي وقضى بها (لحسن التّوفِيْقِ) زمناً عاطلاً وخليّاً ولا مبالياً قبل أن يعود، مرّة أخرى، إلى بندر الخرطوم لإجراءِ معاينةٍ لوظيفةٍ في إحدى هيئات الخدمة المدنية بكوستي كان قد قدّم طلباً بشأنها، فبل حفل التخرج، إلى «لجنة الإختيار للخدمة العامة». عند المعاينةِ كانت هنالك، عمليّاً، فتاةٌ واحدةٌ فقط وخرّيجةٌ جديدةٌ مثله مُنافسةً، جدّيّاً، لمجذوب الطيب في شأنِ التّعَيُّن في الوظيفةِ إيّاها. لكنّ ذلك لم يكن، في الواقع، بسبب درجة اللّيسانس (فهُم، في جامعة القاهرة-فرع الخرطوم، كانوا يُسمّونَ درجة التخرّج الجّامعيّة درجة «ليسانس» وليس درجة «بكالوريوس» كما جرى التقليد العتيد في جامعة الخرطوم) الأكاديمية التي حازت تلك الفتاةُ عليها من شعبة الفلسفة، كليّة الآداب، جامعة القاهرة- فرع الخرطوم (فتلك كانت، على جودتها، أقلّ من درجة مجذوب) وإنما بفعلِ حقيقةِ كونها كانت من سكّان مدينة كوستي «الأصليّين» (كما قد تقول) وبفعل كون مقرّ تلك الوظيفة الدائم كان هو ذات مدينة كوستي، ثمّ بفعلِ، وذلك هو ما كان عليه «رَكُّ» الكلامِ وأُسِّهِ، حقيقة كونها كانت حريصةً جدّاً على التعيّنِ خادمةً مدنيّةً في المؤسّسةِ المعنيّةِ حتّى

تكـونَ محميّـةً، كأنثـى عازبـةٍ وحيـدةٍ وحديثـةِ التّخـرّجِ والطّـراءِ الأكاديمـيّ والعمـليِّ، و«مالئـةً لمركزهـا» في مِنعـةِ ديـار رهطهـا الذيـن، فيـما يبـدو، لم يكـن ذلـكَ الـذي كان بينهـا وبينهـم (كـما هـو كثـيراً، أو حتّـى غالبـاً، هـو حـال مجـذوب) أبـداً «لمُختلـفٌ جـدّا». كان مجـذوب الطيـب (و«النّصيحـةُ» تُقـالْ) قـد علـمَ- مـن جُملـةِ جُذاذاتِ همـسٍ مُفكّكـةٍ التقطهـا مـن أفـواه بعـضِ زملائـه الخرّيجـين وكانـت تلـكَ تُرمـى، مـن هُنـاكَ، بصدفـةٍ مُدبّـرةٍ، أمـامَ وجهـهِ فيـما يلـوي راميهـا مسرعـاً للإمسـاكِ بمـا كان دومـاً يبـدو أنّـهُ موعـدٌ مـا أو «شيءٌ» ضروريٌّ وعاجـل الأهميّـة- بالطبيعـة العامّـةِ لهـذه «الحيثيّـات» الإجتماعيّـة المؤثّـرة، لكنّـهُ لم يُـدرك تفاصيلهـا المخصصـة إلا بعـد إتمـامِ المعاينـة التـي أجريـتْ لـه بشـأنِ تلـك الوظيفـة.

كان عـلى رأسِ اللجنـة الثلاثيّـة التـي اختبرتـه للخدمـة العامة السـيّد مديـر مصلحـة العمـل وهـي قـد كانـت هيئـةً قوميّـةً تابعـةً لرئاسـة وزارة العمـل بالخرطـوم. أمـا عضـوا تلـك اللجنـة الآخـران فهـما قـد كانـا «شـيئَين» مثـل بروفسـورين في الإدارة العامّـة أو الهيئـة القوميـة للتدريـب أو ربّمـا حتـى مديريـن لمصلحتـين حكوميّتـين أخريتـين أو.... أو.... المهـمُّ في الموضـوع و«قِصَرِهِ» هـو، عـلى كلِّ حـالٍ، أنّ مجـذوب الطيـب لا يذكـر، الآنَ، ذلكـما «الشـخصين» و«طبيعـة» وظيفتيهـما، أو «مركزيهـما» إلا كـما قـد يذكـرُ، بتهويـشٍ، انطبـاعَ كتابتـهِ لقصيـدةٍ منفعلـةٍ وعابـرةٍ كان يمكنـه أن يكـون قـد خربشـها، بلهوجـةٍ وبخـطٍّ فـكي خلـوةٍ كبـيرٍ ومُعـوجٍّ، عـلى هامـشِ كرّاسـته عندمـا كان طالبـاً، في السّـنةِ الأولى أو الثانيـةِ، بمدرسـةِ كوسـتي الأهليّـة الوسـطى.

كان السـيّد مديـر مصلحـة العمـل، وقـد كان رجـلاً في أواسـط العمـر

ومائـلاً للـ»إنْفِتَـاحِ» في اللّـون وذا بسـطةٍ في الهيئـة ونزوعـاً مكتومـاً نحو المـرح، هــو مــن أوجــد «البديــل الديمقراطــي الوظيفــي» لمجــذوب الطيــب إذ عــرض عــلى مجــذوب الطيــب (بعــد ذهــاب وظيفــة كوسـتي- بـرضى مجـذوب- إلى تلـك الفتـاة الكوسـتاويّة التـي كانـت تبغـى المكـوث عنـد الــhome والــhearth أو «عقـر الـدّار»، في كلامٍ آخـرٍ) أن يُشَـغِّلَهُ عنـده في وظيفـة «مسـاعد مفتّـش عمـل» حيـث كانـت مهمتـه، «رسـميّاً»، هـي أن يُسـاعد في حـلّ نزاعـات العمـل بـين أربـاب العمـل (هكـذا كانـوا يُسـمّونهم) والعـمال عـبر توثيقـه لملفـات تلـك النزاعـات وإرسـال المكاتبـات بشـأنها إلى مديـر مصلحـة العمـل والجهـات الأخـرى المختصـة. كان رئيـس القسـم الـذي عمـل فيـه مجـذوب الطيـب بمصلحـة العمـل رجـلاً قبطيّـاً طيّبـاً وسـهلاً بصـورةٍ غريبـةٍ وشـديدة الإراحـة ولم يشـعره قـط بفرقـه منـه في المكتـب، بـل وأعانـه، بصداقـةٍ قريبـةٍ وليـس أبويّـة، عـلى أن يجـد عمـلاً آخـر كان يـراه أنسـب لمزاجـه الشـخصيِّ ومؤهلاتـه الدراسـية. لـذا هـو فـرح جـدّاً عندمـا علـم، مـن مجـذوب، بعـد سـتة أشـهرٍ مـن تعيينـه في مصلحـة العمـل، أنّ مجـذوب الطيـب قـد نجـح في امتحـان التعيـين لوكالـة السـودان للأنبـاء (سـونا) وأنـه يلتمـسُ منـه أن يُوقّـع لـه عـلى خطـاب اسـتقالته مـن العمـل بمصلحـة العمـل ومـن بعـد ذلـك خطـاب خلـو طرفـه مـن الشُّـغْلِ فيهـا وأن يحـوّل الخطابـين إيّاهـما إلى السـيد مديـر مصلحـة العمـل للإجـازة النهائيـة.

وعندمـا انتقـل مجـذوب الطيـب للتدريـب، في مبنى (سـونا) القديم الـذي كان كائنـاً في عـمارة عتيقـةٍ في أولِ «السّـوق الإفرنجـيِّ» بمدينـة الخرطـوم، وجـد أنّ هنالـكَ عـدداً معتـبراً مـن دفعتـه مـن الخريجـين

الدفعة التي كانت بعده قد اجتازوا ذلك الإمتحان وهم يتدربون الآن مثله للتعيين كمحرّرين بوكالة السودان للأنباء أو في «وكالة البلح» كما سمّاها مجذوب الطيب لاحقاً وبعد أن خبرالشُّغْلَ فيها لما يزيدعن العام والنّصفِ تقريباً.

في وقتٍ ما ما بين رمادِ ركام تلك الوقائع الأخيرة كانت بدريّة قد اختفت عن حياة مجذوب الطيب فيما يبدو أنّه «حركةُ» خوفٍ برجماتيٍّ وكلاسيكيٍّ واجتماعيٍّ- تقليديٍّ مضمرٍ ممّا كانت قد تصوّرتْهُ إلحاحاً ممكناً لمجذوب الطيب عليها، مرة أخرى أو مرّةً زائدةً، على المشيان بـ«علاقتهما» إلى ما بعد مرتبة ما كانت هي، في آخر لقاءاتها معه خصوصاً، تقول له دوماً عنه (بما شعر للتّوّ أنه كان دفاعاً غريزيّاً عن مصلحةٍ إجتماعيّةٍ لها كانت عندَ ذاكَ قائمةً عند «جهةٍ» أخرى غيره لكنّها- كالعادة وكما هو متوقّعٌ منها تماماً كبنتِ «أمّها وحبّوبتها»- لم تشأ أن تعلنها له «كارت بلانش» والسّلام أو وبَسْ) إنّه قد كان «صداقةً بينهما» فحسب وإنّه لم يكن هنالك «أحسنَ منه» لهما كـ«صداقة». طبعاً لم يأبه مجذوب- بلا مبالاته المبالية المعهودة- لذلك «الكلام» وساير ذلك منها ولم يلح (أو حتّى «يُفكّرُ» في أن يلحّ) عليها في اتجاه مثل ذلك الذي تصورته (أو حتى من شَبَهِهِ أو بعضِ شَبَهِهِ) من بعد ذلك أبدا. والنتيجة هي كانت أنّ بدرية لم تلاقه من بعد ذلك إلا كمستمعة عابرة له وهو يقرأ قائده في منتدى الشعر بجامعة القاهرة- فرع الخرطوم الذي جِبْنَا لكم، من قبلِ، خبره. كانت هي- آنذاكَ- «تظهر» له خاطفةً وخارجةً بسرعةٍ عن المكان بالضّبط في تمامِ اللحظة التي يكن هو قد انتهى فيها من قراءاته الشعريّة و«نزل» عنها إلى

«عمـوم» النّـاس، كـما وكانـت هــي، حينـذاكَ، دومـاً تلتفـتُ- أثنـاء ذلـك الخـروج العجـول- بابتسـامةٍ ذاتَ مغـزى ماكـر الـبراءة (أو يحـاول أن يبـدو ماكـر الـبراءة) تكـن، دومـاً أيضـاً، موجّهـةً- بزاويـةٍ طفيفـةٍ وظنّيّـةٍ- إلى ناحيتـه، ثـمّ- بتوكيـدٍ خـاصٍّ وخفيـفِ الكَيْـدِ- إلى بعـضٍ من صويحباتِهـا ورفيقاتهـا اليُوسـفيّاتْ.... ثـمّ، أو مـن بعـدِ ذلـكَ، تخرّجـت بدريّـةُ (كـما علـم مجـذوب الطيبمصادفـةً مـن بعـض زمـلاء دراسـته السـابقين وأصحابـه ومعارفـه- ومعارفهـا- في جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم) مـن جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم واشـتغلت موظفـةً مرموقـةً – أوعـلى رُبـعِ «أدِّ الدّنيـا»، كـما قـد كُنّـا، عـلى الأكـثرِ، نأمـل!- بديـوانِ الـزكاةِ والضّرائـب بمدينـة كوسـتي- المرمـى الأوّل لحجـرِ رأسِ مجـذوب الطيـب وسـيرته، كـما وحجـرِ رأسِـهَا وسـيرتها هـي كذلـك.

كان مجـذوب الطيـب قـد شـاف- وشـبعَ شـوفاً مـن- صـورة مـا قـد بـاد قبـل أن يسُـدْ في مـا كان يمكـن لـه أن يُسـمّيه- دون أيّ دقّـةٍ- «علاقتـه مـع بدريـة». لـذا بـدت لـه، آنـذاكَ، تسـميتُها بـ»الـوردة الكوسـتاويّة الخـضراء» (خصوصـاً بعـد مـا بـدا لـه، آنـذاكَ، أنّـه بَهَتَـانٌ احـترازيٌّ في نفسـهِ لاسـمها ولِسِـيَرِهَا ولِعاطفتِهـا مُعـزّزٌ بلهـاثِ أيّامـه في مـا بـين صحائـف «وكالـة سـونا» ووردياّتهـا الثـلاث ثـمّ بطمسـها هـي نفسـها لنفسـها بالغيـابِ والتباعـد، الضّمنـيُّ النّفـورِ، عنـه بعـد تخرجهـا مـن جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم) شـيئاً محزنـاً مثلـما قـد يُحْـزِنُ الإنسـانَ أن لا يسـتجِبْ، بحنـانٍ وذكـرى، صديـقٌ قديـمُ لـه للقـبٍ شـخصيٍّ محبّـبٍ كان يناديـه بـه في الأيّـامِ الغابـرةِ الخاليـةِ فهتف بـه، بتلقائيّـةِ القلـبِ والحـواس، في وجهـه عندمـا، في بلـدٍ طَـيْرُهُ كامـلَ العجميّـةِ، رآه فجـأةً «عنـدَ وشّـهِ» بعـد سـنينٍ غيـابٍ طويـلات مِزاجُهـا

كان، في الغالـبِ أو دعنـا نقـل فقـط «كثـيراً» (حتـى لا يقولـون لنـا إننـا لم نكـن، فيـما كنّـا نقـولُ سـوى ميلودراميـين سـوداويّين!)، كافـوراً مختلطـاً فيـه- بتعـادلٍ عجيـبٍ- شـميمُ المـرارةِ بشـميمِ الهـلاك...... أوه سِيْبَكْ يـا خـي مـن ده!

مـع ذلـك لم يكـن كلّ ذلـك، في الحـقِّ، المنتهـى **العمـليِّ الفاصـلِ** لشـأنه معهـا وشـأنها معـه، فقـد رأتـه هـي، مـن بعـد ذلـك، لمرّتـين أخريـين رئيسـتين مهّـد لثانيتهـما لقـاءٌ ثانـويٌّ قصـيرٌ بمكتبهـا في مكتـب ضرائـب مدينـة كوسـتي حيـث صـارت، بعـد تخرّجهـا، موظّفـة «أدّ ربـع الدّنيـا»، ثـمّ تبعهـا لقـاءٌ ثانـويٌّ (أو زائـدٌ) قصـيرٌ آخـرٌ بـدا لمجـذوب، في حـال اسـترجاع ذكـراه ووقعـهِ ومآلـهِ (أو مآلاتـه)، أنـه لم يكـن لـه معنـى (بمعنـى مـا قـد يعنـون- في الغالـب- في كـرة القـدم حينـما يقولـون عـن «شـوتةٍ» مـا، أو رميـةٍ مـا، أنّهـا «ماليهـاش معنـى») أو هـو كان فقـط مجـرّد «شـيئاً فالصـو» ليـس فيـه- بـأيِّ كيفيّـةٍ مـا- زيـادة تـسرٌّ أو نقصـانٍ يُتحسّر عليـه. وقـد بـدت تلكـما المرّتـين الرئيسـيّتين- بغرابـةٍ أو رغـم كلّ مـا سـبق توضيحـه وتلوينـه- مفعمتـين بالعاطفـةِ والحنـانِ القريـبْ. كانـت المـرّة الأولى مـن ذينكـما صدفـةً محضـةً مـما يـلي مجـذوب الطيـب وشـيئاً مثـل «رومانتيكيّـةً صغـيرةً مدبّـرةً» مـما يـلي بدريـة- أو هكـذا يتهيّـأ الآنَ لمجـذوب. لكـنّ مجـذوب الطيـب مـع ذلـك، لم «يفهـم» أبـداً- مـن بعـدِ ذلـكَ- مغـزى ذاك التّـصرّف «الرومانتيـكيّ الصّغـير المدبّـر» (كما سـمّاهُ لنفسـهِ الآن) من قِبَـلِ بدريّة. كـما وهـو كذلـك، لم «يفهـم» أبـداً، لا في ذلـك الوقـت ولا مـن بعـده ولا حتّـى في هـذه اللحظـةِ الحاليّـة، سـبب اختيـار بدريـة، حينـذاك، لذلـك المـكان («سُـونَا» بالـذّاتْ!) وذلـك الوقـت مـن الصباحـات الشّـتائية

الخرطومية لـكي تظهـر أمامـه عنـد الإسـتقبال، فجـأةً، فيـما هـو كان متّجهاً إلى الأسانسير لـكي يقلـه إلى الطابـق السـابع مـن المبنـى حيـث «قسـم الإرسـال الخارجـي» لوكالـة السـودان للأنبـاء (سـونا) الـذي كان هـو، حينـذاكَ، يعمـلُ بـه مُحـرّراً للأخبـار ومترجـماً لبعضهـا. أمـا المـرة الثانيـة منهـما فقـد كانـت في «عيـد الفطـرِ» وفي منـزل عائلـة بدريـة في كوسـتي وذلـك كان بعـد شـهورٍ قليلـةٍ مـن تعيينـه «مسـاعداً للتدريـس» بشـعبةِ الفلسـفة وبكليّـةِ الآدابِ بجامعـةِ الخرطـوم. عـن المـّرة الثانيـة لـن أتحـدث بتفصيـل، بـل سـألخصّها فقـطٍ في «حبَّـةِ» تلاعـبٍ بقلّـةٍ مـن الجُّمـلِ العاطفيّـةِ الصّغـيرةِ والمركزيّـةِ المأخـوذُ بعـضُ طَعمِهَـا مـن مـا سبق وأن كُتِـبَ عن»تلـكَ المـرّةِ»، بحـسٍّ وانفعـالٍ كافٍّ كـما أظـنُّ، في القصـة القصـيرة المسـمّاة «كيـف أنـام وفي دمـي هـذي العقـارب؟!» والكائنـة ضمـن مسـوّدة مجموعـة «إبراهيـم جعفـر» القصصيـة المسـمّاة **كيـف أنـام وفي دمـي هـذي العقـارب؟!**

9

كان مجـذوب، في ذلـك الصّبـاحِ البعيـدِ والشـتائيِّ الغائـمِ، قادمـاً إلى عملـه في وكالـة السـودان للأنبـاء «سـونا» مـن جهـةِ سـكنهِ، يومـذاكَ، في حـيّ «ود ارو» بمدينـةِ أمدرمـان. كان هـو، في ذلـكَ اليـومِ، تعبـاً وعـلى شيءٍ مـن الـشّرودِ الذهنـيِّ المسـبّبِ بعـدّةِ أشـياءٍ عاطفيـةٍ صغـيرةٍ ومختلفـةٍ متراكمـةٍ فيـهِ بتلقـاءٍ تحتـانيٍّ ذي ترابطـاتٍ كانـت- بالنسـبةِ لوعيـه المبـاشر عـلى الأقـل- غـير مبـاشرة الكنـه. هـو قـد كان- إن كان ذلـك يفـسّر شـيئاً- مؤرّقـاً، في ذلـك الصّبـاحِ، بسـهرةِ تداعيـاتٍ شـخصيّةٍ اسـتثنائيّةٍ، في نفـسِ منـزل العزّابـة بـود ارو، مـع صديـقٍ شـديدَ الحميميّـةِ، وقريـبٍ إليـهِ بالنّسـبِ العائـليِّ أيضـاً، كانـت علاقتـه معـه، أحيانـاً، تُفعـمُ ثـمّ تُخاطـرُ، بجـمالٍ مُهلـكٍ، عنـد تخـومِ حسـيّةٍ سـحريّةٍ (بـل و«جنسـيّةٍ») غامضـةٍ ورومانتيكيّـةٍ غريبـة. ثـمّ كان هـو، حينـذاك، إن نزلنـا في الـكلام قليـلاً، مفلّسـاً تمامـاً مـن كلِّ حديـدةِ قـرشٍ، أو جديـدِ بِـرشٍ، اللّهـم إلا مـا كان يُكفـي، بالعِـدادِ، لغدائـه بوجبـةِ فاصوليـا في مطعـمٍ شـعبيٍّ رخيـصٍ ولحـقٍّ ركـوبِ إحـدى حافـلات مواصـلات أمدرمـان التـي كانـت، في ذلـك الزمـان، تقـلُّ النّـاسَ (بـدونِ البهائـمِ وليسَـمَا كبصَّـاتِ ودَّ الزاكي-الخرطوم/الخرطـوم-ود الـزاكي العتيقـة التـي كانـت، قبـل الزّلـطِ، تبـاري «الـدّربَ التّحـتَ» حلّـةً إثـرَ حلّـةً أخـرى) مـن موقفهـا بالقـرب مـن جامـع الملـك فـاروق

بالخرطوم (الغير بعيد من طيبة الذكر البرجوازي والكولونيالي- كما قد يقول الدكتوران حسن موسى وعبد الله بولا!- «صالة غردون للموسيقى») إلى المحطّة الوسطى بأمدرمان حيث كان مجذوب الطيبيُكمل, من بعد ذلكَ، مشواره إلى ود ارو، في الغالب، مشياً على خ 11، أو على، بكلامٍ آخرٍ، القدمين. لذلك عندما وصل مجذوب الطيب إلى «سونا» كان، من الناحيةِ السّطحيّةِ الظّاهرةِ، مشوّشاً، لحدٍّ ما، بهمٍّ أوّليٍّ عمليٍّ موضوعه كيفيّة رجوعه، بعد انتهاء ورديّة عمله الصباحيّةِ، إلى ود ارو- امدرمان. لكنّه لم يكن، رغم ذلك، قلقاً على الإطلاقِ بهذا الشأن أو هو، على الأقلِّ، لم يكن قلقاً بشأنه بدرجةٍ ملحّةٍ أو مزعجةٍ كما في حال- مثلاً- مطالبةَ شحّاذٍ له، في حالِ كونهِ هو عابرِ سبيلٍ أو مشتري «برندات» عند سوق الخرطوم العربي، بجنيهِ مواصلاتٍ، بالتحديدِ والتّمامِ، لكن «للهِ» وليس له هو طبعاً، مجرّد الأنسيّ الشّحاذ النّكرة، طبعاً...... بذلك التّشوّش المرح، أو ببقايا خفيفة لطعمِ شايٍ حادقٍ منه عند اللسان وحواف الفم والأسنان، وصل مجذوب الطيبهكذا- ضاحكاً ومتمتماً لنفسه بجمل سخريات وأشباه بذاءات صغيرة مبعثرة ومعتادة- إلى الطابق الأرضي في وكالة السّودان للأنباء (سونا) حيث كان يتوقّع لوجهه أن يقع، دون موانع بريّة منظورة، مباشرةً على وجه موظّف الإستقبال الأنيق الذي كان سيطالبه، ضمناً أو باستباقٍ معطىً سلفاً، بسحنةِ سلامٍ مُحسنة التّدبير ثمّ بكلمةٍ إجتماعيةٍ مُجاملاتيّةٍ أو كلمتين قبل أن «تسمح» له نفسه بولوج الأسانسير، بعد ترقيم كارت دخوله على ماكينة زمان الحضور والمغادرة، إلى الطابق السابع من المبنى الجديد الطّويل حيث قسم «الإرسال الخارجي» وحيثُ تقعد، بسكونٍ وفيٍّ، طاولةُ العمل الكبيرةِ العريضةِ

البنيّـةُ اللّـونِ- أو فورماكيَّتُـهُ؟- المشـتركة بـين مجـذوب الطيـب وثلّـة رفاقـه مـن المُحرّريـن، الأوّلـينَ منهـم والآخريـن. نعـم! كان مجـذوب الطيبيتوقّـع لوجهـه ذلـك الموقـع البـيّن الإسـتراتيجيّ الواضـح ولا غـير ولا زيـادة. لكنّـه (ويـا لخسران الحسـبان!) وقـع وجهـه إيّـاه، عـلى طـولٍ لم يكـن مأمـولاً منـه ولـو بتعريفـة، عـلى ظهـر بدريّـة وثوبهـا الأبيـض التّوتـال المشـجّر فيـما كانـت هـي تسـأل عنـه (في تمـامِ السـاعة الثامنـة صباحـاً وقـد كان ذلـك موعـد بـدء الورديـة الصباحيـة بسـونا) موظّـف الإسـتقبال المتوسـط العمـر والأنيـق الديباجـة- تمامـاً كشـعرٍ تقليـديٍّ ممـلٍّ- وعـمّا إذا كان قـد وصـل إلى المبنـى بعـد أم لا. لكنّهـا، قبـل أن يجيبهـا موظـف الإسـتقبال، وفي ذاتِ لحظـة ولـوجِ مجـذوب الطيبإلى داخـل ظـلِّ صالـة إسـتقبالِ سـونا الفسـيحةِ المريحـةِ الإضـاءة، انثنـى عنقهـا (لأنّهـا فتاة!)،غريزيّـا وَبلفتـةٍ خفيفـةٍ، إلى الـوراء وكأنّمـا هـي كانـت- في ذلـك الأوانِ عـلى التّخصيـصِ- قـد «شّـمّت»، في الرّيـح الخفيفـة التـي هبّـت مـن فجـوة الهـواء الفجائيـة التـي أحدثهـا جسـده في فـراغ البوّابـةِ الرئيسـةِ بعـد ولوجـه إيّاهـا مسرعـاً إلى داخـل صالـةِ إسـتقبالِ سـونا، «شـيئاً شـخصيّاً» مـا كانـت قـد ألفـت، نوعـاً مـا، وجـوده بقربهـا في مـاض لم يكـن، حينـذاكَ، بعيـدا، بيـد أنّـه لم يكتمـل مـن بعـد ذلـكَ أبـدا. هـي قـد رأتـه إذاً وماتـت جملـة إجابـة موظـف الإسـتقبال الأنيـق الديباجـة بغيظهـا الإجتماعـيِّ- المحـترمِ قطعـاً!- إذ تحولـت، بيـسرٍ مهنـيٍّ مُـدَرّبٍ (كرهـه فيـه مجـذوب الطيـب للتـوِّ طبعـاً!)، إلى ابتسـامةٍ عريضـةٍ مشـوبةٍ بتسـاؤلٍ فضـوليٍّ خفيـفٍ ومهـذّبٍ ارتسـمت بخفّـةٍ- كـما لـو كانـت قـد أُعْمِلَـتْ هنـاكَ بحرفيّـةٍ سريعـةٍ وناجـزةٍ بيـد رسّـامِ كاريكاتـيرٍ قديـمٍ وماهـرٍ- عـلى وسـع شـفتيه المحكمتـي الإحاطـة بهـلالِ شـاربٍ مـدوّرٍ خفيـفٍ (شـديد

الشّبه بذلك الذي كان يلفت النّظر تـوّاً في وجـه المطرب الزّيـدانيّ السّوداني الفاتح قميحة) ولحية «وسكارس» مرسومةً بدقّـةٍ وكأنّها قد رُكّبَتْ، بعنايةٍ، على وجهه لأداء دورٍ دون جوان سودانيٍّ ثمانينـاتيٍّ وطبق الأصلِ في مسرحيّـةٍ للخشبةِ ليس بعيداً أن يكون قد ألّفها شخصٌ سودانيٌّ مشهورٌ بغيظٍ مثل السيّد الوجيه (لضرورةِ تمامِ الوصفة!) «علي مهدي» مثلاً!

(**وذاهـلاً أراهـا.. غمامـةٌ كانـت وحمامـةٌ ترقُـصُ في القلـبِ ولكـن الخِنجَـرَ امتـزجَ بدمائهـا في القلـبِ.. هـي حـاضرةٌ لكنّهـا تمتزجُ بوحشـةِ الغربـةِ اللاّعذبـة**- مـن قصَّـةِ «**مـوت العاشـق الحالم بالتّوَحّـدِ!**»- إبراهيـم جعفـر..). ذلـك كان قـد كتبـه إبراهيـم جعفـر (كاتب هذه الرّواية) في وصفِ حالٍ ذاتِ موازاةٍ قويّـةٍ، أو مشابهةً قويّـةً على الأقلّ، لحالِ مجذوب الطيبمع بدريّـة في تلك الأيّام. وقد كان مجذوب- في حينِ ذلـكَ اللّقاءِ الصّباحيِّ الخاطفِ وغيرِ المسبقِ التخطيط، أو التّهيُّؤ، لـه، مـن جهة مجذوب الطيب على الأقل- مشوبَ النَّفْسِ بتخضُّبٍ عميقٍ من آثارِ الإنجراحِ الموصوفِ في الجّملة الوصفِ- شعوريّةِ السابقة. كان مجذوب، بعبارةٍ واحدةٍ، حزيناً- يومَـذاكَ- على السّبيلِ الأسيانِ الموكّدِ لتلكَ الكتابة. كما وكان هو مُعمَّماً، في ذاتِ الوقتِ، بلفافةِ قماشٍ كِربٍّ عاميٍّ غامقِ الزُّرقةِ وملتفٍّ حول رأسِهِ وحافتـي أذنيـه- ونحن هنا نتحدّثُ رمزيّـاً بالطّبع- فيما دخان عشبِ جروفٍ يابسٍ بعيدٍ كان ينـزُّ منه، تمُوُّجَاً هوائيّـاً إثر تموّجٍ هوائيٍّ آخر. ثمّ كان مجذوب، بعبارةٍ واحدةٍ أخرى، قد بدأ التآلف مع عذابه الخاص منذ «ما بيننا لم يكن سوى صداقة» وبعض الحادثات الرمزيّة الصغيرة مثل تلك

التـي كانـت في يـوم «الليلـةِ الشـعريّةِ» في «حـوشِ» جامعـةِ القاهـرةِ- فـرع الخرطـوم والتواءاتهـا (وليـس امتداداتهـا!) في أواخـرِ «فلاشـاتِ» اللقـاءات- المتباعـدة والمفعمـة، كذلـك، بالتّباعـد- في أيّـام القـراءات الشـعريّة (وفي أيّـام مـا بعـد تخـرّج بدريّـة خصوصـا) بـدار اتحـاد طـلاب جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم. كأنّمـا «الألمُ» كان قـد بـدأ، آنـذاكَ، يصبـح، ببسـاطةٍ، في قلـب مجـذوبٍ، «شـيئاً طبيعيّـاَ»، كـما كان يُغنّـي المطـربُ السّـودانيُّ «اللّذيـذ» خليـل اسـماعيل.

قالـت لـه بدريّـة، وقتـذاكَ، إنّهـا قـد أتـت مـن كوسـتي خصيصـاً لمعاينـةِ تنافـسٍ عـلى وظيفـةٍ حكوميّـةٍ بمدينـةِ كوسـتي كانـت هـي تأمـل- كـما قالـت- في أن تكـن مـن حظّهـا. لكنّهـا لم تقـل لـه (ربّمـا هروبـاً مُعمّـش النيّـةِ مـن احتـمالِ لقاءٍ مسـتقبليٍّ مـا؟) شـيئاً- حينـذاكَ- عـن طبيعـةِ تلـكَ الوظيفـةِ وعـن أنّهـا سـتكون، إن هـي أمسـكت بهـا، بالـذّاتِ بديـوانِ الـزكاةِ والضّرائـبِ **بمدينتـه**- مدينـة كوسـتي (كـما علـم هـو لاحقـاً بالطريقـةِ غـير المبـاشرةِ التـي أشرت إليهـا مـن قبـل في هـذا الـكلام). ثـمّ إنـه هـو كذلـكَ (غالبـاً بسـببِ ذلـكَ المزيـجِ الغريـبِ مـن الرقـةِ والـلا مبـالاةِ الـذي كان طبيعيّـاً فيـهِ أكـثرَ مـن كونـهِ بسـببِ أيِّ شيءٍ آخـر ذي علاقـةِ ذكـرى، أو غـيرةٍ أو حتّـى كرامـةٍ ربّمـا، بتاريخـه العاطفـيِّ القصـيرِ نسـبيّاً معهـا) لم يسـألها (أو هـو حتّـى لم تخطـر، آنـذاكَ، لـه، ولـو عرضيّـاً أو ضمنيّـاً، فكـرةُ أن يسـألها) عـن تلـك التفاصيـل العاديّـة المحايـدة لوظيفتهـا الممكنـة القادمـة (مثـل أينهـا ومتّاهَـا مثـلاً)......

المهـمُّ (أو «شرحُـهُ»، كـما يقولـون) هـو أن بدريّـةَ، إثـرَ لقائهـا بمجـذوب الطيـب في ذلـك الصبـاح الشـتائيّ البعيـدِ، قـد ذهبـت، بعـد

دقائـقٍ لسـنَ بالكثـيراتِ، بعيـداً عـن «سـوناهِ» وهـي- رغـم كلِّ شيءٍ- ضاحكـةً بطفولـةٍ مسـتعادةٍ فجـأةً وبغمـوضٍ معتـمٍ برغبـةٍ لم تبـد لهـا، في تلـك اللحظـاتِ (ولا في غيرهـا؟)، ذاتَ أيِّ موضـوعٍ محـدّد أو هـي- عـلى الأقـلّ- لم تشـأ (أو «تسـمح») لنفسـها آنـذاك أن «تكشـف» لهـا أنّهـا كانـت «ذات موضـوعٍ محـدّد. أمّـا غايـةُ ذلـك «الموضـوعِ» كلِّـهِ، مـن الجّهـةِ الأخـرى، فلـم تكـنْ، فيـما بـدا في ذلـك الآن، مخلّفـةً وراءهـا شـيئاً ليـس أكـثرَ (في الظّاهـرِ) مـن هـزّةِ كتـفٍ عنيـدةٍ لمجـذوب الطيـب ثـمّ وميـضُ خـسرانٍ إجتماعـيٍّ مغلّـفٍ بالتّهـذّبِ المتمـرّسِ- واللائـق طبعـاً- في عينـيِّ موظـف الإسـتقبالِ اللتـين كانتـا، في تلـك اللحظـات، لا تسـتطيعانَ- بـكَادِ جُهـدِ المهـارةِ المهنيّـةِ- أن تخفيـانَ دهشـتهما مـن شـأن ذلـك المُحـرّر الأخبـاريِّ المغفـل والمندهـش العينـين بفيَاقـةٍ لا «ثَمَـرةَ» فيهـا والـذي لم يسـتطع حتّـى أن يُدبّـرَ لنفسـه شـيئاً بسـيطاً مـع زائرتـه الصباحيّـة الخـضراءَ «البتُولـة» وإن كان ذلـك مجـرّد دعـوة تمهيديّـة بريئـة المظهـر إلى شـايٍ لـبنٍ صباحيٍّ رباحـيٍّ في الطابق السـابع مـن الوكالـة وفي «قسـم الإرسـال الخارجـي» حيـث كان يتخيّلـه موظف الإسـتقبال الأنيـق مائـاً- قطعـاً- لمركـزهِ الصّحفـيِّ الظّافـرِ أبـداً، كـما ثـورات (وقيـلَ «سـورات») العسـاكرِ، بـإذن اللـه! هـا هـا هـا....

مـرّة اللقـاء الثـاني حدثـت آنـاءَ زيـارةٍ لمجـذوب الطيـب إلى مدينـة كوسـتي («مسـقط حجـر رأسـهِ») لقضـاء عطلـة عيـد الأضحـى المبـارك مـع أهلـه المسـلمين هنـاك. وقـد كانـت تلـك واقعـةً في أيّـامٍ كانـت قـد خلّفـتْ وراءهـا، بثمانيـةِ أشـهرٍ تقريبـاً، عهـد شُـغلِ مجـذوب الطيـب في «سـونا» ووضعتـه في منصـب «مسـاعد تدريـس» بشـعبة الفلسـفة بكليّـة الآداب بجامعـة الخرطـوم حيـثُ هـو لقـي لقيّـةَ «عصفورتنـا

الضّاحكـة»، بطولهـا السّـمرقنديِّ، بشمسِـانيّةِ لونهـا القمحـيِّ المغـبرِّ قليـلاً بلَـذّةِ الوصـولِ الصّباحـيِّ إلى مكتبهـا ومـسرى أنسـها- تلـكَ التـي لم تكـن حكايـة «الـوردة الكوسـتاويّة- بدريّـة» تلـكَ إلا، بمعنـىً «فنّـيٍّ» خـاصٍّ، مقدّمـةُ لـذّةِ «جِـماعٍ» الدّخـولِ في حكايتهـا وتواريخهـا مـع مجـذوب الطيـب المليئـةِ باللّـونِ والكـونِ أو- ببسـاطةٍ- بمـا سـمّته هـي نفسـها، في إحـدى رسـائلها مـن بلـد الإغـتراب العـربي إلى مجـذوب، «عمـق البرهـة» وليس»طـول المـُدّة».

الشّـاهد (كـما يقـول مدرّسُـو اللغـة العربيّـةِ الكلاسـيكيّون) هـو أنّ اللقـاء المُمهّـد لذلـك اللقـاء الرئيـسي الثـاني والأخـير في رئيسـيّته (إذ تـمَّ بينهـما مـن بعـدهِ لقـاءٌ «فائـضِ عمالـةٍ» آخـرٌ وقصـيرٌ) قـد حـدثَ بـين مجـذوب الطيـب وبدريّـةِ صدفـةً بمكتـب بدريّـةِ بديـوانِ الـزّكاةِ والضّرائـب بمدينـةِ كوسـتي. أو ربّمـا كان مـن الأوفـقِ لنا هنـا أن نقـولَ عـن ذلـك اللقـاء إنّـه لم يحـدث، في الواقـعِ، صدفـةً وإنّمـا كان هـو- عـلى الأدقِّ- جاريـاً بـين الشّـخصين المُخَصّصـين بفعـلِ فكـرةٍ طارئـةٍ راودت مجـذوب، ظرفيّـاً، حينـما كان مجـذوب، آنـذاكَ، مُتَحَاوِمـاً، بإهـمالٍ ولسـببٍ لا يكـترثُ الآن لأن يتذكّـره أو لا يتذكّـره، عِنْـدَ الطّـرفِ الجّنـوبيِّ الشّرقـيِّ لحـيِّ مربّـع 28 الجّديـد نسـبيّاً في كوسـتي منتصـفِ ثمانينـاتِ القـرن المـاضي (العشريـن).

رأى مجـذوب- بعـد لفّـاتٍ مهوّمـةٍ وبطيئـةٍ عـلى غبـارِ شـوارعٍ جانبيّـةٍ ناعسـةٍ بهبّـات هـواءِ الظهـيرةِ الكسـولةِ (موعـد نـوم قيلولـة ربّـات البيـوت) وبعـد أن أتى أسـفلاً مـن ناحيـة مطـار مدينـة كوسـتي المهمـل والمهـترئ القديـم بزاويـةٍ منعرجـةٍ بـه إلى الأطـراف الجنوبيّـة الشرقيّـة لحـيِّ 28 الجديـد- منـازلاً وسـيعة الفنـاءات (نصـف مربوعيّـة

وأزيـد) مضروبـةً حوائطُهَـا جـيراً أصفـراً جديـداً ولامعـاً ومطلقـةً فوحـاً خفيفـاً لذلـك الطـلاء الحديـث خلـل بـوخِ حـرارةِ منتصـف ذلـكَ النّهـار الصّيفـيِّ (أو أوّل الخريفـيِّ) مـن شـهر رمضـان. لكـن رغـم أنّ ذلـك كان رمضانـاً مـع ذلـك لم يكـن مجـذوب، في ذلـكَ الوقـتِ مـن الضّحـى، عطشـاناً تمامـاً بعـد أو جوعانـاً مـن الصّـوم، فطعـام سـحور الأمـس كان يبـدو أنّ آثـاره الباقيـات الصّالحـات كانـت مـا تـزالُ، حينـذاكَ، دافئـةً وجاريـةً بلبنهـا وأرزهـا المُسَمْسَـمْ المُنعّـم المهضـوم في عروقـه ومجـاري أنفاسـه الباطنـة. (ونقـول- جانبيّـاً- كذلـك ربمـا كانـت، أيضـاً، نكهـة بشـائر الخريـف الطفيفـة و«المُشْـبِعَةِ» في هـواء ذلـك النّهـار البعيـد ذات شـنآنٍ غـيرَ ذي زهـوٍ في ذلـكَ الأثـر!).... كانـت تلـك المنازل الجديـدة البرّاقـة بالجّـيرِ الأصفـر حصـادَ حصافـةٍ تجّـارٍ صعـدوا حديثـاً في سـوق مدينـة كوسـتي الكبـير العتيـد بعـد سـنينٍ طويلـةٍ مـن الوقوفِ الصّابـرِ المتقشّـفِ و«سَلَبِيِّ» البـالِ وراءَ طبـالِ خشـبيّةٍ «عامِّيَّـةِ» المـرأى ومعروضـةً عليهـا متنوّعـاتٌ شـتّى مـن القـماشِ والسـجائرِ والملابـس النسـائية والأطفاليّـة والرجاليّـة الجاهـزة الملوّنـة (مـن وارد الصّـين وتايـوان الرّحيـم!) والعطـور الشـعبيّة والحـلي (الشـعبيّة أيضـاً!) والأحذيـة (البلديّـة والأفرنجيّـة) والخـردوات. عندمـا تجـاوز مجـذوب الطيـب تلـك المنـازل إلى أوّلِ الشّـارعِ الكبـيرِ العريـضِ الـذي كان يفصـل بـين حـيٍّ مربّـع 28 الجديـد وجملـة الناحيـة الشرقيّـة مـن المدينـة العتيقـة تبـدّى أمامـه مبنـىً علتـه لافتـةٌ معدنيّـةٌ (ربّمـا كانـت مُذيّلـةً، في الغالـبِ، بتوقيـع خطـاطِ كوسـتي الأشـهر والأكـبر «محمّـد صـادق») طبـع عليهـا، بخـطٍّ بوهيـةٍ أخـضرٍ كبـيرٍ، العبـارةُ الرّصينـةُ الحصينـةُ «ديـوان الـزكاةِ والضّرائـب».

لم يكـن اسـم بدريّـة قـد واتى، بالترابـط العفـويّ، مجـذوب الطيبعلى التـوّ بعـد قراءتـه لعنـوان تلـك اللافتـة. لكنّـه، مـع ذلـكَ، أحـسَّ فقـط، بغمـوضٍ، أنّ هنالـكَ شيءٌ مـا مـن ماضيـه القريـبِ المتماثـل لنقاهـةِ إحـدى الخاتمـات، كان، في تلـك اللحظـات، يدعـوه، بحكمـةٍ مضمـرةٍ ودون إلحـاحٍ أو شـدٍّ معانـد، إلى دخـولِ ذلـك المكتـب ولقـاء بدريّـة التـي تذكّـر، وقتـذاك فقـط، اسـمها وعلاقتهـا (الواقعيّـة) بالمكتـب الذي كان هـو، آنـذاكَ، مدعـوّاً- بموجـبِ مجـرّدِ ذلـك الإحسـاس الغامـض وذلـك «الـشيء المـا»- إلى زيارتـه.

مـا أن دخـل مجـذوب الطيـب في أوّلِ مكتـبٍ واجهـه مـن حيـث بوابـة المبنـى الرئيسـية الكبـيرة التـي كانـت تلـك اللافتـة معلّقـةً عـلى رأسـها لم يحتـجْ- أبـداً- إلى أن يسـأل أيَـاً كانَ مـن النّـاسِ هنـاك عـن بدريّـة وكيـف يلقاهـا فهـو قـد ’لقاهـا‘، مبـاشرةً «تحـتَ» عينـه اليمنـى («عصاتـه اليمنـى») التـي التفتـت («تحرّكـتْ»)، في تلـك اللحظـةِ، تلقائيّـاً (أو غريزيّـاً) إلى طاولـة العمـل التـي كانـت، بالضّبـطِ، كائنـةً عنـد ذاتِ الجّهـةِ التـي التـي كانـت يـده اليمنـى سـتؤشّر عليهـا، طبيعيّـاً، إن هـو- لظـنٍّ مـا أو آخـرٍ- سـئل عنهـا.

ارتبكـت بدريّـة وعلـت وجههـا، بوضـوحٍ كافٍ لأن يمسّـه مجـذوب، غيمـةٌ تانيـبٍ حزيـنٍ لرؤيتـه أمامهـا فجـأةً (وكأنّمـا هـي لم تكـن، في ذلـك الضّحـى الرّمضـانيِّ الكوسـتاويِّ وأوّل الخريفـيِّ القديـم، تتذكّـر أو تعتـبر (أو تقـدر عـلى أن تتذكّـر أو تعتـبر)، بالمقابـل، مـا كانـت هـي قـد «هَجَمَتْـهُ» بـه في «سـونا» في ذلـك الصّبـاحِ الشـتائيِّ الخرطومـيِّ البعيـد). لكـنّ بدريّـة كانـت، في ذاتِ الوقـتِ (وبـذاتِ العلّـةِ ربّمـا؟)، فرحـةً، عـلى نحـوٍ لم تسـتطع هـي إخفـاءه، بلقائـه. وكان ذلـك الفـرح

يبدو وكأنّه كان «هناكَ» وحائماً في «جوِّهَا» رغماً عنها، فيما يبدو، وبطريقةٍ لم يكن- كما هو ظاهرٌ أو «مقروءٌ»- «يعقوبُها النّفسيُّ» راغباً فيها مطلقاً (أو بالأخرى!) متوقّعاً لها ببرغماتيّتهِ العقلانيّةِ الحصيفةِ والمعهودة. وذلك خلق توتّراً غنائيّاً كان (بلا شك) مقلقاً للإنسيابِ الطّبيعيِّ المُمكنِ لحسِّ «متعةِ» اللّقاءِ في ما بين بدريّة ومجذوب الطيب رُغْمَ أنَّ «الفنّانَ» في مجذوب الطيب كان، آنذاكَ، قد رأى فيه (رغم كلِّ شيءٍ) شيئاً «إيجابيّاً» مائلاً- بسببِ ذاتِ ذلك التوتّر الغنائي- إلى خلافِ ذلكَ من «مُستبطناتِ» التخيّلِ والتّصويرِ الشِّعرَانِيِّ الشَّفيفِ أو، بكلمةٍ أخرى واحدةٍ ومُوجعةٍ، إلى «الجّمالْ»!

اتّفق بدريّة ومجذوب، في نهايةِ ذلكَ اللقاءِ القصيرِ وقليلِ الكلامِ، على أن يزورَ مجذوب الطيب منزلَ عائلةِ آل بدريّةِ في أحدِ الأيّامِ الثلاثةِ لعيدِ الفطرِ المباركِ الذي كان، حينذاكَ، باقياً على موعدهِ ستّة أيّام. (كان مجذوب الطيب قد أتى لمدينة كوستي لصيامِ وقضاءِ الأيّامِ العشرةِ الأخيرةِ من ذلك الرّمضانِ فيها، خصوصاً وأنّه كان، في تلك الأيّامِ، حرّاً في ذلك المجيء- أو الفوات- المبكّر بفضلِ حسن حظّه في شعبةِ الفلسفةِ بكليّةِ الآدابِ بجامعةِ الخُرطومِ الذي كان قد «جعلهُ» مجرّدَ مساعد تدريسٍ، أو «مساعدِ حلّةٍ» أكاديميٍّ، وبالتّالي فضّاه من أيِّ مهامٍ أكاديميّةٍ يوميّةٍ وملحّةٍ كان بوسعها قطعاً، لو أوكلت له، أن تُعطّله عن ذلكَ «التّمتُّعِ الشّرعيِّ الحلالْ»).

ما حدثَ في بيتِ نَاسِ بدريّةِ قد سبق، كما قلت، وأن وضعته قصة «إبراهيم جعفر» القصيرة المسمّاة «**كيف أنامُ وفي دمي هذي العقارب؟!**» في «عِلَبِهِ الخياليّةِ الممكنةِ» حيث لقيَ «طلبَهُ»،

كما أظنُّ («وليس بعضُ الظنِّ إثمٌ»!)، بحساسيّةٍ مفعمةٍ بما يُكفي من الشعورِ والجُرحِ (وما قد يُشبه البُكاءَ الذي لم يكن يقدرَ على أن «يُجِيْبَهُ لي/لها [التي كانت تغنّي]») ثمَّ التّصوير أو ربّما حتّى بما هو كذلكَ، وكُلَّ ذلكَ، من «الكلامِ» وزيادة [يا ناسْ «مَيْ زِيادَةْ»!]. هاكم- خلاص!- الجزئيّة/السّوناتا الأخيرة من «شعر» تلكم القصة القصيرة والتي تُهوّمُ- بلا فرامل فكرانيّة أو أيدولوجيّة وبلا سؤالٍ في حَدٍّ ما أو مطلبٍ براغماتيٍّ زنيم (أم الكلمةُ الأشقَّ هنا هي «لئيم»؟)- في توصيف فينومينولوجيا الفقدان وعصارة قصبِ سكّرِ حرقته النّافذة الأخيرة، ولا أخيرة. هاكم، بالكلامِ الآخرانيِّ الدُّقاقِ إذاً، «لزومَ ما يلزمُ» من ختم «**كيف أنام وفي دمي هذي العقارب**؟!»:-

وحوّمت فوق رأسي ضبابةُ رائحةٍ رماديةٍ نفاذة.. أسرتني الرائحة الرمادية وتشرّبت، كخمرٍ متكاسلةٍ، ثنايا فؤادي وطيّاته ومنعرجاته الرقيقة.. صرتُ إلى غبار عناكبٍ تحت «نيون» المغيب في مدينةٍ نافيةٍ لا مباليةٍ.. صرت إلى تلفٍ رماديٍّ.. فقط محض تلفٍ رماديٍّ وفقدت سلام غابتي المنعزلة القديم.. صيّرتني يا أنتِ إلى تلفٍ رماديٍّ.. فقط محض تلفٍ رماديٍّ وأفقدتني سلام غابتي المنعزلة القديم باسمِ ألفةٍ تنفر مني بغرابة «وقد أفهم «لماذا؟» بغموضٍ وأكتفي بذلك..!».. فهلاّ أنام؟! وكيف أنام وهذى العقارب في دمي لا تغفل عن نهشي بسمها الغريب الطعم الذي يتقبله القلب في صمتٍ شهيد.. فهل خُلقتُ لأنفجر بمشاعر الشهيد وأحترق بها حتى دخان الروح الأقصى؟.. كيف أنامُ.. كيف أنامُ وفي دمي هذى العقارب.. هذى العقارب.. كيف أنامُ و

في دمي هـذى العقـارب.. في دمي هـذى العقـارب.. العقـارب.. كيـف أنـامُ؟!.. كيـف أنـامْ؟! (مـن **كيـف أنـامُ وفي دمـي هـذي العقـارب؟!**- إبراهيـم جعفـر، الأربعـاء 8 مايّـو 1985).

أمَّـا لقـاءٌ «فائـضِ العمالـةٍ» الآخِـرٌ والقصـيرٌ فقـد تـمّ بعـد عـودة مجـذوب، مـن الخرطـوم، إلى كوسـتي مـن بعـد تلـك «التواريـخ» بمـا ليـس بعيـداً عـن الشـهرين وثُلّـةٍ قليلـةٍ مـن الأيّـام. كان الزّمـانُ زمـانَ عيـد الأضحـى المبـارك وعهـد ارتحـالِ «ضيـوفِ الرّحمـن» إلى مـا وراء «بحـرِ المالـحِ» للتشّـوفِ والتشـمّمِ بدخـانِ النبـوّةِ الشـافي القديـمِ منـذ عهـدِ خليـلِ الألوهـة إبراهيـم وإسـماعيل، ثـمّ- مـن قبـلِ زمـان حـجِّ «المسـلمِ» ومـن بعـده- منـذ عهـدِ عيـسى المسـيح الـذي فـات ولم يفـت، ثـم جـاءَ وفـاتَ ولم يجـيءَ- بكامـلِ حضـوره- ثانيـةً. وكان مجـذوب الطيـب (في تلـك الأيّـام التـي لم «تُتَـدَاولَ»، حتّـى الآنَ، لحـدِّ الإسـتنفاذِ، أو حتّـى إشـباعِ الـرّضي والقناعـة، بـينَ «ناسِـهِ» الذيـن كانـوا، ومـا يزالـوا، هـم فيـه) يتفكّـر في شـأنِ، بـل و«يتحنّـنُ» بشـأنِ، «رمرمـةِ» ذاكَ الـذي تهشّـمَ مـن إنائـهِ، وغنائـهِ، بعافيـةِ صداقـةِ إنسـانٍ كوسـتاويٍّ شـاعرٍ افتقـد ذهابـه إليـه في الأعيـاد (**مـين تـاني البجينـي في الأعيـاد**- كـما قالـت رسـالة تلقائيّـة قديمـة مـن ذلـك الصديـق إلى مجـذوب)، ثـمَّ مـا يـزال.

في ذات يـوم (وكان ذلـك يـوم هـو نفـس شَرَقَانِـهِ بمأثـورةِ «هـذا فـراقٌ بينـي وبينُـكِ!») كان مجـذوب الطيـب ماشـياً عـلى دربِ الغبـار الطويـل العريـض الـذي كان أليفـاً لنفسـه ورفيقـاً لتهواماتـه الغنائيّـة القديمـة والسـارحة- الجديـدة والسـالفة- والـذي كان فاصـلاً مـا بـين شرق كوسـتي (مـن عـلى جهـةِ غـربِ سـينما كوسـتي الوطنيـة وحديقـة

البلديّـة والمجلسـين البلـدي والريفـي وإدارة الأراضي والمستشـفى الكبـير والسّرايـات) وغربهـا (مـن عـلى جهـةِ شرقِ مدرسـة البنـات الثانويّـة العليـا ومركـز البوليـس وقشـلاق البوليـس ومدرسـة التجـاني الثانويّـة العامّـة). كان الوقـتُ ضحـى وكان في نيّـة مجـذوب، حينـذاكَ، التّسـكّع- بمجّانيّـةٍ غـير مسـبقة التصـوّر- في عـرض ذلـك الشـارع حتـى جهـة حـي «السرايـات» والعـودة، مـن بعـد ذلـكَ، إلى جهـة المجلسـين البلـدي والريفـي و»حديقـة البلديّـة» ومـن ثـمَّ الإتّجـاه شرقـاً [وليـس «غربـاً» كـما في الفلـم المشـهور عـن «رجـلِ البوليـس»!] إلى داخـل سـوق كوسـتي الكبـير المهـردب والمعتّقـةَ أطرافُـه السّـفلي بدكاكـين بهـاراتِ عائلـةِ نـاس ابنعـوف العريقـة.

لكـنّ الأشـياءَ لم تجـر تمامـاً كماعشـمت فيهـا «دُرّةٌ» نيّـةِ مجـذوب الطيـب المكنيّـة. فـما أن اقـترب هـو، عـلى طريـقِ عودتـه مـن جهـة «حـيّ السّرايـات» ومطـار مدينـة كوسـتي، مـن مدرسـة التجـاني الثانوية-حتـى يصـل، مـن بعـد ذلـك، إلى قشـلاق البوليـس ثـم مركـز البوليـس ومـن ثـمّ يدلـف إلى الشـارع العـرضي القائـم مـا بـين مصلحـة الأراضي والمجلـس البلـدي وحديقـة البلديـة ومحكمـة كوسـتي الأهليّـة ومـن هنـاك إلى سـوق كوسـتي القديـم الكبـير- حتـى سـمع حـسَّ كـوراكِ صـوتٍ مناديـاً باسـمه مـن وراءه ومـن عـلى مسـافة لا تقـلُّ عـن الكيلومـتر الواحـد تقريبـاً. كان ذلـك الصّـوت يبـدو مألوفـاً لديـه ومسـموعاً كثـيراً مـن قبـل في أذنيـه، خصوصـاً في شـوارع حـيِّ الحلّـةِ الجديـدةِ الـذي كان قـد تـربّى فيه مجـذوب، في سـاحاتِ ألعابـه ونواديه الرياضيـة والترفيهيـة، كـما وفي حفـلاتِ زواجـه ومآتمـه التـي «تتعـزُّ» دومـاً باللَّـماتْ. لكنّـه مـع ذلـك لم يتذكـره للتـوّ ولم يسـتطع اسـتعادة

ملامحه و»حسّه« الذي سُمّى »كلَّ« صاحبهِ عليهِ (إذ لُقّبَ هو باسم »ود أب حِسْ«) إلا بعد أن التفت وراءاً وركّز نظره، خلل الشمس الساطعة، على بوّابةِ »ديوانِ الزكاةِ والضّرائبِ« الكبيرة التي كان ذلك الصوت، وخلفه صاحبه الأسمر النحيف الطويل، يقفانَ (»صفّاً واحداً«) وراءها. بدأ مجذوب الطيب مشوار الألف متر العائد باتجاه حيّ »السّرايات«، باتّجاه.... »ديوان الزكاة والضّرائب«! (ربّما كان هذا التردد في ذكر اسم »ديوان الزكاة والضرائب« هنا ذو علاقة، فيما يبدو، بنسيان ضروريٍّ طارئٍ لبدرية وارتباطها »الوظيفيِّ« بذلك »الديوان« شاء شعور مجذوب الطيب له أن يترسّخ فيه، ولو تدريجيّاً، حتى تأتي »إستيكةٌ« بطيئةٌ لإمرأةٍ أخرى وتخفي عنه »تحت السّطورِ« ما كان قد خُطَّ على كرّاسةِ »تواريخ« بدريّة معه من شميمِ التحسّساتِ والعواطف......)...... لكنّ بدريّة لم تظهر، على التوِّ وبثوبها الأبيض التّوتال المشجّر (كما جرى في عرف »موضوعةِ« الزيّ النّسائيِّ المكتبيِّ المحترمِ في تلك الأيّام)، على الجانب الأيمن من ود أب حس بعد استجابة مجذوب الطيب للنداء »الودأبحِسِّيِّ« كما توقّع مجذوب، نصفيّاً ولعدةِ وهلاتٍ معتبرة. لكنّها (كما مطرب حفل العرس الشّهير المالئ- بموافقة الجميع المضمرة- لمركزهِ) تأخرت في ذلك الظّهور حتّى قرّبتْ مجذوب الطيب مسافة نحو خمسمائة متر من تلك البوابة الكبيرة وذلك المكتب الحصين. عند ذلك رأى مجذوب الطيب يداً مرفوعةً إلى الأعلى (بلهفةٍ؟) باتّجاهه ومحاذيةٍ، بفاصل ستة سنتيمترات، لذراع ود أب حس اليمنى المدلاة على جانبه. ثم تلى تأرجح تلك الذراع في الهواء، في الفراغ الملتهب بشمس الظهيرة الدافئة (إذ كان الزمان، آنذاكَ، خريفاً ناعماً في كوستي

و«عويشـاً كـو» في بواديهـا)، صـوتٌ نسـائيٌّ هاتـفٌ باسـمه عاليـاً:- مجـذوب!...... مجـذوب!...... مجـذوب! وكأنّمـا كان (ذلـك الصّـوت) قـد لقـيَ «رايحتْـهُ» بالـذّاتِ في تلـك اللحظـة. طبعـاً لم يفهـم مجـذوب، أو يحـسُّ، أبـداً كيـف كان يمكـن لـه، إطلاقـاً أوحتّـى بنسـبيّةٍ مقـدّرةٍ، أن يُشَـافَ «رَايِحَـةً» في الـ»“aftermath بتـاع «كيـف أنـامُ وفي دمـي هذي العقـارب؟!» لكـن أوكّي، فقـد، كـما يَظْهَـرُ، كُتِـبَ (في «كتـاب الكارمـا»- كتـاب «قانـون المعاوضـة»- الخـاصّ بـه) أن ليـس لـه أن يسـأل عـن ذلـك بعـد في مقبـل أيّامـه أو أيّـامٍ ممكنـةٍ آتيـةٍ أخـرى.

عندمـا دخـل مجـذوب الطيـب إلى ذلـك المكتـب كانـت بدريّـة قاعـدةً، سـاكنةً وسـاهمةً، عنـد مكتبهـا ومتشـاغلةً ببعـضِ الأوراقِ التـي أعطتهـا- في نظـر كلّ الداخلـين إليهـا مـن الخـارج (لكـن ليـس مجـذوب الطيـب بالطّبـع!)- منظـرَ أهميّـةٍ رسـميّةٍ مؤكّـدة. كانـت بدريّـة- بتلـك الهيئـة المرسـومة بحصافـة- كأنّمـا كانـت تـودّ أن تقـول لمجـذوب- في إجابـةٍ ضمنيّـةٍ (أو، عـلى الأدقّ، «هيئويّـةٍ»- حتّـى ولـو لم يكـن هنالـك، في اللغـةِ العربيّـةِ، تصريـفٌ ممكـنٌ مثـل ذلـك!)- إنّ مـا جـرى منهـا قبـل قليـل، بعـونِ حسـن تربيـة ود أب حـس، مـا كان إلا نـزوةَ حماسـةٍ عابـرةٍ وإنّـه، بذلـكَ، لا يختلـف في شيءٍ كبـيرٍ عـما كان قـد يحـدث لهـا عنـد ملاقـاةِ **أيٍّ** شـخصٍ آخـرٍ كان، فيـما مـضى، شـيئاً مثـل مجـرّد زميـل دراسـةٍ أو/و قريـبِ أو «كَيْـسِ» صديقـة، أو حتّـى زميلـةٍ، كانـت تـدرس معهـا في جامعـة القاهـرة- فـرع الخرطـوم. «هكـذا إذا يـا بدريّـة بـتّ الـ......ةاً!» هتـف مجـذوب الطيـب في نفسـه، بـلا مبـالاةٍ موجعـةٍ في حزنهـا، مـا أن احـسَّ في نفسـه ذلـك المُنـاخ الصّـادرُ (أو الـواردُ) عـن تلـك الهيئـة الرسـميّة القاعـدة، الآنَ،

هنـاك والتـي كان اسـمها «بدريّـة». غـير أنـه حافـظ، مـع ذلـك، عـلى المظاهـرِ والظّرافـات الإجتماعيّـة التّافهـة طيلـة وهـلات لقائهـا القصـير الأخـيرُ والآخِـرُ معهـا وقـد أعانتـه عـلى ذلـك فطرتـه الإنسـانيّة السـليمة بـذاتِ علّتـي اختلافهـا و«لا مبالاتهـا المباليـة»......

أظنّنـي لا أحتـاج- بعـد- أن أقـول شـيئاً إضافيّـاً عـما حـدث مـن بعـد ذلـك، فنحـن قـد أدركنـاه مسـبقاً حـين أشـار الـراوي إلى أن ذلـك اليـوم هـو كان، بكلمـةٍ واحـدةٍ وبَـسْ، ذاتَ يـوم همـسِ مجـذوب الطيـب المتوتّـرِ والصّائـحِ لنفسـهِ وللهـواءِ الـذي كان حولـه (لكـن ليـس للنـاس الذيـن كانـوا حولـه!)- عـلى طـولِ سـبيل عودتـه، في ذلـك النهـار الخريفـيِّ البعيـد، مـن ذلـك المكتـب إلى منـزل أهلـه في الحلّـةِ الجديدة بكوسـتي- بعبـارة أنّ «**هـذا فـراقٌ بينـي وبينُـكِ!**»

وجـد مجـذوب الطيـب نفسـه، مـن بعـدِ ذلـكَ ومـن بعـدِ سـتّةِ أيّـامٍ مـن عودتـه إلى عملـه بشـعبة الفلسـفة بكليّـة الآداب بجامعـةِ الخرطـوم، وهـو يُلهـوجُ بكتابـةٍ رسـالةٍ لم يكـن، أبـداً، يتوقّـع أن تجيئـه عليهـا إجابـةٌ مـن كوسـتي. كتـب مجـذوب الطيـب تلـكَ الرّسـالةِ بلغـةٍ أشـبه بلغـةِ «علـمٍ وشـكراً» التـي كان قـد «تعلّمهـا» و«أتقنهـا» ومن ثمَّ اسـتهلكها، بمـرحٍ خفيـفٍ وسـاخرٍ، حينـما كان يعمـل برئاسـةِ مصلحـة العمـل السّـودانيةِ ببنـدرِ الخرطـومِ الكبـير. كان فحـوى تلـك الرسـالة، الموجـز و«المقصـور» جـدّاً هـو مـا يـلي:- (ليكـن لـكَ، يـا بدريّـةَ، أن تجيبينـي، فقـط بكلمـةِ «نعـمٍ» أو «لا» وبـدون أيّ «لكِنّـات» زائـدة، عـلى هـذا السـؤال المبـاشر البسـيط:- هـل تسـتطيعين أن تقبلينـي لـكِ زوجـاً؟). ثـمّ كان أقـصى، أو آخـر، موعـدٍ حددتـه تلـك الرسـالة لاسـتلامِ الإجابـة عليهـا مـن كوسـتي هـو يـوم الثلاثـين مـن الشـهر الـذي كان

سيعقب الشهر الذي كانت هي قد كتبت في آخر يومٍ منه (هي كانت قد كتبت في يوم 31 من شهرِ أغسطس من العام 1985).

ربّما كان مجذوب الطيب قد كتب تلك الرِّسالة الزائدة (فقد «كشف الغطاء» قبلها بزمانٍ و«فاض الكيل»، كما يقولون في اللّغةِ العربيّةِ الكلاسيكيّة) بدافعِ لا مبالاة حزينةٍ ومرحة. أو هو ربّما قد يكون كتبها بموجبٍ، بحافزٍ، حسِّ إنصافٍ لاشعوريٍّ غامضٍ، ومع ذلك قاهرٍ، كان لا بدّ له على أيِّ حالٍ أو «مقالٍ»، أن يوفيه لنفسه، وفي ومع نفسه، بكيفيّةٍ إنسانيّةٍ ما أو أخرى. ربّما...... ربّما...... ربّما...... ثمّ ربّما...... ثم ربّما- وتلك «ربّما» جائيةً من جهةِ أخرى في نفسِ مجذوب الطيّب «لا تأتي منها العصافير» [على عكس ما كُتِبَ في شعرِ السّودانيِّ عبد المنعم عوض:- «**العصافيرُ تأتي من الجهةِ الأخرى**»]- قد أكمَلَتْ تلك الرِّسَالةُ، دون داعٍ حقيقيٍّ ولذا وصفت بأنّها زائدةً كلاماً في رسالةٍ أخرى قبلها كتبه مجذوب الطيّب عندما كان لا يزال في كوستي وقبل عودته إلى عمله في «شعبة الفلسفةِ» إيّاها وواجه به قولةَ «تِيْتِ» صباحِ عيد الفطر الذي كان هو- أصلاً- السبب الظاهر لهجرته، حينذاك، عن الخرطوم إلى كوستي في منتصف رمضان من تلك السّنةِ الثمانينيّةِ البعيدةِ-القريبة:-

<u>إذا متُّ أنكروني..!</u>

هذا وقتٌ لِلْوَجْدِ بِكِ.. امتلأتُ بكِ الليلةَ حزناً دُخانيّاً فانفصلْتُ عن أحبابي.. كذلكَ امتلأتُ بكِ أمسَ ذهولاً مُتسلِّطاً ونفَّاذاً فصرتُ غريباً في قومي الرُّوحيِّين «ناهيكَ عن أهلِ ثمُود!».

وها:-

ليتَ دُرٌّ نفحتنا بسُكْرٍ لا يفيقُ منهُ المرءُ إلاّ على شفقِ موته:- شفق رحيلهِ الشّفّاف- إنْ يَكُنْ هو كذلكَ! ها أنذا في فناء العمرِ، في تحقيقِ شعوريٍّ مُخيفٍ لـ» عمري انتهى، رُدَّ الأماني رُدَّها، عُدْ لي بها- غناءٌ سودانيٌّ « فكوني طيّبةً ورفقاً بمن هو «غيرُ أحبابه حطامٌ» وإلاّ فبُكائي وفاجعةُ الغناء «ما يهُمُّ النّاسَ من نجمٍ على وشَكِ الزَّماعِ .. ما يهُمُّ النّاسَ من نجمٍ على وشَكِ الزَّماعِ.. ما يهُمُّ النّاسَ من نجمٍ... ما يهُمُّ النّاس.. ما يهُمُّ النّاس..» ووحيداً وفي قمّةِ فرادَتِك جنونكَ وانفصالكَ وصمتكَ ورحيلِكَ وشوقِكَ إلى بعيدٍ لن تبلُغه.. لن تبلُغه .. صارت الأشياءُ الصغيرةُ، أشياءُ الدُّنيا، النّاس، المعارف، بلا معنى ولا جاذبيّة، هل أدخُلُ عزلةً «والعزلة هي الموت؟!» إنّي في زمنٍ داخليٍّ خُسْر وأنا لستُ سوى رجُلٍ خُسْر، رجُلٍ صفر، رجُلٍ خُسْرٍ يا أصدقائي فإذا متُّ انكروني..!.. إذا متُّ انكروني!.. إذا متُّ انكروني.. انكروني.. انكروني..! وأنتِ إذا متُّ انكُريني.. إذا متُّ انكريني.. انكريني.. إذا متُّ انكريني.. انكريني يا طيّبةً بقسوةٍ لا تُشبِهُكِ، كوني قسوةً حارقةً وانكريني.. ثلاثاً مُغلَّظةً انكريني.. انكريني.. انكريني.. انكريني..

1985 /7/6 **"صباح عيد الفطر الباكر".**

مجذوب الطيّب.

لكن دعكَ- يا مُرِيْدِي- من عثراتِ هذا الكلام الذي ليس هو، في منتهى السّماعِ، سوى إغراءٌ باللّومِ الضّمنيِّ ومن ثمّ بالتــ..... تفاسير.

نهايـةُ الكتـاب الثّـاني:- مـا بعديّـةٌ لازمـةٌ لتهدئـةِ مِلـحٍ غائـرٍ في النّفـسِ بتنافيـثٍ مـن التأمّـلِ والشّـعر أو «كلامٌ» مـاضٍ عـلى سـبيلِ حُجّـة لتضمـين هـذا النّسـجَ بعـضَ الخواطـرِ ذاتِ الصِّلـةِ (القبليّـةِ والبعديّـةِ) بـه:-

الفنّان وامرأة السّقوط الظّلامي..

1. **إسقاطٌ ذاتيٌّ :-**

«بنيْـةَ الطُّهـر الصّافيـة نفَتْنِـي/ وحسَّـه مهاجـر/ في شـلاّل الحُرقَـة ومَرْمِـي/ في شـفق الوحـدة وسَـادِرْ/ في وديـان المـوتْ وبَقَالِـدْ/ بِـكّا جُـوَّاني/ في رعشَـةْ مطـرَةْ حزنُـو نفـاني – مـن قصيـدة «زمـن الحـزن الجُـوَّاني»- شـعر: إبراهيـم جعفـر».... « وذاهـلاً أراهـا.. غمامـةٌ كانـت وحمامـةٌ ترقُـصُ في القلـبِ ولكـن الخِنجَـرَ امتـزجَ بدمائهـا في القلـبِ.. هـي حـاضرةٌ لكنّهـا تمتـزجُ بوحشـةِ الغربـةِ اللاّعذبـة– مـن قصـةِ «**مـوت العاشـق الحـالم بالتّوَحّـدِ!**»- إبراهيـم جعفـر..»..

لمـاذا يكـونُ السّـقوطُ الظّلامـيُّ هـو المقولـة الفاجعـة التـي تُؤسِّـسُ علاقـة الفنـان بالمـرأة، أيّ امـرأة..!.. لمـاذا يتكثّـفُ هـذا الحـزنُ الشَّـفَقِيُّ في الـرّوحِ بقـدرِ «الهـوّةِ الفاجعـة» التـي تتربّـص بعلاقـاتِ الفنّـان العاطفيّـة التـي يُريدُهـا «تجـاوُزاً وسـماوِيّةً» فتُصبـحُ غثيانـاً وهامشـيَّةْ؟

2. **تداعياتٌ رومانسيّةٌ–صوفيّةٌ:-**

أحلُـمُ في الخلـدِ القـصيِّ مـن روحـي بانبثـاقِ عـالمٍ ذي طبيعـةٍ أُنثويّـةٍ كي يكـونَ «القلـبُ بحيرةَ موسيقى– مـن شـعر:- الفاتـح محمـد أحمـد..».. وأنـتِ تتوهّجـينَ في ضفـافِ عـالمٍ لن يكـون.. بعيدةً كنرجسـةٍ

إلهيّـةٍ تنـدسُّ وتُبـينُ «خلسـةً» في ضبـابِ الـرّوحِ، سـماويّةً جالسـةً عـلى أرائـكِ جنـانِ الوعـيِ بالـذّاتِ الجّديـدةِ المتجـاوزة لهذا «المسـخِ السّـائدِ» الـذي يُسـمّونهُ إنسـاناً، مـن خلالـكِ يـأتي التّغنِّـي بالـذّاتِ الجّديـدةِ و بالفتـحِ المُجـاوِزِ لمبتـذلاتِ العـالمِ اليومـيِّ إلى عـالمٍ أُنثـويٍّ حداثِقـيٍّ إلهـيٍّ .. وأنـتِ تكونـينَ (في شَـوفِ المُغنِّـي) تجـاوزاً لحيـاةِ (العـالمِ اليومـيِّ الباهتـةِ) ومسـتوى «كيـفَ نحيـا؟!» لمسـتوى «لمـاذا نحيـا؟!» و إجابـةً لـذاكَ السُّـؤال تـأتي كالحـدسِ، أُغنيـةً تفجـؤُكَ بالحيويّـة والمعنـى كالمطـر.. وأنـتِ، في شَـوْفِ المغنِّـي، «نرجَسَـةَ شـارونَ، سوسـنةَ الأوديـة- مـن **نشـيد الإنشـاد**».

3. <u>تأمُّلٌ عقلانيٌّ باردٌ:-</u>

إنَّ الأسـاسَ في فشـلِ العلاقـاتِ العاطفيّـةِ بـين المـرأةِ والفنّـان، أو المُثقّـف المرهـف عمومـاً، يكمـنُ في التّعـارض بـين مـا «يُريـدُهُ» الفنّـان ومـا يجـدُهُ في الواقـع الاجتماعـيِّ. فهـو يريـدُ امـرأةً غنيَّـةً شـعوريّاً «وتأمُّليـاً» فيُجابَـهُ إمـا بامـرأة تُمثِّـلُ نسـخةً مُلمّعـةً، ومُلمّعـةً فقـط!- ولذلـكَ هـي خادعـة- مـن جدَّتهـا القانعـة الرّاضيـة فهـي مـترددة ومتذبذبـة ولا تملـكُ حريـة القـرار وتخـافُ مـن مسـؤولية الاختيـار ومـن سـلطة الأسرة وليـسَ لهـا زمـام المبـادرة في علاقاتهـا العاطفيـة وفي مجمـل القـرارات المتعلقـة بحياتهـا الشـخصية والاجتماعيـة إلى آخـرِ صفـاتِ «الأُنثـى» التـي لا تسـتطيع التّحـرّك إلاّ مـن «خـلالِ» ظلِّ رجـلٍ. وقـد تكـون بعـضُ فتيـات هـذا النّمـوذج «غنيّـات شـعورياً» رغـم فقرهـنَّ «في التّأمّـل» ولكـن ذلـكَ وحـدهُ قـد لا يُجـدي إذا لم تتحـرّر الإرادةُ وتنطلـقُ قـدرةُ الاختيـار.

أو قـد يُقابَـلُ بالنّمـوذج الآخـر، وهـو نمـوذج «المـرأة الدِّيكوريّـة»، التـي يُوهِمُـكَ مظهرهـا وتصرفاتهـا الظّاهـرة بتحـرّر إرادتهـا وقدرتهـا عـلى الاختيـار ولكـن مـا أن تدخـلَ في علاقـةٍ واقعيّـةٍ معهـا حتـى تكتشـف فقـر روحهـا وفقـر تأمّلهـا معـاً فتكـونُ فاجعتُـكَ العاطفيّـةُ ثمنـاً لذلـكَ الاكتشـاف.

مصيبـةُ الفنـان، كـما كنـتُ ولا أزالُ أقـولُ لأصدقـائي مـن شـبابِ الأُدبـاء، أنّـهُ مـا أن يتوهّـمَ، حـينَ يعشـقُ امـرأةً، وجـودَ بعـضِ الضيـاء، ولـو النـذر اليسـير، في ذاتهـا حتـى يُحيلُهـا كلّهـا إلى ضيـاء وإشراق ومـن ثـمّ يُعامِلُهـا، لا عـلى أسـاسِ أنهـا بعـض ذلـكَ الضيـاء الـذي قـد يكـون هـو ذاتـه وهميـاً، بـل عـلى افـتراضِ أنهـا كلّهـا مضيئـة، فهـو متعلِّـقٌ عاطفيـاً، في الواقـعِ، بـ«صورتهـا» في ذاتـه وليـس بحقيقتهـا الواقعيّـة لـذا يكـونُ «السّـقوطُ الظّلامـيُّ» دائمـاً هـو المقولـةُ الأساسـيّةُ التـي تُؤسِّـسُ علاقـةَ الفنـان بالمـرأة..!

4. مخرج:- موقف نداء:-

ولكـن.. يظـلُّ نـداءُ الفنـان اللاّهـبُ الشّـمسيُّ هاتفـاً بالدّواخـلِ عـلَّ «مجهولـةً رائعـةً» تطـلُّ ذاتَ يـومٍ فتمنحـه وقـتَ حضـوره الشّـفيف وتنطلـقُ الأعـماقُ مُغنِّيَـةً بصفـاءٍ نـادرِ الحـدوثِ:-

أيا امرأةَ الحضورِ الشّفيفِ

تعالي، ادخُلِي ذاتي افتَحِي

قارورةَ الوردِ اجعلِيْنِي

في خيالِ الوردِ أَصْحُو

فِي خيالِ الوردِ أغفُو

دثِّريني بانفعالِ القُدْسِ

انشُرِي فِي القلْبِ أَستارَاً

ضفائرَكِ البهيّةِ واستكِيْنِي

ديسمبر، 1981م.

الجمعة 15/4/1983م.

إبراهيم جعفر.

الكتابُ الثّالث

1

<u>إسـترجاعٌ تمهيـديٌّ وضروريٌّ بصـوتِ مجـذوب الطيـب أو «ضبـطٌ» لآلاتِ الحـكي الموسـيقيّةِ الوتريّـة:-</u>

منـاي اشـوفك طالع/يـا بـدرِ مـن قِدّام/والفرحـة تمـلا عينيكا/لمـن تقولـلي كلام؛ منـاي اشـوفك طالع/يـا بـدرِ مـن قِدّامْ/والفرحـة تمـلا عينيـكا/ لمـن تقولـلي كلام؛ مُنـاي اشـوفَكْ طالع/يابـدرِ مـن قِـدّام/ والفرحـة تمـلا عينيكا/لمـّن تقولـلي كلام. هكـذا جـاء بنـا الـكلامُ- إذاً- إلى حـواسِّ حوشِـهَا الصّديـقِ بالأُنْـسِ وذاتِ الذّكـرى الجميلـة التـي تهـدّجَ بهـا نَفَسُ وصـوتُ الشـاعرِ والملحّـنِ السّـودانيِّ الطّـروبْ الطاهـر إبراهيـم:- ذكـرى «العصفـورةُ الضّاحكـة» التـي رسخ شَـوْقَاً، الآنَ، أنّـه «لا دنيـا بتزيـلا ولا آخـرة بتمحاهـا»! لكـن مـن ايـنَ أبـدأ كلامَهـا يـا أولئـكَ، يـا أيّتُهـا الذيـن هـم- تخصيصاً- ممّـن قـد **أراهـم** لكنّهـم قـد لا **يرونـني**؟

2

ربّما كان حمّاد الكردفاني (عامل شعبة الفلسفة بكلية´الآداب بجامعة الخرطوم) هو (أو كما أحبّته ذاكرةُ الرَّاوي أن يكون) أوّلَ من جذِبَ إلى نكهةِ بخورِ تيمانِ العصريّة النّافذة التي كانت تتهبهبُ، غامرةً، فيما بين مجذوب الطيب و«عصفورتنا الضّاحكة» كلّما جلسا معاً للتآنس. في البدء هو (الفتى البشوش الخدوم حمّاد الكرفاني) قد شكّ بالطّبع (وله كلُّ الوجاهة الراجحة في ذلك) في أن لا يكونَ تَمثُّلُ تلك النّكهةِ، في حسّه، سوى وهمٍ «شمِّيٍّ» (و«بصريٍّ») ناشيءٌ (أو ناشبٌ)- ببساطةٍ- من وحي شوقه الشديد إلى أن تنشأ علاقة حميمة بين الشَّبَهَيْنْ المتلاقيين مجذوب الطيب و«العصفورة الضّاحكة» اللذين «رادهُمَا» (كما تقولُ البناتُ)، دوماً وبشدّةٍ، في خياله، أن يكونا أليفين. لكنّ ذلكَ كان مجرّد خاطرٍ عارضٍ لم يعش مع حماد الكردفاني أبداً من بعد لحظته (أو هنيهته) القصيرة تلك أو يُواتره مجدداً. وذلك لأنه- عمليّاً- وجد نفسه شايفاً له شيئاً «غيرَ ذي بالٍ» ومن ثمَّ طارحاً له جانباً عنه بعد «توٍّ» ليس بعيدا ومندمجاً، مع مجذوب الطيب و«العصفورة الضاحكة»، في ما كانا هما فيه من براءاتٍ، دون فراملٍ ودون سؤالاتٍ، كلّما كان بصحبتهما- أي فاطراً معهما في مكتب «العصفورةِ الضاحكةِ» أو شارباً معهما الشاي مثلاً- أيضاً

غالبـاً في مكتـبِ «العصفـورةِ الضّاحكـةِ».

في تلـك الأيّـام كان مجـذوب الطيـب مـا يـزالُ طـارفَ التعـيّنِ (لذيذة دي مـش كـده؟!) كمسـاعدٍ للتّدريـسِ بشـعبةِ الفلسـفةِ، بكليّـةِ الآداب وبجامعـةِ الخرطـوم. لكـنّ ذلـك لم يَقْرَعَـهُ عـن أن يصيرَ، بسرعـانٍ وجيزٍ، «حديـثَ» دكتوريـن جهبوذيـن قديمـين و«مُكرفَتَـيْنَ» عليهـا حينـما يسـألهما عنـه أصدقـاؤه الهيبيّـون الوسـيعو الخيـال والـرّوح بتهويمـاتِ وجوههـم وملابسـهم الزاهيـة (نعـم، **الزّاهيـة!**) بالجّـوعِ المتعاطـفِ الخـلاقِ والتـشرّد. كان الدكتـوران إيّاهـما يجيبـان أصدقـاء مجـذوب الطيـب (مـن **الفنّانـينَ** خصوصـاًَ!)، بـلا تلفّـتٍ أو فضـولٍ اسـتقصائيٍّ طبيعـيٌّ (بـل ودونَ حتّـى أن يرسـلا، أو يحـاولا أن يُرسـلا، أحـداً مـا (فهـما لا يذهبـان إلى هنـاكَ بـ«جلالهـما») إلى مكتـب مجـذوب الطيـب عنـد الركـنِ اليسـاريِّ مـن بهـو الشـعبة (للقـادمِ للشـعبةِ مـن خارجهـا) كي «يُجيـبُ لهـما خـبره»)، بـأنّ مجـذوب الطيـب لا بـدّ لـه الآنَ- **وفي كلِّ آنٍ** (هكـذا كانـا هـما يضيفـان بتواطـئٍ متعـدّد الغمـز والإيحـاءات)- مـن أن يكـونَ قاعـداً عنـد مكتـب «العصفـورة الضاحكـة». كانـا- طبعـاً- يقـولان، للنّـاسِ والزّائريـن، اسـم «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» الأوّلَ (هكـذا حافّـةً ودونَ أبٍ أو أمٍّ) وكأنّهـما كانـا يزلقانـه عـلى طـرفِ حجـرٍ مَسَـنٍّ حـادٍّ- بنـبرةٍ ضيّقـةٍ وعجولـةٍ وصـبرٍ كالكحّـةِ القصـيرةِ الخانقـةِ والمكتملـة النفـاذ. (كان ذينكـما الدكتوريـن الميمونـين جـدّاً- إن تجـز إضافـة «جـدّاً» للـ«الميمونـين» هـذه- مشـتملينَ عـلى دكتـورِ فلسـفةٍ كان (رحمـه اللـه) متخصصـاً في عقـدِ قـرانِ زيجـاتِ الحـلالِ البـلالِ الزّهرائيّـاتِ وفـقَ ترتيبـاتِ «المـشروعِ الحضـاريِّ العظيـم» الـذي لم يكـن لباطـلٍ أن يأتيـه مـن تحـتِ «كُراعيـهِ» ولا مـن فوقهـما؛ ثـمّ

على دكتورٍ آخرٍ شديدِ التحرّمِ بالبذّاتِ والمرابطِ، وطنيّاً مهيباً كما الرّعيلِ الأوّلِ في تعريفِ إحدى الصديقاتِ السّاخراتْ!).

لكن خليّكَ من تواصيف الرّاوي النّفسانيّة الجانبيّة تلكَ ودعنا نتصوّر أنّه، ذاتَ صباحٍ خليٍّ من الموانعِ ودَسَمِ عسرِ الحياةِ العسيرة (أي، بكلام الدين القديم، ذات صباح كان الله **يبدو** كريماً فيه)، جاء مجذوب، إلى شعبةِ الفلسفةِ، بشوشاً ومترقباً بصفاءٍ بسيطٍ، ملاقاة وجهِ «العصفورةِ الضّاحكةِ» عندَ بابِ المكتب- المنزل. لم تكن هناك فاكفهرَّ شيءٌ ما في جانبه الأيسرِ وواتته غرزةٌ خفيفةٌ، لكن مؤلمةٌ، عند أسفل وأصغرِ ضلعٍ يساريٍّ من مشبكِ قفصِ صدره. لكنّه سرعان ما أدركَ من أحدِ العاملين القدماء- الذي برز أمامه فجأةً وكأنّما كان قد جاءه «مُرسَّلاً»- أن «العصفورة الضاحكة» قد وصلت، في ذلك اليوم، مبكّرةً (حوالي الساعة الثامنة صباحاً) إلى شعبة الفلسفة، ثم غادرتها بعد مواعيدِ الإفطار ولإثر تناولها العجول لساندوتش جبنة بيضاء أتت به معها من الخارج. وصف العامل ذلك- وكان اسمه حسنين (ويُنادى باسم»عم حسنين»)- بحيادٍ بسيطٍ وطبيعيٍّ ولم تكن به أيّ شنّةٍ مما قد يشوب حديث موظفين آخرين أكثر تعقيداً- تعقّداً وفهماً منه عن مجذوب، فهو قد كان- ببساطة- يحبُّ تلك «العصفورة الضاحكة» البسيطة كأختٍ صغرى له أو حتي بنتٍ له (كان هو أكبر منها بحوالى عشرة سنين على الأقل). ثمّ كان هو كثيراً ما يسأل نفسه عنها وهو ضاحكٌ بشغفٍ:- من منّا لا يحبُّ تلك «العصفورة الضاحكة» يا ناس أو ينجذب نحوها مثل الأطفالِ أو الدراويش؟! إنّ «العصفورة الضاحكة»، قال «عم حسنين» لمجذوب، قد ذهبت،

مـع بعـض زميلاتهـا مـن سـكرتيرات الكليّـة، إلى مناسـبة اجتماعيّـة صغـيرة وخفيفـة في أحـد الأحيـاء القريبـة مـن الجامعـة وإنّهـا سـتعود، كـما أخبرتـه وأخـبرت حـماد الكردفـاني، إلى مكتبهـا في حـوالي الثانيـة عـشرة مـن ظهـر نفـس اليـوم، موصيـةً بـأن يُحـدّثَ مجـذوب الطيـب بذلـك عندمـا يـأتي وأن يُـوصى- هـو بالـذاتْ- بـأن يحفـظ لهـا أيّ أوراق رسـميّةٍ قـد تُرسـل، في ذلـك اليـوم، إلى ذلـك المكتـب في درجٍ معـيّنٍ مـن أدراج تربيـزةِ مكتبهـا حتّـى تعـود هـي وتتـصرّف بشـأنها. «كل سنة وانـت طيّـب يـا عـم حسـنين!» ردّ مجـذوب الطيـب عـلى أخبـارِ «عـم حسـنين» لـه بهـذه الجّملـةِ دون كثـيرِ تفكـيرٍ وبضحكـةٍ قصـيرةٍ مفاجئـةٍ ولم يـزد عليهـا شـيئاً آخـر سـواها. لكـن العـم- بخـلاف بعـضِ «الدكاتـرة الجهابـذة»- لم يسـتغرب منـه ذلـك (أو أيّ شيءٍ آخـرٍ ممكـنٍ مثلـه شـبيه بمجـذوب الطيـب و»لـون» مجـذوب) فهـو قـد فهـم، دون حاجـةٍ لكثـيرِ تذكّـرٍ أوتفكـيرٍ، أن تلـك الـ»كلّ سـنة وانـتَ طيّـب!» المجذوبيّـة إنّمـا هـي إيمـاءةُ شـكرٍ مـن مجـذوب الطيـب لـه- بطريقـةِ **مجـذوب**- عـلى مـا أوصلـه هـو لمجـذوب، كـما وهـي، كذلـكَ، هديّـةُ سـلامٍ مـن مجـذوب الطيـب إليـهِ لم يُقرئْـهُ لـه- أو عليـهِ- فقـط!.

عندمـا عـادت «العصفـورة الضاحكـة» كان مجـذوب الطيـب معتنيـاً- كـما الـترّزيّ الخبـير القديـم- بحياكـةِ جلبـابِ التذكّـرِ الملـوّنِ وسـاهماً (كـما هـو طبيعـيٌّ!) في داخـل مكتبـهِ القاعـدِ عنـد ركـنِ اليـدِ الشّـمالِ القـصيِّ مـن شـعبة الفلسـفةِ للقـادمِ إليهـا مـن تحتهـا وعـبر جهـةِ شـعبة اللغـة العربيّـة ومكتـب كليّـة الآداب، مـن حيـثٍ، أو عـبر جهـة مكتبـة الآداب وشـعبة علـم النّفـس مـن الحيـثِ الآخـر. لم يكـن معـه أحـد مـن النـاسِ، أو الأصدقـاء، آنـذاك. لكنّـه مـا خَـلِيَ مـن توقّـعٍ

(مبهـمٍ بعـض الـشيء، لكنّـه، مـع ذلـكَ، واضـح الحـسِّ كطعـمٍ مُـلاحٍ أليـفٍ) بـأن يواليـه صديقـه «المفكّـر» سـايح- فجـأةً- بـ»كلّ سـنة وانـتَ طيّـبْ!»، حماسـيّةً وقويّـةً مـن الخـارج وآتيـةً مـن حـسِّ تعـرّفٍ جديـدٍ كأنّمـا كان صاحبـه قـد رأى- في العيـان البيـان- مـن «هَبْهَبَهَـا» إلى ناحيتـه بعـد اثنـى عـشر سـنةً مـن الغيـاب! لكـنّ ذلـكَ (كـما ظهـرَ مـن بعـدٍ) قـد فُـوّتَ عليـه زمانُـه إلى مـا بعـدِ مجـيء «العصفـورةِ الضاحكـةِ»، عنـد ميقـاتِ الثانيـةِ عـشرةِ والنِّصـفِ مـن ظهـر ذلـك اليـوم، إليـه (هـو الـ»مجـذوب»)، مبـاشرةً في مكتبـهِ «الحـيِّ ركنـاَ»، وهـي مُهَفْهَفَـةً بثوبهـا وهايمـةً بحكايـاتٍ صغـيرةٍ لذيـذةٍ عـلى لسـانها ولهـا طعـمُ زيـتِ السّمسـمِ السّـودانيِّ الخالـصِ (الغنـيِّ) ورائحتـه.

قالـت «العصفـورة الضّاحكـة» لمجـذوب، فيـما كانـت هـي شـاردةَ البـصرِ، لوهلتـين أو ثـلاث وهـلات، في بعضٍ/بضعـةٍ مـن رسـوماتِ سـايح (صديـق مجـذوب الطيـب القريـب الغربـة!) الإنطباعيّـة، الإسكتشـيّة النّفَـسْ والطّازجـة بالأسـود والأبيـض الموكّديـن (كانـت تلـكَ معلّقـةً عـلى الحائـط الـذي كان قائمـاً وراءَ طاولـة مكتـب مجـذوب الطيـب وعنـد منتصـف ناحيتـه الكائنـة عـلى جانـب يـد مجـذوب الطيـب اليسـار في حـال كـون مجـذوب الطيـب جالسـاً عـلى كـرسيّ طاولـة مكتبـه الفوتيـل):-

- «عايـِنْ يـا مجـذوب، أنـا مـش قلـت ليـك، قُبّـال كـده، أنـا **وجوديّـة** زيّـكْ وزي صاحبـك سـايح الكلامـو غريـق ده؟ تمـام الـكلام ده معاكـم- يـا نـاس- ولا لا؟»

قالـت «العصفـورة الضّاحكـة» ذلـك الـكلام بلهجـةٍ ظريفـةَ العنـادِ والغنـجِ المجـروشِ مثـل ولـدٍ (أو «مُحَمّـد وَلَـدٍ»- for that matter)

حبس عنه أهله كرةَ القدمِ الخاصّةَ به عنه كي يكفّ عن اللّعبِ بها مع أقرانه ويذهب ليراجع دروسه إذ الوقت كان وقت امتحانات الشهادة الثانوية العامّة وها هو- الآنَ- وأهله وأبوه وإخوته وإخواته- يغايظونه، مرحينَ، ودودينَ و«مُتمحِّنِيْنَ» في شدّةِ الجديّةِ المعاندةِ التي كان هو، آنذاكَ، يتمثّلها في نفسه بدهاءٍ مسرحيٍّ تامٍّ الغريزيّة.

ولمّا كان مجذوب الطيب يعلم أنّ «العصفورة الضّاحكة» كانت بنتاً شديدةَ الهِظَارِ والمرحِ والحياةِ، كما والحزنِ الحيِّ أيضاً، أجابها، تلقائيّاً، بمقطعٍ من أغنيةِ حقيبةٍ للشّاعرِ والملحّن السّودانيِّ المجيد عبد الرحمن الرّيّح أدّاها، حديثاً، المطرب (السّودانيُّ أيضاً) أحمد الجابري هي أغنية «**ملك الطيور أرقص/وسط الزّهر نشوان.....**» ولم يدخل معها (إكراماً لحساسيّتها الشعوريّة والروحيّة الرفيعة- كما قد يقول راوي هذا «الكلام») في أيّ كلامٍ «عقلانيٍّ» (كما يسمّونه) عن «الفلسفة» أو شابهها من الأمثولاتِ الإنسانيّةِ المخترعةِ (حسبَ تضميناتٍ تِحتانيّةٍ مُضْمَرَةٍ في كلامِ راوي دوستويفسكي في «**مذكّرات العالم السّفلي**») لكي يُزجى بها فراغاً في النّفْسِ والنّفَسِ لن تُزجيهِ، في الواقع، سوى **ممارسةِ** فعلِ الإرادةِ الشعوريّةِ الطّوعيّةِ للإمرئِ الإنسان في اتّجاهٍ معاشيٍّ (تجربيٍّ) حيٍّ ما أو آخر- كأن يعشق امرأةً/نساءاً «فنّانات»، يكتبُ شعراً **كينونيّاً** (إن كان ذلك الوصف لتلكَ «العينةِ» المختلفةِ من الشّعرِ مناسباً هنا)، يُحامُ إنساناً/ كتاباً مُعَيّناً على أنّه **أنتَ** وليس **هو** وما هو له أن يمضي على سبيلِ أمثالِ هاتيكَ الشّغلاناتِ والرّؤى......

ضحكت «العصفورةُ الضّاحكةُ»، من بعدِ ذلكَ، كثيراً ثمّ

دخلـت، مـع مجـذوب- في تـداعٍ تلقـائيٍّ مـليءٍ بالشّعورِ/الشّـايِ الرّايـقِ والشّـجيِّ- في خصوصِيّـاتِ حكايـاتٍ قديمـةٍ لهـا مـع آحـادٍ، مـن جملـةِ النّـاسِ، كانـوا، في أيّـامٍ غابـرةٍ، يسـتمتعون بصحبتهـا وتسـتمتع هــي بصحبتهــم دون أن، هكــذا فقــط وكليّــاً، يقــول لهــا أيٌّ واحــدٍ منهــم، مـن تلقـاءِ «روحـهِ»، شـيئاً مـا، أو خلافـه، عـن «ريـدةٍ» قـد شـافها (أو شـاقها) في نفسـه لهـا أو أن تقـولَ هـي (مـن تلقـاءِ «روحهـا» أيضـاً ولأيِّ واحـدٍ منهـم أيضـاً) شـيئاً مثـل ذلـك، أو خلافـه، عـن «ريـدةٍ» قـد شـافتها (أو شـاقتها) في نفسـها لـه. ثـمّ عرجـت «العصفـورة الضاحكـة» إلى مـزاحٍ خفيـفٍ (وأيضـاً حزيـنٍ!) مـع مجـذوب، لكـن مـؤدّىً بوجـهٍ دراماتيـكيٍّ وشـديد الجديّـة، قالـت فيـه لـه إنّهـا لـن تتـزوّج، أبـداً، رجـلاً إلا أن يكـونَ هـو شـبعاناً وتريانـاً مـن المـادةِ «الخـدراءِ» ونقّـاطـاتِ الخليـجِ النّـازّةِ بالجّـازِ الأسـودِ والرّاحـاتْ. ثـمّ «خلَفَـتْ» هـي ذلـك بـكلامٍ آخـرٍ وبعيـدٍ عـن تلـك «الموتيفـةِ» المكـررة المحبّبـةِ لكثـيرٍ ممّـن كان مجـذوب الطيـب يسـمّيهنَّ، سـاخراً، «نسـوان الدّهـبْ التّريانـات المجلبطـات بي المسـوح» وقالـت، لمجـذوب، إنّهـا لم «تُصاقِـرْ» (نعـم، هـي كانـت قـد **اختـارت** هـذه الكلمـةَ الأخـيرةَ بالضّبـط)، أبـداً، رجلاً، لوحـده، طيلـة حياتهـا السّـالفة وحتّـى تلـك اللحظـةِ التـي كانـت هـي فيهـا جالسـةً قُبالتـه (كانـت هـي، في تلـك الظّهـيرةِ الثّمانيناتيّـةِ البعيـدةِ، واضعـةً كرسـيّاً، أمـامَ طاولـةِ مكتبـهِ، موازيـاً لوجهـه وقاعـدةً فيـه- بتوهّـطٍ وارتيـاحٍ غـير عابـئٍ بكونـه كان كرسـيّاً خشـبيّاً عـاديّ الشـكل والحجـم- بـدلاً عـن أن تقعـد عـلى الكـرسي الفوتيـل الكبـير الـذي كان هومرصوفـاً عنـد شـبّاكِ المكتـبِ الكبـيرِ الـذي كان متوسّـطاً لحائـطِ المكتـبِ الخلفـيِّ ومشرفـاً، مـن الخـارج، عـلى شـجرةِ «تمْـرِ أبينـا» عريقـةَ الجّـذورِ والمنبـتِ في الذّكريـاتِ والـ.....غبـارْ!)، لسـاعاتٍ

طويلـةٍ تدخـلُ معـه خلالهـا في وَنَسَـةٍ حميمـةٍ وخاصّـةٍ، فالأمـرُ معهـا- كـما زعمـتْ- كان دومـاً مزاحـاً مُمَلّحَـاً بالضّحـكِ والمشـاغباتِ الجّريئـةِ، بـل وحتّـى المكايـدات والمغايظـات الشّـخصانيّة الشّـديدة، لكنّـه- مطلقـاً- لم يتعـدّى ذلـكَ إلى أيِّ دخـولٍ بائـنٍ (أو «حاسـمٍ») في أيِّ غريـقٍ عاطفـيٍّ وحيـلٍ أو شـديدٍ قَـوِيْ.

تركهـا مجـذوب الطيـب تسترسـلُ، عـلى كَيفِهَـا، حتّـى بلغـت نهايـةَ تلـك الجّملـةِ عـن «المُصاقَـرة». لكنّـه لم يقـدر، مـن بعـد ذلـكَ، عـلى أن يُغالـبَ نفسـه فانفلتـت منـه، للتّـوِّ وعـلى مطلـق ريـح هواهـا الخليّـة، هـذه الجّملـة العفويّـةُ الخطـرةَ العاطفيّـةُ و»الحُمّـى» والمنـذرةُ بـكلامٍ وحديـثِ حـادثٍ مـن جـواءِ، أو برائحـةِ، ذلـكَ الـذي كانَ- مثـلاً أو أقلّـه- قـد ذكـره الدّهـر في أغنيـة «يـا ريـت أحبِّـكْ» (أغنيـة قديمـة للسّـودانيّ الرّاحـلِ محمّـد حسـنين «أبـو سريـع»):- **طيِّـبْ مِصاقـرانِي أنـا، مجـذوب، لي حسّـعْ ليـه؟**

حاشية، أو مرجع، لتوسيع الإحاطة أو «الفهم»:-

تبـوح أغنيـة «يـا ريـت أحبِّـكْ» بجملـةِ هـذا الـكلامِ الآتي المبـاشر السـذاجة، الإعـتراف والغنائيّـة والمُجَمَّـل بسـماحةِ الصّـوتِ المغنّـي ومويـةِ اللّحـنِ البسـيطْ:-

ياريت أحبّكْ

كلمات:-......

لحن وغناء:- محمّد حسنين «أبو سريع»

ياريتْ أحبِّكْ

واهديكِ سرّي

وأكون بقربكْ

وتعيشي عمري

لكن يا حلوه

الحب ده قسمه

والرّيد نصيبْ

❊❊❊

وانا قلبي هايم

بحن لغيركْ

وانا فكري تايه

مشغول بغيركْ

وشوقي كلّو

شالوهو غيرك

وانا أعمل أيه

ماالحب ده قسمه

والرّيد نصيبْ

❊❊❊

وبكره ياما

تلقِي دنيا

وناس كتير

تهواك يا حلوه

وتبقِي ليهم

يا نانا غنوه

(وتبقِي ليهم

يا **إنتي** غنوه)

وتحبّي تاني

ما الحب ده قسمه

والرّيد نصيبْ

***

ده كان مُنايا

أهديكي جَنّه

واشتل دِروبَكْ

بزهور مَحنّه

وحياتنا تسعد

يبسم أملنا

لكن يا روحي

الحب ده قسمه

والرّيد نصيب

3

هنالـكَ ثلّـةٌ **مجنونـةٌ** (بتسـميةِ مِـزاجِ «السّـاطلِ الطبيعـيِّ» الـذي كان مجـذوب الطيّـب محفوظـاً كثـيراً ببركاتـهِ!) مـن البنـاتِ اللّذيـذاتِ الرّائعـاتِ الـلائي كان مجـذوب- طبيعيّـاً- يميـلُ إلى أن «يَخُتَّهُـنَّ» تـوّاً- وقـد كان هـو آنـذاكَ (وفي وهـلاتٍ شـتّى مـن دوامِ **آنيّةِ**أمـرهِ) مُشْـتَمَلاً بتلقائيّـةٍ ذاتِ غريـزةٍ تفلسـفٍ شـديدةِ الجُوّانيّـةِ- في محـلِّ شـعوراتِ و«مُواصلاتِ» تلـكَ الـ«ياريـت أحبّـكْ».

مـن أولئـك البنـات (رغـم أنّهـا لم تكـن في تمـامِ «نـوعِ» الجّنـونِ الخـاصَّ «الكَلَكِيّـةُ» الـذي كانـت عليـه بـلا شـك، تلـك «النعناعـة» الـذي سـأتحدث عنهـا، بإيجـازٍ مُشـفّرٍ، بعـد قليـل) كانـت- طبعـاً- تلك الخـضراء التـي كتـب مجـذوب الطيـب عنهـا، في أواخـرِ ثمانينـاتِ القـرنِ العشريـنِ المـاضي، قصيـدةَ خـوفٍ «بُنِّيَّـةٍ» مـن العيـون وكان يُسـمّيها- عنـد نفسـهِ (ثـمّ خصوصـاً لصديـقٍ قديـمٍ كان خـاصَّ المكانـة عنـده وقـد قـال عنـه سـايح، الـذي كان مـن أصدقـاءِ أنفاسِـهِ في تلـك الأيّـام، في رسـالةٍ شـخصيّةٍ لـه، إنّـه كان «قـد تَجـذَّر فيـ[هــ]»)- «الفتـاة التـي كانـت كأنّهـا كانـت تريـد أن تتزوّجَـ[ني]!» (قـد وجـد مجـذوب الطيـب نفسـه مدفوعـاً، بعـد أن غـادر السـودان إلى بريطانيـا بهـدفِ مـا اتّفـقَ عليـه- رسـميّاً- عـلى أنّـه هـو «الدراسـة فـوق الجامعيّـة»، إلى أن يكتـب، مشـغوفاً ورومانتيكيّـاً، لتلـك الفتـاة رسـالةً شـخصيّةً كثـيرةَ

الرّقّـةِ ومفعمـةً، فيـما يذكـر الآن، بالإعتـذارِ الشـخصيِّ الرّفيـعِ عـن ميلانـه عنهـا إلى «الأبنوسـةِ» التـي كان قـد خطبهـا مـن عمّهـا قبـل أن يرحـل، بشـنطتهِ الثقيلـةِ (كـما كان قـد وصفهـا أحـد الأصدقاء في رسـالةٍ شـخصيّةٍ لـه آنمـا كان هـو خـارج البـلاد)، عنهـا، وعـن مسـائها الأخـيرِ معـه في كافتيريـا صالـة المغـادرة بمطـار الخرطـوم الـدولي (وقـد وُصِـفَ ذلـك المسـاء، بضـوءٍ ماضـويٍّ غنـائيٍّ وعـلى عهـدةِ شـغفِ ذكـرى بعيـدة ومشوّشـة، في روايـة **إبراهيـم جعفـر** المكتوبـة بالإنجليزيّـة والمسـمّاة **Umbaddah's Philosopher**)، إلى البـلادِ التـي لم يكـن طيرهـا، في معاشـه الطويـل الطويـل معـه والـذي (أي ذلـك **المعـاش**) كان، مـع ذلـكَ وعـلى أوجـهٍ عديـدةٍ، متمثّـلاً، آنـذاكَ وحتّـى الآنَ، في نفسـه (أو في **فـؤادهِ**، بحسـبانِ مـا قـد كان يُدلـق، بالحـبرِ الأخـضرِ، في رسـائلِ الغـرامِ العتيقـةِ القديمـة!)، عجميّـاً وبَـسْ وإنّمـا، كذلـكَ، موغـلاً في الوحشـة الحارقـةِ ككبريـتٍ مُشـعلٍ في المفاصـل والتـي لا فصـام عنهـا (قـد يكـون هنالـك ثمّـة فصـامٍ نسـبيٍّ- ذلـك لا يُنكـر) ولا تصالـح نهـائي وأخـير معهـا، حتّـى مـع افـتراضِ تحقُّـقِ «تقليـد الذّهـب» الـذي أنـذرت عـين «الزرقـاء الإجتماعيّـة» للشـاعرِ المـصريِّ الرّاحـل أمـل دنقـل النّـاسَ، والفنّانـينَ خصوصـاً، منهـا في قصيـدةٍ لـه اتّخذهـا مـن بعـده، كـما هـو مفهـومٌ بـأسىً سـاخرٍ، كثـيرٌ مـن الكُـبَرَاءِ تُـكأةً وملتجئـاً جاهـزاً للتزكيـةِ عـسى أن تخلـص، عنـد العمومـيين من خلـق و«خِلقـات» الله، شـعرتهم مـن بـينَ عجينهـم المُـزرقّ بالـدّمِ الغامـقِ الطّويـلِ التّأريـخِ والكارثيّـةِ (أو المـ-كارثيّـةِ) فتنـامُ عنهـم، أبـد الدّهـرِ، أعيُنُ «الجبّنـاءِ» دومـاً مـن «الآخريـنَ» الذيـن هـم (كذلـكَ دومـاً) سـواهم والذيـن هـم (كذلـكَ، وأيضـاً، دومـاً) لا يُقاسـونَ- جـذراً ومطلقـاً- أبـداً، في محاسـنهم، بهـم!).

بخـلافِ تلـكَ الخـضراء كانـت هنالـكَ، مـن قبـل وعندمـا كان مجـذوب الطيـب شـغّالاً في وكالـةِ السّـودان للأنبـاء (سـونا)، خـضراء أخـرى فولانيّـة كان مجـذوب الطيـب يُسـمّيها «نعناعـةً» (وقـد ورد ذكـر مجتزئـات مـن سـيرتها، أيضـاً، في **Umbaddah's Philosopher**- روايـة **إبراهيـم جعفـر** المكتوبـة بالإنجليزيّـة)......

لكـنّ الـ«ياريـت أحبّـكْ»، في حالـةِ «النّعناعـةِ» تلـك، كانـت، بتأويـلٍ أكـثرَ بصـيرةٍ، كأنّهـا كانـت **مُتَبَادَلَـةً** (أقـول أنـا هنـا عبـارة «كانـت وكأنّهـا كانـت متبادلـةً» واوكّـد عليهـا- بقصـدٍ- عسـاكم تتحسّـسونَ أكـثر قطيفـةَ قطـنِ مـا أعنـي) بـين مجـذوب الطيـب و«النّعناعـة»- أكـثرَ مـن كونهـا كانـت **أحاديّـة** الإشـتباه. أو دعنـا نقـول- بإنصـافٍ أو تحقّـقٍ أكـثرَ حساسـيّةً وفهـماً (فيـما ندّعـي)- إنّ علاقـة مجـذوب الطيبو«النّعناعـة» كانـت، بخـلافِ صلاتـه مـع ثلّـةِ بناتـه الأخريـات أولئـكَ، محتويـةً عـلى عنـصرِ الـ«يـا ريـت أحبِّـكْ» عـلى هيئـةٍ بـارزةَ **الثّنائيّـة** واشـتمال «المعنـى» المعنـي عـلى **الطّرفـين** بحيـثُ أنّ ذلـكَ قـد عـبّرَ عنـه، بموهبـةٍ وبوضـوحٍ أدبيٍّ شـديدٍ وجميـلٍ، في أوّلِ رسـالةٍ مـن «النّعناعـةِ» إلى مجـذوب الطيـب (مـن جملـةِ رسـالتين مكتوبتـين إليـه شـخصيّاً مـن «النَّعناعـةِ» آنمـا كانـت هـي تعمـل مترجمـةً في دولـةٍ «سـمينةٍ» مـن دولِ الخليـجِ العـربيِّ وجزئـين مُرسـلينَ إليـهِ، وكالـةً، ضمـن رسـالتين ثانيتـين إلى صديقـةٍ حميمـةٍ لـ«النّعناعـة» كان مجذوب، في عهـدٍ واحـدٍ مـن عهـودِ ذلـك الزمـان المـاضي على الأقـل، مـن معارفها القريبـين أو، أكاد أقـول، مـن «أصدقائهـا» القريبـين). ففـي إحـدى جمـل تلـك الرسـالة الحـاضرة- رغـم اختـلاف الإلتباسـات والتأويـلات العاطفيـة والمنـافي والنـأي والسـنين جميعـاً عليـهِ- في «شـكلِ» مجـذوب

الطيبونفسه تقول «النّعناعةُ» الخضراءُ الفولانيّةُ شيئاً مثل «ورغم أنّكَ **قدري** إلا أنّني لستُ شيئاً **فيكَ** و**مِنكَ** حتّى أرسمُ [أم هي كانت، في النّيّةِ، «**أعرفُ**»؟] تفاصيل الأشياء التي أحبّها». يا سلام! يا سلام! يا سلام! وفي جملةٍ أخرى كانت قريبة المكان من تلك الجملة (أو ربّما هي كانت قد جاءت بعدها مباشرةً في درجةِ التّوالي) أظهرت «النّعناعةُ» تحسّساً حزيناً وواضحاً من كون أنها- أي «النعناعة»- لم تعرف مجذوباً من زمان فقالت هناك ما مجراه **إنّ الزّمان قد ضنّ عليها بفرصةٍ تكن هي فيها كائنةً في مكانٍ في داخلِ مجذوب الطيب لا يصله إلاه!** كما وهي، كذلك، تقول، في جملةٍ أخرى من ذاتِ عباراتِ (أو «عِيَارَاتِ») تلك الرسالةِ الإرثيّة- الجّذريّةِ، كلاماً آخراً مثل:- «وسكنتُ في المجنون الذي ما أن رأيتُه حتّى قلتُ لنفسي **إنّهُ هُوَ. لن تعرفه لأنّكَ...... ولم تحضر في يومِ ميلادي!** [هنا- أي في الفراغِ المُنقّطِ ما بين بدايةِ جملةِ «النّعناعةِ» تلك و»قَفْلَتِهَا»- ثمّةُ حاجةٍ كِدَه نساها مجذوب الطيب (أو هو قد أُنْسِيها) حسّع في اللحظة دي ولم تفلح ذاكرته في استحضارها ومع ذلك كان هو مصرّاً على عدم التحقق منها في مصدرها الإرشيفيّ الذي كان لا يزال هو، رغم (أو بنفسِ علّةِ) أهوال السنين، بحوزته القريبة الحميمة!]. يا سلام! يا سلامْ! يا سلامْ!

من هُنَّ كُنَّ كأنّهُنَّ كُنَّ (أو كُنَّ كأنّهنَّ كأنّهُنَّ كُنَّ) من ثُلّةِ «ياريت أحبِّكْ» من غير «العصفورةِ الضّاحكة»، من غيرِ «النّعناعةِ» أو غير «الفتاة التي كانت كأنّها كانت تريد أن تتزوّجنـ[ي]»، يتصوّرُ مجذوب الطيب لنفسهِ بغتةً، ما كنَّ، في الغالبِ أو «إلاّ قليلاً»، غيرَ طيوفٍ، أو إنعكاساتٍ، مستقبليّةٍ من أولئك البنات/

الأغنيات/الماضيات/الخالـدات وقـد وُهِّجْـنَ فيـه، لزمانـاتٍ أو بغتـاتِ زمانـاتٍ آتيـةٍ، بكيميـاءِ مفاعيـلِ الغيـابِ، الإحبـاطِ، الإحـتراقِ البطـيءِ المُبهـمِ السُّـدى أو حتّـى، بجملـةٍ أخـرى، مـا قـد يُظـنُّ بـه، بقـوّةٍ مُريبـةٍ لكنّها شـديدةُ الثرثـرةِ النّفسـانيّةِ، أنّـه لم يكـن هـو شـيئاً آخـراً سـوى..... مُجـرّد اليـأسْ.....».

4

ربّما ناسبت بدء هذا الجزء من الرويّ استعادة كتابةٍ قديمة لمجذوب الطيب أنشأها وهو تحت تأثير الملاريا. وذلك لأن خواطر مجذوب الطيب في تلك الكتابة- تلك القطعة من الحروف والكلمات المنشاريّة- كانت قد داخلته مع بدء عام جديدٍ سبق عام تعرفه على «العصفورة الضاحكة» (وقد كان ذلك العام الأخير هو عام 1984) بخمسةِ أعوامٍ إلا أربعة أشهر فهي قد جاءته، آنذاكَ، وكأنّها كانت تذكرةِ معاشٍ غاليةَ الثّمن لدخوله في ذلك العام غير المُحوّطِ من عمره إذ كَرَبَتْ عظامه، في أول لحظةٍ من يوم 1. 1. 1980 وقبل ساعاتٍ قليلةٍ من الولوج المسهّد فيه لكلمات تلك الخواطر، ملاريا شديدة القوى (ذات مَرارةٍ كانت قد استوت فيها، بالقسطاطِ اللئيمِ، لذاعةٌ ناضجةٌ كما طعم لبن العوير). ثم عاودته ذات الملاريا، وبنفس قسوة «هَرَيَانِهَا» المُحكَمَة، في أول لحظةٍ من يوم 1. 1. 1985 (أي بعد أربعة أِشهر- ولا خمسة أعوام- من يوم تعرّفهِ على «العصفورةِ الضّاحكة»!). لكنّ تلك الحّمى الأخرى لم تسفر، في الصباح التالي، عن أيِّ خواطر موازيةً (في شفقتها الذاتيّة المعتمة أو الشديدة السّواد والرّماد!) لتلك التي كانت قد راودت مجذوب الطيب كخدنٍ لحمّى 1. 1. 1980 وإنما هي قد أسفرت- بتداخلٍ غريبٍ مع طبيعتها البلغميّة المّرة- عن

«برهـات عميقـة التعاطـف والحنـان» وشـمت، في بـدء ذلـك الصبـاح الشـتائي البعيـد، لأبـدٍ لا يـزالُ قائمـاً، الطابـع الحميمـي الحتمـي لعلاقـة مجـذوب الطيـب الخاصّـةِ- شـديداً وشـديداً وشـديداً (لفقـرِ أيِّ أوصافٍ ممكنـةٍ أخـرى)- مـع «العصفـورة الضّاحكـة».

دعنا نشوفَ خواطر مجذوب الطيب في كتابة يوم 1. 1. 1980:-

1. 1. 1980 (تحت تأثير الملاريا):-

هـل يصبح الرحيـلُ ماديّـاً؟ هـل آنَ أن تصحَّ نبـوءتي عـن رحيـلي؟ أشـعر بأنـه آن لي أن أمـوت. فقـط أتمنـى- وليـس لي أمـلٌ في الخلود- أن أنسحبَ في هـدوءٍ مـن هـذه الدنيـا التـي لم أعـش فيهـا حقّـاً إلا أيّامـاً قليلـةً في المـاضي. لم لأعـش شـباباً قـط. دخلـتُ إلى الدنيـا في وطـنٍ لا يعرفنـي ولا يناسـبني وزمـنٍ لا أناسـبه ولا يناسـبني. كنـتُ حالمـاً في زمـانٍ يسـحق الحالمـين، ومنعـزلاً في زمـانِ سـيادةِ «القطيعيّـة». لا آخـرَ يُشـبهني كأنّ الصّدفـةَ شـاءت أن أكـونَ «مَعَـرّي» هـذا الزمـان- أحاسـيسي اكتبهـا فيقرؤهـا الآخـرون باسـتغرابٍ، هـم لا يقولـون ذلـكَ بـل أكاد ألمحـه في عيونهـم وفي حركاتهـم. أباطـرة الصحـف والإعـلام لا يعبـؤونَ بي فأنـا «مسـكينٌ» صامـتٌ لا يحبُّ ثرثـرة الأسـاتذة المتحذلقين. صرتُ ألمـح ضيـق الآخريـنَ بصحبتـي حتّـى أقربهـم إليَّ. إنّهـم يضيقـونَ بصحبـةِ ذلـكَ «المسـكين» الصّامـتْ.

1. 1. 1980م.

مجذوب الطيّب.

كان مجـذوب الطيـب، في تلـك الأيـام (التـي دُوْوِلـتْ بـين ناسـهِ!)، مُختَرَقَـاً بهلاويـسٍ مازجـةً لحما/جسـداً حيّـاً ومكشـوفاً مـن آلامِ الفقـد العاطفـيّ الرومانـسيِّ *par excellence* (أو بامتيـاز، كـما قـد يكتـب الشِّـديدو الثقافـة مـن النُّقّـاد!) بحـسِّ فقـدانٍ موجـعٍ للـ«فهـم» لـه كمخربـش (أو حتّـى «مـشروع مخربـش») لحساسـيّات مختلفـة في الشّـوف الشّـعوري كـما وفي- بالتـالي- الكتابـة. هـذان هـما «عينتـان» مـن «خِلَـقٍ» تلـك الهلاويـس كـما هـو قـد سـجّلهما، آنـذاكَ، بالمتـاحِ لـه- لحظيّـاً- مـن فـنّ الكتابـةِ أو- بتعبـيرٍ أكـثرَ دقّـةٍ- بالمتـاح لـه (برضـو «لحظيّـاً») مـن حـرارةِ الشّـعورِ المَسَـامِيرِيِّ المبـاشر:-

<u>الرّجـل الـذي صـار حفنـة حـزنٍ سـوداء أو حكايـة رجـلٍ يسـكنه الحـزنُ الأبـديُّ..!</u>

جُرحـتُ وكان السّـهمُ الغائـرُ يهتـف بي: مـا نفـع حيـاةٍ بـلا حبيـبٍ يهـواكَ وتهـواه؟ مـا نفـع حياتـكَ يـا حفنـة حـزنٍ أبـديٍّ، مـن يهـوى، مـن يفتـح صفحـةَ قلـبٍ بيضـاءَ لحفنـةِ حـزنٍ سـوداء، مـن يُغسـلُها عنّـي هـذي الأشـياء، مـن يُبعدهـا عنّـي هـذي الأشـباح، أشـباح الحـزن السـوداء، هـل قـدري الـذّاتيُّ عمـراً مـن حـزنٍ عاصـفٍ أو عبـثٍ بـاردٍ يمتـدُّ بطـولِ الكـونِ وبعـرضِ الأعـماقِ المملـوءةِ حتـى المـوتِ بطعـمِ الحـزنِ الحـارقِ، يـدٌ تعـصرُ قلبـي، لا أحـدٌ يهـواك فيُبعـد عنـكَ الحـزنَ الأبـديَّ السّـاكنَ فيـك، لا أحـد، لا يـدٌ تمتـدُّ لتمسـح عنـكَ برقّتهـا حـزن القلـب، حـزنٌ يعتـصرُ الوجـدان، حـزنٌ كطعـمِ حريـقٍ يلتهـبُ في الدواخـل، يـا حـزني رحمـةً يـا أفاعـي ورفقـاً بي يـا هـؤلاء، يـا أنتُـم يـا مـن قـال شـعراء الدنيـا عنكـم:- أنتُـم فيـضُ حنـانٍ يغمـر قلـبَ المحـزونِ فيُغسـلُهُ بـرداً وسـلاما، حبّـاً وأمانـا أيـن أنتُـم مـن «أبي ذرٍّ»

هـذا، أيـن أنتُـم منّـي، لا مجيـبٌ فـكلُّ مـن أحببـتُ لم يُحبّـوني، لـكَ الزّمـانُ يـا قلبـاً يتفجّـر حزنـاً، لا شيءَ سـواهُ يُغسـله، امتنـع عنـكَ فيـضُ الفـرحِ القـدسيُّ وبقيـت في أعماقـكَ لوعـةُ حرمـانٍ أبـديٍّ، لا شيءَ سـوى لوعـةِ حرمـانٍ أبـديٍّ، لا شيءَ لـكَ «يـا مسـيكينَ» سـوى لوعـةِ حرمـانٍ أبـديٍّ، لوعـةِ حرمـانٍ أبـديٍّ لوعـةِ حرمـانٍ أبـديٍّ......

20 /3 /1980م.

مجذوب الطيّب.

<u>**خواطرٌ سوداء أو «كلماتٌ ما»:-**</u>

لـن «يعـي» أحـدٌ هنـا تلـك الأحاسـيس الوجوديّـة الخاصّـة «كأحاسـيس كولـن ويلسـون» في كتابـاتي وإذا وعاهـا فإنّمـا «يفهمهـا» فقـط، أي يعيها بصـورةٍ ليسـت شـعوريّة عميقـة ولـن يعيهـا بصـورةٍ شـعوريّةٍ عميقـةٍ إلا إذا مـرّت بـه تلـك الإسـتبصارات الوجوديّـة الخاصّـة الغريبـة والتـي لا تمـرّ إلا في لحظـاتٍ شـعوريّةٍ «إسـتبصاراتٍ شـعوريّةٍ» نـادرةٍ في نسـيجِ الحيـاةِ نفسِـها ناهيـكَ عـن حيـاةِ فـردٍ هـو ذرّةً مـن ملا يـينِ الـذّرّاتِ الفرديّـةِ «الـذّراتِ السـايكولوجيّةِ» بتمايزاتهـا واختـلافِ مسـتوياتِ وعيهـا وإدراكاتِهـا.

[بدون تاريخ].

مجذوب الطيّب.

5

توشّـمت الحمّـى الآيبـةُ إذاً- بتـمام الوفـاء بالمواعيـد («عجيـبٌ أمـرُ هـذا الخفـا وهـذا **الظّهـورُ** لأهـلِ الوفـا»!)- بظهـورٍ خلفَ-خِـلافيٍّ ومُجـدّدٍ لآثـار مـا أسـفرَ عنهـا عـلى نحـوٍ مُنقّـى مـن طعـجِ مساميرِ التشـكّي البشريِّ الطّبيعـيِّ القديم-العريـق. فـ«دون حقنـةٍ أو مشرحةٍ» (كـما في شـهادة شـيخ البرعـي السُّـوداني الراحـل) تفتّـق تفسّـخها الهاري ذاكَ (في الصبـاح التـالي الشـديد القـرب) عـن معجـزة بسـيطةٍ وكاملـةٍ (بالإنسـانِ) فتوشـوشَ الـ«مجـذوب» و«العصفـورة الضّاحكـة»، حينذاكَ وباشـتمالٍ، بالنَّفَسِ/البخـورِ الهنـديّ لشـجى تلـكَ الـ «**برهـاتِ** *[الـ]* عميقـةِ *[بـ]*التعاطـف والحنـان». **معرفتنـا كانـت بعمـق البرهـة وليس بطـول المـدّة**- كان ذلـك هـو مقـاس «العصفـورة الضاحكـة» المعـاشي الـذي سُـوِّي في فـؤاد مجـذوب الطيـب منـذ ذلـك الصبـاح البعيـد مـن اليـوم الأوّل في عـام 1985 (عـام تجـدد البـلاد، في اليـوم الثامـن عـشر منـه، بالفـداء السّـهْرَوَرْدِيِّ المُفـرد العيـان والزّمـكان).

كان مجـذوب، في تلـك الأيّـام، يسـكنُ عنـدَ ناحيـة تلـك البيـوت الصّفـراء اللّـونِ مـن حـيِّ الدّيـوم الشّرقيّـة الشعبيِّ الكائـن في جنـوب شرق مدينـة الخرطـوم العتيقـة وقـد سـمّاه سـكّانه، في تمييـزٍ بـيّنٍ (لكـنّ مجـذوب الطيـب لم يُـدرِ كنهـه أو تأريخـه حتـى اليـوم) عـن بقيّـةِ بيـوتِ الدّيـوم الشّرقيّـة، باسـم «حـيِّ الزّهـور». مـا كانـت تلـك البيوت،

في ذكرى مجذوب الطيب الآن، مختلفةَ عن بقيّة بيوت ذلك الحيّ القديم في شيءٍ إلا أنّ بيوت الديوم الشرقيّة الأخرى كانت- في خيالِ مجذوب الطيب المنتمي، بعاطفيّةٍ ماضويّةٍ منسيّةٍ، إلى **الطّينيّاتِ والطّينيّين** من النّاسِ والأشياء (القُمريّين والقُمريّاتِ من النّاسِ والأشياء!)- مشوبةً أَزيَدَ بحكمةِ الصّلصالِ القديمِ، بسهولةِ الطّبعِ الإنسانيِّ، انفتاح السجايا، والحنين. ثمّ كان مجذوب- في تلك الليلة السابقة لدخول الملاريا فيه، ومعه، إلى أوّلِ صبحٍ من عام 1985- قد سمع شريطاً غنائيّاً قديماً للفنان السودانيّ الرّاحل التاج مصطفى فيما بين السّابعة والثّامنة من ذلك الليلِ أثّرته فيه، بل نَهنَهَته فيه، شديداً، بالذّاتِ والصّفاتِ، أغنية «بهجة حياتي»:- **سبت العاتبوني/ عشان راحة ضميري/مهما قالوا عنّك بحبّك يا سميري/...... شُفت البان مِمَيِّلْ /تِحتو الصّيد مِقَيِّلْ/يا دمعي المِسيّل/لي ام ثغراً مِنيّلْ/...... حبيبي يا باسم/يا أملي وسروري/يا زهر المواسم/ شوفتك لي ضروري/...... شفتَ القمري طاير/رفّع لي جناحو/قال لي ياخي سيبك/هديك عزّالي راحو/...... لي من شوفتو مدّة/ حبيبي نسي المودّة/أسمر خمري لونو/حبيب في خديدو صفدة......**

أسمر خمري لونو/حبيب في خديدو صفدة؟! ما هذا الشيء العجيب؟! فقد كانت «العصفورةُ الضّاحكةُ» سمراء خمريّة اللّون وفي «خديدها صفدة»! كأنّما كان مجذوب الطيب منذراً، بهذا السّماع، كما ومبشّراً به كذلكَ، في شأنِ ليلة وأوّل صباح طحين الملاريا كما وفي ِشأن صباحِ «تَوَشوُشِهِ» ذاكَ، هو و«العصفورةِ الضّاحكةِ».

كان مجذوب، في الخامسة بالذات من صباح اليوم التالي، ناضجاً

بالحمّى وثقيل الجسم كأنما هو مسمّرٌ على سريره الحديديّ بجاذبيّة شُعِيريّة قاهرة- كأنما هوقد صار ماءاً ثقيلاً مشحوناً بكهرباء سالبة. لكنّه، مع ذلك، كان مصمماً على الخروج، من مسكنه- مع «العزّابة»- في حيّ الزّهور، إلى عيادة جامعة الخرطوم حيث كان سيجد، في ذلك الزمان، علاجاً مجّانيّاً وسريراً يرقد عليه حتى يشفى تماماً من مرضه. (كانت مدة الرقاد المعهودة للملاريا في المستشفيات ثلاثة أيام، غير أن المريض كان يستطيع، إن أراد، أن يغادر سرير المستشفى إلى البيت على أن يكمل علاجه هناك ويستعمل، بدقّةِ متديّنٍ متوسوسٌ بالخرافات، بقية الكورس الذي خصصه له الكاهنُ الطبيب!) لم يكن بالمنزل، حينذاك، أحد غيره صاحياً وجاهزاً للخروج إلى العمل أو سوق الخرطوم الكبير حتى يرافقه في غالب مشواره إلى عيادة جامعة الخرطوم (على الأقل) فيخفف عليه بذلك (كما يقولون في الكتب القديمة!) وعثاء السبيل. وكانت تلك «الوعثاء» شديدة الوطء على خياله ولو خفّ ذلك الوطء- بطريقةٍ أو «حيلةٍ»، خياليّةٍ أو غنائيّةٍ، ما- قليلاً لخفت «الوعثاء» إيّاها، كذلك، على جسده ولتحرك بخفة المُخدّرِ بحشيشةٍ معتدلة الأثر إلى هدفه. لكنّه ما كان يملك طاقة خيالٍ، أو غناءٍ ما، حتى يُرقّى نفسه- ولو قليلاً- إلى وضعيةٍ قريبةٍ من ذلك، كما ولم تكن هناك «حشيشةٌ» متاحة. عليه لم يكن أمامه من وسيلة سوى أن يقاوم «قانون الجاذبيّة» بعسر التّحامل المصرور الأسنان والحسّ والعصب ويتحرك بقدرةِ أيِّ قادرٍ ممكنٍ في هذا العالم الذي كان، في ذلك الحين، مكوّناً، في حواسّه المضعضة، فقط من ثقب إبرةٍ، من ثقبِ «مَسَلَّةٍ، طويلةٍ وحادّةِ بالوخز ومرارةِ ثمرةِ الكينيا!

مُعمَّشاً- إذاً- بمرائي ذلك الصباح السّحيق قام مجذوب الطيب من سريره، مترّنحاً بالضعف، غسل وجهه ببطءٍ شديدٍ ثم جرّ جسمه، مثلما صخرةً خرافيّةَ الثِّقَلِ، جرّاً مريراً إلى الشارع الكبير. وحينما وصل إلى شارع الصحافة زلط حيث كانت سيلقى الحافلات والمركبات الذاهبة إلى مركز مدينة الخرطوم كان يشعر كأنما كان هو أطلساً معاصراً وجديداً (ومن ثمَّ هو غير مسنودٍ بمجد الأسطورة العريقة) وقد أنزل، للتوِّ، كرة العالم عن كتفيه- قليلاً- حتى يلتقط أنفاسه ومن ثمّ يعاود (أو لا يعاود- فهو إنسانٌ ديمقراطيٌّ ومعاصرٌ وحرٌّ كما يُزعم!) حملها من جديد. جاءت الحافلة- لحسن حظه- سريعاً فالوقت كان ما يزال مبكراً بعض الشيء على ازدحام الصباح إذ لم تبلغ الساعة السادسة صباحاً بعد. (كان الزّمنُ، عند وقوف الحافلة أمامه، قد وصلَ، حسب تقدير مجذوب الطيب المهوّش بالحمّى، إلى ما يقارب الساعة السادسة إلا ثلثاً من الدقائق.) ساعده الكمساري على الصعود ولم يضجر، أبداً، ببطء حركته فهو قد كان رائق المزاج في أول رباح الصباح كما وقد لا حظ حالته الشاحبة توّاً فأسكت عنه، دونَ أيِّ «إِنَّةٍ»، صوته الذي كان،في ظرفٍ آخرٍ، قد يستحثّه، بلهوجةٍ ميكانيكيّةٍ وحادّةٍ، على الركوب العجول. وعندما وصلت الحافلة إلى المحطة الأخيرة لحافلات الصحافة زلط بقرب «مدارس كمبوني الخرطوم» نزل عنها مجذوب الطيب دائش الرأس فودعه الكمساري بنظرة مشفقة سريعة وكأنّه كان، معاً مما يليه ومما يلي مجذوب الطيب من علاقة القرابة، أخاً أصغراً مفقوداً أو مُكمّلة «فراغات» شخصه وصورته بـ»سُلالةِ» الذّكريات.

آه...... عليـه أن يجـد الآن حافلـة ذاهبـة، عـبر «شـارع الجامعـة» وكـبري النيـل الأزرق، إلى مدينـة بحـري حتـى ينـزل منهـا عنـد بوابـة جامعـة الخرطـوم الرئيسـية الكبـيرة ومـن ثـم يذهـب، مـن هنـاك، برجليـه إلى عيـادة جامعـة الخرطـوم المقابلـة لمطبعـة دار نـشر جامعـة الخرطـوم الكائنـة في مواجهـةِ داخليّـةٍ للطُّـلابِ كان اسـمها، في تذكّـرِ مجـذوب الطيـب الظّنّـيِّ، «داخليّـةً بحـر الجبـل» وكانـت قريبـةً مـن الركـن الشَّـماليِّ الغـربيّ مـن مجمـع داخليـات طـلاب جامعـة الخرطـوم العريـق المسـمّى بـ»البَرَكـسْ» كـما ومـن فـوحِ نسـيمِ النيـل الأزرق النَّوسـتالجيِّ إليهـا عـبر السّـعةِ المدنيّـةِ المُقيَّـدَةِ لشـارعِ النّيـل الخرطومـيِّ القديـم. كان يمكـن لمجـذوب- طبعـاً- أن ينـزل في محطـةٍ تاليـةٍ كانـت هـي الأقـرب لعيـادة جامعـة الخرطـوم بحكـم كونهـا عنـد ركـنِ المنعطـفِ الـذي كانـت تلـفُّ مـن عنـده المركبـات الآتيـة مـن شـارع الجامعـة كي تدخـل إلى كـبرى النيـل الأزرق ومـن ثـمّ، عـبر النّهـر، تلـوي عـلى مدينـة بحـري- ثالثـة مـدن العاصمـة المثلثـة. لكنّـه تذكّـر، بضجـرٍ مُـضرّسٍ بالحمّـى، أن مـكان النـزول، في تلـك المحطّـة، ضيّـقٌ لضيـق الشـارع الداخـل إلى الكـبرى وبفعـل زحمـة السـيارات عليـه ومـن ثـمّ صعوبـة الوقـوف عنـده بالنسـبة للسـائق، ثـم إنّ النـاس لا ينزلـون فيـه عـادةً إلا إذا كانـوا ذاهبـين إلى «البركـس» أو «مستشـفى العيـون» بالخرطـوم لـذا، لـكلّ ذلـكَ ولقلّـة النازلـين هنـاك مقارنـةً بالمحطّـات الأخـرى، كثـيراً مـا لا يتحمّـس كـماسرةُ وسـائقو الحافـلات (والناقـلات الأخـرى) للإسـتجابة لصُفّـاراتِ الراكبـين التنبيهيـة لهـم بـأن يقفـوا هنـاك فيتجـاوزن- عمـداً أو تجاهـلاً- تلـك المحطّـة- بعـدم تهدئـة السـياقة عنهـا (إن اسـتطاعوا ذلـك) أو بـأيّ حيلـةٍ، «ميكانيكيّـةٍ» أو «قِرديّـةٍ»، أخـرى ممكنـة- إلى داخـل كـبرى النيـل الأزرق حيـث لا

يمكـن للمركبـة الناقلـة، مـن بعـد ذلـك، عمليّـاً، الوقـوف إلا عنـد أول محطـة ينـزل عندهـا الذاهبـين إلى مدينـة بحـري وهـي تلـك المقابلـة لكازينـو النيـل الأزرق ببحـري والمؤدّيـة، بالنـازل عندهـا، إلى مـا ورائـه حيـث هيئـة النقـل النهـري والمعدّيـة العائـدة مـن هنـاك، عـبر النيـل الأزرق، إلى جهـةِ شـارع النيـل مـن مدينـة الخرطـوم و«محـلاتٍ» مثـل دار الكشـافة النهريـة (البحريـة) وناديهـا بكافتيرتـه الأليفـة الصالحـة بامتيـازٍ، لقيلـولاتٍ كسـولةٍ لا يسـألُ فيهـا النّـاسُ الإنسـانَ عـمّا يفعـل ولا يفعـل هـو مـا هـم يسـألونْ!

لكـنّ القصـةَ الجميلـةَ كانـت مـا تـزالُ آتيـةً في الأُفُـقِ، في الأُفُـقِ فشّـفَقُ الغريـبِ الكبـيرُ الحزيـنُ مـا كان- بعـدَ- قـد انشـقَّ، وقتـذاكَ، في نَفْـسِ مجـذوب! لـذا مـا أن نـزل مجـذوب الطيبمـن الحافلـة عنـد بوابـة جامعـة الخرطـوم الرئيسـية حتّـى (كأنّمـا كان كُلُّ ربيـعٍ هـو فَصْلَـه!) فـاح فيـه وجـه وعطـر رفّ لـه الجفنـان السـفليان لعينيـه- علامـة الحـظ والسـعد كـما يؤمـن المؤمنـون بتنبـؤات قـراءات البخـت والنّصيـب، حتـى ولـو جـاءت «معلوماتهـا» مـن سـاعاتي أمّـي و«مسـهوك» النّظـر يصلـح السـاعات ويبيـع حجـارة بطارياتهـا في برنـدات السـوق العـربي الممتـدة أمـام الدكاكـين والمحـلات البادئـة مـن عنـد محطـة بنزيـن موقـف حافـلات الصّحافـات (زلـط وشرق) ولافّـة عنـد المنحنـى حتـى تواجـه محطـة الخرطـوم الوسـطى مـن الجهـة الجنوبيـة ويمـرُّ مـن أمامهـا بـص بـريّ الأخـضر، القديـم والماهـل، وهـو يكـحُّ كحّـةً متقطّعةًعنـد بـدء رحلـة ذهابـه شرقـاً إلى بّـرّي. كان العطـر الـذي رفَّ عنـد أذنـه اليمنـى وخـدّه الأيمـن كأنّـه كان قـد شُري، حديثـاً، مـن «المـدام الفرنسـية» صاحبـة دكان العطـور القديـم في سـوق

الخرطـوم الإفرنجـي، ثـمّ كأنـه كان مـن شـعبة عطـور «لانكـوم» لكنـه- قطعـاً- لم يكـن العطـر الفرنـسي المسـمّى «لـو قاغديـن Le Gardin » (لم يـأتِ حـينُ ذلـك الـ«لـو قاغديـن» بَعـدَ- وإن كان قريبـاً- في أيّـام «مُسـاعدةِ تدريـسٍ» مجـذوب الطيبفـي شـعبةِ فلسـفةِ كليّـةِ الآداب بجامعـة الخرطـوم التذكاريّـةِ المجيـدةْ) فقـد كان خفيفـاً جديـداً وكأنّـه أصفـر الرّائحـة كالزّعفـران الحديـث الطّلـوع. أمـا الوجـه الـذي كان «مـع» ذلـك العطـر، أو «وراءه»، فقـد كان باسـماً بوميـض عينـين شـقيّتين مولعتـين باللّعـبِ والمشـاغبة الحيّـة المغيظـة: تلـك الرومانسـيّة التـي هـي «دليـل الحيـاة» (كـما قـد يكتـب مصطفـى لطفـي منفلوطـي جديـد). لم تريـاه تلـك العينـان، حـالاً وبكُلِّـه [إن كان ذلـك قـطَّ ممكنـا أصـلاً]، فهـو قـد كان معمّشـاً بشـحوبِ الحمّـى فيـما هـي كانـت لاويـةَ الجيـدِ باتّجـاهِ يدهـا اليسرى بزاويـةٍ منحرفـةٍ قليـلاً عـن مكانـه، مـكانِ وجهـه وعينيـه فـما بـرز، لطـرف رؤيـة عينهـا اليـسرى، بوضـوح، منـه سـوى لـون القميـص الطويـل الكـمِّ، لكـن مَكفُوفَـه، عـلى ذراعـه اليمنـى. نعـم هـي قـد رأتـه رأتـه، لكـن بنقصـان وبظليّـةٍ لم تُرسّـخ عندهـا، في الوهـلات الأولى، مـن هيئتـه شـيئاً غـير طرفـه الأيمـن وبخاصـة «الـشيء» الـذي كان- طبيعيّـاً- أبـرزَ منـه عنـد ذلـك الطـرف وهـو ذراعـه اليمنـى، القميـصُ البُنّـيُّ الفضفـاض ذا التّجاعيـدِ والكـم الطويـل المكفـوف (ذلـك الـذي مـا كان- أبـداً- سـيغبَاها!).

مجـذوب الطّيّبييـب [كانـت دومـاً تشـعر، تلقائيّـاً، بأنّـه قـد «نُـذِرَ» عليهـا (أبَـدَاً؟) أن تقـول اسـمه الثّنـائيَّ- مثلـما تعويـذةً أو «مانـترا Mantra»هندوسـيّة- كامـلاً وبتشـديدٍ سَـاذَجٍ، صِرفٍ ومُنغّـمٍ عـلى أواخـرِهِ خصوصـاً]، **مالـكْ بترجـف كـده، إتَّ محمـوم ولا شـنو؟**

لكـن، عايِـنْ، إنـت حسّـه مـاشّي ويـن، يعنـي مـا حتمـشي معـاي لي الشّعبة عشـان نظبّـط الفـول في الأول وبعديـن نشـوف نودّيـكْ ويـن؟ أنـا خايفـة مـا نلـم في حـمّاد لـو مـا فتنـا الشـعبة حسِّـع دي. أصلـو الأيّـام عنـدو غـرام مـع التَّلفَـون ويمكـن نلقاهـو سـارح معاهـو وقافـل عليهـو مكتـب د. ش ومـا نقـدر نصحّيهـو منّـو لـو مـا لحقناهـو عشـان يجيـب لينـا الفطـور......

لكـنّ «العصفـورة الضّاحكـة» لم تهـترش بـكلّ ذلـك إلا لأنّ خوفـاً غامضـاً عـلى مجـذوب الطيـب قـد واتاهـا، بقـوّةٍ شـديدةٍ، منـذ أن شـاف طـرف نظرهـا «كَرْفَسَـةِ» كـمِّ قميصـه البنـي الطويـل المكفـوف- بضبـطٍ عفـويٍّ- لحـدّ منتصـف المسـافة مـا بـين الرّسـغِ واليـد. لـذا هـي- حتـى قبـل أن تشـوفه كلّـه أو أن تتلقّـى منـه، أو أن تنتظـر منـه، كلامـاً، أو حتـى غمغـمات أوليّـة مـا، في بـاب الإجابـة عـلى هترشـتها الشـفوقة تلـك- هرعـت إليـه، غريزيّـاً، ولفّـت، في الحـالِ، يـده اليمنـى حـول كتفيهـا حتـى تسـتطيع أن تسـند سـيره البطـئ إلى عيـادة جامعـة الخرطـوم التـي كانـت، آنـذاك، لا تـزال موجـودةً- كـما وصفنـا- قبالـة مـكان مطبعـة دار نـشر جامعـة الخرطـوم القديـم وعنـد الطـرف الشـماليِّ الغـربيِّ- الغـيرِ بعيـدٍ مـن شـارعِ النّيـل (الأزرق) بالخرطـوم- مـن مجمّـع داخليـات طـلاب جامعـة الخرطـوم التـي كانـت شـهيرةً باسـم «داخليّـات البَرَكـس» أو، اختصـاراً، باسـم «البَرَكـس». هـي كانـت قـد عرفـت - للتـوِّ ومـن مجـرّد خوفهـا الغامـض ذاك وهترشـتها الغريزيـة تلـك التـي كأنّمـا كانـت هـي، بأحـدِ التّخاريـجِ، «مجـرّد» محاولـة «جسـديّة» غريزيّـة للتغطيـة القلقـة عـلى ذلـك الخـوف [لأَسْـبَرَةِ القلـبِ بالـكلام]، ثـمّ مـن تلـك «الكرفسـة» المتعرجـة، بصـورةٍ

«غيرِ صحيّةٍ»، على هيئة «يدِ» القميص الملتفّة حول ذراع مجذوب الطيب اليمنى- أن مجذوب الطيب مريض. ثمّ هي قد خافت عليه، في الحالِ، من خبث الملاريا بقدر ما «تمنّت»، في ذاتِ الوقتِ، أن لا يكون مرضه ذلك هو شيءٌ سواها ف»الجّنُّ» الذي يُعرفُ هو، في مثلِ السّودانيّين القدريّ القديم، خيرٌ، بلا شكَّ، من «الجّنِّ» الذي لا يُعرفْ [ولاّ ما ياهو ده الكلام العديل يا ناسي؟- الكاتِبْ!].

أوصلت «العصفورة الضاحكة» مجذوب الطيب إلى عيادة جامعة الخرطوم العتيقة. كان هو مهوّشاً بضباب الملاريا وبغمامٍ مجروحٍ ومتماثلٍ لهيئةِ نصف بطّيخةٍ مجروحةٍ للتّوِّ بسكّينِ كَزْلِكْ مُشرشرة. لكنّه كان مع ذلك- أو على الأوفقِ «تحتَ ذلكَ»- مُسرَّباً بشيءٍ تحتانيٍّ خفيفِ الطّعمِ ولذيذٍ ومريحٍ مثل عصير ميراندا شُربَ (في الذَّاكرةِ) في عصريّةٍ خريفيّةٍ بعيدة. يدها حول كتفه كانت- حينذاكَ- تأميناً رباعيّاً حوله كريحِ بخورٍ مطمئنةٍ لجهاتِهِ الأربع...... عند العيادة هي قد أرخت يدها عنه ببطءٍ شديدٍ- كأنّما كان هو طفلٌ نائمٌ على ذراعيها- وأجلسته عند مقعد الإنتظار الطويل الذي كان قائماً عند خارج غرفة إحدى الطبيبات التي كانت ما تزال- آنذاك- إنجليزيّة وعند منتصف العمر وعلى وجهها مسحة إنسانيّة أهليّة رفيقة يكتسبها كثيرٌ من أولئك الخواجات بفضلِ عيشهم الإجتماعيّ والنّفسانيّ والحضاريّ- بلى و**الحضاريّ**!- الطّويل خارج جزيرتهم الضبابيّة الهوجاء الصناعة والريّح تلك ووسط أناناس أفريقيا من النّاسْ! جلست «العصفورة الضاحكة» مطرقة الرأس بقربه وعلى وجهها بسمتها الأليفة الحزينة تلك ولم تقل له شيئاً بصوتها المنغّم الممطوط لتشجيعه أو الترويح عنه بل

اكتفت بالسّكاتِ والإتيان له ببعضِ ماءٍ باردٍ فساعدته حقّاً- أيّما مساعدة- في ذلك الصباح الشتائيِّ المشمش بالسُّكاتِ والمويةِ الباردةِ! وعندما أتت فرصته لرؤية الدكتورةِ الخواجيّةِ أصرت هي على البقاء في الخارج حتى تفصل الطبيبة في أمره. لكنّه كان يدرك، في نفسه وبقياسه الغريزيّ لضعفه البدنيّ الشديد، أنهم لن يسمحوا له بمغادرة العيادة قبل الصباح التالي على الأقل وبعد أن تخفّ عنه الحمّى بمقدارٍ يمكنه من المشي المتزن المنتبه في الشارع دون اعتماد على أيِّ مُتّكئٍ بشريٍّ ما أو آخر. لذا قال هو لها بصوتٍ مضطرب وبأذنينٍ مُضخّمتي الصّدي بفعل صداعِ الحمَّى:- «أظنّهم حا يبيّتوني هنا يابت عشان كده احسن ليكي تمشي المكتب وتقولي ليهم......» أسكتته على الفور وحنّ قلبها وسال دمعها، سريّاً وضمنيّاً، عند كلمة «يا بت» خصوصاً، لكنّها لم تحاجّه في ما قال- ولو بفتحةِ نصفِ فمٍ صامتٍ معترضٍ ضمنيّاً- بل أطاعته، توّاً وبلذّةٍ غريبةٍ، ولملمت أطراف نفسها وثوبها ووجهها وبسمتها الأليفةِ الحزينةِ ثمّ غادرته ببطءٍ سينمائيٍ وبنظرةٍ جانبيّةٍ غريقةٍ بالحنين......

قد بات مجذوب الطيب ليلة ذلك اليوم في العيادة بعد أن أوصت الطبيبة الإنجليزيّة بذلك بعربيّةٍ حرفيّةٍ مُكسّرةٍ، متحمّسةٍ ومُجزّئةِ النّطق كأنّما هي المقابل العربي لطفلةٍ إنجليزيّةٍ بدأت، للتوِّ، مشغوفةً بتهجّي كلماتها الكبيرة الأولى في الرّوضة. ثم بَقِيَ هو هناكَ يوماً وليلةً ونصف يومٍ قبل أن يكن قادراً على المشي والشّعور، مجدداً، بشهوةِ الطّعام. (كان مجذوب الطيب قبل ذلك قد أفرغ من جوفه كلّ شيءٍ قد أعطوه له ليأكله في ليلةِ رقاده في

تلـكَ العيـادة أو حـاول هـو أن يأكلـه، أو يشربـه، حتـى قبـل وصولـه للجامعـة، ومـن ثـم العيـادة، بصحبـة «العصفـورةِ الضاحكـة». حتّـى كبسـولات دواء القـيء هـو قـد أفرغهـا حينـذاك بعـد أن أعطيـت لـه لإيقـاف نزيـف السـوائل والعصـارات الثخينـة مـن حنايـاه ولم يقبـل جوفـه وجسـدهِ بـشيءٍ يتصالـح معـه ويلقـى لـه فيـه، وقتـذاكَ، وسـادةً ومقـرّاً سـوى عصـير القريـب فـروت المُسـكّر بقـوّةٍ هيهـات لهـا أن تفلـح أبـداً في طمـس هويّـةِ تُربتـهِ الأولى التـي صيّرتـه، بـلا خـلاف، حلـو- مـر الفاكهـةِ السّـودانيّةِ جميعهـا.....!)

الكتاب الرابع

1

[ولأنّ النبيُّ محمّدٌ كان- في بعضِ العنعناتِ عنه- قد قال (كرّم الله زينته به) إنّ كُلُّ فرجٍ مكتوبُ عليه اسمُ ناكحِهِ.... حتّى ولو كان فرج زانية فإنّني- تسّوغاً- قد سهوتُ مليّاً عن نفسٍ أخرى منّي (أم هي «لَدَي»/لَدُنّي؟) حتّى يُكتبُ إسمي، كناكحٍ أساسيٍّ، على فرجِ امرأةٍ حبشيّةٍ أربعينيّةٍ نَيّاكةٍ كانت تسكن، على التّعيينِ، في ضاحيةٍ بجنوب مدينة لندن كانت مَعمَّرَةً، على بُعدها، بالدّكاكينِ المكرّرةِ الأسماءِ، الكنيسةِ الكبيرةِ الوحيدةِ، المقبرةِ ذات الشّجرِ والحشائشِ الكثّة طبعاً، ثمّ هدير التّرام الكهربائيّ الوحيد. تمعّنُوا شديداً في ذلك القولِ النّبويِّ فهو فيهِ فهمٌ عميقٌ لطبيعةِ الإنسانِ وما يكتنفُها من مللٍ هو مثيرُها الأوّلُ وغيّاظُهَا إلى حدّ حتّى فِعلِ الحرامِ العَدِيْلْ كِدَه.]

<u>مجذوب الطيّب- لندن، مايّو *2008*م</u>

***

<u>أوهام بخصوص «ح»:-</u>

[”ح“ بتحبّني شديد أظنّها. أنا عندِي، بذَلكَ، شبح مظنّة

”بارانويـا“ لا تـزال في جُـوّاي ”مِصَنْقِـرَة“ في زاويـة تحتانيّـة لسّـع مـا مشَمّسـه كويّـس، أو حتّـى مَقَمْرَنَـة، عِـدِلْ. كـما وبظُـنْ، كذلِـكَ وبظلاميّـة، أن تلـك ”البارانويـا“، المِـدَلِّي أنـا تُهمتَـا في نفـسي بي نفـسي، متجلّيـة)أو متخفّيـة) عـلى أنّهـا تواضُـع، أو بالعكـس. أنـا، مـع ذلـك، بَصَـدّقْ حـدسي في شـأن»ح» ده، خصوصـاً أنّي مـا بَعْتَـيِرْ نفـسي -صوابـاً أو خطـأ- محبـوب- بالمعنـي الإيـروسي - لعمـوم البنـات وإنّمـا لبنـاتٍ خاصّـاتٍ مـن ذلـك العمـوم يتّسـمْنَ بجنُـونٍ ذي نكهـةٍ لطيفـةٍ! وذلكـم، بالـذّات، بعـضَ مـا أحسُّـهُ وأُرِيْـدُهُ في مثيـلاتِ زوجتـي ن. ع. وصديقـاتي «هــ. ع» ومُ» و«أ. ح». وربمـا لأنّ ” ح» عندهـا كَديسَـةٌ، كـما تقُـولُ هِـيَ عـن نفسـها، دخَلَـتْ في هـذا المجـال (الحيّـز، الإطـار، أو مـا إليهـما!(...]

<u>مجذوب الطيّب- لندن، 18 /11 /2003م و3 مايّو 2004م</u>

2

- «ألو.... ألو.... ممكن أكلّم دكتورة رجاء؟»
- «نعم، مِنُو معانا؟»
- «.........»
- «أقصـد إنتِـي منـو يـا أخـت عشـان نوجّـه مكالمتـك لي الدّكتـورة؟»
- «أنا على الهواء؟»
- «أيوه إنْتِي على الهَوَاء.... مُباشرةً»

(تضحـك الفتـاة المذيعـة الـ*bland* ضحكـةً عصبيّـةً قصـيرةً ومقصـودةً وغـير متناسـبةٍ، بوضـوحٍ، مـع لحظـة تلقّـي تلـكَ المحادثـة التلفونيّـة التلقائيّـة وذلـكَ بعـد أن تؤكّـد عـلى كلمـة «مبـاشرةً» بتفخيـمٍ لفظـيٍّ حاولـت فيـه، بتعمّـدٍ، التشـبّه بمذيعـاتِ قنـواتٍ فضائيّـةٍ عربيّـةٍ شـهيرةٍ مثـل «الجزيـرة» و»العربيّـة» والـ»بي بي سي» حـين يقـرأن العناويـن الكبـيرة لنشرات الأخبـار مـع أنّ ذلـك البرنامـج الـذي كانـت- كـما قـد يقولـون- «تُقدّمـه» ليـس لـه، أبـداً، علاقـةً بالأخبـارِ أو بـأيٍّ مـن ذلـك أو أيٍّ مـمّا يحزنـون.)

كانـت المُسـتضافة، الدكتـورة رجـاء الصّـادق العبيـد، إمـرأةً قمحيّـةً

وزاهيـةً بثوبهـا السّـودانيِّ الضّـاجِّ بالألـوان. كانـت تعمـل مُحـاضرة لعلـم النّفـس العـام (ومتخصصـة في عمـل النفـس التربـوي) في «جامعـة السّـلام» التـي أُنشِـئَتْ حديثـاً في ضاحيـةٍ (أو مدينـةٍ، كـما يقولـون) سـكنيّةٍ جديـدةٍ وناهضـةٍ بطوابـقِ عماراتهـا الشّـامخةِ تقـع عـلى نهـرِ النّيـلِ وفي أقـصى غـربيِّ مدينـة الخرطـوم بحـري العريقـة.

- «نعـم.....»، قالـت ضاربـة الهاتـف بنَّفَـسٍ لاهـثٍ وسريـع وكأنّهـا كانـت تخـشى أن تحجـب عنهـا المذيعـةُ- تلـكَ الأمدرمانيّـةُ المتأنّقـةُ بصفرتهـا «الشّريفيّـةِ» المتخلفـة، المُتأففـة، كـما والمضروبـة، كبيـضٍ مكسـورةً عنـهُ سـوائله، بالكِرَيْمَـات- التلفـونَ عـلى حـين غـرّةٍ ماكـرةٍ فيذهـب صوتُهـا، بذلـكَ، إلى أدراجِ الهبـاءِ وإلى هامشـهِ البَلَـديِّ، أو المحصـورِ ببلديّتِـهِ، بـذاتِ ذلـكَ المعنـى الـذي كان الإسـتعماريّون يسـمُّون بـه، قديمـاً- ومـا يـزالُ حديثـاً (وإن بإضـمارٍ)- كلَّ إنسـانٍ كان لـه فضـل (نعـم، فضـل!) ألاّ يكـونَ أوربيّـاً خالصـاً، تامّـاً وعصرانيّـاً ومنزوعـاً عنـهُ، بقسـوةٍ تكنولوجيّـةٍ فائقـةِ الدّقّـةِ والـبرودة، لـبن الأصل الأبوريجينـاليِّ القديـم......

كان مجـذوب الطيّـب، في لنـدن البعيـدةِ (ومـا بعيـدٌ إلا الشـيطان)، قـد كتـب- عِنْـدَ الأمـسِ مـن اليـومِ الـذي كان هـو، يَومَـذَاكَ، فيـه- هـذا الـكلام الـذي كان كأنـه سـينتهي بـه، كـما تخيّـل قبـل وهلتـين مـن كتابتـه، إلى إتمـامِ مسرحيّـةٍ عصريّـةٍ بسـيطةَ العقـدةِ (وليـس «الحبكةِ») وشـديدةَ الواقعيّـةِ لكـن، مـع ذلـكَ كلّـهِ، جديـدة. لكنّـه لم ينتهـي إلا إلى السّـأمِ وانسـدادِ طينـةِ سـماعِ الـكلامِ المختلـفِ (أو المفـترض فيـه أن يكـون «مختلفـاً») بعجينـة السّـهيان والـشّرود السـميكة ثـمّ وبفتـات خبـز آلام بدنونفسـيّةٍ شـتّى. ثـم كان المُنْعَـوَجُ منـه، كذلـك،

ليـس إلى «وسـط» كتابـةٍ مـا فيـما بـين كتابتـي مجـذوب الطيّـب السـابقتين في مدينـةِ لنـدن البعيـدة (أيضـاً «مـا بعيـدٌ إلا الشّـيطان») عـن «الحبشـيّة» وعـن «الأوهـام» التـي كانـت هـي بخصـوصِ «ح» وإنمـا إغـواءاً بالإنـصراف عـن كلّ ذلـك (رغـم أنّـه قـد قُـدِّمَ بـه هـذا الكتـاب الرابـع)، مـرّةً ثانيـةً وثالثـةً ورابعـةً وأيَّ حاجِتَـةٍ، إلى ناصيـةِ نهـارات «العصفـورةِ الضاحكـةِ» الـلا كاذبـة ولا خاطئـة عنـد مكتـب مجـذوب الطيّـب بشـعبة الفلسـفة الرُّكنـيِّ بشُـبّاكه الخلفـيِّ الفاتـح عـلى اشـتباك شـجرةِ مسـكيتٍ قديمـةٍ (للنّاظـرِ الداخـل، مـن الخـارج، إلى المكتـبِ إيّـاهُ) بزاويـةِ الطـرف اليـماني الأعـلى منـه.

3

كان ذلك المكتب، في تلك الأيّامِ، شيئاً كالأسطورة الغيرِ مُصَدّقةِ التحقق، ناهيكَ عن الدّيمومةِ في الزّمان والإثمار بعلاقاتِ صداقةٍ عميقةٍ ومؤثّرةٍ تلوح لها أخلاقٌ رؤيويّةٌ بعيدةٌ و«مهبُوشَةٌ» بالآتي ولو كثيراً ما ظُنَّت بها- غالباً من مدخل اليأس أو مدخل السّأم أو المدخلين معاً- فقط محدوديّة القرب والمُباشَرَة. كان (ذلك المكتب عند النّاصيةِ اللا خاطئةِ واللا كاذبةِ) مساحةً غيرَ مفتوحةً أبداً لقصفِ طائراتِ التقليد والعقيدةِ القامعين أو منطقةً حرّةً للمرء فيها، رجلاً/ولداً كان أم امرأةً/بنتاً، أن يرقص، يضحك، يدخّن، يصمت، يرسم، يَتَرَمْسَنْ (**هذه خصوصاً!**)، يتونّسَ بانفكاكٍ وطلاقةٍ، ثمّ (وذلك هو الأهمّ عند مجذوب الطيّب وصديقين له أو ثلاثة أو ما قد يزد على ذلكَ قليلاً) يسمع الأغاني السّودانيّةِ السّتّينِيّةِ دون أيِّ وجلٍ أوخجلٍ من «تفاهاتِ» كلامِ «الحداثيّين» الفارغ كأسطوانةٍ مُجَوّفةٍ قُدّتْ من ذكاءٍ لامعٍ وفاتنٍ وصقيلٍ، بل و«ناصعٍ» كذلكَ [كما قد يجيءُ في كلامِ صديقٍ قديمٍ لمجذوب الطيّب؛ كوستاويٌّ ومُثقّفٌّ]، لكنه ليس قطّ خلاّباً، عميقاً أو هازّاً كما النّارِ أو صرعات الغرام المفاجئة للفؤاد.

كان ذلك المكتب ومكتب «العصفورة الضاحكة» مُتقاسَمَيْنَ فيما بينهما وبين أصدقاء مجذوب الطيّب المجانين (برؤاهم وبحثهم

النّفسي-روحـيٍّ الدائـب) بتـمامٍ ونسـبٍ غريزيّـةٍ، أو تلقائيّـةٍ، كانـت كأنّهـا كانـت **هنـاكَ** منـذ، أو حتّـى قبـل «منـذ»، أن كان هنـاكَ، في هـذا العـالم، «هنـا» أو «هُنـاك». مـع ذلـك، كانت تلك النّسـب الفيثاغورسـيّة تنفـرطُ، أحيانـاً، كفـورةِ ميـاهٍ مالحـةٍ، فَتُدَاخِـلُ أولئـكَ الأصدقـاء (فيـما بينهـم أو، عـلى الأكـثرِ، في مـا بينهـم ومـن قـد يعرفونهـم مـن «الآخريـنَ» مـن النّـاس) في موجـاتِ انفعـالاتٍ مفاجئـةٍ، مُـرّةٍ وغريبـةٍ وكأنّهـا امتحانـاتٌ خبيثـةٌ ومتعمّـدةٌ مـن قِبَـلِ قـوىً سـالبةٍ لا يدركـون لهـا، في الحـاضرِ وفي الوعـي، أيَّ مـآلٍ، إتّجـاهٍ، أو حتّـى تأويـلِ «مَصَحَّـةِ تفلسـفٍ» شـافٍ مـا. [والـكلام الأخـير هـو مـن تهاويـشِ ذاكـرةِ قـراءةٍ قديمـةٍ للكاتـبِ لـكلامٍ للألمـانيِّ اسـتيفان سـفايج Stephan Sweig عـن هولدرلـن Holderlin أظُنّـه قـال فيـه إنّ «الفلسـفة هـي مصحّـة الشّـعراء المجانـين» وربِـطَ عنـده بمناسـبة توجّـه هولدرلـن المؤقّـت لدراسـة الفلسـفة قبـل «قَنَعَانِـهِ» الأخـير- أي مبـاشرةً قبـل ولوجـه في مـا سـمّاه المؤرّخـونَ «جُنُونَـه»- مـن أيِّ **حيـاةٍ** فيهـا.]

مـن أحـوال تلـك «القـوة السّـالبة» يذكـر مجـذوب الطيّـب أحدوثتـين صغيرتـين. وأوّلُ هاتـين الأُحدوثتـين هـي أُحدوثـةُ مواجهتـه ذات يـومٍ بسـوءِ فهـمٍ تملّـك، بطغيـانٍ قاهـرٍ ومفاجـئ، صديـقٌ قديـمٌ لـه بخصـوصِ سـلوكٍ صغـيرٍ، طفـوليٍّ وجميـلٍ، كان قـد مَـرَقَ منـه (هـو مجـذوب الطيّـب)، عفويّـاً، تجـاه فتـاةٍ كانـت قريبـةً جـدّاً إلى نفسـه وذلـك في الحـضرةِ المحترمـة لذلـك الصّديـق القديـم وخطيبتـه. كانـت اسـم تلـك الفتـاة الخطيبـة هـو «ياسـمين الزّيـن» وكان اسـم صديـق مجـذوب الطيّـب القديـم هـو «كـمال محمّـد نـور».

كان كـمال محمـد نـور وياسـمين الزّيـن يأتيـان، مـرّةً كلّ أسـبوعٍ، في

مـا بـين السـاعة الواحـدة ظهـراً والسـاعة الثانيـة، إلى مكتـب مجـذوب الطيّـب لزيارتـه ولتنـاول طعـام الغـداء سـويّاً، من بعـد ذلـكَ، في مطعمٍ شـعبيٍّ قريـبٍ مـن كليّـة الهندسـة بجامعـة الخرطـوم كان عيـال جامعة الخرطـوم وبناتهـا يسـمّونه، في تلـك الأيّـام، «السّـوق الشّـعبي» (تشبُّهاً بالـ«نكهـةِ» الحقيقيّـة لـ«السّـوق الشّـعبيِّ» الكبـيرِ بمدينـة الخرطوم) أو في «كافتيريـا كليّـة الإقتصـاد» حيـث يلتمُّ كان يلتـمُّ المُثقّفُونَ اليسـاريّون والبنائيّـون الماركسـيّون ويُدَردِمُـونَ، لسـاعاتٍ، كلامـاً كثـيراً، ناشـفاً ومصقـولاً ومغيظـاً في تناسـقه الضدّ-موحـي، عـن الأدبِ والنّقـدِ والثـورة و«السّـلطةِ» و«المثقّـف» و«الأيدولوجيـا» وغـير ذلـك مـن كُبَارِيّـاتِ «المثاقفـاتِ» التـي كان صديـق مجـذوب الطيّـب القديـم الـذي كان مجـذوب الطيبالطيـب دومـاً يناديـه باسـم «الإنسـاني» يكرههـا فيهـم عمـىً وإن كان هـو لا يُـصرّح بذلـك إلا ضحـكاً وممازحـةً بسـببِ رقّتـه وأدبـه الطبيعيـين الشّـديدين. ولأنّهـما كانـا، حينـذاكَ، مخطوبـينَ لبعضهـما ويتهيّـآنَ لـزواجٍ في المسـتقبل القريـب مـن السـنين- كـما كانـا يأمـلان- كان كـمال محمـد نـور وياسـمين الزّيـن يـزوران معـاً، في تلـك الأيـام، الحدائـق العامّـة في العاصمـةِ السُّـودانيّة المثلّثـة (مثـل حدائـق أبريـل وحديقتـي القـرشي والجّنـدول)، بيـوت الأصدقـاء القريبـين، أو المُقرّبـين، بعـض المعـارف الإجتماعيـين المفيديـن (مـن جهـة كونهـم قـد سـبق وأن «كوّنـوا أنفسـهم» والـذي منـه...)، ثـمّ (وذلـك غريـبٌ كـما الشّـيطان!) مكاتـبَ اللقـاءات التلقائيّـة للفنّانـين المجانـين والرؤيويّـين الطيّبـين (مثـل م. ع. ع. النّبـي) والتـي كان مـن بينهـا مكتـب مجـذوب الطيـب- ذلـك «العامـل» الحـرُّ (بالإشـتراكِ مـع **أسـتاذٍ** آخـرٍ) عـلى «مُسـاعديّة» التدريـس بشـعبة الفلسـفةِ العتيقـةِ بجامعـة الخرطـوم. (هنـا يظـنُّ الـرّاوي، وبعـضُ مَـسِّ الظّـنِّ حـقٌّ، أنّ كـمال محمـد نـور

وياسمين الزّين كانا مهتمّينَ بأولئكَ بفعل انهماكهما، لزمانٍ طويلٍ، في سماعِ الغناءِ السودانيِّ القديمِ ومُنشداتِ الصّوفيّةِ، خصوصاً «الإخوان الجمهوريّين» السّودانيّين، كما وكان لياسمين الزّين اتّجاهاً (غيرَ مِهَبْلِسٍ أو «تهويمي»- للأسف!) في النّزوعِ نحو تذوّقِ الكتابة التّخييليّة الجديدة- الشّعر الجديد؛ القصة الجديدة؛ وهكذا من العنايات- عموماً، ثمّ اهتماماً خاصّاً بعلم النفس الإنسانيّة المعاصر. هي كانت، في تلك الأيامِ أيضاً، تعمل «خبيرةً نفسيّةً»- إي والله، هكذا كان اسم وظيفتها حتّى في، أو منذ، أوان تعيينها الجديد فيها!- في مستشفى «التّجاني الماحي» الشّهير في منطقة العرضة بغربِ مدينة أمدرمان السّودانيّة الشَّهيرة).

في ذلك اليوم جاء كمال محمد نور- وهو قد كان يعملُ، في تلكَ الأيّامِ، مهندساً معماريّاً في مكتبٍ هندسيٍّ خاصٍّ كان يقع في مركز مدينة الخرطوم الثّمانيناتيّة- ومعه خطيبته «السَّايكولوجيّة»، ياسمين الزّينْ، إلى مكتب مجذوب الطيّب في شعبة الفلسفةِ في تمامِ الساعة وعشرينَ دقيقةٍ ظهراً. كانت مع مجذوب، حينذاكَ، صديقةٌ خضراء، حميمةٌ وخجولةٌ ومُريحةٌ وذاتَ عينين- فيما يقول الراوي- غمّازتين وضاحكتين. (تلك قد كانت هي ذات البنتِ التي كان مجذوب الطيّب يصف حاله معها، في الأوّلِ لواحدٍ بعينهِ من أصحابه بالذات (وأظنّ أن هذا قد قيلَ قبلاً في هذا الحكي)، بأنّه كانت يشعر، من حديثِ «هيئتِها» له، بأنها كأنّها كانت «تُريد أن تتزوّجه» [«**البِت الدّايره تعرِّسْنِي**»:- كان ذلك هو نَفْسُ نَفَسِ عبارةِ مجذوب الطيّب القديمةِ ذاتِها!].) كانت ياسمين الزّين تعرف تلك البنتِ منذ أيّامِ دراستها في كليّة الآدابِ بجامعة

الخرطوم إذ كثيراً ما واجه ياسمين الزّين، توّاً، وجهها الباسم الحيّ وعيناها الضاحكتان كلّما دخلت، في تلك السنين، إلى مكتبِ عميد كليّة الآداب بغرضِ مصادقته على جوّابٍ رسميٍّ أو شهادةٍ ما لمن يهمّه الأمر. أما كمال محمّد نور فهو قد عرفها- أساساً- عن طريق مجذوب الطيّب الذي كثيراً ما دعاها لتناول طعام الغداء معهم (هو وكمال محمد نور وياسمين الزّين وآخرينَ من أصدقاء كمال محمد نور وياسمين الزّين أو- أحياناً- بعض أصدقائهِ هو) في مطعم «السّوق الشعبي» أو في «كافتيريا الدراسات العليا» بالذات أو حتى في «مطعم نادي العاملين بجامعة الخرطوم» لكن ليس أبداً في «كافتيريا الإقتصاد» فهو (مجذوب الطيّب) قد كان يتوسوسُ، غريزيّاً، من أن يراها **أولئك المثقفون**- كما كان كثيراً ما يسمّيهم بلكنةٍ كانت دوماً لا تستطيع أن تدفع، شعوريّاً أو لا شعوريّاً، عنها «تَدلِيَةَ تُهمةِ» كونها ساخرةٍ وخفيفةٍ ومشوبةٍ بمرارةٍ قديمة- معه هناك فيُفسدون عليها، وعليه، **حالهما** معاً بمجرّدِ إيغالهم في «نوعيّة» كلامهم إيّاه المُتّصفُ- بإغاظةٍ- بالتّهندسِ وبالتجريد وبـ- الذّاتِ-**البرودة**.

اتّخذ كمال المهندس وياسمين السايكولوجيّة- وهذه الصّفةُ الأخيرةُ مُهِمّةٌ جدّاً لصورة ياسمين الإجتماعيّة- الكرسيّين المريحين (رغمَ كونهِمَا ربّما ليسا «وثيرين» أو «مُنعّمَينْ») الكبيرين المستندين على الحائطِ الخلفيِّ للمكتب، واللذين كانا قد أعيد تغليفهما حديثاً بقماشٍ داكنِ الصّفرةِ وقريباً من البُنّيِّ، مقعدينَ لهما. كان وراءهما، من الأعلى، الشبّاك الخلفيِّ الكبير والوحيد للمكتب والذي كثيراً ما كانت تشتبكُ، لوهلةٍ ثمّ تنزاح متمايلةً بعيداً ومُتموّجةً،

عنـد ركنـهِ الشّرقـيِّ الأعـلى، بفعـلِ هبـوبِ النّسـيمِ الخفيـفِ، غصـونٌ وأوراقٌ خـضراءَ صغـيرة، كمُنَمْنَـمَاتِ رسـمٍ طبيعـيٍّ عـلى زجـاجٍ ملـوّنٍ أو مـاء، مـن شـجرة المسـكيت العتيقـة (شـجرة «تمـر أبونـا») التـي كانـت هـي مُتجـذِّرَةً تحـت ذلـك المكتـب (بحكـم كـون «ذلـك المكتـب» كان، بالـضّرورةِ الهندسـيّةِ، واقفـاً في الطابـق الأعـلى مـن مبنـاه الـذي كان مشـتملاً، في أعـلاه، عـلى شـعبة الفلسـفة وفي أدنـاه عـلى شـعبة اللغـة العربيّـة التابعتـين كليهـما لكليّـة الآدابِ بجامعـة الخُرطـوم).

كان مجـذوب الطيـب والبنـت التـي كان هـو، في الأيّـام تِيكَ، يشـعر بأنَّهـا كانـت كأنَّهـا كانـت «**دايـره تَعرُّسُـو**» منغمسـينَ في حديـثٍ قريـبٍ مـن الهمـسِ ومُتَخَلّـلٍ بضحـكٍ بسـيطٍ وصـافٍ. وكانـت «البنـت التـي كانـت كأنّهـا كانـت **دايـره تَعـرّس** مجـذوب» جالسـةً، في أواخـرِ ذلـك الضّحـي البعيـد، قبالـة مجـذوب الطيـب وعـلى كـرسي خيـزران خفيـف. لم يكـن هنـاك مـا يفصـل بينهـما سـوى طاولـة المكتـب المسـتطيلة الكبـيرة. أمـا مجـذوب الطيـب فقـد كان، ببنطالـه الجينـز وقميصـه البُنّـيّ الغامـق السّـادة العريـض عنـد الجانبـين والمكفكـف الكُمّـين الطّويلـين، متهـدّلاً عنـد كـرسي مكتبـه الكبـير ووراء طاولـةِ الشّـغلِ المكتبـيِّ المكسـوّةِ بقـماشِ خيـشٍ أخـضرٍ كان، كأنّمـا بعبـثِ عـثٍّ لا يُرى، مهترئـاً ومُبرقعـاً بالمُـزَقِ في مناطـقِ عشـوائيّةٍ منـه وأطـرافٍ عديـدة. كانـت الخـضراء تلبـس ثوب»أبـا قِجَيْجَـةِ» أبيضـاً خالصـاً لعمـل مكتـب سـكرتاريّةِ شـعبةِ اللغـةِ الفرنسـيِّة المحترمـة (أم هـي كانـت تعمـلُ، يَومَـذَاكَ، في مكتـب السـيّد المُبَجّـل عميـد كليّـة الآداب؟ لا يذكـر مجـذوب الطيّـب ذلـك تمامـاً ولا يتأكّـد منـه خيالـه أبـداً. لكـن، أو مـع ذلـكَ، لا بـأسٌ ولا فَـرقُ!). ثـمّ كانـت الخـضراء تاكئـةً وجههـا، مـن

أسفله، على تلك الطاولة بحيثُ يشعر مجذوب، طوعاً وسذاجةً، بأنّ عليه أن ينحني بجسده، أسفلاً ومقوّساً، لكي يكن وجهه عند أقرب موضعِ موازاةٍ وجُوارٍ من وجهها، من الأعلى ودون أن يكون متّكئاً على الطاولة مثل وجهها. كانت الصُّورةُ (الهيئةُ) حينَ ذاكَ، بعبارةٍ أخرى، شيئاً مثل ذلك الذي يمكن أن يرسمه فنّانٌ طبيعيٌّ تعبيريٌّ حينما يتهيّأ له أن يُعطي إحساس قُبلةٍ عاطفيّةٍ وشيكةٍ يمكن لها أن تنشُبَ (أو ربّما، على الأدقِّ، **تَشِبُّ**) في أيِّ لحظةٍ، قادمةً (لكن ليست **عابرة**)، بين الوجهين (وليس الثغرين) المتقابلين على الكيفيّة الموصوفة. لكن مجذوب الطيّب لم يكن، وفق تذكّرهِ الآن، وقتذاكَ على أيِّ إحساسٍ متعيّنِ الوضوحِ، أو قريبٍ، من وَشَكِ قبلةٍ أو حتّى شبهِ أو تمثّلِ قبلة (أو، على ذلك السبيل، لأيِّ جُملةٍ، أو شبه جملةٍ، جديدةٍ في اتِّجاه شعوره الآنيِّ ذاكَ مع تلكَ الخضراء التي كانت كأنّها كانت **تُريدُ أن تُعرِّسَهُ**). ما همّنا الآن. فقد جئنا، أساساً وتمثيلاً، بالموقفِ الصّغيرِ إيّاه هنا فقط كنموذجٍ حكائيٍّ تلقائيٍّ لأحوال تلك «القوة السالبة» التي أشرنا إليها ثّمّ، من بعدِ ذلكَ (و«من بعدِ ذلكَ» فحسب)، لصالح مناسبة «الحزازة» التي التصقت، في ما وراءِ كواليسِ ذاتِ ذلكَ «الموقفِ الصّغيرِ»، بعلاقة مجذوب الطيّب بصديقه القديم كمال محمد نور وخطيبته (ثم زوجته) ياسمين الزّين ولم تزل هناك، فيما يشعر مجذوب، حتى لحظة هذه الكتابة الحاليّة الغابرة التقدّم في السنين الآتية من زمان ذلك الحدث البعيد والبسيط المرأى.

صدقاء أصدأ

يبدو أنّ كمال محمد نور قد استبق، على نحوٍ ما، في ذهنهِ،

ذلـك «الموقـف» منـذ أن لحظـةِ ولوجـه المكتـب ورؤيتـه للخـضراءِ جالسـةً، عنـد كـرسيٍّ خيـزرانٍ قديـمَ الصّفـرةِ الزّعفرانيّـةِ، قبالـة مجـذوب الطيّـب، منحنيـةً إلى اليسـارِ قليـلاً بجسدها/شـخصها الهـيّن-اللّـيّن السّـواد، الـذي كان مـا يـزالُ آنـذاكَ مسـتقيماً عـلى الكـرسيِّ، وإلى اليمـينِ قليـلاً بوجهها الجّـوّافِيِّ المـدوّرِ الباسـم. **الجّوّافـة.... الخـدرة وقيافـه......** هفّـت، كرائحـةِ مانجـو طازجـةٍ، أغنيـة البنـاتِ تلـكَ في خيـالِ مجـذوب الطيّـب ورأى فيهـا، وقتذاكَ/لَحظَـذَاكَ، تعبـيراً تلقائيّـاً عـن مـا كان في جُـوّاهِ في تلـك اللحظـاتِ مـن اعتـمالٍ خاطـفٍ وجنينـي. وقـد تبـدّى استباقُ كـمال محمّـد نـور ذاكَ في التـواءٍ مباشرٍ وطفيـفٍ عنـد ركـن الشـفة السّـفلى اليمـين ارتسـم هنـاك للتـوِّ رغـماً عنـه (أو رغـماً فيـه) عندمـا رأى مجـذوب الطيّـب والبنـت الخـضراء عـلى الهيئـة التـي وصفـت. لكنّـه سرعـان مـا أفلـح في إخفـاء ذلـك بحسـمٍ غيرِمتدبّـر (أو هـو قـد كان مُتَدَبّـراً بـأدقِّ وأسرعِ مـمّا يمكـن ملاحظتـه) عنـد إحساسـه بـأن مجـذوب الطيّـب ربّمـا قـد يكـون، ولـو لوهلـةٍ غـير مؤكّـدةٍ، قـد شـافَ فيـهِ ذلـك إذ حـالاً مـا بانـت نواجـذه بانفراجـةِ ابتسـامةٍ واجبيّـةٍ عريضـةٍ أدّاهـا (باحـترامٍ مؤكّـدٍ طبعـاً!) لفائـدةٍ مجـذوب الطيّـب والبنـت الخـضراء معـاً. دعـاه مجـذوب الطيّـب، وخطيبتـه التـي انسـلّت وراءه بـلا صـوتٍ أو ملامـح «حكـمٍ» نفـسيٍّ مـا (ينبغـي لمجـذوب الطيّـب أن يُنصفهـا في ذلـك وإن كان هـو قـد شَـكَّ بأنّـه مـا «أنصفهـا»، أحيانـاً، في خِلافِـهِ)، إلى الجلـوسِ فجلسـا دون كلامٍ- ثـمّ معـاً وفي وقـتٍ واحـدٍ محسـوبٍ- بالضّبـطِ حيـثُ مـا سـبق وأن قُلـتُ إنّهـما قـد جلسـا.

لكـنّ ذلـك جميعـه لم يكـن سـوى مقدّمـة للموقـفِ الصغـير الـذي

تـلاه بعـد حـين- بعـد نصـفِ سـاعةٍ بالضّبـط. فبعـد أن أشرف العقربان الصغـيران الجاريـان عـلى السـاعة الثانيـةِ إلا عـشر دقائق (وقد اكتشـف ذلـك مجـذوب الطيّـب بنظـرةٍ عارضـةٍ إلى سـاعةِ كوارتـز كان قـد أفلـح، بمحـضِ صدفـةٍ، في ارتدائهـا عـلى يـده اليُسرى في ذلـك اليـوم) تململ كـمال محمـد نـور، وكأنّـه كان عـلى «كِيُـوٍّ» في بروفـةٍ لمسرحيّـةٍ غـير معلنـةٍ مـا، وقـال هـذه الكلـمات القليـلات المُـرّات بـلا مبـالاةٍ، ملتفتـاً بعـينٍ مزيجهـا الإسـتغراب والخبـث المحايـد الخفيـف، جانبيّـةً، دانيـةً ومتدليّـةً قليـلاً وأسـفلاً نحـو ياسـمين الزّيـن (كان هـو أكـثرَ طـولاً منهـا كـما هـو عـادةً الحـال في غالـب الزّيجـات البشريّـاتِ عمومـاً):- **أنحنـا مـا عرفنـا مجـذوب الطيـب ده بحـب البـت دي** (وذكـر اسـمها) **ولا بحـب.....** (وذكـر اسـم تلـكَ أيضـاً. وقـد كانـت تلـك الأخـيرة هـي من أصبحـت، بالفعـلِ، زوجـةً لمجـذوب الطيّـب في عقـدٍ قـادمٍ مـن سـنينِ تلـك الأيّـام بعـد أن أوكل شـأن إتمـامِ طقـوس زواجـه التقليديّـة منهـا- فيـما كان هـو عـلى وشـكِ أن يصـيرَ عصبيّـاً وحزينـاً سـادراً في جخانـين المملكـة البيضـاء العظمـى العجـوز، الرّماديّـةَ والبعيـدةَ و«الحضاريّـةَ» بإغاظـةٍ- لنفـس ذلـك الـ«كـمال محمـد نـور» القديـم الـذي قـام، حـين جـاءت المناسـبة، بمـا التـزم بـه لمجـذوب الطيـب بدقّـةٍ وحيـادٍ نفـسيٍّ شـديدٍ بـدا وكأنّ ليـس بـه أيُّ أثـرٍ عـلى الإطـلاقِ مـن انفلاتـةِ تلـكَ الـ«حتّـى» الصغيرة الماضيـة......).

تلـكَ كانـت هـي «الحـزازةُ» المتناهيـة الصّغـر والدقّـة التـي شـوشرت، حينـذاكَ، انسـياب المحفـل النّهـاريِّ الأليـفِ وطعـام الغـداء فيـما بـين مجـذوب الطيّـب وكـمال محمـد نـور لكـن ليـس فيـما بـين مجـذوب الطيّـب وياسـمين الزّيـن السـايكولوجيّة التـي لم تكـن- أصلاً-

عـلى محمـلِ جـدٍّ شـديدٍ مـا (أو آخـر) في علاقتهـا بمجـذوب الطيّـب وذلـك رغـم كلِّ «الجّـمالات» الإجتماعيّـة التـي كانـت لا تغفـل أبـداً عـن أن تبديهـا (أو، عـلى الأدقِّ، «تؤدّيهـا»)، بحيـادٍ مُسـتَغْرِبٍ ومبتسـمٍ دومـاً، نحـوه...... مـن الملحـوظ البـيّنِ في ذلـك الأمـر أنّـه لم يُـودي، كـما قـد يُتَوقّـع، إلى أيّ شيءٍ، في الظّاهـرِ الإجتماعـيِّ، سـوى تمتـين علاقـة كـمال محمـد نـور بمجـذوب الطيّـب عـلى نحـوٍ غـيرِ مسـبوقٍ مـن قبـل أو لا عهـد لهـا بـه. يبـدو أنّ البُقعـةَ الزيتيّـة لتلـك «الحـزازة» الصغـيرة عـلى كانفـاس النّفـس قـد «عولِجَـتْ» وقتـذاكَ بـأن غُـوّرتْ بعيـداً في الباطـنِ في كـمال محمـد نـور فغـدت، بعدئـذ، كأنّهـا ليسـت هنـاك- أو «لا شيءَ... لا شيءَ» هنـاك- ولم تُـبْرَزْ، مـرّةً أخـرى أو مـن بعـد ذلـك، إلى سـطحِ الفعـلِ والتّعامـلِ السـلوكيِّ إلا في «حادثتـين» («مُخَلَّفَتَيْنْ»/بقيّتين) صغيرتـين جـدّاً ومتباعدتـين عـن بعضهـما في زمـانِ الوقـوعِ شـمّ فيهـما مجـذوب الطيّـب- لسـببٍ لا يدريـه (أو هـو غـير مُـبرَّرٍ عنـده حتـى الآنَ في الحـسِّ أو في المنطـق) وبعـد سـنينٍ طويـلاتٍ جسـيماتٍ عاشـها جميعـاً في ديـارِ «المندوبيّـةِ السّـاميةِ» السـابقةِ للخوّاجـاتِ البريطانيـين- صـدىً مـن «رائحـةِ» ذاتِ تلـكَ «الحـزازةِ» القديمـةِ في مكتبـه القديـم بشـعبةِ الفلسـفةِ بكليّـةِ آدابِ جامعـةِ الخرطـوم. مقصـور الحـكي عـن «الحادثتـين الصغيرتـين» إيّاهُـمَا كان، بابتسـارٍ، هـو مـا سـوف يجـيءُ في بعـضِ ثنايـا الـكلام الآتي.

في الواقعـة الأولى كان مجـذوب الطيّـب عـلى وشـكِ مغـادرة البـلاد السـودانيّة إلى المملكـة المتحـدة («بريطانيـا الشّـيطانة»- كـما سـمّاها، مـن بعـد سـنينٍ مـن ذلـك الزمـانِ، في رسـالةٍ، مـن داخـلِ بريطانيـا، لصديقـةٍ سـودانيّةٍ لـه، شِـبْهِ سـابقةٍ، كانـت تقيـم في بريطانيـا). لـذا

كان هـو، حينـذاكَ، مُبـاشراً توديـع أصدقائـه ومعارفـه ممـن كانـوا، فيزيائيّـاً أو عاطفيّـاً، عـلى كثـبٍ منـه في الصّلـةِ وفي الزمـان وفي المكان، خصوصـاً في عهـد أيّامـهِ الأخـيرةِ بالبـلاد. كان قـد ذهـب إلى مدينـة كوسـتي وأودع أهـل بيتـه وذلـك الصديـق الـذي كتـب لـه ذاتَ مـرّةٍ رسـالةَ «**ينقـذني منكـم قلبـي... إلـخ**»*، هنـاك في الحلّـةِ الجّديـدةِ بكوسـتي، كلامـه وسـلامه الأخـير. ثـمّ عـاد، مـن بعدئـذٍ، إلى الخرطـوم ومهّـد، بذلـكَ، لمنفـى طويـلٍ وعريـضٍ وموجـعٍ ومُريـبٍ عـن مسـقطِ بدئـهِ وانتهائـهِ؛ مربـع رحلتـهِ الهائمـة تلـكَ عـلى سُـبلِ هـذه الدنيـا الموجعـةِ الغريبـة والمـع ذلـكَ قـد تُصبـح- أو تُمـسي عـلى الأكـثر- فجـأةً مرشوشـةً بمتـعٍ صغـيرةٍ تـأتي، للآدمـيِّ أو للآدميِّـةِ، خصوصـاً مـن حيـث ليـس هنالـكَ احتسـابٌ أو نـزوع أو تشـوُّفٍ ظاهـر:- مـن محـضِ الرّمـادِ والتّهلُكَـةِ والخرائـب!

كان مجـذوب الطيّـب يقيـم، في تلـك الأيّـامِ، في محـضِ منـزلِ إيجـارٍ مسـبوكٍ مـن المـاءِ والطّـينِ والزّبالـةِ ولا غـير وليـس لـه بـاب ولا لحجرتيـه (اللتـين كانـت إحداهـما كبـيرةً نسـبيّاً وأخراهـما صغـيرةً وداكنـةً مثلـما قَمَـرَةٍ في الدّرجـةِ الرّابعـةِ لقطـارٍ بُخَـارِيٍّ غريقـاً جَوفُـه بالعـرقْ!) نوافـذ. ثـمّ كان ذلـكَ البيـتُ واقعـاً في مَحَـلِّ صفـةِ مـا درجَ عـلى تسـميتهِ في هـذه الأيّـامِ بـ»المناطـقِ الطّرَفِيّـة» (وذلك كي لا تُسـمّى **عشـوائيّةً** فَتَشِـبُّ منهـا، تـوّاً، تضمينـاتٌ سوسيو-سياسـيّةٌ إقصائيّـةٌ يكمـنُ وراءَ غـبنِ تراكـماتِ أكِمَتِهـا مـا وراءه).

قـد جـاء مجـذوب الطيّـب إذاً، ومعـه صاحـبٌ آخـرٌ قريـبٌ وحبيـبٌ، مـن ذلـك البيـتِ «الطّـرَفِيِّ» النـائي [وهـو، في ذاكـرةِ الـرّاوي، لا أكـثرَ، ولا أقـلَّ، مـن ذاتِ البيـتِ «الأَبْ-نـيرانيِّ» الـذي وُصِـفَ في

روايـةِ «إبراهيـم جعفـر» المكتوبـة بالإنجليزيـة والمُسـمّاة «**فيلسـوف أمبـدّة**»:- [**Umbaddaha's Philosopher**] إلى منـزلٍ في حـيٍّ تاريخـيٍّ ليـس بعيـداً عـن مركـزِ مدينـةِ أمدرمـان لـوداع الباشـمهندس كـمال محمـد نـور وزوجتـه السّـايكولوجيّة ياسـمين الزّيـن (نعـم هـي كانـت قـد تبدَّلـتْ حينـذاكَ إلى زوجـةٍ لـه، بـل وأنجبـت منـه ابنـاً). ثـمّ ركـب مجـذوب الطيّـب، ومعـه أيضـاً نفـسُ ذلـك «الصّاحـبِ الآخـرِ القريـبِ والحبيـبِ»، الحافلـةَ مـن موقـفِ المواصلاتِ الكبـيرِ بـ«ميـدان الشـهداء» بأمدرمـان وكان مكتوبـاً عليهـا عبـارة «امتـداد الوحـدة»، بـدلاً عـن الكلمـةِ الشـعبيّةِ الرائجـة «القَمَايِـرْ»، وقـد «توقّـعَ» مجـذوب الطيّـب ذلـك سَـلَفَاً- كـما «توقّعـه» مـرّاتٍ عديـدةٍ مـن قبـل- وبيّـتَ لـه النّيَّـةَ بضحـكٍ سـاخرٍ ومُنْفَلِـتٍ، مُسْـتَحَقٍّ، متمـرِّدٍ وكبـير. وعندمـا وصلـت الحافلـة ميـدانَ كـرةِ قـدمٍ كبـيرٍ ومغـبرٍّ أشـار مجـذوب الطيـب لكمسـاريّها بالوقـوف بطرقعـةٍ مسـموعةٍ لأصابعـه فقـد كان جـرس توقيفِهـا معطّـلاً وسـلك جذبـهِ مقطوعـاً. نـزل مـن سـمّاهما الكمسـاريُّ «النّفَرَيْـنَ» عـن الحافلـة ومشـيا قليـلاً في خـطٍّ مسـتقيمٍ إلى بـابِ حديـدٍ مضروبـاً بوهيـةً خـضراءَ فاتحـةً فقـرع مجـذوب الطيّـب جرسـه (كان لـه جـرسٌ مصنـوع عـلى سـبيلِ تجريـبِ صانـعٍ يبـدو أنـه لم يكـن، في الغالـبِ، معتـاداً عـلى صنـعِ أمثـال تلـك الأدواتِ بيـدهِ إلا أنّـه كان، عـلى كلِّ حـالٍ، كافيـاً لتأديـةِ غرضـه المحـدود). لم يفتـح لهـما البـاب كـمال محمـد نـور بنفسـه كـما توقّـع مجـذوب الطيّـب بنصـفِ انتباهـةٍ وإنمـا ووجهـا، تـوّاً، بوجـهٍ صغـيرٍ انحنيـا لـيراه فانـبرى لهـما مـن وراءه، عـلى الفـورِ، صـوتُ طفلـةٍ دون الخامسـةِ مـن عمرهـا:- **إتفدّلـو**، قالتهـا بإثـارةٍ ثـم انفلتـت جاريـة إلى داخـل المنـزل دون أن تخطـر لهـا أبـداً بداهـة ان تسـألهما عمّـن يريـدون مـن نـاسِ البيـتْ.

ضحك صاحب مجذوب الطيّب ضحكةً خفيفةً وهادئةً ثم شرع، ومجذوب الطيّب من خلفهِ، في التقدّمِ إلى داخل البيتِ وعندما دخلا إلى «برندتهِ» المسوّرةِ بِنَمليَّةٍ قديمةٍ ودقيقةِ التشبيك رآيا أمامها شاشةً بلوريّةً كبيرةً مندغماً أمامهما الباشمهندس كمال محمد نور بنفسهِ في مشاهدةِ ما عرفا- فيما بعد- أنّه كان فيديو مباراة ملاكمة بين متنافسين امريكيين كانا شهيرين في تلك الأيام. مدّ لهما كمال محمد نور نصفَ يدٍ وحيّاهما في تثاؤبٍ ثمّ انصرف إلى مشاهدةِ مباراتهِ بشغفٍ مُتَعَمّدَ التّوكيد. شعر مجذوب الطيّب بحزنٍ خفيفٍ لما ظنّه، حينذاك، تباعداً نفسيّاً بيّناً من كمال محمد نور عنه رغم أنه يعلم أنّه ما أتى حينذاك إلا لكي يقول له، ببساطةٍ، كلمة «مع السّلامةِ» والسّلام! أما صاحب مجذوب الطيّب «القريب والحبيب» فقد اكتفى بأن يبتسم ابتسامةً هيّنةً وحزينةً وكأنما كان هو (بهيئةِ الحالِ) يقول لمجذوب الطيّب، وقتذاك، فقط عبارة «لا بأس.. لا بأس فهذا هو حال الدّنيا وإنسانها الذي سُمّيَ من الإلتهاءِ والنّسيان!». (ملحوظة:- لم تأتِ ياسمين الزين السايكولوجيّة حينذاكَ لوداعِ مجذوب الطيّب. لكنّ «يعقوبُ» مجذوب الطيّب لم يحسُّ على أيَّتُهَا حالٍ- ولربّما كان ذلك بفعل ذاتِ طبيعةِ مُناخِ الحالِ الباهتِ الذي شاء له الباشمهندس كمال محمد نور، بعلمٍ من نفسهِ أو «بدونِ» علمٍ منها، أن يسود في يوم مجذوب الطيّب الأخير معه وزوجته السايكولوجيّة ياسمين الزّين- بأيِّ سببٍ ممكنٍ في نفسهِ لأن يسأل عنها حينذاكَ أو حتّى «يَتَطَأّس»- كما يقول المصريّون- إن كانت هي أصلاً كانت في ذلك الوقتِ موجودةً بالبيتِ أم لا. هو، فحسب، يبدو أنّه قد اكتفى لنفسه، في ذلكَ الأوان، فقط بالعبارة الشعبيّة المليئة بالمعنى رغم

يوميَّتِها وبساطتها الظاهرة:- **ياخي أنسى وعيش وبَسْ**:- تلك العبارةُ الرّاسخةُ في ما كان مجذوب الطيّب «الفلسفيُّ» يسمّيه- فيما بينه وبين بعض أصدقائه الشّخصيّين الفنّانين وبجذلٍ تامٍّ الخلوصِ من «سوءِ التّخريجِ» أو سوء التَّبَطُّنِ بأيِّ واعزٍ دينيٍّ، أو أخلاقيٍّ، باهتٍ ما أو مُراءٍ- باسم **وجوديّة المنطقة الصّناعيّة!**). حلاقيأخلاقي

أظنّني سأستغني الآنَ عن رسمِ سمتِ نهايةِ تلكَ «الحادثةِ الصّغيرةِ» البعيدةِ إذ يكفي فيها الإيماءُ (بهزّاتِ رأسٍ ثلاثٍ صغيرةٍ وبطيئةٍ إلى الأسفل) إلى أنّ مجذوب الطيّب وصاحبه «القريب الحبيب» قد خرجا، من جُلبابِها، فقط كما دخلا عليها و.... نَقِيْصَةْ! أما «الحادثة الصغيرة» الأخرى فقد سلكت سبيلها إلى مجذوب الطيّب بعد سنينٍ طويلةٍ من ذلك اليوم السّودانيِّ البعيد وبعد أن تجاوز الزّمانُ المكانيُّ ألفيّته الثالثة بسنينٍ ثلاث فعاد مجذوب الطيّب تصاعديّاً، وليس قهقريّاً (كما قد يتخيّلُ كثيرٌ من **الموضوعيّينَ** من النّاسْ)، إلى بلاده السّودانيّة، مهدِ بيتهِ ومآلهِ (كما قد يليقُ بها حقِيقِيُّ الوصفُ التِّلقائيُّ في كلِّ طيّاتِ حِجْبَاتِ قصيدةٍ عاميّةٍ سودانيّةٍ، أو عربيّةٍ-سودانيّةٍ، جديدةٍ تستأهلُ أن تُغنّى بكُلِّ تنويعاتِ تخومِ العذوبةِ الممكنة!)، ثمّ رجع منها إلى «بريطانيا الشَّيطانة»- كما جاء في وصفه الطّفوليِّ [وكدتُ، لسببٍ قديمٍ ما، أن أكتبُ هنا «وصفهِ اليساريِّ الطّفوليِّ!»] لها في الرّسالة التي قلنا إنّها كانت موجّهةً، في الأصلِ، إلى صديقةٍ سودانيّةٍ له، شِبْهِ سابقةٍ، كانت مقيمةً في بريطانيا.

قِصَرُ القولِ في تلكَ «الحادثةِ الصغيرةِ» الثانيةِ أنّ مجذوب الطيّب كان، منذ عودته إلى بريطانيا، مشبوكاً في أمرٍ وقائعيٍّ صغيرٍ ذُيّلت

بـه زيارتـه إلى السّـودان وتبعتـه بقايـا مُخلّفاتـهِ الإجتماعيّـةِ، عـبر مطـار هيـثرو الكبـير الفخيـم، إلى ضاحيـةِ بركسـتون الشّـعبيّة بجنـوب مدينـة لنـدن (تلـكَ «الكبـيرة الفخيمـة» أيضـاً) حيـث كان يقيـم. وكان أسـوأ هاجـسٍ إجتماعـيٍّ مـن بـينَ مُخَلَّفـاتِ «الأوهـامِ» الصّلـدةِ تلـك (كـما تُظـنُّ) هـو «مـشروع واقعـي» كثـيراً مـا زنّـت بـه «أبنوسـةَ» مجـذوب الطيّـب- التـي غـدت، في عـام 1993، زوجتـه فيماهـو قـد كان، آنـذاكَ، مـا يـزالُ متوسّـلاً بتخديـرِ حجّـةِ التحضـير، في عطـنِ جزيرتـه البريطانيّـة ذاتِ جـوٍّ رطوبـةِ بَـولِ العناقريـب تلـكَ، لشـهادة دكتـوراة الفلسـفة في الفلسـفةِ (ذاتِهـا)- في أُذُنِـهِ وأكّلتْـهُ قـرضَ همّهـا بـه (هـو وغَـيْرُهُ كثـيرٌ مـن «أوهـامِ مشـاريعِ صلـدةٍ» أخـرى) ثـمّ لم يـزل، مـن بعـد ذلـكَ، حالـه معهـا راسـخاً في عتيـدِ أوتـاده القديمـةِ ذاتِهـا دون أن تتمخّـض «جبـال مشـاريعها» تلـك- ولـو سـهواً أو لـذاتِ مـرّةٍ واحـدةٍ فقـط، كبـيرةٍ وكافيـةٍ- عـن أيِّ شيءٍ فيـه سـوى فـئرانِ همـومٍ قارضـةٍ أخـرى، مُعـادةً، جديـدةً وطازجـةً بالخبـثِ والتّشـفّي!

كان ذلـك «المـشروع الواقعـي»- عـلى كلِّ سـوءِ الحـالِ والتّشـكّي الـذي مـضى- مـا يـزالُ، ولا يـزالُ، يُحلَـمُ بـه مُتمثّـلاً، لمجـذوب الطيّـب ولمـن ربّمـا لا تـزالُ هـي زوجتـه رغـم كلّ شيء، في هيئـةِ بيـتٍ سَـكَنِيٍّ شـعبيٍّ وصغـيرٍ، بسـيطٍ وأمـردٍ تُدفـعُ فلوسُـهُ المُنَاسِـبَةُ في أقسـاطٍ أولّهـا كبـيرٌ نسـبيّاً ثـمّ الباقيـاتُ الصّالحـاتُ منهـا-نسـبيّاً أيضـاً- شـهريّةٌ وقليلة. وكانـت الرسـائل- كلـما أرسـل مجـذوب الطيّـب معهـا، بصحبـةِ راكـبٍ أو بمجـرّدِ بريـد شـيكات «أمـيركان إكسـبريس» أو «باركليـز» العالميّـة، مبلغـاً مقتَـدِراً مـن المـال الـدّولاريِّ أو الإسـترلينيِّ- يغـدو ردُّهـا، مـن الجّهـةِ الحصيفـةِ الأخـرى، عذبـاً ومُغويـاً بالوفـاءِ الدّائـم ونـذر العمـر

و«صدّقنِي غيرك إنتَ مافي مافي» وما إلى ذلكَ ممّا قد يُشْبِهُهُ من غسيلِ أموالِ كلامِ بناتِ المُدنِ السّودانيّاتِ العاطفيِّ في سبعيناتِ وثمانينات القرنِ الذي انسلّ ومضى فما درينا ولا أسفنا ولا فرحنا، ثمَّ (والإشارة لأغنيةٍ سودانيّةٍ سبعينيّة- ثمانينيّة) كذلكَ ما هُنِّيْنَا وما خُلِّيْنا..... ثمّ يختفي ذلك المال، من بعدِ ذلكَ، ويصبح، بقدرةِ قادرٍ أنثويٍّ عجيبة، هباءاً منثوراً وكذلكَ شأنُ ذلك البيت الشعبيِّ إذ لا يروح الناس، ولا يزالون، لسلماه السَّالمة تلك ولا يجيئون منها لا بغنمٍ ولا بسلامة! ثم تستمرّ حربُ الإستنزافِ الماديِّ-النّفسيِّ تلكَ حتّى يضطرُّ مجذوب الطيّب إلى أن يكتب إلى «زوجته» تلك (أو من كانت **أبنوسته** تلك؟) شيئاً من الكلام المُختنقِ بدخانِ الحنقِ والغيظِ المكتومِ طالباً منها أن تتصل هي (لأنّه هو كان حينذاك ما عاد- كما قال لها في تلك الكتابة- يحسُّ أيَّ اهتمامٍ، أو شَغَفٍ، بإمكانِ حدوثِ أيِّ شيءٍ دنيويٍّ جديدٍ له أو لها في أيّ زمانٍ قادمٍ ما، حتَّى ولو كان ذلك حَرَقَاً أو غَرَقَاً!) بشأنِ المساعدة بخصوصِ ذلك البيتِ الشعبيِّ، متى استطاعت، بالباشمهندس كمال محمد نور (الذي كان، بحسب معلومات مجذوب الطيب العائدة لعام 2003، لا يزالُ آنذاكَ يعمل موظفاً مرموقاً في هيئةٍ حكوميّةٍ لها علاقة بقطاع المباني السّكنية. وكانت «زوجة» مجذوب الطيّب تلكَ قد حصلت- فيما يظنُّ مجذوب الطيّب، وبعد أن رجع مجذوب الطيّب إلى بريطانيا من بعدِ أيّامِ إجازته بالسودان في عام -2003 على رقمِ هاتف الباشمهندس كمال محمّد نور مُبَاشَرَةً من «شخصيّةٍ معيّنةٍ» مشتركة المعرفة بينها وبين مجذوب الطيّب كانت قد سمعت بوصول مجذوب الطيّب للسّودانِ وزارته، في تلك الأيّام، حيث كان ينزل في حيِّ الدّيُومِ الشّرقيّةِ السُّودانيِّ

العريـق). وقـد واتى مجـذوب الطيّـب، بعـد مَـرِّ مـا كان كأنّـهُ شـهراً وقليـلاً مـن الأيّـامِ مـن عهـدِ إرسـاله لتلـك الرّسـالة، جوابـاً إلى طلبـهِ قالـت فيـه المُجيبـةُ [بعـد عـدّةِ سـطورِ كلامٍ بَنَـاتيٍّ لازمٍ- طبعـاً- عـن «الشـوق والرّيـد» وذلـك الـذي قـد «بـانَ في لمسـةِ إِيْـدْ»! وأيضـاً كذلـكَ (وإلى هـذا اليـومِ وإلى مـا سَـبَقُو وإلى مـا بَعْـدُوْ) لازمـةِ «صدّقـني غـيرك انـتَ مـافِي مـافِي» التـي هـي قـد ابتـدرت أغنيـةً للأمدرمـانيِّ هاشـم ميرغنـي ثُـمَّ انثنـتْ بهـا، مُنَغْنَغَـةً؛ تّامّـة التّقليـد والكلاسـيكيّة!] إنّهـا قـد حاولـت الإتصـال بالباشـمهندس كـمال محمـد نـور في هاتفـه الـذي أعلمهـا هـو- مجـذوب الطيّـب- (مشـكوراً) بـه لكـنّ ظـلَّ خطّـه ذاكَ مغلقـاً دونهـا رُغـم معرفـةِ صاحبـهِ الأكيـدة- بفضـلِ مـا كانـت تـترك لـه (هكـذا قالـت هـي في رسـالتها إلى مجـذوب الطيّـب) مـن رسـائل نصيّـة بعـد كلّ اتّصـالٍ فاشـل- بمـن كانـت هـي في حسـبانِ- عـلى الأقـلِّ- معارفـهِ القُدامـى. ثـمّ انفتـح ذلـك الخـطُّ يومـاً مـا وعـلى حـينَ غـرّةٍ وكأنّ صاحبـه قـد بلـغ بـه سـيلُ التقحّـم المظنـون (المُتوهّـم) زُبَى حسـمٍ ضروريٍّ بـكلامٍ واحـدٍ فقـط، ولمـرّةٍ واحـدةٍ فقـط؛ كلامٍ أخـيرٍ وفاصـلٍ لتلـك «الزّوجـة المزعومـة» لذلـك «الصديـق المزعـوم القديـم». قـد قـال لهـا الباشـمهندس كـمال محمّـد نـور- إذاً- في هـذا الـكلام الوحيـد والأخـير- وكذلـك، طبعـاً، الأوّل- بخشـونةٍ مغتاظـةٍ وصادمـة، لكنّهـا، مـع ذلـك، مُتعمّـدةَ التدبّـرِ والتّخطيـط:- **خَـلِّي مجـذوب الطيّب يقـول ليـكي تتّصِـلي بالباشـمهندس فـلان** [وذكـر لهـا اسـم زميـلٍ قديـمٍ لـه كانـت سـيرته (الحميـدة طبعـاً!) مرتبطـةً، منـذ عهـد تلمذتـه الثانويّـةِ في إحـدى مـدنِ كردفـانِ القريبـةِ مـن كوسـتي، بكَيـزَانِ الدّيـنِ المشروعحضاريّـين] **فهـو يعرفـه جيّـداً وهـو مسـؤوول عـن البيـوت دي وأكيـد أظنّـو حـا يسـاعدِكْ فيهـا!** ثـم تمنّـى لهـا السـلام والتوفيـق

بضحكـةٍ عصبيّـةٍ قصيرةٍ وخفيفـةِ السّخريّة. وكـما هـو متوقَّعٌ تماماً، لم تسـمع هـي منـه (أو حتّـى ممّـن كان هـو ذي صلـةٍ بـه) أو يسـمع هـو منهـا (أو ممّـن أيٍّ ممّـن قـد يكونـون ذوي صلـةٍ بهـا)، مـن بعـد ذلـكَ، أبـداَ. ورُغـم أنّ مجـذوب الطيّـب لم يتمكّـن مـن رؤيـة، أوحتّـى مهاتفـة، الباشـمهندس كـمال محمّـد نـور عندمـا كان هـو في السّـودان (مـع حقيقـة أنّـه قـد سـأل عنـه وعـن أخبـاره مـن بعـضِ معارفـه مـن النّـاس) إلا أنّـه، غريزيّـاً، اسـتبعد، للتـوِّ، أن يكـون ذلـك الموقـف مـن الباشـمهندس كـمال محمـد نـور تجـاه موضـوع بيـت السّـكن الشَّعبي المأمـول لـه أيّ علاقـة **أساسـيّة** بعـدمِ ذلـك التّمكّـن وإن هـو لم يسـتبعد- موضوعيّـاً- إمـكان وجـود «وَجْـهٍ» علاقـةِ مـا، في هـذا السّـياق، بـين الأمريـن المعنيّـين. وذلـكَ لأنّ خواطـره اتّجهـت تلقائيّـاً، عنـد قراءتـه لذلـك الجّـزء مـن خطـاب «زوجتـه» الـذي أشـارت فيـه إلى ذلـك «الموقـف البائـخِ» (وتلـك أو مـا يشـبهها في المعنـى كانـت إحـدى عباراتهـا في ذلـك الخطـاب) فيـما بينهـا وبـين الباشـمهندس كـمال محمّـد نـور، إلى أسـافل تلـك الذكـرى الصغـيرة القديمـة بمكتبـه بشـعبة الفلسـفة وبكليّـة الآدابِ بجامعـةِ الخرطـوم وجعلتهـا، لسـببٍ مُبهـمٍ مـا- داخـليٍّ أو عميـقْ، العنـصر الأسـاسيِّ الـذي انفتـح- بـدءاً- عنـه ذلـك الموقـف السّـالب مـن الباشـمهندس كـمال محمّـد نـور تجـاه مسـألةِ البيـتِ الشّـعبيِّ المجيـدِ تلـكْ.

ذلـك- إذاً- مـا كان مـن أمـر تلـك «الحـزازة» الصغـيرة التـي جـرت، قديمـاً، في مكتـب مجـذوب الطيّـب الطّـرفيِّ بشـعبةِ الفلسـفةِ بكليّـةِ آدابِ جامعـةِ الخرطـوم؛ تلـك «الحـزازةُ» التـي- رغـم ثانويّـة شـأنها أو تـرائي ذلـك الشـأن عـلى أنّـه ثانـوي- أفلحـت، بكيفيّـةٍ نفسـيّةٍ مـا، في

مـدّ ذيولها/جذرهـا، بعـد سـنينٍ طويـلاتٍ جسـيماتٍ عاشـها مجـذوب الطيّـب جميعـاً في ديـارِ «المندوبيّـةِ السّـاميةِ» السـابقةِ للخوّاجـاتِ البريطانيـين، مـرّةً أخـرى إلى تُربـةِ ذاكـرةِ مجـذوب الطيّـب وتوريثـه، بذلـكَ، صـدىً بائتـاً مـن ذاتِ ريبـةِ رائحتهـا الطّنيّـةِ القديمـة، ذاتِ ريبـةِ رائحتِهـا المتوسوسـة المُخرّمـةِ العتيقـة.....

أمّـا عنـد الجّهـةِ الثّانيـةِ مـمّا قـد كان يقـع بـين مجـذوب الطيّـب ومـن سـمّيناهم- بكـمالٍ بسـيطٍ- «أصدقـاء مجـذوب الطيّـب المجانـين (برؤاهـم وبحثهـم النّفسي-روحـيِّ الدائـب)»، مـن ناصيـةٍ، وبـين غيرهـم مـن النّـاسِ، مـن ناصيـةٍ ثانيـةٍ أو «غَيْرِيّـةٍ»، فقـد تمثِّلُـهُ، بطرافـةٍ تراجيكوميديّـةٍ خفيفـةٍ وغـير مؤذيـةٍ تمامـاً (في الظّاهـرِ عـلى الأقـل)، حكايـة «ابـن الفيـل» الصغـيرة- تلـك التـي يعرفهـا ويضحـكَ عندهـا مليّـاً (أو «تمَـلِّي»، كـما يقولـون في كلام الغنـاءِ السَّـودانيِّ الـدّارجْ) صديقُ مجـذوب الطيّـب «الإنسـانيُّ» ذاك. لكنّـي لـن أكـن، كـما يُحدّثُنِـي ظنّـي، محتاجـاً إلى أن أروي هنـا تلك الحكايـة التراجوكوميديّـة الصّغيرة. وسـأجعل مجـذوب الطيّـب (عـلى كَيفِـيَ الـرّوائيِّ) يكتفـي راضيـاً، في هـذه الآونـة المتقدّمـة مـن زمـانِ هـذا الـكلام، فقـط بذيـولِ ذكـرى ضحكهـا الدّرامـيِّ الصّـافِي وراحـةِ (بـل «رائحـةِ») كَيفِهـا المُتمِّـمِ لبَهاراتِ تلـكَ الصّحبـةِ المسـتدامةِ القديمـة؛ ذكـرى ذلـكَ «الهـروب الكبـير» الذي كان يُمثّلُـهُ، تـوّاً وبتواطـئٍ مضمـرٍ وحميـدٍ، مجـذوب الطيّـب وصديقُـه «الإنسـانيُّ» إيّـاه مـن مكتـبِ شعبةِ الفلسـفةِ، بـل وكُلِّ كليّـةِ «آدابـهِ»، مـا أن يـرى أحدهـما- إن هـو توفّـقَ (غريزيّـاً في الغالـب) بالوقـوفِ، في اللحظـةِ المناسـبةِ، بالـذّاتِ حـذاءَ الدّرابزيـن الخارجـيِّ لمبنـى «الشّـعبةِ الفلسـفيّةِ» الكائـن في مقدّمـةِ حـدودِ الفـراغِ القائـمِ فيـما بـينَ المكتـبِ

المقابلِ لمكتبِ مجذوب الطيّب وذلكَ المكتب الأقرب منه، للقادمِ إمّا من جهةِ السُّلّمِ الوسطانيِّ أو السّلّم الآخر الطّرَفِيِّ، في صفّهِ اليمانيِّ- ذلكَ المُهَدِّد الـ«إبنُ فيليُّ» قادماً من عند جهةِ البَوّابةِ الجّامعيّةِ الرئيسيّةِ وتاركاً، بهمّةٍ ماكرةٍ، على يمينهِ كليّة القانونِ ودانياً ومُتدلّياً للإنقضاضِ عليهُمَا في حصنِ «أغانيهُمَا» المجذوب-طيبيّةِ الحصين، بعد حينٍ قليلٍ وعَبْرَ الممرّ الخلفيِّ الصّغيرِ الدّاخلِ لكليّةِ الآدابِ، ثمّ السّلّمِ الطّالعِ (دُقْ! دُقْ! دُقْ! دُقْ!) من عند طرفِ شعبةِ اللغةِ العربيّةِ الغربيِّ وفوقاً، فَوقاً ثمّ فوقاً (ثُمَّ «قالَ ثُمَّ مَنْ؟!»)، ثمَّ، هَبْ!، إلى شعبةِ الفلسفةِ المجذوب-طيبيّةِ المجيدةْ!

حاشيةُ حَكْيٍ صغيرة:-

*** فقرةُ «يُنْقِذُنِي منكم قلبي... إلخ»من رسالة «»يُنْقِذُنِي منكم قلبي... إلخ»:-**

يُنقذني منكم قلبي

إذ يتوضّأ ماء التّوقِ إلى الأحباب المنبوذين

بجذرِ الغربةِ طيباً غسقاً

روح سلام

أحبابي رُدّتْ غربة روحي

إذ يتهدّمُ في غاباتِ الليلِ

عويلي

ذئبُ بوادٍ يعوي غابُ السّحرِ يجيب

يُرّدِد خلف عوائي

صوت نحيبِ الشّبحِ الأوّلِ

أو فالثاني

أو فالثالث

أو فالبرزخ أو ما لا أدريه.

قلبي يتراكضُ قُدّامي

طفلٌ بحلاوةِ خوفِ السّارقِ في بستانِ

الرّحمةِ إذ يتهاوى في أردانِ الرّب

الطّفلُ الطّائشُ ذاكَ المُترف

حبّ الناسِ بحيرةُ كنزٍ يحرسه

يتراقص حول النّارِ فراشُ الجّسدِ

حمامةُ عشقٍ ترشفُ عسل الذّات!

الولد الجائسُ في أرجاءِ اللا أدريه

غنّى، صوتٌ يتراوح بين

الظّلمةِ والعاصفةِ

والأشياءُ صامتةٌ تُغنّي

[من رسالةٍ شخصيّةٍ من الشّاعرِ السّوداني عثمان محمّد عثمان منسي إلى صَدِيْقِهِ السّودانيِّ الكاتب إبراهيم جعفر].

الكتاب الخامس

1

<u>تَهْمِيشٌ خَاطِرِيٌّ على حُلُمٍ (ليل 10. 12. 2007):-</u>

كان راويـةُ ذلـك الحّلُـمِ هـو دكتـور الفلسـفة في مـادّةِ التّاريـخِ، الأسـتاذ محمّـد إبراهيـم عمـر (وهـو صديـقٌ قديـمٌ لزميـلٍ لمجـذوب الطيّـب كان يعمـلُ بـذاتِ مبنى شـعبةِ الفلسـفةِ بكليّـة الآداب بجامعة الخرطـوم في ثمانينـات القـرن المـاضي). وفي مشـهدِ الحلـم يُجعـلُ د. محمّـد إبراهيـم عمـر يـروي حلمـه ذاكَ بالهاتـفِ المُكـبّرِ الصّـوتِ آنـاء حضـوره لاجتـماعٍ سـودانيٍّ، أو نـدوةٍ سـودانيّةٍ، لجمعيّـةٍ سـودانيّةٍ بمدينـةِ لنـدنَ بالمملكـةِ المتّحـدة ضـمّ، أو ضمّـتْ، مـا يقـربُ مـن الخمسـةِ عـشرةَ شـخصاً كانـوا كلّهـم يَتَسَـمَّعونَ مـع مجـذوب الطيّـب، بشـغفٍ، لتفاصيـل الحُلُـمِ المحـكيِّ بوسـاطةِ د. محمّـد إبراهيـم عمـر الـذي لم يكـن هـو، في الحـقِّ، حالمـاً للحُلُـمِ بـل هـو رواه، مُعَنْعَنـاً، كَحُلُـمٍ لصديـقٍ لـه مـن قريـةٍ بالسّـودانِ الشّـماليِّ كان قـد سـبق ودرس في المدرسـةِ الأوّليّـةِ مـع شـقيقهِ وشَرَّكُـوا سـويّاً للطّـيرِ (الحُلُـمُ كانـت بـه حكايـةٌ عـن الطّـيرِ مرمـوزةً فيهـا النّـاسُ بهيئـاتِ الطّـيرِ يعنـي!). أَوقَـعَ ذلـك الحُلُـمُ بمجـذوب الطيّـب تأثـيراً سَـاذَجَاً وعميقـاً ورأى فيـه مـن سـمعوه معـه، في الإجتـماعِ، ذاك التأثـيرَ بجـلاءٍ في تبـدّلِ هيئتـهِ الصّامـتِ آنـاءَ الإسـتماع. ثـم هـو (الحُلُـمُ) سـيرتبطُ لديـهِ، في سـفرهِ التـالي (وغـيرِ المعـروفِ أوانُ رفـع قَدَمَيـهِ، بـل جَسَـدِهِ، عليـه بعـد!)

النّهـائيِّ للإقامةِ/إعـادة الإقامـة ببـلادِ السُّـودان، برحلـةٍ سـيقوم بهـا (أو هـو كأن قـد قـام بهـا فعـلاً) في شـوارعِ مدينتـهِ القديمـةِ، كوسـتي، ووسـط عـماراتٍ حديثـةٍ بهـا، نصـفَ مبنيّـةٍ. سـيكن (أو هـو كأنْ قـد كان بالفعـل!) يبحـثُ، في مـا بـينَ كلِّ ذلـكَ، عـن طعـومٍ ونكهـاتٍ مُعيَّنَـةٍ في الدّكاكـينِ القديمـةِ، أو حيـثُ كانـت الدّكاكـين القديمـة ومحـلاتِ بيـعِ الفـولِ المصريّ القديمـةِ (محـل حسـن محمـود ومحـل تبـوري ومحـل الزّيـن وذاك المحـل الـذي كان قـرب المدرسـة الأوّليّـة نمـرة 4 – مدرسـة جبـور التـي درس فيهـا فيـما بـين 1964 و1967)، فـلا يجـد منهـا إلا أنصافهـا الغامضـة وشـيئاً مِثـلَ أصـداءِ قـرعِ طبـولٍ لحفـلٍ بعيـدٍ، مبهـم المناسـبةِ ومُشَوّشَـاً بهيئـاتِ أُنَـاسٍ ينزلـونَ مـن اللّـواري بجلابيـبَ وعمائـمَ عربيّـة مختلطـةً، بانسـيابٍ، بجلابيـبَ أفريقيّـة زاهيـةَ الألـوان وضحـكٍ صـافٍ قديمٍ-جديـدٍ مـع اشـتمالِ النّوايـا عـلى التَّحانُـنِ والإنفتـاحِ الإجتماعـيِّ والتّـزاورِ والتَّـزاوج- هنالـكَ أطفـالٌ يضحكـونَ ويلعبـونَ وسـطَ الجّميـعِ ويضجّـون بالموسـيقى الصّاعـدةِ الجّديـدة!

***

هـل لي أن أعـود مـن هنـا- وأيضـاً كذلـكَ- ثانيـةً إلى «العصفـورةِ الضّاحكـة» وإلى مآلاتهـا الأخـيرة في البـلاد السـودانية، ثـمّ إلى كيفيّـةِ تحقُّـقِ مـا قالتـه في رسـالةٍ، لمجـذوب الطيّـب، بعثتهـا إليـهِ مـن ديـار «الشّـيك الحَـدْرِي» الليبيّـة (والإشـارة لدعـاءٍ لشـاعرٍ شـعبيٍّ شـفاهيٍّ مغبـون عـلى ليبيـا التـي شـالت عنـه محبوبتـه فقـال عنهـا مغيوظـاً:- «يـا ليبيـا انشـا اللـه تعقري/تَعَدْمِـي الشّـيك الخَـدْرِي»!)، عـن كـونِ أنّ معرفتهـما (أي هـي «العصفـورة الضّاحكـة» ومجـذوب الطيّـب) كانـت،

وسَـتَكُنْ، مُقامَـةً- في بدئهـا، في جذرهـا ثـمّ، مـن بعـد ذلـكَ، لزمـانٍ ومـكانٍ آتيـن طويلـين طويلـين- كثـيراً عـلى «عمـقِ البُرهـةِ» وليـس عـلى «طُـولِ المُـدّة»؟

غزيـرةً ومُبهمـةً كانـت هـي، تلـك «العصفـورةُ الضّاحكـةُ»، في ذكـرى مجـذوب الطيّـب هـذه الأيّـام ببريطانيّتـه البعيـدة- ومـا بعيـدٌ مـن القُـربِ وقريـبٌ مـن الوحشـةِ إلا الشّـيطان! كانـت تواتيـه، في الهزيـع الأخـير مـن هـذه السّـنة الثامنـة مـن الألفيّـة الثالثـة عـلى هيئةِ صـورٍ خاطفـةٍ صغـيرةٍ في الأحـلام، وعـلى جُعْـلِ كلـماتٍ صغـيرةٍ عابـرةٍ قالتهـا لـه ذات يـوم وقُصاصـاتٍ برقيّـةٍ صغـيرةٍ خطّتهـا لـه يدهـا حينـما كانـت، في ثمانينـات القـرن الـذي مـضى، تـأتي إلى شـعبة الفلسـفة ولا تلقـاه، مثـلاً، قـد أتى، بعـد، إلى مكتبهـا عنـد وقـتِ وجبـةِ فـولِ إفطـارِ الصّبـاح.

آخـر صـورةٍ واتتـه منهـا في شـبهِ، أو ضغـثِ، حُلُـمٍ كانـت قبـل ليـالٍ قليلـة. وقـد كانـت هـي، في تلـك الصّـورةِ، ضاحكـةً في وجهـه («وجَسَـدِهِ»)، زاهيـةً عليـهِ، كـما و- في ذاتِ الحـينِ- آسـيةً، حنينـةً وخريفيّـةَ. كانـت هـي، وقتـذاك، كأنّمـا كانـت تريـد أن تقـول لـه شـيئاً جديـداً، حلـواً، بيـد أنّـه لم يـزل غامضـاً في نَفسِـهَا فيـما كانـت صاحبتهـا، تلـك «الأبنوسـةُ» التـي صـارت، مـن بعـد ذلـك، زوجـةً لمجـذوب الطيّـب عـن بعـدٍ فيزيونفـسيٍّ سـحيقٍ، إلا خلـل الشـهرين الذيـن زار هـو فيهـما السـودان في عـام 2003، سـاهيةً وحزينـةً وشـاحبةً بضغـطِ إرثٍ قديـمٍ مـن سـنين شرابِ خمـرِ العـذاب المـؤرّقِ العتيـق. وآخـرُ مـا ثرثـرتِ (بـل هـذت) بـه نفسـه، بينهـا وبينهـا (بينهـا وبينَـه)، مـن كلامٍ مُختـزنٍ فيـهِ مـن جُعـلِ مأثوراتهـا الصغـيرةِ العابـرة- ظاهريّـاً- تلـكْ

كان- للغرابـة- كلامـاً لم تكـن هي،أبـداً، قـد وجّهتـه إليـهِ مبـاشرةً، كـما وهـي لم تُضمّنُـهُ لـه مطلقـاً في رِقعـةِ أيِّ شيءٍ مكتـوبٍ منهـا إليـه حتّـى ولـو كان ذلـك قصاصـةً خطَّ-يَدِيّـةً، برقيّـةً وعابـرةً وصغـيرةْ. **مجـذوب الطيّـب ده مـا لَونِـكْ يـا......** [وهنـا كانـت هـي تَذكُـرُ، بتوكيـدٍ مُنغّـمٍ وممطـوطٍ (كـما كان، دومـاً، يتخيّلُـه مجـذوب الطيّـب)، اسـم «الأبنوسـةِ» المُفـرد المُجـرّد]. كانـت «العصفـورةُ الضَّاحكـةُ» كثـيراً مـا تقـول- بالفعـل- ذلـك الـكلام لـ»الأبنوسـة/الزّوجة» وهـو قـد عَـرِفِ بـه فقـط مشـافهةً مـن الأخـيرة عندمـا كان هـو لا يـزال مقيـماً بالسّـودان ولم يتشـتّت بعـد، مـع خلـوِّ المحطّـاتِ، إلى بريطانيـا، ثـم هـو قـد عـرف بـه، مـن بعـد ذلـكَ، كتابـةً، عـبر رسـائلها، ومغاضباتهـا المضمـرة، إليـه في «بريطانيـا الشّـيطانة» (أو كـما قـال!). لكـنّ «العصفـورةَ الضّاحكـةَ»- وأنـا هنـا فقـط أُعِيْـدُ نَسْـخَ ذلـكَ التَّثَبُّـتِ الإلحاحـيِّ الغريـبْ- لم تقـل ذلـك الـكلامَ، أو مِثْلَـهُ، أوحتّـى «عُـشرَ» مِثْلِـهِ، شـفاهةً، أو كتابـةَ، سـهواً أو غفلـةً، لعيـانِ وبيـانِ مجـذوب الطيّـب، مُطْلَقَـاً، وذلـكَ حتّـى بعـد فَـوْتِ كلِّ هـذا الزّمـانِ والمـكان البعيديـن- ظاهريّـاً- عـن مـاضي الـرّائي والرّائيـةِ (الـرّاوي والرّاويـة) التّحتانيّـين لهـذا الـكلام واللّذَيْـنَ هُـمَا، أصـلاً وفصـلاً، مجـذوب الطيّـب و»العصفـوةِ الضّاحكـةِ» ولا سِـوَاهُمَا ممّـن قـد يكُونَـانَ، أو يكُونُـونَ، مـن النّـاسْ! [ربمّـا تكـن هـي لا تـزالُ- مُلهمـةً بحكمـةِ السّـلحفاةِ القديمـةِ التـي هـي، في أصـل عيشـها، **تَكُـنْ** أكـثر مـمّا هـي **تُوجَـد**- تَدَّخِـرُ هيئـةَ هـذا الـكلام بالـذات لمجابهـة مسـتقبليّةٍ، شـعوريّة و**مصيريّـةٍ**، قريبـةٍ أو بعيـدةٍ، غامضـةٍ وممكنـةٍ مـا تتهيّـأ لهـا، ولـه (وأعنـي هنـا ذلـك «الـكلام»)، فيهـا رفقـة ثلاثيّـة اسـتثنائية فيـما بينهـا وبـين مجـذوب الطيّـب والأبنوسـة/الزّوجة في- بالـذات- حـوش بيـتٍ دافـئ الإلـفِ والأنـسِ والنـاس والحيـاة في ديـوم

مدينـة الخرطـوم الشرقيّـة العتيقـة، فلمثـل ذلـك البيـت تُهـدى أمثـالُ تلـك المكاشـفات الكينونيّـة ولـو بعـد آمـادٍ وآمـادٍ طويلـةٍ- بحسـاب زمـانِ النّـاس- مـن الزّمـان والعمـرِ والذكريـات].

2

هـل لمثـلي حيـاةٌ منـزوعٌ عنهـا تقلقـلُ الضّجـرِ والتّـبرُّمِ القهـريِّ بالظّـروف؟ هـل لمـوالاةِ اختـزان وقائـعِ السّـنينِ الصّرفـةِ وحـدَهُ أن يعلّمنـي، عنـد بوّابـةِ «الخـلاصِ» الأخـيرةِ، الحكمـة؟ ذلـكَ هـو سـؤالُ لمجـذوب الطيّـب في أيّامـه «الخارجيّـةِ» الأخـيرةِ هـذه في بـلادٍ قـد لا يحـسُّ أيُّ واحـدٍ آخـرٍ مـن نـاس بـلادهِ فيهـا حـدَّةَ وَخْـزِ «السِّـعِدِ» الـلا مبـالي إلا هـو (فهـو لـه وحـده، في تلـك البـلاد الشـديدة التمـدّن والصّقـل، كلُّ «السِّـعِدِ»، قضمـةً فقضمـةً، **معـاً** والبـلاد أم بِعِـدْ!). لكـنّ علينـا أن نتجـاوز، غصبـاً وحـالاً، ذلـك التشـكّي ونحـنُ مُغضَبِـيْنَ كـما قـد ينبغـي. ذلـكَ لأنّـه ليـس فيـه شيءٍ سـوى ذاتيّـةِ الإنسـانِ الدّستويفسـكيِّ التّحـتِ-أرضيِّ الأثـيرةِ والمُتّصلـةِ، كذلـك، بلزوميّـاتٍ غـيرِ لازمـةٍ لِمَعَـرّيٍ رومانتيـكيِّ الجّـذرُ والأصـلُ، قرنَ-عشرينـيَّ (بـل وقـرنَ واحـد وعشرينـيَّ كذلـك!)، غريـبَ الطّرافـةِ والتّـواؤم (رُغـمَ كلِّ شيءٍ) في مجـذوب الطيّـب المسـافر المسـتوحش، الحـوشي. فلنـترك ذلـك كلَّـهُ ولنعـدْ، أيضـاً «مُغضَبِـيْنَ كـما قـد ينبغـي»، إلى «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» مـن بوابّـةِ التّداخـلاتِ القيُّوميَّـةِ الثلاثـةِ لعلاقـاتٍ إنسـانيّةٍ شـخصيّةٍ (ووجوديَّـةٍ، كـما قـد ينفجـرُ الكاتـبُ إبراهيـم جعفـر، فجـأةً، بالقـولِ في نفاذِ/طغيـانِ صبرِ مسـلكٍ شـعوريٍّ مُعتّـقِ الجِّـدَّةِ فيـه كخمـرٍ بلديّـةٍ عضويَّـةِ الأُصُـول!) كانـت قائمـةً، ومـا تـزال (ولـو بِبُهْـرةٍ غيابيّـةٍ آسـيةٍ)،

فيما بينَ مجذوب الطيّب، من حدّ الموقفِ الذي يليه، وفيما بينَ «العصفورةِ الضّاحكةِ»، «الأبنوسة» التي «تراءتْ» زوجةً، وذلكَ الرّيحانيُّ الرومانتيكيُّ الخُرافيُّ الغائب، من حدِّيّاتِ مواقفِ تلكَ الأطرافِ الثلاثيّةِ، ممّا يليها هي (إن أمكنَ لذلكَ كُلِّهِ أن يُحتوى، ولو بنثرٍ على حدٍّ أدنى من القِيَافةِ وفَوَتَانِ النّاسِ بالمسافةِ، أو قُلْ بكفايةِ نثرِ الوصفِ والسّردِ فحسبْ).

أنا ما عرفتَ سعادة/في عمري يوم لولاك/ولمّن انتَ جفيتني/دخل الزّعل غشّاكْ/أطفيت شموعي الواقدة/ونسيت عهودي معاااااك/نسيت عهودي معاك/اللّيلة أملي عليكا/المتين تعود برجاك! الرّتّاي! كِده يا الرّتّاي! كِدَه يا الرّتّاي!......... تارارارارا تيريرِمْ ريريريرِم ريريريريرِمْ ترارارارا ترارارارا تيريرِم تررم تررم تررم......... الرّتّاي! كِدَه يا الرّتّاي! كِدَه يا الرّتّايْ!

ليس هكذا تماماً كانت، في واقع الدنيا المشعور والمرئي، هي حكاية مجذوب الطيّب مع «العصفورة الضاحكة». لكنّ تبقى، مع ذلكَ، تلكَ الأغنية هي، في جذرِ خيال ووجدان مجذوب الطيب، أُغنِيَتِها فيه بكُلِّ ما فيها، ما قد كان له معها فيها شوفٌ وشأنٌ (**مناي اشوفَكْ طالع يا بدرِ من قِدّام... إلخ... إلخ... إلخْ**) وما- ظاهريّاً على الأقلّ (إذ لم يُدرِكَ هو، لا في الأصلِ ولا في العَصْرِ، شيئاً غيرِ ظنّيٍّ فقط ولا غير عن الخبيءِ والباطن المُمْكِنِ في طيّاتِ ذلك)- لم يكن له معها فيها شوفٌ وشأنٌ (كتلكَ الـ«**أنا ما عرفتَ سعادة... إلخ... إلخ... إلخْ**) وبقيّة الأغنيةِ في تَمَامِ إجمالها. ثُمّ تبقى، كذلكَ، تلك الأغنية مُنَاسَبَةً حاضرةً لمجذوب الطيّب لكي يهذي، بعد سماعٍ حاضرٍ وطارئٍ لها، بهذه المخاطبةِ العفويّة

الغريبـةِ لنفسـه:- **تـوكّلْ يـا مجـذوب الطيـب عـلى الحـيِّ الـذي لا يفنـى وهـو الـذي هـو فيـكَ وقـدةُ اليـومِ والأمـسِ والآتِي، بـل ومـا بعـدَ الآتِيْ، في التّناسُـخ الـذي هـو، يقينـاً، سـيلي كـما تـلي الشّـمسُ سـحابَ ضبـابِ الهَـمِّ عِنْـدَ عَتَاقَـةِ هضـابِ المشـقّاتِ الخشـنة (كـما والنّاعمـةِ كذلـكْ*!*).**

3

أوّليات سرديّة:-

1. **كيف عرِفَ مجذوب الطيّب «العصفورة الضَّاحكة»؟**

حدث ذلكَ في أوّل يومٍ جاء فيه مجذوب الطيّب، كمساعدِ تدريسٍ جديد التّعيين، إلى الطابق الثاني من مبنى كلية آداب جامعة الخرطوم الذي كانت مُعشعِشَةً عنده شعبة الفلسفة. كان الوقتُ، حينذاكَ، نهاية الضّحى وأوّل النّهار (حوالى الثانيةَ عشرةَ ظهراً وحبّةَ دقائقٍ) وحين يكون النّعاسُ الحالمُ الخفيفُ قد مرَّ ومَرهَمَ بلُطفِهِ الرّحيم عيون بنات المكاتب وسكرتيراتها الهميمات. لم يكن ذلك النّعاسُ الحالمُ الخفيفُ موالياً لعينيِّ وجسدِ «العصفورةِ الضَاحكةِ» التي كانت لا تزالُ، حينذاكَ، مُترَقّبَةَ المعرفةِ لمجذوب الطيّب، بل هي كانت، على خلاف ذلكَ، صاحيةً وسأمانةً وبرمةً- برماً حيّاً- في ذلك الوقتِ وكأنّها قد كانت على تحفّزٍ مُبهمٍ لملاقاةِ «فاضحٍ شعوريٍّ» لها هو الآن على سكّتِهِ التي ما درت آنذاك أبداً أنّها ستكونُ نَفْسَ سكّةِ مساعدِ التّدريسِ الجّديد المُهمل المَنظر البَرّاني- أو الأكاد اقولُ أنيقاً بإهمالٍ عفويٍّ- الذي كان قد طلع عليها اسمه من قَبل (مجذوب الطيّب)، مُهوّشاً بتخيُّلاتٍ غامضةٍ قديمةٍ، في أوراق تنفيذِ تعيينهِ الرسميّة الأخيرة الموجّهة، عبر مكتبها

هـي («العصفـورةُ الضّاحكـةُ»)، مـن رئيـس شـعبة الفلسـفةِ (الدكتـور فُـلان الفُـلاني طبعـاً وإن كـره هـو، مِزاجَـاً وحقَّـاً، ذلـك) إلى رئيـس مكتـب شـؤون الأفـراد بـإدارةِ جامعـةِ الخرطـوم. كانـت «العصفـورةُ الضّاحكـةُ»- إذاً- موجـودةً هنـاكَ، بصفدتهـا الصديقة، بوقفتهـا القَمحيّةِ الطّويلـةِ، الخفيفـة الانحنـاء (مثلـما، مِثلـمَا- رُبَّمـا- عازفـةٍ موسـيقيّةٍ جالسـةٍ وراءَ آلـةِ فيـولا طويلـة.........)، عـلى شيءٍ مـردُومٍ عـلى طاولـةِ مكتبهـا مثـل أوراقٍ دومـاً يشـعرُ مِثلُهـا، بقلّـةِ حيلـةٍ غريزيّـةٍ، بـأن لا داعـي لأن يَوحـلَ الإنسـانُ في قـراءةِ غُبـارِ كلماتِهـا الإداريِّ، المـدرسيِّ، الرّسـميِّ الثَّقيـلِ إلى آخـره رُغـم ضرورةِ ذلـكَ العمليّـة. (كانـت تلـك الكلـماتُ حجـارةَ سِـجّيلٍ مُتخيّلـةٍ مُتدحرجـةٍ في خطـابٍ مـن مديـر جامعـةِ الخُرطـومِ، الكبـيرِ الجّليـلِ، إلى رؤوسِ عامليهـا بمناسـبةِ إجـازةِ الهيـكل الراتبـيّ الجديـدِ ولوائـح الخدمـة الجامعيـة الجديـدة التـي وقّـع عليهـا، مؤخـراً، وزيـرُ الماليَّـةِ السُّـودانيُّ الدِّيمقراطـيُّ الجّديـدُ الـذي كان، سـابقاً وبحمـدِ الكريـمِ العليـمِ، مُحـاضِراً عـالي الرّتبـة الأكاديميّـة والحـوزة العلميـة طبعـاً (كـما في كلامِ أطـرافٍ مـن الشّـيعةِ المُسـلمين) بجامعـةِ الخُرطـوم، كُلّيّـة الاقتصـاد). وجههـا، بحكـمِ ذلـك الموقـفِ الرّسـميِّ، كان، حينـذاكَ، مشـغولاً، بتفكّـهٍ مكتـومٍ، بانعقـادةِ تعـبٍ خفيفـةٍ عـلى ملامحـه- تلـك «الـصّرّةُ» اللاّزمـةُ، اجتماعيّـاً، لمـن كان عليـه أن يقـرأ أمثـال تلـك الخطابـات والمُراسـلات- «الـصّرّةُ» التـي يـرى فيهـا «الفايقُـونُ الرّايِقُـونَ» مـما يـلي «النّـاس» مـن أمثـال مجـذوب الطيّـب وصحبـه [«عبـدُ اللّطيـفِ» الـلا انتـماء والـلا تعـيّن الرّوحـيّ ذاك و»صحبـه»] كوميديـا شـديدة الجـدارة بالتّصويـرِ المسرحـيِّ، التّمثيـليِّ والسـينمائيِّ، المجـانيِّ والضّحـك المُسترسـلُ، بـلا تعقيـداتٍ ظرفيّـةٍ، في «قِلّـةِ أدبِـهِ» الخالصـة تمامـاً (ويـا اللـهُ لهـا وعليهـا!) من الغـرض! لكنّها

مـا أن رات ذلـك «المُعـيّن الجّديـد» بزيّـه الطـارئ، بفنيلتـه المخططـة بالألـوان الطفوليّـة الخالصـة وذات الكـم القصـير وبنطلونـه ذي الجيوب الجانبيـة العريضـة الكبـيرة المرسـومة عـلى بنطلونهـا مـن خارجـه، حتـى انفلتـت منهـا ضحكـةٌ طويلـةٌ، صافيـةٌ وعفويّـةً لم تجهـد مطلقـاً في أن تكتمهـا ولم تشـعر قـط بالحاجـة الأخلاقية-الاجتماعيـة لذلـك- بالـذات أمـام ذلـك «الإنسـان الجديـد»؛ ذلـك «الكائـنُ» («الخَلَـوِيُّ؟») الـذي ربمـا تحدّثـوا عنـه مليّـاً في الشّـعر الجديـد الغامـضِ بالـضرورةِ، بالتجربـةِ- الشّـعور- وبالانفـلاتِ الخيـاليِّ المحتـوم.

بـروحٍ موازيـةٍ، في **طبيعتهـا**، لتلـكَ التي واجه بها الرسّـام الكريسـتالي السـوداني محمـد حامـد شـداد- عِنـدَ أوّل معـرضٍ «ثلـجٍ فنِّـيٍّ» لـه في أوّلِ «مُنتـدىً للفلاسـفةِ» أقامتـه الجمعيّـة الفلسـفية بـإشراف الأسـتاذ العبقـري كـمال حامـد شـداد في عـام 1977 (أم هـو عـام 1978؟)- انفجـار الضحـك العـالي، الأسـاسي، المتهكّـم إزاءَ أعمالـه «الثّلجيّـةِ» تلـكَ كذلـكَ واجـه مجـذوب الطيّـب- مسـاعد التدريـس الجديـد بشـعبة الفلسـفة وبكليّـة الآداب بجامعـة الخرطـوم والمُعـيّن، رسـميّاً، هنـاكَ آنـاء الرُّبـع الأخـير مـن عـام -1984 ضحكـة «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» المنفلتـةِ، المباغتـةِ، تلـكْ. فقـد قـال ذلـك الكريسـتاليُّ الفيلسـوف، ، في رده عـلى رد فعـل جمهـوره المتهكّـم، ببسـاطةٍ شـديدةٍ وبهـدوءٍ شـديدٍ ومتماسـكٍ يتمنّـاه أعتـى المتأملّـين مـن المفكريـن والمتدينيـين دون أن يبلغـوا شـيئاً حاسـماً- باقيـاً- منـه شـيئاً مثـل «كويّـس إنّـو ضحكتـو في مواجهـة شـغلي ومـاكان عندكـم أي رد ممكـن تـاني عليهـو؛ أنـا **إذاً** مبسـوط!» ثـم شرع في عرضـه الفلسـفيَّ الطويـل عـن الكريسـتال، ومـا الكرسـتال، والشـفافية والأنثـى الموجـودة في داخـلِ كُلٍّ منّـا وورثتنـا

الإنسـانيّة لـ»خلايـا» العـدوان فينـا منـذ أول حـربٍ للإنسـانيّة ضدّ **الإنسـانيّة** [**ضد-الحيـاة**، يـا عَنْوَنـةَ صاحبـي الشَّـاعرِ السّـودانيِّ العريـق- أيـوه «العريـق»!- مأمـون التّلـب!] وضرورة منازعتنـا لذلـك فينـا بفعـل **الأنثـى** التـي هـي فينـا منـذ **الأصـل** ومـا إلى ذلـك مـن الخزعبـلات الباهـرة **الأصيلـة** للشـعراء المجانـين والرّوحانيـين الـلا منتمـين مـن النّـاسِ والكائنـاتْ!

في مـوازاةٍ نفسـانيّةٍ لذلـكَ لم يقـل مجـذوب الطيّـب لل»العصفـورةِ الضّاحكـةِ» شـيئاً لقـاء ضحكتهـا القاَهـرَةِ، الفاضحـةِ، الكبـيرة العذوبـةِ والتغييـظ بـل ردّ عليهـا بضحكـةٍ أوغـلَ منهـا في المجاهـرةِ بالغرابـةِ والعصيـان المضمـر الـذي يُسـمّى، بلديّـاً، «شـقاوة». ومنـذ ذلـك التّـوِّ- تلـك **اللحظـةِ المُفارقَـةِ في التّاريـخِ**- صـار زائـرو مجـذوب الطيّـب مـن المهبلسـين والشـعراء الذيـن وصفنـا- سـابقاً- بعضـاً مـن أطـرافِ أخبارهـم هـم مـن يُجابـون، إذ لا يجـدون مجـذوب الطيّـب في مكتبـه «الفلسـفيِّ» الرّكنـيِّ القاعدِ/القائـمِ قـرب حـمام الشـعبةِ الشـعبيِّ الشّـهير، مـن قِبَـلِ مِمّـن **لا قِبَـلَ لهُـم بهـم** مـن مُجابهييهـم مـن الدكاتـرةِ المحترمـين ومالئـي المراكـز مـن أهـل الشُّـعبةِ الجّليلـةِ، في سـخريةٍ مُضمـرةٍ أو اسـتخفافٍ مُضمـرٍ (قـد أجـرؤ عـلى أن أقـول)، بأنّـه (أي هـو، مجـذوب الطيّـب) لا بُـدّ أن يكـونَ، حينـذاكَ، قاعـداً في مكتـبِ........ (ثـمّ يذكـرون، بلويـةِ فـمٍ خفيفـةٍ) اسـمَ «العصفـورةِ الضّاحكـة»)! لم يُسـتثنى مـن ذلـك- للتّاريـخِ والحـقِّ- سـوى محـاضرٍ واحـدٍ مهبُـوشٍ كان يعـزف العـود ويُغنّـي في صبـاه ومـا بعـدِ صبـاهِ (رُغـم جلالـه الأكاديمـيِّ كلّـه!) فقـد كان ذلـك **المَحْضُـورُ** يقـول، أحيانـاً، لسـائليه عـن مجـذوب الطيّـب، بـأنّ **روحَ** ذاك الـ»مجـذوب

الطيبالطّيـب» تكـن، لخياليـهِ (شـعوره وذاكرتـه)، دومـاً هائمـةً عنـدَ ممـرّ شـعبةِ الفلسـفةِ المعتـم، القمـري الإضـاءة حتّـى ولـو لم يكـن هـو حـاضراً، فيزيو-نفسـيّاً، عنـد طاولـة مكتبـه أو مرتميَـاً، بإهـمالٍ بديـعٍ جديـرٍ بمـن هـو كمِثْلِـهِ، عـلى أحـد كرسـيّي ذلـك المكتـب الوثيريـن- ببسـاطةٍ- وبُرتقاليّـي الصّفـرة!

2. كيـف عَـرِفَ مجـذوب الطيّـب ذلـكَ الرَّيْحَـانِيَّ الرَّومانتيـكِيَّ الخُـرَافِيَّ الغائـب؟

مـن الغريـبِ أنّ ذلـكَ الولـدَ الرّيحـانيَّ كان قريبـاً- بوشـيجةِ العائلـةِ والـدّمِ السّـلاليِّ/البايولوجيِّ- لمجـذوب الطيّـب. وأقـولُ «غريـب» لأنّ مجـذوب الطيّـب- بطبيعتـه النافـرة، بعنـادٍ غريـزيٍّ، عـن توكيـدِ صـلات القـربى القبليّـة السّـافرة بمـن قـد «يعـرف» مـن النّـاس والكائنـات- مـا كان، غريزيّـاً (أيضـاً)، صديقـاً (بالمعنـى المنفتـح، الشّخصيِّ-الإعترافي، الحميمـيِّ) لأيٍّ مـن قُربائـهِ وكأنّـه، مُنـذ البـدء ، كان- وإن لم يحـسُّ هـو، أبـداً أو يومـاً، ، بمجـدِ ذلـكَ أو إشراقـه فيـه بـأيِّ تمـامٍ يقينـيٍّ مـا أوامتـلاءٍ راضٍ- ممّـن وصفهـم أبـو العـلاء المعـرّي، آنَ شـعرٍ، بأنّهـم- فيـما معنـاه- مـن «ذوي الفضـل» الّذيـنَ هـم «في **أوطانهـم** غُرَبَـاءُ» إذ «تشـذُّ وتنـأى عنهـم القُربـاءُ». نعـم هـو، مجـذوب الطيّـب، كان، دومـاً، آنـاء طفولتـه وصبـاه وحتّـى الآن (بحسـب مـا يذكـر)، مهذّبـاً مـع أولئـكَ- بالـذّاتِ- جميعـاً إن هـو لاقاهـم أو شـاءت لـه الظّـروف أن يتحـدث معهـم- شـخصياً أو تلفونيـاً أو- قليـلاً- كتابـةً. فأصدقـاء مجـذوب الطيّـب لم يكونـوا، إلا قليـلاً، مـن أقربائـه في الـدّم. وذلكَ منذ عهـدِهِ النِّصفِ-منسيٍّ الآنَ (أو أزيـد كثـيراً) بالطفولـةِ الغائـرةِ في البعـدِ ومنـذ أيّامـه العتيقـةِ في مدرسـة كوسـتي الأوّليّـة رقـم 4 (الشّـهيرة

في تلـك الأيّـامِ بكُنيـةِ «مدرسـة جَبَـور»، وذلـك هـو اسـمُ أوّل ناظـرٍ مؤسّـسً لهـا) التـي كانـت هـي بحـيّ الحِلّـةِ الجّديـدةِ المرمـيِّ- باللـهِ- عنـد شـمال خـطّ السّـكّةِ الحديديّـةِ العتيـقِ الـذي كان يشـقُّ مدينـةَ كوسـتي الباسـلَةَ (كـما كانـوا يصفونهـا في مكروفونـات الدعايـة للأفـلامِ السـينمائيّة ولمباريـات كـرة القـدم وللمهرجانـات «الوطنيّـة») إلى فريقـين مختلفـين مـن النـاسِ والبيـوتِ، المجتمعـاتِ والبنايـات:- ذلـكَ الـذي هـو عنـد شـمال خـطٍّ قضيـب السـكّة الحديديـة الرئيـسيّ الوحيد وذلـكَ الـذي هـو عنـدَ جنوبـهِ. وقـد حـاكى ذلـك التقسـيم، بطريقتـه الخاصـة وبشـبهٍ ليـس بعيـداً في سوسـيولوجيّتهِ وطبقيّتـهِ، تقسـيم البـلاد السـودانيّة، في عمومهـا، إلى شـمالٍ وجنـوبٍ، جغرافيين وسياسـيين معـاً. وذلـكَ مـع قلـب «الصيغـة الشّرعيّـة» الطّبقيّـة في حالـة مدينـة كوسـتي (الباسـلة، كـما أثبتـت، مـراراً، مايكروفونـات الدعايـة الرياضيّـة والسـينمائيّة العاويـة بصـوتِ وصـورةِ كوسـتَاويِّين عريقـين مـن أمثـالِ أولاد نـاس عكاشـة الجّماهيريّـي الجّهريّـة!) إلى عكسـها جغرافيّـاً إذ أنّ مـا هـو عنـد شـمالِ خـطِّ السّـكّةِ الحديـديِّ العتيـقِ في تلـك المدينـةِ كان (وأظنّـه مـا يـزال!)، في إجمالـهِ، عُمَّاليَّـاً، فقـيراً، مُهمّشَـاً، في واقـع وإمكانـات تغـيّره الاجتماعيـة والاقتصاديـة فيـما هـو عنـد جنـوب خـط السـكة الحديـديِّ الطّبقـيِّ فيهـا، عمومـاً، مـكان، بـل «بـكان»، موظفـين وتجـار وذوي «مصاريـنٍ بيضـاء»، نسـبيّاً، باليُـسرِ والكسـبِ الاقتصـاديِّ والاجتماعـيِّ والسـياسيِّ فهنـاكَ، عنـد جنـوب خـطِّ السّـكّةِ الحديـديِّ إيّـاه، وفيـما وراء سـوق مدينـة كوسـتي المركـزي المنـبرش عرضيـاً فيـما بـين سـينما كوسـتي الوطنيـة وحديقـة البلديـة ومكتبـي المسـاحة والأراضي والمجلسـين البلـدي والريفـي مـن عنـد غربـه وسـوق المَلَجَـة مـن عنـد شرقـه، حـيُّ الموظفـين والتّجـار القديـم المُسـمّى حـيُّ المرابيـع

حيث نادي التّنس وحيّ النّصر الحديث الذي يُكفي أن يُقْتَبَسَ عن نساءِ حيّ الحلّةِ الجديدةِ (ومجمل أحياء جنوب خط السّكّةِ الحديديِّ العريق) أنّهُنَّ يقُلْنَ للواحدةِ من نسائه، عند تصوّر اشتعال الشّجار ومن ثمّ «الشَّنَافِ» بينها وبين إحدى نساء الحلة الجديدة (أو أيٍّ من النساءِ السّاكناتِ في رقاعِ جنوب قضيب السكة الحديدية الشعبيّةِ المُنكشحةِ المُترامية)، «يا مَرَة النّصرِي اقفلي الباب واختصري!»، بكلّ ما في ذلكَ من دلالةٍ فولكولوريّةٍ عميقةٍ على استنكافِ عائلاتِ الشّبعانين من أولادِ الذّواتِ و«الجَّلالاتِ» التجاريّةِ المجيدة الاختلاطَ الحرَّ المُباشِرَ مع عائلاتِ عيالِ المساكينِ من أبناءِ الغبارِ والطّينِ من السُّلالاتِ البشريّةِ المتتابعةِ والباقيةِ، جيلاً بعد جيلٍ، بفضلٍ أساسيٍّ من قيمةِ تكافلِ الفقراءِ الإجتماعيِّ والميتافيزيقيِّ العتيق.

أوّلُ ذكرى حاضرة (صورة حاضرة) لتعرّف مجذوب الطيّب الإستثنائيّ بذلك الولد الخُرافيِّ الرّيحانيِّ الغائبِ تشُوفُهُ الآنَ، بتشوُّشٍ يكاد أن يكون تامّاً، نحيفاً ومُسواكيّاً وطويلاً وأسمراً فاتحاً مثل حلفاويٍّ أو يونانيٍّ، ثمّ طيفيّاً وكأنّه لم يكن- أبداً- سليلاً طينيّاً لهذهِ الأرضِ البُنّيّةِ التي لم يكُنْ (إلا تقريبيّاً/**تجريبيّاً**) لأمثالِ مجذوب الطيّب من النّاسِ، في الحسِّ والتّحليلِ العينيِّ المباشر، مُطلقاً غيرها. مثلُ ذلكَ، أو ما يُظنُّ فيه شبهاً بهِ، قد جرى، في نفس مجذوب الطيّب، عندما كان ذلكَ **الرَّيْحَانِيَّ الرّومانتيكِيَّ الخُرَافِيَّ الغائب** مشاركاً (في مدينة الخرطوم الكبيرة وليس مدينة كوستي!)، بالتّمثيلِ الدِّراميِّ، في الدورة المدرسيّة الثقافيّة عن إحدى المدارس الثانويّة العليا في مدينة كوستي وما هو (مجذوب الطيّب) يحاوله

الآن ليـس إلا اسـتعادةً شـاحبةَ اللّـونِ، أو مُشَوَّشَـةً، لذكـراه.

ينـطُّ حـسُّ مجـذوب الطيّـب المُوجـوعِ المَفَاصِـلِ، عـلى حـين غـرّةٍ في البـال، مـن تلـك الذكـرى المتربـة بالضبـاب وسـأم الحـاضر العصبـيّ إلى ثُلّـةٍ مـن الكتابـاتِ عـلى ورقٍ عتيـقٍ ملـوّثٍ ومعفّـرٍ بـروثِ طـينِ مطـرٍ حجـرةٍ كان مجـذوب الطيـب يؤجّرهـا (بالتّشـاركِ مـع صديـقٍ صـار فيـما بعـد دبلوماسـيّاً «قـاسي الطّلـبِ»- كـما كانـت تُغنّـي البنـاتُ قديمـاً!) في منـزلٍ بحـيّ المايقومـا بالديـوم الشرقيـة لمدينـة الخرطـومِ الشـعبيّةِ القديمـة وأوقعتهـا سـيول عـام 1988 العاصميّـةُ الشّـهيرةُ في حفـرةٍ مـا كانـت قـطَّ قـد تصـوّرت حفرهـا لأخواتهـا وأخوانهـا مـن مسـاكين الحجـراتِ والمخاليـق! كان الرّيحـانيُّ الغائـبُ قـد تـرك- تلقائيّـاً- تلـك الأوراق المعطـاة، بـدون كبـير عنايـةٍ، اسـم «أشـياء خاصّـة» لمجـذوب الطيـب (حبيبـه، كـما كان يناديـه ممتلئـاً بالابتسـامِ وليـس الضّحـكْ!) قبـل تمثّلـه في، أو تَمَاثُلِـهِ، إلى/مع تلـك الهجـرةِ العربيّـةِ الطّويلـةِ التـي فقـد، إثرهـا، مجـذوب الطيّـب اسـمه، في نَفْسِـهِ ونَفَسِـهِ، ومـا عـاد قـادراً عـلى أن يشـير إليـه (بمقتـضى ضرورة الـكلام فحسـب وإلا فليـس لـه إلا الصّمـت إزاء مَشْـغَلَتِهِ الجُوّانيّـةِ الغَمِيْسَـةِ تِلْـك) سـوى باسـم **ذلـكَ الرَّيْحَـانِيِّ الرّومانتيـكِيِّ الخُـرَافِيِّ الغائـب**- بـكُلِّ طـولِ، أو رُغـمَ كُلِّ طُـولِ، شـبه الجّملـةِ تلـكَ، ثُـمَّ رُغْـمَ غنائيّتِهـا المُهَوِّمَـةِ بـلا مـدىً مُتَخَّـمٍ أو «موضـوعْ»!

ثُـمّ يلـوى مجـذوب الطيـب، مـن بعـد ذلـكَ، عـلى صـورٍ حادثيّـةٍ («عينيّـةٍ») صغـيرةٍ لذلـك الولـدِ الرّيحـاني وهـو معـه عنـد مجامـعٍ ومواقـفٍ مُشـتّتَةٍ (كبـذورٍ ذاتِ معنـىً) إلا أنّهـا، في ذاتِ الوقـتِ، مضمومـةً- تحتانيّـاً- بطينـةٍ واحـدةٍ مـن المَشْـجِ/العيشِ الإنسـانيِّ الحـي.

3. كيف عرف مجذوب الطيّب «الأبنوسة» التي «تراءت» زوجة؟

عندما كتب الروايُّ هذا العنوان الجانبيِّ الذي هو فوق كان مجذوب الطيّب (في بدء شهرِ إله الحرب في عام 2009) يا دَوْبَ عند المنعطف **العمليّ** الأخير لفصاله النهائيِّ عن «الأبنوسة التي تراءت زوجة». قبل ذلك كان مجذوب الطيّب قد- طبعاً أو كما هو معهود- كتب إلى «الأبنوسة التي تراءت زوجةً» عدداً لا يعلمه الآن من الرسائلِ، تمهيديّاً ومُرّاً وناشفاً. [يُفضّلُ مجذوب الطيّب الآنَ، خُزُعبُلاتيّاً أو شَعْوَذَاتِيّاً، أن يَحسَبَ أنّ الأخيراتِ (وبالتالي الأنشفَ والأكثرَ **عمليّةً**) من تلك الرسائل التي كانت مُتدحرِجَةً- كحجرٍ متآكلٍ- نحو الفِصالِ كانت ستَّةً في العِدادِ وذلك ربّما لأنَّ «سِتّةَ» قد كانت، في علم الأرقام الكابلائيِّ/السّحريِّ القديم، هي رقم نجمة داوؤد وإلهه الذي كان متبدلاً، بعُسرٍ ومُغالبةٍ شاقّةٍ للأنفس، خلال العشر سنوات الأوائل من القرن الذي بدأ به زماننا وتاريخنا الجريجوريّ الحالي- قرن المسيح وعيسى المُخلّص و«الرّوح القُدس»، الشيءُ الذي يمرُّ به تاريخ مجذوب الطيّب الشخصي- و«غير الشخصي»- الآن وعند قرب تمام العقد الأول من بعد رأسِ القرنِ الجديد الذي كان قد زُعمَ، بموجبِ التقوى الفائضة عند بعضِ أنبياءِ نِحَلِ تَدَيُّنٍ قديمةٍ-جديدةٍ أنه سيكون- والمعاني مثانٍ بل وحمّالةِ أوجهٍ- قرن بعثٍ وقيامةٍ، بل و«قِياماتٍ»، جدّيدة!]. في بعضِ الأخيراتِ من تلك الرسائلِ التمهيديّة والمُرّةِ والنّاشفةِ كان مجذوب الطيّب قد حدد- بالفعل- قيداً زمنيّاً للـ«الأبنوسةِ التي تراءت زوجةً» قال لها وفقه، بنزقٍ ولهوجةٍ طِبقَ الأصل، أن تعتبر

نفسـها بعـده مُطلَّقَـةً عنـه ببيـنٍ نهـائيٍّ وتـام! ثـمّ عَمَـهَ مجـذوب الطيّـب في ذلـك النّـزقِ العصبـيِّ الـضّروريِّ- مُلغيـاً، بقهـرٍ، أيِّ جُهـدٍ عـلى سـبيلِ أيِّ «نِقَّـةٍ» عقلانيّـةٍ ثرثـارةٍ و«حَـوَّارةٍ» لم يكـن، في أصـلِ أيّامـه الأخـيرةِ تلـكَ كلِّهـا، بـأيِّ معنـىٍ، أو حـسٍّ أو عصـبٍ أو نَفْـسٍ، إلا لا مباليـاً قهريّـاً بهـا- حتّـى وصـلَ إلى حـدِّ حـدّةٍ بـرمٍ نهـائيٍّ برُمّـةِ تلـك **العلاقـةِ** وسـنينها الكثـيراتِ جميعهـا أوصـل يـده لأن تتفـكّك عنهـا الأصابـع المتوفّـزةِ بالإعيـاء (أم هـو العـماءِ؟) الجّامـح كاتبـةَ الشّـهادةَ الرّسـميَّةَ التّاليـةَ الكاتمَـةَ، بجـدارةٍ باشـكاتبٍ بيروقراطـيٍّ عتيـدٍ، غيظـاً قديمـاً فيـه، متورّمـاً ولا فـكاكَ لـه عنـه إلا الـكيِّ الحـارقِ المُطلـقِ الأخـير- إن يكُـنْ، في الحـقِّ وليـس في صِرْفِ الرّجـاءِ الشّـجاعِ وبَـسٍّ، **أخـيراً**:-

شهادةٌ لمن يهمُّه الأمر

أنـا، مجـذوب الطيّـب الكـذا الكـذا، المُوقّـعُ أدنـاه، أعلـن، بكامـلِ أهليّتِـيْ وقـواي العقليّـة وأقُـرّرُ، مـن طـرفي طلاقـيَ البائـن من السّـيّدةِ ...... *[*وهنـا يُكتَـبُ اسـمُ «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـةً» مُربّعـا*]* التـي تزوّجتُهـا بتاريـخ *30* يونيـو *1993* وبغيـابي وبوكالـةِ السـيّد الباشـمهندس كمال مُحمّـد نـور وبـذا أُحِـلُّ نفسي مـن أيِّ التزامـاتٍ زوجيّـةٍ شرعيّـةٍ تجاههـا، كما وأُحلُّهـا مـن أيِّ التزامـاتٍ زوجيّـةٍ شرعيّـةٍ تجاهـي واللـهُ عـلى مـا أقـولُ شـهيد.

حُرّرَ بلندن، المملكة المتّحدة بتاريخ الأحد *26 /8 /2007.*

- **مُرفقٌ، مع هذه الشّهادة صورةٌ من عقد الزّواج**

وذاكَ «العقـدُ» المذكـورُ في آخـر سّـطرٍ مـمَّا فـاتَ كان معنيّـاً بـه البيـان الـذي، بمُوجِبِـهِ، قـد صارت (عنـدَ بـدءِ قيـدٍ زمنـيٍّ معـيّنٍ) تلـك

«الأبنوسـة»، التـي كانـت «مُجـرّدة» مـن قبـل، «مُترائيـةً»، عِنْـدَ عِنْـدَ مجـذوب الطيّـب، زوجـةً!

***

رأى مجـذوب الطيّـب، لأوّلِ مـرّةٍ في أيّامِـهِ مـن الدّنيـا، «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـةً»- بطـرفِ عيـنٍ كان فمُهـا، آنـذاكَ، مشـغولاً بـشرب كـوبِ مـاءٍ دلقـه مـن جَرَكَانـةِ مـاءٍ بـاردٍ بلاسـتيكيّةٍ كانـت محفوظـةً في ثلاجـةِ مكتـبِ سـكرتيرةِ شـعبةِ الفلسـفةِ العتيـدةِ بكليّـةِ الآدابِ بجامعـةِ الخرطـوم- عنـدَ دارِ شُـغْلِ «العصفـورةِ الضّاحكـة». كانـت «العصفـورةُ الضّاحكـةُ» صديقـةً مُشاكسـةً لتلـك التـي «تـراءت زوجـةً» مـن قبـلِ تعرفهـا بمجـذوب الطيّـب لعـددٍ مُقـدّرٍ، فيـما يمكـن لخيـال مجـذوب الطيـب أن يُحـصى- فيـما بعـد- مـما تذكـره مـن «طريقـةِ تقابلهـما بالشـعبة، مـن عُمـرِ السـنين فهـما لم تُخـبراه بـ»حقيقـةِ» ذلـك مطلقـاً حتـى لحظـة الكتابـةِ هـذه بـل اكتفـت «التـي تـراءت زوجـةً» بـأن قالـت، ربّمـا في رسـالةٍ (نعـم هـما كانـا يتفاهـمانَ، كثـيراً، بالرسـائلِ أو أشرطـةِ الكاسـيت)، بـأنّ معرفتهـا بـ»العصفـورة الضاحكـة» كانـت صدفـةً ولم تكـن جديـدةً وأنّ «العصفـورة الضّاحكـة»، رُغـمَ كُلِّ «شَـكَلِهَا» ذاك ومشاكسـاتها قـد كانـت، في النّـ.. هايـة، «بنتـاً ظريفـةً وشـديدةَ العُشَريَّـة». (ربّمـا جـاءت «في النِّــ.. هايـةِ» تلـكَ مـن بقايـا هـوامِ عوالـقِ زواجٍ سـابقٍ، لـلـ»الأبنوسـةِ تـراءت زوجـةً»، مـن «مُناضـلٍ عريـق» أو مـن تواجدهـا المبـاشر في صَيوانـاتِ حملـة الدعاية الشـديدة لفـوز سـكرتير الحـزب الشـيوعي السـوداني العتيـق- مثلـما في وصـفِ «الجّامـع العتيـق» مثـلاً!- التـي كانـت منصوبـةً، بصـبرٍ وعنـادٍ وتفـاؤلِ النّمـلِ المُخـزّنَ لقوتـه لمقبـل الأيّام،عنـد زوايـا بيـوتٍ عديـدةٍ مـن أركانِ

حيّهـا الشـعبيِّ-الأفريقيِّ- الخُرطومـيِّ القديـم- هـذه مجـرد ملاحظـةٍ عابـرةٍ لـراوٍ ثرثـار.)

لمّـا شـهد مجـذوب الطيـب، للمـرة الأولى، طرفـاً جانبيـاً مـن وجـه وجسـد «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـةً» التقطـت أذنـه- دون انتبـاهٍ مُحـدَّدٍ، أو مُجـدِّدٍ، وقـد كان لم يـزل بعـدَ في منتصـفِ عمليّـةِ شُربِ كـوبِ مائـه- أواخـر شيءٍ قالتـه (تلـكَ التـي «تـراءتْ زوجـةً») للـ»العصفـورةِ الضاحكـةِ» بعصبيّـةٍ شرسـةٍ وواضحـةٍ:- **يـا خـي المظاهـر مـا مُهمّـة في الدّنيـا دي والـكلام الـزي ده خلّيهُـمْ يقولُوهُـو لي زولـة تانيـة غـيري.** طبعـاً لم يكـن- غالبـاً- ذلـكَ هـو، بالضبـط، مـا قالتـه تلـكَ «الأبنوسـةُ»، في ذلـك الزمـان البعيـد، للـ»العصفـورة الضّاحكـة»، إلا أنّـه- بالتّأكيـدِ- مـا أخطـأ كونَـه شـيئاً موازيـاً لـه في الأثـرِ والانطبـاع. وقـد واتى مجـذوب الطيّـب ذلـك التّأكيـد- أساسـاً- لأنّـه كان، بالضّبـطِ، غـيرَ معنـيٍّ أبـداً بالمظاهـرِ (لا في ملبسـهِ ولا في «طريقَـةِ» حديثـه) في أيّ لحظـةٍ، مـن عمـرِهِ، عرفهـا، أو أحسّـها، ثـمّ، بالـذّاتِ، في تلـك اللحظـةِ الصغـيرةِ المُنعطفـةِ نحـو «زَنْقَـةٍ» جديـدة مـن تاريـخِ حياتـه. كان مجـذوب الطيّـب يلبـس، في ذلـك اليـوم، فانلـةً ديمقراطيّـةً ملوّنـة وقصـيرة الكـم مـع بنطـالٍ بُنـيٍّ خفيـفٍ ومُخطّـطٍ مثـل سروالٍ بنغـالي فنفـى، بذلـك، عنـه، بجـذلٍ، أيَّ «صـورةٍ مُحترمـةٍ» يمكـن تصورّهـا عنـه، في خـلاف ذلـك مـن الأحـوال، إن هـو قيـل عنـه، في زمـانٍ ومـكانٍ آخـرٍ، أنّـه «مسـاعد تدريـسٍ»، أو حتّـى «أسـتاذٌ» (كـما كانـوا هـم عـادةً يقولـون)، في جامعـةِ الخرطـومِ- هكـذا دفعـةً ورجمـةً واحـدةً!

مـا أن وَقَعَـتْ، عنـد مجـذوب الطيّـب، جُمْلَـةُ «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـةٍ»، عصبيّـةً وشرسـةً بجـلاءٍ وغيـظٍ، حتـى اسـتُوفزَ مـن

لسانهِ، فجأةً، هذا الرّدُّ الوقح التلقائيُّ عليها:- **أنا بشوف أنّو أول لحظة تعرّف لي زول بي زول تاني حقّو هو يبدو فيها، مظهريّاً، على أسوأ صورةٍ ممكنةٍ له من الصّور!** ثم مضى مجذوب الطيّب خارجاً من المكتبِ، بهدوءٍ، إثر ذلك الحديث إذ لم يجد في نفسه حساً يدفعه- على الأقلّ- إلى التلكؤ في الذهاب عساه يتحسّسِ رِدَّةَ فعل ما تحدّثَ به عندَ القادمةِ الجديدةِ التي ما كان قد رأى هيئتها، حتى ذلك الوقتِ، إلا بعموميةٍ غائمةٍ ونصفيّةْ. وقد كلمّته «الأبنوسة التي تراءت زوجةً»، من بعدِ ذلك، في شريط كاسيت أو رسالةٍ (فهو لا يذكر ذلك الآنَ تماماً أو بالتّحديد)، بأنّها **ما كانت قد «حسّتْ» به** في تلك اللحظات الأولى إلا أنّها، مع ذلكَ، سألت عنه، توّاً، «العصفورة الضّاحكة»، بعجلةٍ عصبيّةٍ، «ده كان مِنُو؟! ده كان مِنُو؟!» فأجابتها الأخيرةُ (بدونَ زيادةٍ أو نُقصان) بأنّه «مساعد تدريس و**زميل** جديد عيّنوه في شعبة الفلسفة.........»

في المرة الثانية التي لاقى فيها مجذوب الطيّب «الأبنوسة التي تراءت زوجةً»- وكان ذلك في الثانية عشرة ظهراً من يومٍ من أيّامِ صيف -1985 قالت له «العصفورةُ الضّاحكةُ»، بمرحها الهيّن اللذيذ، «هذه هي خالتي........ (وذكرت الاسم الرسميَّ للتي «تراءت زوجةً)». ابتسم مجذوب الطيب، بحزنٍ خفيفٍ ولوّامٍ قليلا، إذ رأى سواد «الأبنوسةِ» المخفي وراءه، ضمنيّاً، أسى وتشكّياً وبَرَمَاً زاريّاً [من «الزّار»] مُخَمَّراً وقال، ببساطةٍ، «لا يمكن لتلكَ أن تكون أختك. ليس بسبب هيئتها، أو لونها فقط، ولكن ذلك ما يقوله وجهها وملامحها و**رُوحها** و.........» «وماذا؟» قاطعته «العصفورة الضاحكة»، مُكايدةً، ثمَّ ابتسمت باستمتاعٍ

مٌغوٍ، متواطئٍ، فارتسمت شقاوةٌ ونيّةٌ صديقةٌ مُبيّتةٌ في كُلِّ هيئتها القمحيّة الطويلةِ ذاتِ الفصدة على أحدِ الخدّين. لم يوالى مجذوب الطيب حديثه واستأذنهما في الذهاب لكي «يرى» مكتبه. هناك، في المكتبِ الرّكنيِّ، أخرج مجذوب الطيّب، توّاً، جهاز مسجّل ناشونال كلاسيكيٍّ وأسودِ اللّونِ ومُستطيلٍ قليلاً (كبيتٍ مبنيٍّ وفق خارطةٍ معماريّةٍ وُضِعتْ لبيتِ طُوبٍ أحمرٍ تقليدي) وأوصله بالكهرباء ثم أشغل فيه- بمِزاجٍ غريبِ الرّاحةِ و،في نفسِ الوقتِ، الحزن- شريط كاسيتٍ انفلت منه، تَوَّاً وبشجىً مُعتّقِ الفُقدانِ، صوت سلطان الطرب السودانيِّ الغريقِ بهيامه، الغميس الغميس، التاج مصطفى مُتهدّجاً بقماريهِ:- **شُفتَ البان مِمَيّل وتحتو الصّيد مِقيّل يا دمعي المِسيّل لي ام ثغراً مِنيّل........ شُفتَ البان مِمَيّل وتحتو الصّيد مِقيّل يا دمعي المِسيّل لي ام ثغراً مِنيّل........ شُفتَ البان مِمَيّل وتحتو الصّيد مِقيّل يا دمعي المِسيّل لي ام ثغراً مِنيّل........ شُفت........** هكذا إذاً، دفعةَ أبياتٍ واحدةٍ معاً، ثمّ دَفعةَ أبياتٍ واحدةٍ أخرى- هي ذات الأبيات- معاً، مرّةً أخرى، فأخرى، فأخرى.

أما اللّقاء الثالث فكان صوتيّاً سألت فيه «الأبنوسة التي تراءت زوجةً» مجذوب الطيب- إذ كان هو الأسرعَ في الهَرولةِ إلى «مكتب رئيس شعبة الفلسفة» للرَّدِّ على مكالمةٍ هاتفيّة عبر تلفونها الأساسيِّ والوحيد- عن ما إن كان ممكناً لها أن تُحادثَ «العصفورة الضّاحكة». ثمّ، قبل أن تسمع ردّه، فاجأتَه، بصوتٍ أنثويٍّ تينوريٍّ رخيمٍ وعصبيٍّ قليلاً، بكلام أنّها **مُشتاقة ليهو شوق شديد شديد شديد!** ما كان قد احتاج أن يسألها من هي لأنه- رغم سماعه لصوتها مرّةً واحدةً من قبل، أو ما قد يزيد على ذلكَ بنِصفِ

مـرّةٍ واحـدةٍ فقـط- قـد عـرف، مـا أن جـاءه الصـوت عـبر سـمّاعة الهاتـف، مـن هـي ومـن قـد تكـون، ثـمّ أكـدت هـي ذلـك عنـده بذكـرِ اسـمها فـوراً عندمـا سـألته أن يُوصلهـا، هاتفيّـاً، بـ»العصفـورة الضاحكـة». لا يذكـر مجـذوب الطيـب إن كان قـد وجـد لهـا، مـن بعـد ذلـك، «العصفـورة الضّاحكـةَ» في مكتبهـا، أو حتـى في عمـومِ دِيـارِ الشُّـعبةِ، لـكي تُناغمَهـا. لكنّـه تهمّـم، ثـمَّ تهلـوسَ، مليّـاً، بذلـك الـكلام الـذي كان شـعوره الأوّليُّ، و**الأصـليُّ**، تجاهـه- فيـما يسـتعيد الآن (في عـام 2009)، أنَّـه يُهيئـه، خطـوةً فخطـوةً، نحـو **انحجـازٍ ضروريٍّ، عـلى نحـوٍ مُبهـمٍ، في داخـلِ حُفـرةٍ**. (بعـد أن كتـب الكاتـبُ، أو الـراوي، هـذا الـكلام وأعـاد قراءتـه لـكي يُصححـه، إن يقـدرَ هـو عـلى ذلـكَ، تذكّـر قصيـدةً كتبهـا الشـاعر السـوداني الصديـق محمـد نجيـب محمّـد عـلي، في عـام 1981، وأعطاهـا عنوانـاً فُكاهيّـاً مريـراً هـو «**محـاولاتٌ للفـرارِ مـن شيءٍ حجـزني داخـلَ حفـرةٍ**» فضحـكَ، ومـا يـزالُ، إثـرَ ذلـك ومـا بعـده، ضحـكاً شـديداً ومجنونـاً ومُتقّطعـاً لم تجـد، عنـدهُ، أيُّ ناجـزةٍ مـن نواجـزهِ فرصـةً لهـا في أيِّ تبـيُّنٍ، تَوَضُّـحٍ، أو حتّـى توكُّـدٍ عُـدوانيٌّ خفيـفٌ ومضمـرٍ ولـو كان ذلـك حَقّانيّـاً ومُنصفَـاً!).

الكتابُ السّادس

1

عندما جاء الرّومانتيكيُّ الرّيحانيُّ الغائبُ لدراسةِ المسرحِ في معهدِ الدراساتِ الإضافيّة بجامعةِ الخرطوم دخل في مجذوب الطيّب من حيثٍ ما كان يعتدُّ به مجذوب الطيب، كثيراً، في نفسه. وذلكَ هو ما كان يُسمّيه فيه الأصدقاءُ القريبون جانب «حكمته المعهودة» رُغم «طلاشتِه» البائنة التي أشارت إليها فيه صديقتُه الماضيةُ- أو فلنقل، بفألٍ، «القديمة»- التي كان يدعوها، بتهوّرٍ خليٍّ، باسم «النّعناعة» (هل تحدّثنا عنها هنا؟). وقد ثبّتت «النّعناعةُ» هذا النعتَ فيه، بمودّةٍ مُشاغبةٍ ومُبَاشِرَةٍ، بعد هجرتها إلى الخليج وقد كانت، من قبل، تعمل معه في «وكالة السّودان للأنباء- قسم الإرسال الخارجي» مُترجمةً للأخبار والتقارير السياسيّةِ من اللغةِ العربيّةِ الصحفيةِ إلى فرنسيّةٍ صحفيّةٍ فصيحة. كانت «النّعناعةُ» لمّا تزل، حينذاكَ، جديدةً وغريرةً عندَ صحاري بترودولارِ الخليج ولم تعصف- بعد- بخطيبها القديم كي تدخلَ في ردِّ فعلٍ زواجٍ مفاجئٍ من شخصٍ ما عرفتهُ من قبل في السّودان وكانت تدعوه، من بعد ذلكَ، باسم من ندعوها- كثيراً- لكي تهبُّ علينا من الجّهاتِ الأربعِ حين نروم- بيأسٍ خلاقٍ أو غير خلاقٍ- تغييراً تامّاً في مآلاتنا. وقد تعنعنَ النّعتُ المعنيُّ منها إليهِ في رسالةٍ طازجةٍ، كلبنِ بِنتِ لبُونٍ، بعثتها إليه من مِهجرها الصّقيلِ إلى غُبارهِ الخرطوميِّ وكتبت فيها،

في معـرضِ شَـوْقِها لمقـالٍ لـه كان قـد نُـشِرَ في الملحـقِ الثقـافيِّ لصحيفـةِ «الخليـج» الظّبيانيّـة، إنّهـا- حـين قـرأت إسـمَهُ «الأروشَ» مطبوعـاً في تلـك الصحيفـةِ الشّـبعانَةِ- كانـت قـد» **نَسـيَتْهُ حبّـةً**»، ثُـم «»**تذكّـرتْ طَلاشَـتَهُ**»!

«»**لكنّ مـن الحكمـةِ مـا فـتن!**» ذلـكَ كان- بعـد السَّـلامِ- أوّلُ كلامٍ شـابَهَ جُملـةً كان مجـذوب الطيـب قـد أسرَّ بـه- مُطْلَقَـاً عـلى عواهنـه ودون أيِّ خشـيةٍ مـا، أو أخـرى، مـن نَفْسِـهِ- **للرومانتيـكيِّ الرّيحـانيِّ الغائـبِ** حينـما لاقـاه لأوّلِ مـرّةٍ منـذ قدومـه، للعيـشِ والدراسـةِ، في مدينـةِ الخُرطـومِ التّـي لَمَـا تـزلْ منهـا وفيهـا «الطّيّـارة بتقـوم والرئيـس بِنًـومْ».

ضحـكَ «الرّيْحَـانِيُّ»، بسـهولةٍ طويلـةٍ وغريبـةٍ أو مُسْـتَعجِبَةٍ، عنـد سـماعه لهـذا الـكلام. ذلـكَ كأنّـه كان قـد **سَـمِعَ** بـه، مـن قبـل، ثَـلاثَ مـرّاتٍ مُتتابعـةٍ في حُلُـمٍ مُسـتعادٍ، بِقُـوّةٍ مُنبئـةٍ أو رُبَّمَـا «مُنـذِرَةٍ»، لثلاثِ مـرّاتٍ ورآهُ- الآنَ و»قبـلَ صيـاحِ الدّيـكِ ثلاثـاً»- حقيقـةً في حياتِـهِ. ثُـمَّ عَلِـمَ- في الحـالِ وبِغِنـاءٍ تـامٍّ عـن السُّـؤال- أنَّ علاقـةً طويلـةً وجذريّـةً، مـع ذلـكَ «التّهويمـيِّ» (مجـذوب الطيّـب)، قـد ضُرِبَ- الآنَ- جَرَسَـهَا فيـهِ، كـما وفي مجـذوب الطيّـب، مُنـذُ اللّحظـةِ التّامّـةِ الإكتـمالِ لذلـك القـولِ الـضّروريِّ الإنفـلاتْ.

كانـت المحبّـةُ الخصوصيّـةُ بـين «الرّيحـانيِّ» و»التّهويمـيِّ» (مجـذوب الطيّـب) ذاتَ ليُونـةٍ ووهـجٍ. وتلـكَ الثانيـةُ- وهـجٌ- هـي كلمـةٌ كانـت عزيـزةً جـدّاً في كتابـةِ مجـذوب الطيّـب. وذلـكَ حتّـى قبـل أن يُسـمّى جريدتـه الحائطيّـة في عهـود «مقهـى النَّشـاط» الجّامعيِّ-الخُرطُومـيِّ الخـوالي باسـمها فيُخـطُّ، بحـروفِ مانشـيتٍ كبـيرةٍ، عليهـا، [في غالـبِ

أعدادهـا وبخطِّـه «المُكَعْـوَجِ» المائـل للكتابـةِ العربيّـةِ الكُوفِيّـةِ كـما كان يقـولُ عنـه بعـضُ سُـمّارِهِ القُدامـى، كـما والمُتميِّـز التعـرّج و«العاطفـة»]، كلمـة **الوهـج**، كبـيرةً ملويّـةً وتحتهـا، ملويّـةً أيضـاً، عناوينـاً مانشـيتيّةً رئيسـةً مُزَجَّجَـةً، بـل وأحيانـاً مُدَجَّجَـةً، بامتيـازٍ وتَغييـظٍ مُتعمّـدٍ، بالشّـعرِ والتّفلسُـفِ ولا مباليـةً- إلا عنـد **الـضّرورةِ العمليّـةِ** القُصـوى- بأكـثرِ مـما قـد يعُدُّهـا رفاقـهُ السّياسـيّون مـن راديكاليّـي التّجَعجُـعِ الصّخّابـينَ والجَّهريِّـين شـؤونَ سياسـةً قُحّـةً، فجَّةً- بالـضّرورةِ- ثـمَّ- والعُهـدةُ عـلى المُفوَّهِـيْنَ عليهـا- «يوميَّـةً» و«مُبـاشِرَةً». أمّـا اللّيُونـةُ فهـي قـد تَشَـنَّقَتْ فيهـما (كموسـيقى)، في أحيـانٍ وامضـةً خاطفـةٍ أو أزيـدَ قليـلاً، بحسـيّةٍ حميمـةٍ وقريبـةٍ أوشـكت أن تُـدَلِّي فيهـما- اجتماعيّـاً- «تُهمـةً» مُضمَـرَةً ليسـت بعيـدةً مـن (لكـن ليسـتْ تمامـاً كـ) تلـكَ التـي تحـدّثَ عنهـا الإنجليـزيُّ المُتناقـضُ أوسـكار وايلـز (مـن حيـثِ كونِـهِ، مَثَـلاً، القائـل بـأنّ «أفضـل طريقـةٍ لمقاومـةِ الإغـراء هـي **الإستسـلامُ** لـه»!)، ضمنيّـاً، عندمـا، لا مُبَـاشَرَةً، سـخرِ مـن شـأنِ «الوَصْـمِ» المُمكـنِ لَـهُ بـ«تُهمـةِ» مـا صُـوِّرَ لـهُ- شُـبِّهَ لَـهُ- عـلى أنّـهُ «**الحـبُّ الـذي لا يجـرؤُ عـلى أن ينطِـقَ اسـمَه *the love that doesn’t dare speak its name***».

2

كانـت تمُـرُّ بمجـذوب الطيّـب، رُغْـمَ ذلـكَ كُلّـهِ أو رُبمّـا **بسـببِ** ذلـكَ كُلّـه، أيّـامٌ عاديـةٌ، «عاديـةٌ بالزّبـادي!»، كـما في لازمـةٍ شـهيرةٍ لصديـقٍ لمجـذوب الطيبـكان، في تلـك الأيّـامِ، اسـمُهُ «سـايح». ثـمّ، بعـد مـرورِ أيّـامِ الغيـابِ الخامـلِ تلـك، كان وهـجُ (أيضـاً «وهـجُ»؟) كِبريـتٍ بُرتقـاليٍّ قـد يُوقَـدُ، في شـأنِ لمحـةً أو لمحتـين، فيـما بـين مجـذوب الطيّـب و»الرّيحـانيِّ» فيسـمعان الغنـاءَ السـودانيَّ السّـتّينيَّ معـاً، بإمعـانٍ وتوحُّـدٍ غريـبٍ، أو هـما، آنـذاكَ، قـد يكتفيـا بـلا شيءٍ سـوى أن يـأكلا، معـاً، وجبـةَ فُـولٍ مسـائيّةٍ مُطهّمـةٍ- بتوافـقٍ عجيـبٍ- بالطَّعميّـةِ وبالطّيبـةِ وبالبَلَـدِ عنـد كافتيريـا النـادي الأهـلي السّـودانيِّ بالخرطـوم جنـوب أو- فقـط- بـأن يَكتُـبُ مجـذوب الطيّـب «شـيئاً» شـعريّاً جديـدا لـل»الرّيحـانيِّ» مُتَهَدِّجَـاً ومُتَهَـدِّلاً، بعاطفيّـةٍ عاريـةٍ (فما- كـما في **نَفْـسِ** النّـور عثـمان أبّكَـرْ- **عـار العِـري ومـا زهـو المؤتزريـنْ⁈**)، بأنَّـهُ **هُـوَ** (أي «الرّيحـانيُّ») قـد وَصَـلَ نفسـه بـه، وإليـهِ، دون أن يخشى (البَتَّـةَ) «**سُـمّه**» كـما وهـو (مجـذوب الطيّـب) قـد لقـي «الرّيحـانيَّ» إيّـاهُ «**رذاذاً مسـكيناً**» فدخـل **روحـه** ولم «**يخجـلْ**» (رُبمّـا «البتّـةَ» أيضـاً!) «**مـن فيضِـهِ**»!

3

ورّيني كيف الحي يودّع روحو. كان ذلك التّهدّج الغنائي السّتّيني السّوداني إنسانَ قلبِ مجذوب الطيّب حينما وارى الغياب- في بلادٍ رافِدِيّةٍ و»رافِضِيَّةٍ»، ثُمَّ شرقيّةٍ ونفطيّةٍ وقديمةٍ- ذلك «الرّيحانيَّ» عنه. وقد كانت قسوةُ ذلكَ الفِصالِ مُفاجئةً (نعم، **مُفاجئةً**) لنَفسِ مجذوب الطيّب وغريبةً غرابةَ الذكرى الغابرةِ الحزينة لحجارة ثلجٍ صغيرةٍ قديمةٍ كانت قد هبطت فجأةً، في أيّام طفولةِ مجذوب الطيّب الغائمةِ البعيدةِ، من سماء مدينة كوستي، ومن ثمّ **على** مدينةِ كوستي، في عزّ صيفها الطّويلِ الشّديدِ البوخْ! نعم كان ذلك الرّحيلِ معلوماً و»مَحجُوزاً» كُرسِيُّهُ مكانيّاً وزمنيّاً وماديّاً وكُل الذي هو من ذلك الكلام اليوميِّ الفارغْ! لكن ذلك كلّه، على غير ما قد يُتوقّع عادةً، لم يُغيّرْ شيئاً من كونه كان- بسذاجةٍ صرفةٍ- **مُفاجاةً**. ربّما (إن نَستعمِل، على سبيلِ **تَسْمِيَةِ** ذلكَ أو»تأويله»، حكاية قابرييل قارسيا ماركيز عن سانتياجو نصّار **وموتهِ المُعلن**) نقولُ هُنَا (فقط ولا غير) إن **المفاجأةَ** المُشتملَ عليها الحدوثُ **العينيُّ** للفِراقِ إيّاهُ كانت، في الأصلِ، مشتغلةً على ميكانيزمِ تناقضٍ غنائيٍّ عريقٍ وأساسيٍّ جرّبه وخبره (وما يزالون) الرّومانتيكيّون الشّعوريّون جميعاً عندَ جماعِ مشارقِ سُلالاتِ المِلَلِ الوجدانيّةِ الإنسانيَّةِ ومَغارِبِهَا.

كانـت رسـالةُ مجذوب الطّيب الأولى إلى «الرّيحـاني» في بلاده البعيدة هـي ذاتَ الرسـالةِ التـي يَسِـمُها مجـذوب الطيّـب الآن بِنعـتِ (رسـالة **وَرّينِـي كيـف الحي يودّع رُوحـو**). وقد رَدَّ عليها «الرّيحـانيُّ»، من منفاه المعيـشيِّ، برسـالةٍ مِلَهْوِجَـةٍ بالعواطـفِ العفويّـةِ القُراح (مثلـما- مثلاً- في «مـاءٍ قُـراحْ») جـاءت، في كُلِّيّـةِ رَسْـمِهَا، عـلى الشّـكلِ الحِسَّـانِيِّ الجّاري:-

رسالةُ «الرّيحانيِّ» الثانيةُ، مُحوّرةً ومنقوصةً قليلاً، من بلادِ «بابل» إلى مجذوب الطيّب:-

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مجـذوب الطيـب .. تجربـة تذهـل القلـب واللـه .. وامجـذوبي وأكـون معـاك أعنـي معـاك مـش معاكـم معـاك

وكفـى يـا مجـذوب الطيـب ... كتابـة شـنو االبتعـرف شيء!! .. شيء مقيـت حقّـاً .. ملخبـط.. ذاهـل..

أضجُّ أخـرج .. أثرثـر .. أخـرج .. أدخـل الـدّورة .. أخـرج أيضـاً أكتـب أقـول شـنو تـاني والعطن

يزكـم قلبـي .. آهٍ يـا مجـذوب الطيبلكـن مـا حـا أطَـوِّلْ .. مـا حـا أطَـوّلْ ولا المـوت ..؟ ... ع. حديـث

خطابـه أعيشـه الآن .. تُغضـب أن تعـاشر مـن تريـد أن يبتلعـك الظـلام مـن أن تراهـم......... أنـتَ

وحدك حاضراً .. حاضراً وكفى .... !!

لـو مـا م. «فنّانـين» كـما تسـمّونهم ... وخ. علاقـة كادت أن تكـونَ كئيبـة ولـولا موقـف صغـير جعلني

أراهــا صاحيــة قليــلاً .. وو......ب أحّــي، أول خطــاب إســتلمته منــك أنــت وفي ذات اليــوم منــذ الظهــر

كنــت أعــرف أننــي سسا..سأســتلم خطابــك وكنــتُ قلقــاً أدخــل وأخــرج لم أعــرف في أيّ ســاعة حتــى لحظــة

كنــت بالمطبــخ أطهــو يمكــن يكــون هــذا أكــثر شيء يســليني أتى أحــد البــشر «في خطــاب»... أنــا: هاتــه

إنــه لي ... ليــس لــك لي.. لي.. لي، بحــزم.. لي.. لي.. ينــدهــش .. أتــرك الحلّــة تحــرق وهــي

لاقيــه مثــل هــذه الظــروف لتحــرق؟ أجلــس في أرضيــة المطبــخ الرطبــة المِطَلّــشْ تغبــاني .. أنــتَ وحــدك

و«ج» !! .. الجــواب ده كرهّتنــا بيــه .. اللــه مــا معقــول !! يــا للعطــن العفــن البــارد .. دعــوني

لحبيبــي مــن حبيبــي دعــوني لحبيبــي مــن حبيبــي .. [السيدة] إ. وهــجٌ يُومــضُ أحيانــاً .. ولا أعــرف

أصــف ذلــك كيــف هــي أمــشي ليهــا واكتــب لي !! مجــذوب... جاييــك جاييــك مــا ببقــى بــلاكْ ... !!

مــا قــادر اكتــب .. صدقنــي لا شيء غــير القــؤف حتــى القــراءة أصبحــت أَملّهــا التلفزيــون .. الونســة

المقيتــة لا أخجــل مــن أن أقــول اصبحــت ســلواي هــي رضاعــة إصبعــي. صدقنــي .. وشيء مــع م.

.... م. م. «فنــان» شــاب غايــة في اللطــف يســلّيني (أعنــي

«سـلوى») كثـيراً واللـه ويجـب ان تشـكره ...

البـشر هنـا يبحثـون عـن الـرزق وأكـداس الزّبالـة، خـواء خـواء ليـس لـه مثيـل، ليـس غـير محمـد،

مجـذوب الطيبالأخبـار الرزقيـة مـا زلـت بـلا عمـل مسـتقر مسـتمر وهـذا سـبب قـرفي .. عملـت كـذا يـوم

«أعـمال حـرة» في البنـاءِ وقصتـك حـاضرتي في الحـين ذاك، خطابـك أورثنـي حالـة حلـوة يـا مجـذوب الطيـب

«فريـدة» حقـاً ولا أسـتطيع أن أقـول لـكَ عنهـا سـوى «مـا عـارف» صدقنـي يـا حبيبـي لـو رأيتهـا «الحالـة»

لفكـرت في الكتابـة يوميـاً ...... كـدت أن اصبـح خرقـة .. حتـى ردي عليـك كملتـه في ثلاثـة أيـام

.. تجربة ناتجها بالسـالب ويا رب تسـتر، قل لـ»ي»- و»ك» «ارسـلوا لي ولـو قبلـةً مُغلّفـة». لــ»ي» ...»أشـتاقُ لعينيـك الثملتـين وبقايـا ابتسـامة.» ك: «ويـن انـت يـا وش البهدلـة مـا كان تكون هنـا عشـان

تـاني تعمـل فيهـا وسـخان». مجـذوب الطيبجاييكـم أنـا منتظـر خطـاب «إ» شـوقي ليهـا .... كنـت قـد كتبـت لهـا

مشـتاق ليـك لكـن لا أدري هـل هـو شـوق إلفـه ولا ريـده؟ «م» لطيفـة مـافي شيء ليهـا ... بعمليـة احتفـظ بمـا ترسـله مـن أشـياء لي، «ن» قـل لهـا [«الرّيحـاني»] بيقـول «قُـدّر لنـا ألا نلتقـي ولكنـه التقـاكِ صفصافـةً في قلـبِ مجـذوب الطيبالـذي معـه لـكِ الأزهـار والبحـر والصفـاء ومـودّتي» ... مرسـل معـك مُذكّـرة لــ»إ. ع. خ» عبـارة عـن

طلب إجازة لمدة سنة بدون مرتب أتمنى أن تصله وتخبرني برده، مجذوب الطيبأدرك أنّكَ ستكتُب وتكتب لا تلمني إن لم أكتب أو أكتب خاصة آخر ما كتبت .. ع. أُ. عَرَّسْ؟ آ .. آ .. «ج» والله مشتاق ليهو وأمّي كذلك .. «ع. م. ع» خطب صحي .. وعرسو قريب.. إذا ذهبت كوستي بلغهم تحياتي.. «ح» .. «ع.ع».. الله يا مجذوب الطيب لقد أُخِذَتْ كُلُّ شرائطي في التفتيش وكان يوماً .. أسوداً طويلاً ليومي هذا!!! أسمع راجين شنو إنتَ و«ن» ما تعملوها وخلاص!! «خ» بقول ليك «أهلاً وسهلاً».. كل سنة وإنتَ طيّب.. تعود الأيام»- خطاب «أ. ع. أ» وصله؟! حتى تفاصيل حياتك الصغيرة ومعليش الناس الحولك المعهد الجامعة أعرف أنّ تفاصيل هذه الأشياء تَفُتْكَ ولكن .....

26. 1. 1986

لكَ كُلَّ الإحساس ....

[«الرّيحاني»]

أ.   ط. الخريطة

قول ليهو أنيـ....

كما رسّلت وكان

رسّلت

[«الريحاني»]

بغداد- الباب الشرقي- وكالة غيداء للسفر والنقل

فرع البتاوين

الأخ. م. هـ.

حي العامل- أولاد الجبل

آخـر خـبر/ اشـتغلت في مصنـع للكيـك مـن يـوم *1/2/1986* .. مـبروك ... التفاصيـل تـأتي

«خ» مرسل خطاب ...

ما وريتني إذا خطاب «أ. ع. أ» وصل

وهل أعطيته له؟ وكذلك «م. ح» أرسلت

له خطاب أرجو أذهب لهم وعندك فنله

مني ... كي .... نلتصق *[«الريحاني»]*

خطاب السيّد «أ. ع» يصله ولو بالمنزل

وأرجو أن تُظرفه وتكتب عليه بعد قراءته و«الكذبة» المعروفة

وأرجو ألا يفلت لسانك يا حبيبي المِطلّش المِهوِّمْ

[«الرّيحاني»]

الخطوط التي تحت بعض الكلمات قد عملتها «الأبنوسة التي تراءت زوجة» في أول أيامِ لقاءاتها ومجذوب الطيب. كان مجذوب الطيب مدفوعاً، في تلك الأيام، لأن يحكي لكل معرفةٍ جديدةٍ له فيها شُبهة جدارة عاطفيَّةٍ ما- حتى ولو كانت تلكَ معرفةً عابرةً في بصٍّ سفريٍّ أو قطارٍ- كلاماً عشوائيّاً ما عن «الرّيحاني» الذي غاب. وكان كلامه عن ذلك «الريحانيّ» دوماً ممزوجاً- في تلك الأيّامِ ايضاً- بلهوجةٍ عاطفيّةٍ قاهرةَ الفقد وكان لا يخجل من ذلك الكلام عنه حتى ولو كان هو قد لاقى، آنذاكَ، ذلك «الذي تحدث هو له عنه» للمرّةِ الأولى! ربما كان ذلك من عوالق شخصية «الريحانيِّ» العارية ببوحها لكل من تراه «فناناً» (بمعنى مزاجيٍّ فيزيو-نفسيٍّ خاص) دون أيِّ توشّحٍ- عمديٍّ أو غيرِ عمديٍّ- بما رآه البصير النور عثمان أبكّر على أنّه «زهو المؤتزرين» [في «بِتَاعَتِهِ» تلك التي تساءل عند حيثها:- «ما عار العري وما زهو المؤتزرين؟»]. كانت «الأبنوسة التي تراءت زوجةً»، آنذاك (ورُغمَ عدمِ اكتمالِ **الإعتراف** العاطفي بينها وبين مجذوب الطيّب بعد)، على غيرةٍ غامضةٍ شديدةٍ تحاول هي، بجدّيّةٍ اجتماعيّةٍ مُتعمَّدَةٍ ومحسوبةٍ، أن تُخففها كثيراً، أن تكظمها (كغيظٍ كثيفِ الشّدّةِ) في نَفَسِهَا ومن ثمَّ تُصَوِّرُهَا- فحسبْ- على أنها فقط مجرد فضولٍ عصبيٍّ عابرٍ ولا غير!

أما بعد ذلك الرجوع العابر للـ»الأبنوسة التي تراءت زوجة» نرجع، مرّة ثانيةً، للـ»الرّيحانيِّ» الغائبِ لنرى إليهِ (أو فيهِ)- قليلاً أو كثيراً أو فقط بقدر المُتاحِ الحاليِّ من الحسِّ- ما اشتبك به شأنه- رُغماً عن «يومه» [كما قد تُفهم «يومه» تلكَ بنفس «الطريقةِ» التي هي قد تُحسُّ أو»تُفهَمُ» بها في الكلام السوداني الدّارجِ القديمِ المُصاغِ في اللازمةِ الشَّائعةِ الذّامّةِ القائلةِ لامرئٍ ما «إنعلْ أبُو يومَكْ»!]- من عاطفيّةٍ شديدةٍ ورومانسيّةٍ *par excellence*.

في إشارةٍ (غير عابرةٍ وغيرِ مُبهمةٍ) لذلك التَفَيُّضِ [من «فيض»] الرّومانسيِّ الصِّرفِ والشديد، عندَ «الرّيحانيِّ»، كتب صديقُ مجذوب الطَّيبِ و»الرّيحانيِّ» الأشدَّ قرابةً (أو غرابةً إن شئتم)- ذلك الـ»ج» الذي قَرَنَ «الرَّيحَانِيُّ الغائبُ»، في رسالته السالفةِ، ارتباط فقدانه له، على نحوٍ بسيطٍ ووثيقٍ، بفقدانه لمجذوب الطيّب- رسالةً إلى مجذوب الطيب، في أوائل عهدِ مجذوب الطيّب ببريطانيا (وبالتحديدِ في عصرِ يوم الجُمعة 13/9/1991)، قال له فيها إنّه بينما كان يقرأ في قصيدةٍ له فيها كلامٌ عجيبٌ عن « **نُثارِ الكعكِ الذي ليس له قدرةٌ على صياغةِ التأمّلاتِ** « تألّمَ، بإبهامٍ عميقٍ، لفقده للـ»الرّيحانيِّ الغائبِ» ثُمَّ باح، لمجذوب الطيّب، بتمنيّه بأنّه كان راجياً ألا يكن قد التقى، من قبل، بصديقٍ معيّنٍ مشتركٍ بينهما كان قد أكّد له أنّ «أحدهم» قد جاء، من تلكَ البلادِ التي هاجر إليها «الرّيحانيُّ الغائبُ»، ليخبر أهل «الرّيحانيِّ»، مرّةً أخرى، بكلامٍ كان قد تُدُوْلِ عن حافلةٍ محترقةٍ ثُمَّ يدع لأهلِ «الرّيحانيِّ الغائبِ» فجيعة تصديقٍ، أو عدمِ تصديقٍ، ذلك النبأ. هنا يكتُبُ الشّاعرُ «ج» أنّ شعوره، آنذاكَ، كان مُوهَنَاً وكاتماً لأنفاسِ عقلهِ وأنَّ

خفقان قلبه كان، كذلكَ، مميتاً. ثُمَّ هو يتهدّجُ، من بعدِ ذلكَ، بأنَّهُ قد كذّبَ وكذّبَ ولا يزالُ يُكذِّبُ أنَّ ذلك **الرائع قد احترقَ هكذا** أو **أنّه لن يأتي كحجوةِ حبّوبةٍ في الحُلُمِ**، كما ويَهرِجُ بتساؤُلِ عن ماذا يعني **أن يُخبّئَ عنّا عينيهِ في التّرّابِ وحضوره النّاعم الأليف في قلبِ الغيابِ المُظلم**؟! ثم يُختمُ الكلام بـ» **أُصدّقُ أم لا قلبي يتمزّق توقُّعاً ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله**»!

أمّا مجذوب الطيّب فقد تأسّى بالصّمتِ، كلُّ هذه السنين، عن التعبير عن اعتواراته العاطفية بـ»الرّيحانيِّ«. وذلكَ كان كأنّه كان يخشى أن يَنفُذَ جَيَشَانِها المَطَرِيِّ فيه، فجأةً، مُنتهزاً فُرصةِ آنٍ ذاهلٍ من آناتِ غفلتهِ الكبيرةِ التي كثيراً ما لا يكن عقله الحاسبُ (إن يكن هو قد رُكِزَ فيه، في الأصلِ، أيُّ شيءٍ، أو آخرٍ، «فيهِ» يُمكِنُ له أن يُوصفَ- تحليليّاً- بأنّه «عقلٌ حاسبٌ») قد تمكّن بَعْدَ- أو قَبْلَ- من أن يعدَّ لها ما استطاع من عرباتِ طوارئِ نجدتهِ الحصيفة!

الكتاب السّابع

1

الآن قد بلغ الراوي زُبى آخرِ تداعياتٍ حكائيّةٍ مُمكِنةٍ له عن مجذوب الطيّب. لذا هو- فيما يبدو- سيُختم لَولَبَتَهُ الروائيّةَ هذي بضروبٍ صغيرةٍ ومُهوّشةٍ من أخبارِ فِصالِ مجذوب الطيّب (ليس الأخير و**لن يكُنْ**) عن «العصفورةِ الضّاحكةِ» وانشباكُ ذلك في إفضاء صلتِهِ العاطفيّةِ البادئةِ مع «الأبنوسة التي تراءت زوجة» إلى رسالةٍ أساسيّةٍ أولى........ ورُبَّما تشُوبُ تلك الآنات المحكيّةِ، كذلكَ، نُثاراتُ رواياتٍ عاطفيّةٍ مُبَاغِتَةِ الحنان، أو السّهوم، عن، أيضاً كذلكَ، **ذلكَ الرَّيْحَانِيَّ الرَّومانتيكِيّ الخُرَافِيّ الغائب**.

2

أوعـى أقـوم أجـي السـودان والقـاك مشـيت تَحـضّر واحتـار أنـا!

كتبـت «العصفـورة الضاحكـةُ»، في رسـالةٍ لهـا إلى مجـذوب الطيّـب مـن «بـلاد الشّـيك الخـدري» (وكان هـو مـا يـزالُ، حينـذاكَ، في خرطومـه و«شُـعبتِهِ» الباهيـة!) مـا يُشـبِهُ كثـيراً هـذا الـذي خَرَّجَـهُ مجـذوب الطيّـب- هنـا والآنَ (أي في ظهـيرةِ يـوم 2 أبريـل 2009)- تَخرِيجَـاً ذكرياتيّـاً حنينـاً.

مـا أن تلقّـى مجـذوب الطيّـب، عنـدَ بـابِ شُـعبتِهِ، هـذا الـكلام الـوارد لـه، وَقْتَـذَاكَ، مـن بـلاد «بَـرّه» حتّـى تلَمّسَـهُ بقلبـهِ، في صعقـةٍ واحـدةٍ، فقـد كان كـفُّ قلبـه، في تلـك الأيّـامِ، «سريعـاً إلى الصّقـع»! ثـمّ تـوّاً انهالـت عليـه ذكـرى أيّـام «العصفـورة الضّاحكـةِ» الأخـيرةِ في الخرطـوم؛ ذكـرى ليلـة زواجهـا وانمشـاج ذلـك بترقُّـبٍ قلـقٍ لرحيلهـا إلى البـلادِ الفُلانيّـةِ («بـلاد الشّـيك الخَـدرِيْ») في، كـما يذكـر الآن، شـهر ديسـمبر (أم هـو قـد كان نوفمـبر؟) مـن عـام 1985. [كان «الرّيحـانيُّ»، إن اسـتعدلت عنـده، في حالتِـهِ الآنيّـةِ، الذكـرى، قـد غـابَ عنـه، كذلـك، في تلـك الأيـام أو قبلهـا أو بعدهـا بقليـل، إلى، أو في، عيشـته في بـلاد «بابـل»- تلـك الحيـاةُ المـوؤودةُ، أو تـكاد؛ تلـك الحيـاةُ الموصوفـةُ، بكلـماتٍ كانـت أقـوى في وجعِهـا (لأنهـا، بالـذّاتِ، لم **تتعمّـد**، أن تكـونَ كلـماتٍ «مُبتكـرةٍ» أو «غريبـة» بمعنـى «التجريـب» إيّـاه!)، في **رسـالةُ**

«الرّيحانيِّ» الثانيةُ، [الـ]مُحوّرةً و[الـ]منقوصةً قليلاً، من بلادِ «بابل» إلى مجذوب الطيّب.]

في أيّامِ الإعدادِ لزواجِ «العصفورةِ الضّاحكةِ» من «مُغتربِها» الأمينِ العاملِ في «بلادِ الشّيكِ الخدري» شاء مجذوب الطّيب- بسببِ حدسٍ مستقبليٍّ غامضٍ- أن يُرسلَ أوّلَ جوّابٍ عاطفيٍّ له إلى «الأبنوسة التي تراءت زوجة» عبر واسطة «العصفورة الضّاحكة» وذلكَ- تحديداً- آنما كانت صاحبات «العصفورة الضّاحكةِ» يُزاوِرْنَهَا ويُجَالِسْنَهَا في بيتها في أيَّامها العزيزةِ الأخيرةِ؛ تلكَ الأيّام القليلة الحاسمة السَّابقة لاحتفال زواجها المرتقب. وقد عمل مجذوب الطيّب على إتمامِ شُغْلِ نيّتهِ تلكَ عبر تدبيرهِ النّزِقْ لموعدٍ لزيارةِ بيتِ ناسِ «العصفورةِ الضّاحكةِ» الطُّوبِ-أَحْمَرِيِّ ذي الحوشِ الواسع والدّيوان والغرفتين والكَشّاشةِ العتيقةِ التي كثيراً ما تُدَخّرْ للأُنسِ المُحيي المتوازن الذي تنمازُ به- إنْ هِيَ عُمِلَتْ بالمَهَلِ والتأنّيَ «الرُّوحيِّ»-السّودانيِّ الموائم- جلساتِ «الشّاي باللّقيماتِ» العَصْرِ- مَغرِبِيّة.

كان بيتُ نَاسِ «العصفورةِ الضّاحكةِ» كائناً في أحدِ أحياءِ مدينةِ الخُرطُومِ الشّعبِيَةِ (الجّديدةِ نسبيّاً آنذاكَ) وعندَ «مَقَامٍ» ليسَ بعيداً عن المحطّةِ الأخيرةِ لحافلاتِ «الصّحافة ظلط». ولمّا كان مجذوب الطيّب يسكنُ، آنذاكَ، في ذلك الجّزءِ الخاصِّ من الدّيوم الشرقيّة الذي كان يُسمّى «حي الزّهور» (وقيلَ «الزّهور فتّحتْ») لم يكن- وقتُها- سبيل وصوله إلى بيتِ ناسِ «العصفورةِ الضّاحكةِ»، أبداً، عسيراً أو مَحفُوفاً بأيِّ جُهْدِ مَشْيٍ شديدٍ أو غُبَارْ. فقد كان عليه، في تلكَ الأيّامْ، فقط أن يُكملَ مشوار ما بين خمسَ وسبع

دقائـق مـن حيـثُ كان منزلـه المؤجّـر، باشـتراكٍ مـع أهـلِ خدمـةٍ مدنيّـةٍ آخريـنْ، إلى شـارع مواصلات «الصحافـة زلـط» الرئيـسي، يركـبُ حَافِلـةً، ثُـمَّ يُغمـضُ عينيـه هنـاك حتّـى يُقـالُ لـه «**هـا** [كـما قـد يكتُـب الشّـعراء المُحدثـون!] **أنـتَ قـد وصلـتَ، أخـيراً، إلى المحطّـةِ التـي ليـس بعدهـا بَعْـدٌ أو محطّـة!**» وحبّـذا لـو، آنـذاكَ، شُـغِلَتْ مَسَـافةٌ، أو مِسَـاحةٌ، ذلـك «الإغـماضُ الرومانطيقـيُّ» للعينـيِن بأغنيـةٍ سـتينيّةٍ عَصْريّـةٍ (نِسـبةً إلى «وقـتِ العَـصْرِ») عتيقـةً مثلـما، مثـلاً، **الـذّوق والجّـمال والخـدود السّـاده/أَدُّوا قلبـي النّـادر حَرّقَـوهُ زيـادةْ!**

عنـد محطّـة حافـلات «الصحافـة ظلـط» الأخـيرة نـزل مجـذوب الطيّـب، مسـح راحـة يـده اليُمنـى تلقائيـاً عـلى وجهـه، ثُـمَّ ابتسـم لنفسـه وصـاح، فجـأةً، «ملـك الطّيـور»، «ملـك الطّيـور»، «ملـك الطّيـور»! كان ملآنـاً بترقّـبٍ حـيٍّ أنـزل سـوائله المـوارة، كشـدٍّ كهربـائيٍّ مُفاجـئ، عـلى أعضـاء جسـده كلهـا في وقـتٍ واحـدٍ وبدقّـةِ سـهامٍ لا تُخطـئ- أبـداً- سـيرورتها إلى جهاتهـا العصبيّـةِ واللّيفيّـةِ الغائـرة. ثـم صـار رغيفـاً طازجـاً أُتِي بـه، لتـوّه، مـن الفـرنِ البلـديِّ المخضرمِ العتيـقِ إذ كان مُتحسّسـاً، بحـزنٍ اسـتباقيٍّ غامـضٍ، جوابـه العاطفـيِّ الأوّلِ إلى «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـة» عنـد قعـرِ جيـب قميصـه الأعـلى الـذي كان مُسـتطيلاً، بالضّبـطِ، عنـد ناصيتـه الكينونيّـةِ الـلا كاذبـة والـلا خاطئـة التـي قـد يسـمّيها الحساسـون مـن النـاس والكائنـات، عـلى عجـلٍ خجـولٍ ومُلَهْـوَجٍ (كـما ولاهجـاً بضّيـقٍ وتشـكٍّ خفيفـين، أو مضمريـنَ، أحيانـاً)، «جهـة القلـب». [لفائـدة التَّحَسُّـسِ القريـبِ لهـذا «الـكلام» يُمكـن للمـرءِ القـارئ لـه، أو المـرأةِ القارئـةِ لـهُ، الترديـدَ الضّمنـيَّ الأسـيانَ والهامـسَ فيـما بينـه وبينـه، أو بينَـهُ وبينَهَـا، آنـاءَ

قِرَاءَتَـه لَـهُ، أو قِرَاءَتِهـا لَـهُ، شـعراً جَمَّاعيّـاً (مـن «إدريـس جَـمّاع») أصليّـاً مـن مِثـلِ ذلـك الـذي يتشـكّى فيـه إدريـس جـمّاع- جماليّـاً- مـن «الـضرورةِ الكينونيّـةِ لصـورة الشـاعر»، أو شـعراً تيجانيّـاً- يُوسَـفَ- بشـيريّاً (مـن «التيجـاني يوسـف بشـير») مـن مثـلِ ذلـكَ الـذي يذكـر فيـه التيجـاني يوسـف بشـير صُـورة «القُعـادِ» عـلى النّفـس [«طريـر الشّـباب»]، أو- ثانيـةً- شـعراً جَمَّاعيّـاً خالصـاً وأخّـاذَ الأسى الخَلُـوصَ السَّـاذَجِ مـن مثـلِ- عـلى التّعْيِـيْنِ- **الشّـقيُّ الشّـقيُّ مـن كان مِثـلي في حساسـيّتي ورقّـةِ نفـسي**.]

عنـد بـاب حـوشِ بيـتِ نَـاسِ «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» تـردد مجـذوب الطيّـب- قليـلاً- قبـل أن يقرعـه فيـما كانـت عينـاه نديّتـين قليـلاً وفـؤاده يـرفُّ كـما بقايـا (أو كَسَـمَعِ بقايـا) نغمـةٍ راعشـةٍ لكـمانٍ سـودانيٍّ عتيـق.

كانـت في بـال مجـذوب الطيّـب، آنـذاك، صـورة البنـات الجالسـات عـلى أربـعِ سَرَايـرٍ قائمـةٍ عـلى هيئـة مربّـع غـزلي سُـودانيٍّ. فقـد كُـنّ هُـنَّ، في بالـهِ (المُفَصْفَـصِ كقَصَـبِ سُـكّرٍ مُدخَّـنٍ قليـلاً!)، مُنْجَدِعَـاتٍ، آنـذاكَ، عنـد زوايـا ذاكَ المُرَبَّـعِ السّـودانيِّ المُحَنَّنَـةِ بأُخْـذَةِ عطورهِـنَّ النَّفَّـاذةِ. وذلكـم كان قـد سُـلِّكَ (في مَحَلِّـهِ) بتلقائيّـةٍ شـديدةٍ وتـداعٍ مفتـوحٍ؛ أو هـو يـكاد أن يكـونَ كامـلاً. أمـا «العصفـورة الضاّحكـة» فقـد كان شـأنُها، عَـصْرَ ذاكَ، شـأنٌ؛ جريئـةً بقُـوّةِ عـينِ سـفرها القريـب!

بعبـارةٍ أخـرى، في داخـل حـوشِ ذلـك البيـت الواسـع، كـما حيشـان بيـوت قُـرى ريـف الجّزيـرةِ الأخـضرِ، كانـت هنالكَ أربعـةَ سَرايـرِ حديدٍ جديـدةٍ مفروشـةٍ بملايَـاتِ كارُّوهـات مثـل قميـص «تَحْرِمْنِـي مِنَّـكْ» الشّـهير في سـبعينات القـرن المـاضي، مُتّكِئَـاتٍ عليهـا- كَـمَا أرائـكٍ بَلَدِيَّـةٍ

خفيفَـةٍ- ثُلَّـةُ بنـاتٍ، سُـكَّرِ نَبَـاتٍ، ضاحـكاتٍ وشـديداتِ المُشَـاغَبَةِ وفي وسـطَهِنَّ رأْسُ الهَـوَسِ الحُـرّةِ الجَميلـةِ الطّـرُوب «العُصْفُـورةُ الضّاحكـة»، العَـرُوسُ بذَاتِهَـا وصِفَاتِهـا، الخالِـقْ النّاطِـقْ، شَـايَلَةً بنُـوّارِ الإبتسـامَ و»التَّشَـاقِي» والصّـوتِ المُنَغَّـمِ الممـدُودِ الـذي أَبْـصَرَه، مُنْـذُ أَنْ شَـافَهَا، صاحِـبُ الأُخْـدُودِ، ذلـكَ المجـذوب الطيـب المَجـرُوح، بحتْـمِ رَحِيْلِهَـا الوَشِـيْكْ.....

شَـافَهَا- [«العُصْفُـورَةُ الضَّاحكـةُ»]- مجـذوب الطيـب، في لحظـاتِ **سُـوْدَانِهَا** الأخـيرةِ تلـكَ، في قمـة الشـغبِ والطّفُولـة والجّـذبِ والإمتـاع لـكُلِّ مـن ضُمِمْـنَ حولهـا. وحينـما دخـل مجـذوب الطيّـب عليهُـنَّ- بعـد أن فتـح لـه البـاب أحـد إخـوة «العصفـورةِ الضاحكـةِ» الصّغـار مُتهـللاً ببقايـا وترقّـبِ إكـمالِ لُعْبَـةٍ ترفيهيَّـةٍ خفيفـةٍ مـن لعبـاتِ تلـك الأيـام (السُّـلّم والثّعبـان أو ليـدُو مثـلاً)- كان أوّل مـا شـافهُ وجـه «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» مُوجّهـاً، في تَرَقُّـبٍ مثـيرٍ ومُتحَـدٍّ، نحـو البـاب الـذي كانـت تتوقَّـع دخولـه منـه إلى البيـت إذ قـد كلّمهـا أخوهـا الصغـير (قبـل أن يظهـر وجـه القـادم عنـد البـابِ بعـد أن انـزاح هـو عنـه سريعـاً) باسـم القـادم، في عجلـةٍ، قبـل أن يهـرول، عائـداً ومَشُـوْقَاً، إلى حيـثُ وقفـت عنـده لعبتـه. كانـت مـع مجـذوب الطيّـب- طبعـاً- رسـالته الأولى إلى «الأبنوسـةِ التـي تـراءت زوجـة»، راجفـةً وتَـكادُ أن تُطِـيْرَ (خفيفـةٍ عِنْـدَ اعتِـدَالِ ريـحِ نهـار الشّـتاءِ الخفيـف) مـن ركـن جيـب قميصـهِ اليسـاريِّ قبـل أن تصـل إلى يـد «العصفـورة الضّاحكـةِ» ومنهـا إلى (كـما كانـوا، قديمـاً، يكتُبُـونَ، لبعـضِ ضرورةٍ، عـلى ظـروف الرسـائل)- طبعـاً- «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـة».

مـا أن جلـس مجـذوب الطيّـب، وسـطَ كَوْرَجَـةِ أولئـكَ النّسـاءِ

الضّاجّـاتِ بأنسُـهِنَّ الصّاخـبِ وكُلِّ عبيرُهُـنَّ (الـذي لم يكُـنْ لـهُ فيـه شيءٌ سـوى أجـرِ الشّـميم!)، حتّـى تراجـع جسـده، تلقائيّـاً، إلى الـوراءِ مـن قَعْدَتِـهِ كأنّمـا كان هـو يخـشى لذعـةَ مُداعبَـةٍ مُشاكِسَـةٍ ومفاجئـةٍ مـن إحداهُـنَّ، مـن «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» مبـاشرةً أو بطـرفِ تواطـئٍ مَـرِحٍ وخفـيٍّ منهـا مـع أخـرى.

إحساسُـهُ، أو قُـلْ إصابتُـهُ المُبـاشِرَةْ، بذلـك الجـوِّ الرّطيـبْ؛ بحميميّتِهِ الفائحـةِ بالثّرثـراتِ الصُغـرى الأليفـةِ وبإيماءاتـهِ وبروائحـه الأنثويّـة الفصيحـة وغـيرِ الفصيحـة، جعـل مجـذوب الطيّـب يـتردّدُ مَلِيَّـاً في تسـليم رسـالته الأولى تلـكَ، إلى «الابنوسـةِ التـي تـراءت زوجـة»، عـلى مـلأِ الأشـهادِ الصّريـحِ مـن كُلِّ سَـكَاكَرِ النّبـاتِ الزّاهيـاتِ الهاجّـاتِ أولِئِـكْ.

لكنّـه شـدَّ حَيْـلَ نفسـه، بِـكَادٍ إراديٍّ قَـسْرِيٍّ، وقـال لهـا: «مـا علينـا يـا أيّتُهـا النّفْـسْ والجّاياباهـا السّـما تتلقّاهـا الواطـة!»، ثُـمّ شرعـت يـدهُ اليُمنـى، تـوّاً، في السّـعي العصبـيِّ المُصمّـمِ إلى جيـب قميصـهِ الأيـسرِ حيـثُ خلـعَ عنـهُ، بغتـةً، الجّـوّابَ ودَسّـهُ، دونَ حيثيّـاتٍ أو افتعـالاتٍ مُمَهِّـدَةٍ، في يـدِ «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» مـع هـزّةِ رأسٍ طفيفـةٍ مائلـةً قليـلاً إلى اليسـار (ربّمـا حتـى يتجنـب ارتجافـةَ نظـرةِ عينيهـا إلى عينيـه مبـاشرةً مـن عنـدَ يمينـهِ) وحركـةِ فـم خفيفـةٍ قائلتـينَ لهـا معـاً: «الجّـوّاب ده عشـان تَدِّيهُـو لي ...... (وذكـر اسـم «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـة»، مُثَلَّثَـاً).

مـا أَنْ وَقَعَـتْ الرّسـالةُ الشَّـقِيَّةُ في يَـدِ «العُصْفُـوْرَةِ الضَّاحِكَـةِ» حَتّـى هَوَّشَـتْ بهَـا، في الهـواءِ العـارِي، عاليَـاً وقَذَفَتْهَـا، تَـوَّاً، مـن بـينَ يَدَيْهَـا، في الفـراغِ الغِـرُوبيِّ الخفيـفِ الرِّيـحِ كَأَنَّمـا كانـت هِـيَ، بالـذّات،

تَـوَدُّ أَنْ تَتَلَقَّفَهَـا، حـالاً مـن هوائهـا، يَـدُ أمـرأةٍ أخـرى بعينِهَـا مُخضَّبَـةً بالحِنَّـاءِ الجّدِيـد(ة) كانـت جالِسَـةً في مُواجَهَتِهَـا بالضّبـط. ثُـمَّ، أو «مـع ذلـكَ»، اختطفتهـا هـي، بشـغبٍ تلقـائيٍّ عـالٍ، قبـل أن تحـطُّ، كالهَبّابـةِ، عـلى يـدِ أيِّ سُـكّرِ نبـاتٍ ممكنـةٍ أخـرى، ناهيـكَ عـن تلـك الجديـدة الخضـاب التـي كانـت حاقِصَـةً إزاءهـا وشرعـت (تَـوَّاً أيضـاً) في قراءتهـا بصـوت عـالٍ، مُتَعَمِّـدٍ، ممطـوطٍ وأكورديُـونيٍّ بطـئٍ ومُنغَّـم فغـدت، بذلـك،typically & happily ، عينَ»عصفور[تنـا] الضاحكـة» تِلْـكَ: كاملـةً بتَغريدهـا الحـيِّ الغَيّـاظِ العنيـدِ المُشـاغب.

دقَّ قلـبُ مجـذوب الطيّـب دقّـات سريعـة ومنـذرة بمـا قـد قالتـه «العصفـورة الضاحكـة»، لاحقـاً، للـ»الأبنوسـة التي تـراءت زوجة» عندما علمـت بنشـوء [بنشـوبِ ربمّـا، أو عـلى الأدق (فثمـة رائحـةُ حريـقٍ وارتفـاعٍ حـراريٍّ داخـليٍّ لم تفـارق جانـب مجـذوب الطيّـب مـن تلـك العلاقـة حتـى الآن، 13 نوفمـبر 2010، وذلكـم رُغـم نهايتهـا، بغضـبٍ عاطفـيٍّ واجتماعـيٍّ ضروريٍّ، في العـام 2009!)] العلاقـة العاطفيـةّ في «الهـواء» الـذي كان قائمـاً فيـما بينهـا وبـين مجـذوب الطيّـب بعـد سـفر «العصفـورة الضاحكـة» إلى بـلاد «الشّـيك الخـدري» مسـتأمنةً- اجتماعيّـاً عـلى الأقـل وعـلى الاكـثر كذلـك (كـما ثبـت، فيـما بعـد، شرعـاً!)- إلى قـوة دولار الحلـم الجماعـي السـوداني فقـط لا غـير، كـما في الشـيكات تمامـاً: **مجـذوب الطيّـب ده مـا لونـكْ يـا ......** [وذكـرت اسـم «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـةً» مُثنـىً وثـلاث ورُبـاع مـن بـاب التّوكيـد الغيّـاظ أو كـما عُلِـمَ، طبعـاً، مـن طبـعِ ديـنِ «العصفـورة الضّاحكـةِ، بالـضرورة!

تّـمَّ، في ذلـك اليـوم، بـثَّ النبـأ الرّجيـم، بتضاحـكٍ عـالي القَهَـارةِ

والطّرقعةِ اللُّبانيَّةِ الفائقةَ الإتقانُ الإعلانيُّ (والجّودةُ طبعاً!)، فيما انسحب مجذوب الطيب إلى نفسِهِ، ونَفَسِهِ، حتى مجيء يوم رحيلِ آخر الطّيرِ عن جنائنِهِ الرّيحانيّةِ العريقة.

3

<u>ليلةُ وقُوعِ التَّقفيصِ المُذَهَّبِ على نَفَسِ «العصفورةِ الضّاحكة»:</u>

كانت ليلةُ حفلة زواج «العصفورة الضَّاحكة» من راجل «الشّيك الخَدْرِي» واحدةً من أهَجِّ الليالي الحاضرة عِنْدَ مركزِ بثٍّ إذاعاتِ ونسات بنات وهيئات سكرتيرات كلية الآداب بجامعة الخرطوم، على الأخص. ورُغم أنّها كانت تُرى، في غالبِ صباها وشبابها، وسط كورجةٍ من الأولادِ الصاخبين أكثر من البنات (صاخبات أو غير صاخبات طبعاً) إلا أنَّ بنات الجامعة، من حدّهن القبلي الجنب إدارة جامعة الخرطوم، لي حدّهن البحري المعلّم، من جهة الجامعة العريقة، بكافتيريتي كليتي الإقتصاد والعلوم ثُمَّ «رُكن» حوض السباحة بجامعة الخرطوم، جئنَ، كاراتٍ مبسوطةً إثرَ كاراتٍ مبسوطةً أخرى، إلى صيوانها الكبير عند الساحة الخالية، الموازية، شماليّاً، لحوشِ منزل ناس»العصفورة الضاحكة» ومن ثَمَّ الفاصلة بينهم وبين جيرانهم الشماليين. ومواجهاً لتلك الساحةِ، غرباً، كان، طبعاً، شارع حافلات الصحافة زلط العريض الكبير الذي وصفنا، فيما سبق، رحلة مجذوب الطيّب المصيريّة، الغائمة بدخاخينِ نُثَارَاتِ الإعتمالات الشعورية المفخّخة بترقّبِ الفراق الوشيك، عليه من عِنْدَ حيِّ الزّهور، تلك البيوتُ الصفراءُ العتيقةُ الواقعةَ في نُصِّ ديوم الخرطوم العصيّة، بابتهاجٍ، على الأسلمة والتّعريب

القاحلين، كما وغيرَ بعيدٍ من «السَّاحة الشّعبيّة» وسوق الدّيم العريق، العتيق، ببائعاتِ لقيماتِهِ وترزيّتِهِ ولا عبي الطّاولة المسنّين المستديمين، أو، بكلام ساسة «الشفافية والحاقات الحلوة» (يا قول المصري) المَسْتَدامينَ، عِنْدَ مطاعمه الشعبيّة الحميمةَ الغُبْرَةِ غيرِ ذاتِ القترة/العبُوسَ والتَّولّي المميزين، نفسياً واجتماعيّاً، لصحارى ذوي الفضيلة الباهتة الباذخة في أحياءِ «بنوكِ عيشٍ» جديدة سُميّت بأسماءٍ مُذَهَّبَةٍ بالسَّلَفيَّة الغير صالحة، قطعاً، للإستعمالِ الحضاريِّ لعمومِنا نحنُ الزّنجرانيّين الضاحكين، السُّودانيِّينَ، الطّروبين بحيويّةٍ الأسى، الرقص والعنفُوان أو، كما في قول بين أوكري Ben Okri، في **درب المسغبة The Famished Road** وفي **مرثاة أفريقية African Elegy**، من هُم موسياقهم حيّة العذوبةِ بحيثُ «**تجعلُ الهواء يتذكّر**»!

شَرْحُهُ. عند صيوان زواج «العصفورةِ الضّاحكةِ» عجَّ الغُبارُ وامتزجَ ببردِ ديسمبر الرَّماديَّ التغيُّمُ أو، بالبلدِيِّ، الأغبش اللّونِ والرّائحة والمعطون فيه، او هو معطونٌ بـ طعمِ حنينٍ قديمٍ هو، قطعاً (وليس قد فحسب- كما كنتُ، غالباً، [قد] أكتُبُ!)، يستدعي، عفويّاً، أغانٍ سودانيّةٍ خمسينيَّةٍ-ستّينيَّةٍ عتيقةٍ مثلَ، بالذات، «يا غرامي الأوّل/ذكرى لا تتحوّل/من فؤادي وروحي/لي الحبيب الأوّل» فتلك مُفصّلةً- كما تبدَّى، بقطعِ الشَّكِّ، لمجذوب الطَيِّبِ ذلك الآن العينيِّ- على رُوحِ الشِّتاءِ السّودانيِّ الغيميَّةِ، بالذّاتِ عندما تكون في أجلى تنزُّلِهَا كما كانت هي، عظَماً وجَزَماً (كما في لُغَةِ عجائز السودانيّات القديمات الجّارِحَةَ الدِّقَّةَ!)، في ليلةِ التَّقفيصِ المُذَهَّبِ لجمُوحِ نَفَسِ «عصفورتِنَا الضَّاحكةِ» التي هي، أصلاً، إيّاها فقط ولا غير، بلا نُصٍ ولا خمسة!

تفاصيل مُضطربة ومفكَّكة، بعمدٍ، عن ليلةِ التَّقفيص المُذَهَّب لِنَفَسِ «العصفورةِ الضَّاحكة»

كَيْتَا في نُقَّادِ «مُطاردةِ العلاماتِ النَّسقِيِّين» سيكون الرَّاوي هنا أشدَّ إيغالاً في تداعيهِ المُهجَّس بالتَّفلسُفِ الوجُوديِّ العميقَ التفكُّكُ الموحيَ المُعتَمُ والإضطرابُ، تماماً كما هذا الوجود الإنسانيِّ على هذا الكوكب الطّائر الدَّوَّار.

و«قالوا الزّمن دوَّار/ يا بسمة النُّوّار/ ياريت تعود أيَّامنا ونكمِّل المُشوار». كان مُغنِّي حفل زواج «العصفورةِ الضَّاحكَةِ» يترنَّم بـ typical زيدانيَّةٍ [نسبة إلى المطربِ الغنائي السوداني «زيدان إبراهيم] كانت، بحكمِ التَّوقُعِ الغيَّاظِ/المُغِيْظِ، ذائعة الشِّيُوع في تلك الأيَّامِ السّودانيّةِ البعيدة الغورِ النفسيِّ والإجتماعيِّ والقائمةَ، بضبطِ ميزانٍ مائيٍّ، تماماً عندَ استواء الجِّهةِ الثانيةِ من ثمانيناتِ القرنِ العشرينِ الماضي. أمَّا «العصفورة الضّاحكة» فقد كانت («في الوَكْتِ دَاكْ») مَكَنْدَكة بعرق وغبار الرَّقيص في وسط هجَّة الوداعِ تِلْكَ وكأنّها لم تكن، قطّ، عروساً لأيٍّ أحدٍ في ذلك اليوم: تمام الإنْطِلاقَة، الحلاوة، الفرفشة والهبلسة والتلقائيّة. وكان مجذوب الطيّب واقفاً، من بعدِ وصولهِ تواً إلى مكان الحفل (الذي كان قد جاءهُ، بالضبط، في لحظات قفلة غناء مطربه بـ«ياريت تعود أيّامنا ونكمِّل المشوار» في مقطع «قالوا الزّمن دوّار» الذي يبدأ بـ«طار البلوم حيران بسأل عن الحبّان» وينتهي بـ«اتغيّرت أيّامنا واتفرّقوا الحبّان»)، عِندَ الرُّكن المائل نحو بيتِ ناسِ «العصفورة الضَّاحكة» من الساحة التي نُصبَ فيها الصَّيوان (أي الرّكن الجّنوبي الغربي من السَهَلَةِ التي كان حفل الزّواجِ «معقُودَاً» عندها كـ«عقدِ الشّيخ

مُصطفـى لي الـدَّم بي العصـا»!). ثـمَّ شـمَّ مجـذوب الطّيـب، في نفـس اللحظـة التـي «رادَرَتْ» عِنْدَهـا «العصفـورةُ الضّاحكـةُ بُقْعَـةَ ارتـكازه المتأرجحـة (فقـد غـدا، بالـذَّاتِ في أوان رجـعِ بصرهـا عنـدَ «مَحَلَّتِـهِ» المؤقَّتَـةِ تِلْـكَ، مشـوبَ النَّفْـسِ والقلـبِ، فَجْعَـةً، باضِّطـرابٍ سِرِّي يتيـمَ الوصـفِ والعاطفـة- فقـدٌ سريٌّ عاصـفٌ في صمـتِ سـكونِهِ الإرتجاجـيِّ الهـزَّازْ!)، مزيجـاً ضاربـاً لبوخـةٍ صناعيَّـةٍ مُنَفِّـرةَ الأناقـةِ جامعـةً بـين رائحـةِ عطـرٍ دائـخٍ ومُـدَوِّخٍ مـن سُـلالة «لانكـوم» الشـهيرة [ولعلَّـه مـن ذات نكهـةِ أحـدِ عطـر «الأبنوسـة التـي صـارت زوجـةً: لوقارديـن Le Gardin وماجـي نـوار Magie Noir]، فـوحِ إسـفلتِ حِضْنَ-دُجَاجِـيَّ الحـرارة والعفُونـة الجَّاذبَـة الخفيفـةَ العَطَـنْ، ثُـمَّ تَفصُّـدٍ طفيـفٍ لعـرقٍ أُنثَـوِيٍّ خفيـفٍ وشَـهَوِيٍّ، إيمائيَّـاً. إنبثَقَـت (كلجنـةٍ تحضيريَّـةٍ لمؤتمـرٍ عِرْقـيٍّ ظُلْمِـيٍّ [**فالظّـلامُ** منـه بـرّاء!] مظنونَـةً بـه شُـبهةُ الإسـلاميَّةِ لكنَّه، بموجـب لطـف الإلوهـةِ الكلاسـيكيِّ عِنْـدَ حـرجِ المُنعطفـاتِ التاريخيَّـة الفجيعيَّـة لم يتـمُّ، ولـن يتـمُّ أبـداً [«**هـذه الجّهالـةُ لـن تمُـر**»- العـارف الشّـهيد محمـود محمّـد طه في أمسـية 24 مايُّـو 1969!]، العقـدُ الكاملُ لبنـاءَ جَامِعِـهِ السّـلفيِّ المُطلـقِ القَمْـعِ بعـدْ!)، فيـما وراءِ ضبـابِ غُبـارِ هُجْنَـةِ وعُجْنَـةِ الرَّوائـحِ تِلْـكَ، هيئـةُ بِنْـتِ خـضراءَ اللَّـونِ، داكنَـةً، قصيرةً بَتُوْلَـةً، كانـت مـن بنـاتِ دُفْعَـةِ شُـغْلِ «العصفـورةِ الضَّاحكـةِ»، اسـمُهَا دارُ السَّـلام، فهـي قـد اشْـتَغَلَتْ، في ذلـك الزّمـان، سـكرتيرَةً وطِبِّيْعَـةً عـلى الآلـةِ الكاتبـةِ في مكتـبِ كليَّـةِ الآدابِ بجامعـةِ الخُرطُـوم وكان مكتبُهـا ليـس بعيـداً عـن محـلّ شـايٍ لعـمٍّ حلفـاويٍّ نُوحِـيَّ العُمْـرِ كان «منحوتَـاً» في شَـكْلِ «حُفْـرَةِ دُكَّانٍ» مُسـتطيلةٍ ونِصـفِ مُعْتَمَـةٍ مَشْرُومَـةً- بالضَّبْـطِ- مـن الحائـطِ الحجـريِّ الثَّخيـنِ، «الغَليْـدِ»، المُقابِـل- مـن ناحيـةِ اليَـدِ الشَّـمالِ للصّاعِديـنَ فوقـاً إلى طابـقِ ذلـكَ المبنـى الأوَّل

حيثُ شُعبةِ الفلسفة بكليَّةِ الآدابِ بجامعةِ الخرطوم كانت لا تـزالُ عائِشَـةً بِمُجَـرَّدِ قُـوَّةِ الرِّسُـوخِ الـصِّرْفِ لعَـادَةِ، أو رُبَّمَـا «غريـزةِ»، سَـبْقِ الإصرارِ والتَّرَصُّـدْ- لقاعـدةِ السُّـلَّمِ الأسـمنتِيِّ المُـدَرَّجِ العتيـق.

كانـت دارُ السَّـلامِ شـاعرةً بشـفقَةٍ أُنْثَوِيَّـةٍ، إنسـانيَّةٍ، غامضـةٍ موضُوعُهـا مجـذوب الطيّـب وحالُـهُ (كـما تتصـوَّرُهُ) بعـد زواج صديقتِها «العصفـورةِ الضَّاحكـةِ» ورحيلها الوشـيك إلى «بـلاد الشَّـيكْ الخَـدْرِي». قليـلٌ كان فهمُهـا (فيـما يبـدو لضحـكِ مجـذوب الطيّـب الحزيـن، المُتوتِّـر، الخفيـف) للتداعيـات الشِّعورِيَّة الصَّديقـة التـي كانت هائِمـةً، بهلوسـةٍ نَفْسِرُوحِيَّـةٍ حُـرَّةٍ ومُفكَّكَـةِ الجَّـمال، فيـما بـين ثنيَّـاتِ المَـلاءِ المُطلـقِ (وليـس، قطعـاً، **الفـراغ** المُطلـقِ!) الـذي كان هـو- أبـداً؟- قائمـاً فيـما بـينَ مجـذوب الطيّـب وبينهـا- «العصفـورة الضَّاحكـة».

مـا أن شَـافَتْ دار السَّـلام أنَّ مجـذوب الطيّـب كان قـد «كَحَلَهَـا» بالفعـل بطريقـةٍ أوقعـت في بالهـا، لوهلـةٍ، أنّـه قـد كانَ، قليـلاً أو كثـيراً، شَـمَّ فيهـا شـيئاً مـن فـوح الشّـفقة الأُنثويَّـة الغامضـةِ تلـك والتـي كانت مُوجَّهَـةً، مباشرةً، مـن «تالاهـا» نحـوه حتـى أخرجـت، بعجلـةٍ، قطعـةً صغـيرةً مـن اللُّبـانِ مـن ماركـة «سـبيرمِنت Spearmint» مـن جيـب شـنطتِهَا الصغـيرة، البمبيَّـة، البيضاويَّـة وانشـغلَت بلوكهـا بتركيـزٍ في مَسـعَى للمُـداراةِ العاطفيـةً و- بالتَّحديـدِ المُهِـمِّ- لـصرف نظـر مجـذوب الطيّـب، الفيزيـائي والنَّفـسيِّ معـاً، عـن ناحيتهـا. هكـذا كانـت تُؤَمِّـلُ أن تقبـضُ عليـهِ هكـذا: لائكـةً اللبـان ومثرثـرةً بالسـلام المُطـوّل المُتعمَّـد الإيحـاء بالقـرب والحميميَّـة الأخويَّـة حتَّـى ينـسى هـو، أو تنـسى هـي (عـسى ولعـلَّ....)، أنَّـهُ كان قـد سـبقَ عليهـا «سـيفُ» الكَحْـلِ منـه، ولكـن هيهـاتَ هيهـاتَ، لا جِنَّـاً ولا سَـحَرَةْ! فقـد طُعِـنَ مجـذوب

الطيب بشـفقتها الطيّبـةِ جِدّاً وحـزنَ حـزن مـن يُتوهَّـمُ فيـه فقـدان مـن فقـد عـلى سـبيلِ ليـس هـو، أبـداً، كان سـبيلَ مجـرى شـعوره بشـأنِ فقـدانِ ذات ذاك الـذي فقـد: سـبيل **كان دايـر يعرّسَـا وباقـي الـكلام الإجـتراري في بيـوت الونسـات وضُـل ضحـى نسـوان الدّهـب الملان بالملـل والسّـأم حتّـى أقـاصي حـدودِ التّشـفِّي!**

«**يـا حليـل نـاس شـعبة الفلسـفة الـلي كانـوا لمـَّن يسـألوهم أصحـاب مجـذوب الطيّـب المجانـين- جميعهُمُـو طبعـاً!- عـن مجـذوب الطيّـب ويـن لمـّن مـا يلقوهـو في مكتبـو الطّـرّافي جنـب حـمام الشّـعبة بقولـوا ليهـم مجـذوب الطيـب ده طبعـاً عنـد.........** [ثُـمَّ يذكُـرُونَ، مغمغـين بتواطـؤ مضمـر الـبراءةِ والفُحـشِ الخِصْـبِ معـاً، اسـم «العصفـورة الضاحكـة، ثُنائيّـاً ومُنغَّـمَا!]. ترجَّـع صـدى هـذه الجزئيَّـةِ المُنفَلتـةِ، عـلى حـينَ زفـرةٍ، في نَفَـسِ مجـذوب الطيّـب كتعبـيرٍ إجـرائيٍّ يتيـمٍ ومُقتضـبَ الإبانـةُ، أو بالأحـرى الـلا إبانـةُ، عـلى مِثـالِ سـبيلِ [«يـا مـازن مصطفـى»!] ردِّ فعـلٍ مُناسـبٍ لاغـيرَ وفقـط [كـما قـد يقـول جمهـوريٌّ سـودانيٌّ حكيـمٌ قـد بلـغ، أخـيراً، خريـفَ عمـره الـذي كان، عنـدَ صبـاهِ الأبـديِّ فيـما قـد كان يـتراءى، حُلُـمَاً عـصيَّ المنـال والتّعشُّـم]، لكنَّـهُ جـدّيَّ الهامشـيّةُ، ضـدَّ، أو عـلى الأدقِّ بمـوازاةِ، طبعـاً، «سـبيل **كان دايـر يعرّسَـا وباقـي الـكلام الإجـتراري في بيـوت الونسـات وضُـل ضحـى نسـوان الدّهـب المـلان بالملـل والسّـأم حتّـى أقـاصي حـدودِ التّشـفِّي!**»

ثُـمَّ نـادت «العصفـورة الضاحكـة»، بميـلان جسـدٍ راقـصٍ منعطـفٍ بجنبـه الشَّـمالِ إلى ناصيـة مجـذوب الطيّـب (غيرُ المَسْـفُوعِ بهَـا طبعاً!)، مجـذوب الطيّـب أن هلُـمَّ إلى مركـز «دَنْقُـوسٍ» عَجَاجَـةِ الحنـانِ الهاجِّ

المُسـمَّى، otherwise، رَقْصَـاً! وتذكّـر مجـذوب الطيـب، في ذلـك الآنَ المـواتِي للحنـان العاصـف، تفاصيـلَ صغـيرة عـن حياتـه السـابقة و«العصفـورة الضاحكـة» في شـعبة الفلسـفة بجامعـة الخرطـوم، كليـة الآداب، خصوصـاً تلـك المتصلـة بنكهـاتِ كيفيـات انتظارهـا لعودتـه مـن غيابـات إجازاتـه بمدينـة كوسـتي: قصاصاتهـا الصغـيرة حـين لا تلقـاه بمكتبهـا أو بمكتبـه التـي كانـت تُودعهـا صنـدوقَ بريـده الدَّاخـليِّ بالشـعبة، أو مـا قـد يسـمّيه محـاضرو جامعـة الخرطـوم السـودانيين المُتفلهمـين المُخَوْجَنِـيْنْ his pigeon hole، وهـو غائـبٌ في «كَوسْـتِيِّهِ»، وتضمنّهـا كلامـاً صغـيراً مـن أمثـال: «تعـال يـا مجـذووب الطيّـب بي سرعـة عشـان نفطـر سـوا بي فـول الصبـاح!»؛ «لـو جيـت مـن كوسـتي ومـا جبتـا لي المُلوحـة انـا حـا أزعـل منَّـكْ!»؛ و«أحـيَّ أنـا مـن الحـر دي! لـو كنتـا هنـا معايـا كُنّـا مشـينا شربنـا لينـا حاجـه بـارده في «النَّشـاط». حسّـع مـا قـادره أمـشي مـع زول تـاني، مـع أنيِّ قبـال كـده مشـيت كتـير لي هنـاك مـع نـاس تانـين غـيرَكْ. مـا عارفـه ليـه!» ومخاطبـات أخـرى، صغـيرةً وخفيفـةً، مثـل تلـك لا تفتـأ تتراكـم في القصاصـات الصغـيرة التـي تتركهـا عنـدَ صنـدوق بريـده الداخـليِّ في الشّـعبة.

تلـك المخاطبـات كانـت، أيضـاً، تفعـل مثلهـا، أو أيِّ خربشـاتٍ أنثَوِيَّـةٍ تلقائيّـةٍ أخـرى صغـيرةٍ وموازيـةٍ لهَـا، نفـسُ «العصفـورةِ الضّاحكـةِ» عندمـا تـأتي، في أيِّ وقـت مـن اليـوم، إلى مكتبهـا وتتفقـده- إثـرَ شُرْبِهَـا المـاءَ مبـاشرةً مـن ثلاجـة شـعبةِ الفلسـفةِ بكليّـةِ الآدابِ بجامعـةِ الخُرطـومِ وهـي خـارّةً بخمـيرة عـرق الشـارع والحافـلات التـي كانـت قـد أتـت مـن لدنّهـا وممزوجـةً بحسيَّةِ الطِّـينِ والعطـرِ الشّـديدةَ النَّفـاذِ المُخْتَلَـطِ خصوصـاً عنـدَ اتِّصـالِ الأمـرِ الشُّـعُوريِّ

باختـراقِ عواطـفِ وحنانـاتِ أصدقائهـا عـلى التّعيـين- فيـه، أولاً، ثـمَّ ثانيـاً في مكتبـه الطّـرفيِّ الأُمْبَـدِّيِّ الكائـنَ في مـا سـبق وأن حُـدِّدَ مـن كـونٍ أو كينونـة والـذي كان مُسـيَّجَاً بحائـط انتهاء مبـاني الشـعبة مـن الـشرق ومجـاوراً لـه حـمام الشُّـعبة الـذي مـا كان مـا يـزالُ يركـبُ فضـلَ ظهـرهِ المـائيِّ ثُلّـةٌ مـن الاصدقـاء الملسـوعينَ، أبـدَاً، بالحُلُـمِ وطـينِ الجّـذرِ السُّـودانيِّ- الإنسـانيِّ القديـمِ، ثُـمَّ بسـوءِ حِصَّتِهـم الضَّـيزَى مـن لُهـاثِ الـضّروراتِ غـير الخـلاق الـذي كان هـو، دومـاً، قِسْـمَةِ أجيـال المثقفـين والمبدعـين السـودانيين الآسـية، بـل وكل الشـعوب السّـودانيَّة المنـذورة للعبوديّـة ودرجـاتِ المواطنيّـةِ الثانيـة بـل الثالثـة والرَّابعـة، منـذُ وطءِ أوّلِ سـلاطينَ طُغـاةَ (بموجـبِ المعـروف مـن «الدِّيْـنِ» بالـضَّرُورةْ) ومُهاجريـنَ مـن بقايـا سـلفيّي القـرن السّـابعِ الميـلاديِّ عـروش ممالكهـم القديمـةِ، الباذخـةِ والحكيمـة حيـثُ «أفـواهُ عصافـيرٍ تهـذي، كنوافـيرٍ، بمـاءِ الحكمـةِ المقدّسَـةِ للغابِرِيْـنْ..» [مُقتبـس عـن قصيـدة **شـكوى**- صبـاح الخميـس -10/5/1990 مجموعـة **خُصُوبـة القداسـة** (مجموعـة قصائـد نثريّـة للشـاعر السُّـوداني إبراهيـم جعفـر)، الطبعـة الأولى، لنـدن، 2004، منتـدى أهـل السُّـودان، التَّصميـم الفنـي: طـارق أحمـد أبوبكـر].

ذلـك كُلُّـه- كمجمـلِ تعليـقِ قديـمٍ، لكاريكاتيرسـتٍ مـصريٍّ كان يعمـلُ في مجلَّـةِ «صبـاح الخـير» المِصريَّـة، عـلى رسـمٍ كاريكتـيريٍّ صيفـيٍّ لـه نُـشرَ هُنالِـكَ زمـاااااان- شيءٌ جَـوُّه بديـع ودُنيـاهُ ربيـع ويلـزمُ «الشَّـاويشَ» أن يُقَفِّـلَ فيـهِ عـلى كُلِّ المواضيـع! لكـنَّ رأسَ خيـطِ الـكلامِ فيـهِ يظـلُّ هـو أنَّ «العصفـورةُ الضَّاحكـةُ» كانـت تكتـبُ الأشـياءَ الصَّغِيْرَةَ، الأخـيرةَ، تِلْـكَ بخـطٍّ مُـدوَّرٍ وكبـيرٍ؛ خـطَّ مـن «قَامَـتْ

بجهلِها» وقد لا تُريدُ، أبداً، الشّفاءَ التَّامَّ من «إندرواتِهَا» تلكَ التي كانت تقولُ عنها دائماً، بمرحٍ مُشعٍّ في عينيها الباسمتين-الحزينتين وكأنّها كانت تعني بذلكَ القول نفسها حَصْرَاً، إنَّها أكثرَ عسراً من الجِّنِّ نفسِهِ على المُدَاوَاةْ: **الجِّنْ بِدَّاوى كَعَبَه الإنْدِرَاوه!**

***

<u>**تدويراتٌ نهائيَّة:**</u>

[........ وربَّما تشُوبُ تلك الآنات المحكيّةِ، كذلكَ، نُثاراتُ رواياتٍ عاطفيّةٍ مُبَاغِتَةِ الحنان، أو السّهوم، عن، أيضاً كذلكَ، <u>**ذلكَ الرَّيْحَانِيِّ الرَّومانتيكِيِّ الخُرَافِيِّ الغائب**</u>- مُقتبَسٌ عن **الكتاب السَّابع- 1**].

قد بلغنا محلَّ ذلكَ الآنَ. لذا سَيُشْغَلُ الفراغُ الآتي، فقط بموجبِ ضرورةِ الرَّجاءِ العسيرِ لا أكثرَ ولا أقلَّ، بآخرِ الوسوساتِ السّرديَّةِ المُمكِنَةِ التي قد يُؤمَّلُ منها، ولو لحظيَّاً، استدعاءَ ذلكَ «الرَّيحانِيِّ»، شخصيّاً، إلى حضرةِ أصدقائه فيُبِيْنُ لهم بياناً موازياً لبيانِ الشَّيخِ البرهانيِّ آناءَ «مُراقبةٍ» بعد صلاةِ مغربِ خميسِ الذِّكرِ بكوستى أيامَ تكُن كوستى مُطَيَّنَةَ ومُعشبَةً ورائقةَ النّسيمِ، في المساءِ، من بعدِ سبعِ «بَقَرَاتٍ سِمانٍ» متوالياتٍ من المطرِ الغزيرْ، ثمَّ، على الأخصِّ، أيَّامَ يشغلُ البرهانيُّون الدَّسُوقيُّون الشَّاذليُّون (و«الشَّرنوبيِّيْنَ») أنفسهم، فيما بين صلواتِ زَّاويةِ الطريقةِ البُرهانيَّةِ الدّسوقيّةِ الشَّاذليَّةِ الخمسِ وذكرها، بشُربِ شايٍ كثيفِ النَّعناعِ وسفِّ «سُلطانِ الكيفِ» المجلوبِ من أقاصي وديان دارفور والمسنود بخبرةِ «خمسةٍ وعشرينَ عاماً في عالمِ التُّمباك»، كما توكِّدُ لافتةِ محلِّ «سلطان الكيفِ» الكوستاويِّ الظَّهْرِيَّةَ الباهتةْ!

قد تركَ الرَّيحانيُّ الغائبُ، من وراءِ «عِرَاقِهَ» التي توارى في الغيابِ فيها أو من بعد ما لم يعُد فيها (فليس هنالك، في الواقعِ، من يدري ما حدثَ له حقيقةً أو يشوفُهُ)، كُرّاسَةَ يوميَّاتٍ وتدويناتٍ مُختلفةٍ لصديقِهِ الحيِّ-الغريبِ مجذوب الطيّب. وسيأنس الرَّاوي في نفسِهِ، ما أمكنَهُ ذلكَ، كفاءةَ سردِ قُصاصاتٍ، من تلك اليوميّاتِ والتَّدوينَاتِ، هُنَا ومن ثمَّ يُولجُهَا، بقدرِ حظِّهِ من مِزاجِ السَّردِ، في شَرَشِ روايتِهِ وذلكَ بمعنىً مُوازٍ- رُبَّما- لما يُمكن أن يُعنى به تعبيرِ «شَرِشِ الحلاوةِ» عندَ تحدُّثِ مُنتجِي حلاوةِ الطَّحنيَّةِ، من العربِ الشَّرقِيِّينَ، عن مكوِّناتِها على غلافِ عُلبتِهَا.

على رُقعةِ بطاقةِ كرتونٍ أخضرٍ مستطيلةٍ (13.3 سم × 9.4 سم) يبدو أنها كانت مقصُوصةً من ذلك النَّوع العتيق من أغلفة كُرّاساتِ **معهد بخت الرّضا** [ذلك الرَّاحلُ المُقيمَ عندنا الآنَ بمجرَّدِ طاقةِ قوة خلوصِ الذكرى/النِّيَّة فحسب] التي كانت (وما أنْفَرَ شبهَ اللّيلةِ السّودانيّة المَوَاتِيَّةِ الحاليَّةِ عن شَبَهِ الليلةِ السّودانيّةِ البارحة!) مُخصَّصة، مجانيّاً، لعموم طلاب المدارس السودانيَّة الأوّليّة/الإبتدائيّة والمتوسّطة/الثانويّة العامّة والثانويّة العليا ذات اللونين الأخضر والأحمر غالباً كُتِبَ الآتي (التفاصيل الشّخصيّة بخط اليد وبقلم الحبر النَّاشف):

الإقليم الأوسط

مديرية النيل الأبيض

الدورة المدرسيّة الرياضية الثقافية الثامنة

الإسم [............(إسمُ الرَّيحانيِّ الغائبِ الأصليُّ المُثلّثَ التّربيع)]

المدرسة كوستي الثانوية الجديدة

الصَّف الثالث فارابي

العمر 19 سنة صورة فوتوغرافيَّة

نوع النَّشاط ثَقافي

إمضاء مدير المدرسة إمضاء مقرّر اللّجنة

سيخونُ الرَّاويَ، الآنَ، خِيَانَةً صديقةً-شَغُوفَةً، خُصُوصِيَّةَ بعضٍ من مُتَفَرِّقات تلك الكُرّاسة المُعفَّرة بخرائطِ لطخاتِ ترابٍ ناشفٍ لمطرٍ سيَّالٍ قديمٍ كان قد هدَّ بيتاً طينياً في المايقوما كان كائناً بجوار سينما النيلين العتيقة بديومِ الخُرطوم (تماماً كما «الجّامع العتيق» بأمدرمان!) وكان مجذوب الطيّب، في ذلك الزّمان الثّمانيني من القرن الماضي، مؤجِّراً إيَّاهُ، وصديقٌ تنامى الآنَ، قَاعِديَّاً (أي سياسو-اجتماعيّاً)، فانمَسَخَ قُنصلاً بوزارة الخارجيّةِ السّودانيّة، من أسرةٍ لاعبِ كُرَةِ قَدمٍ «تاريخيٍّ» في فريق التَّحرير الخُرطُومي. وسيبدأ (أعنِي الرَّاوِيْ) خيانتَهُ الصّديقةَ-الشَّغُوفَةَ تلك بنشرِ قصيدةٍ لا يعرفُ لها مُؤَلِّفَاً كان مجذوب الطيّب قد وجدها مُحكَّرةً في منتصفِ شَقَّي رحى تلك الكُرَّاسةِ الرَّومانسيَّةَ الكِتابةِ بلا حياء! [نعم، قد زُيّلَ آخر الرسالة باسمٍ معيّنٍ وتاريخٍ معيّنٍ هو 17/4/1981، لكن مجذوب الطيّب يشُكُّ، بغريزته وبحكم معرفته لطبيعةِ ذاك الغائب الرومانتيكية والإسقاطيَّة وغير المدقّقة،

في أنّ الإسم المكتوب في أدنى تلك القصيدة هو اسم من كتب القصيدة وأهداها، بخطّ يده، للريحانيّ الغائب وليس هو، غالباً، اسمَ شاعرها]. «شقّي رحي»، قُلنا، لأنَّ الأسى والتقلقُلُ كان طاغيَاً، بلهوجةٍ ولُهاثٍ عفويٍّ غير مُتقنٍ (إن كان، أصلاً، مُبْتَغىً من اللُّهاثِ أن يُتْقَنْ!)، فيها من الشَّطِّ الضَّائعِ المنفيِّ الأوّلِ إلى الشَّطِّ الضَّائعِ المنفيِّ الآخر- من دَفَّةِ الكُرَّاسةِ الضَّائعةِ المنفيَّةِ الأولى إلى دَفَّتِهَا الضَّائعةِ المنفيَّةِ الآخرة. ثُمَّ تلك القصيدة، بالذّات، كبدايةٍ للخيانَةِ إيَّاها، لأنّها كانت تقولُ، لمجذوب الطيّب، أشياء كثيرَةً عمَّن هَوَ، أصلاً وفصلاً، الرّيحانيّ الغائب (وعَمَّا هي «الطَّبيعةُ البُنيَوِيَّةُ لأزمتُهُ»، كما قد يقولُ، بعمُوميَّةٍ مُغِيْظَةٍ، المُثَقَّفُون الماجدُون!).

إلى اللِّقاء

يا أصدقاء

إلى اللقاء

وشدَّ ما أخشى تحيّة المساء

إلى اللقاء

أليمةٌ إلى اللقاءِ وصبحوا بخير

وكلّ ألفاظ الوداعِ مُرَّة

والموتُ مُرٌّ

وكلُّ شيءٍ يسرقُ الإنسانَ من إنسان

شوارعُ المدينةِ الكبيرة

قيعانُ تارَّةً

تجترُّ في الظَّهيرة

ما شَرِبَتْهُ في الضُّحى من اللَّهيب

يا ويلُهُ من لم يُصادقُ غيرَ شمسِهَا

غيرَ البناءِ والسياج

غير المربعاتِ والمثلّثاتِ والزُّجاج

يا ويلُهُ من ليلُهُ فضاء

ويومض عُطلتِهِ خالٍ من اللِّقاء

يا ويلُهُ من لم يُحبْ

كلُّ الزَّمانِ حولَ قلبِهِ شتاءْ

يا أصدقاء

يا أيُّهَا الأحياء تحتَ حائطٍ أصَمْ

يا جذوةً في الليلِ لم تنَمْ

لشدَّ ما أخشى نهايةَ الطّريقْ

أودُّ ألا ينتهي ولا يضيق

ويفرش الرؤى المخضلّة السعيدة

أمامنا ... في لا نهايةٍ مديدة

كأُفْقِ قريةٍ في لحظةِ الشّروق
والأفقُ رحبٌ في القرى حنون
وناعمٌ قرمزيٌّ يحضنُ البيوت
وتسبح الأشجارُ فيهِ كالهوادج المسافرة
يا ليتنا هناك
نسيرُ تحتَ صمتِهِ العميق
ونوره المضبّب الرقيق
جزيرةٌ من الحياه
ينسابُ دفءُ زرعها على المياه
ولا نملُّ سيرها يا أصدقاء!
الليلُ في المدينةِ الكبيرة
عيدٌ قصير
النّورُ والأنغامُ والشّباب
والسّرعةُ الحمقاءُ والشّراب
عيدٌ قصير
شيئاً فشيئاً يسكُنُ النَّغَمْ
ويهدأُ الرّقصُ وتتعب القدمْ
وتكنسُ الرّياحُ كلَّ مائدة

فتسقُطُ الزّهور

وترفعُ الأحزانُ في أعماقنا رؤوسها الصغيرة

وتنثني إلى الطريق

صفّان من مسارجٍ مُضبَّبَه

كأنّها عمدان قريةٍ مُخرّبَه

تنامُ تحتها الظلال

وقد تمرُّ مركبه

ترمي علينا بعضَ عطرِها السّجين

وساعةُ الميدانِ من بعيد

دقاتها ترثي المساء

وتلتوي أمامنا مَفارقُ ثلاثة

تمتدُّ في بطنِ الظّلامِ والسّكون

وتهمسون

إلى اللِّقاء...

اللّيلُ وحدهُ يهون

وداعه يهون فالنهار ذو عيون

تجمع العقد الذي انفرط

لكن دربنا طويل

وربّما جُزناهُ أشهُراً وأشهُرَاً معاً

لنّنا يوماً سنرفع الشُّراع

كُلٌّ إلى سبيل

فطهّرُوا بالحبِّ ساعةَ الوداع

طهّرُوا بالحبِّ ساعةَ الوداع

أ.يحيى

17/4/1981

لكنّـهُ لم يكـن هنـاكَ لقـاء، إلا في أطيـافٍ صغيرة مبعثرة مـن الخواطر المُفكّكـة. فقـد صـار مجذوب الطيّـب لا يراهُ، مـن بعد انقطاعِ الرسـائلِ عنـهُ، إلا في زوايـا خافتـة مـن نفسـه. أيـن ذلـكَ الحضـورُ العاطفـيُّ اليـكادُ يكـونُ أيروسيَّاً، أو باخوسيّاً، فيـهِ، للولـدِ الرّيحـانيِّ الغائـب عنـد أيّامـهِ معـهُ في كوسـتي والخرطـوم؟ أيـن جيشـانَ أُنـسِ المحبّـةِ القاهـرةِ في الظُّلمـةِ النّصفيّـةِ عنـدَ حديقـةِ القـرشي وآنـاءَ مغامـرات شرب العرقي الطفوليّـة؟ أيـنَ، بثـلاث كلـمات، شـغب الحيويّـة الماضيـة؟ هـل كانـت الذكـرى، في نفسِ مجـذوب الطيّـب، كافيـةَ الطّاقـةِ لاسـتعادةِ تِلْـكَ في اللّحـمِ الحَـيِّ والنَّفَـسْ؟ إن يكُـنْ ذلـكَ لا فـما الكائـنُ، إذاً، يكـونُ إن لم يكـنْ، حَـصْرَاً عينيَّـاً، هُـوَ اللّحـمُ والنَّفَـسْ؟

لكـنَّ ذلـكَ كانَ كذلـك فبقـي الكائـنُ («مجـذوب الطيّـب») باقيـاً، عنـد الحيـاةِ، بكيفيّـةٍ مـا- كيفيَّـةِ الرَّمـادِ رُبَّمَـا (كـما قـد يكتُـبُ الشـاعرُ السُّـودانيُّ المُرْغَـمُ عـلى الشِّـعرِ أحمـد النَّشـادر أو سـادن الكينونـة

الآخر محمّد الصّادق الحاج). ثُمَّ أنِّي مُتعبُ النَّفَسِ/النَّفْسِ الآنَ ولا أدري متى تُواتيني، ثانيَةً، راحةَ خلاء السّكينةِ البُوذيَّة. كما وأنَّ، أو ثُمَّ أنَّ، تلك أسئلةً لا إجابةَ لها إلا في مُطلقِ العيشِ المُطلق أو في مُجَرَّدِ **صُورةِ إمكانِه**.

عليه بما تبقّى من النَّفَسِ الصَّاعدِ من ذاتِ ذاكَ الرَّماد قد ينهضُ سمندلُ حياةٍ جديدةٍ، يوماً ما. لكن إلى أن يحينَ ذاك الحينُ دعوا عَيْنَ ذاتِ الرَّمادِ، عَيْنَ ذاتِ الحريقِ الخافتِ الكتيمِ تلكَ، المتبقِّيَةَ من ذاك الكائن الحيِّ **تتَعَنْيَنُ** somehow في المعاشِ، اليوميِّ وper chance **غَيْرَ** اليَوْمِيِّ، لتحكي.

***

كان السَّائقُ، في منزلِ السَّائقِ الذي مَشَىْ إليه السَّائقُ، معاً والولدُ الرّيْحانيُّ الغائبُ ومجذوب الطيّب والولدُ الصَّغيرُونيُّ م. ر. (كما في تسميةِ بنتِ نعناعةٍ كان قد حكى عنها راوٍ شَوَّفَهُ نفسُ كاتب هذه الروايةِ الآنِيَّةِ منها شيئاً، أو شيئين، شعوريَّين في روايته الأخرى المُسمّاة، إنجليزيّاً، **Umbaddah's Philosopher**)، كريماً ببقيَّةِ أو، على الأدقِّ، بُذْخْرَةِ طبيعته الريفيَّة التي كانت رائحةُ دَمُّورِها الأهليِّ العتيقِ ما يزالُ عالقاً رَشَاشُهَا بهيئته الإفرنجيَّة اللازمة- لحدٍّ بعيدٍ- للعيش والخِدمة في المدينة الكبيرة: البنطلون الرّمادي المكوي («سَيْفَاً» بقدرِ الإمكان)؛ قميص الساكوبيس الأبيض الخفيف وعطرٌ صارخَ، أوعتيقَ، الشَّمُومِ كان اسمُهُ «الصَّاروخ» مع تَخَلُّلِ طفيفٍ لرائحةِ صابونةِ بِلَيْ بَوْيْ Playboy للجَّوِّ البيتِيِّ في تلكَ العَصْرِيَّةِ البعيدةِ في بيتِ طُوبٍ أحمرٍ قاعدٍ عندَ ناصِيَةِ «عَشَرَةٍ» في الدِّيُومِ الغربيَّةِ من الخُرْطُوم.

ومـن الجهـةِ الداخليّـة لذلـك البيـت، التـي لم تكـن محجـوزةً عـن جهتـه الخارجيّـة بـأيِّ حائـطٍ أو رصيـفٍ وإنّمـا فقط بِوسَـاعِ سَـهَلَةِ حوش البيـتِ وبمجـرَّدِ قِيَـامِ المسـافة الإجتماعيّة-النفسـيَّة فيـما بـين «حـوش الرُّجـال» و«حـوش النِّسـوان»، كانـت تهـبُّ علينـا، واهَنَـةً لكـنْ بيِّنَـةً (عـلى مـا أو مـن قـد يدَّعـي خلافَهَـا)، رائحـةُ مُـلاحِ خُـدْرَةٍ مُسـتَعْجَلَ الطَّبـخِ وكأنَّ ربَّتُـهُ في حـالٍ عصبـيٍّ غـيرَ موائـم إطلاقـاً للحضـورِ الفجـائيِّ لأولئـكَ الضيـوف المُزعجـين الذيـن هـم، طبعـاً، نحـنُ الثلاثـة، مُضافـينَ إلى زوجهـا الهَـرَّاجَ السُّـكّرِ والشَّـغَبِ (أو مـا قـد otherwise يُسـمُّونُه، سُـودانيَّاً، «البَهْجَـةْ») الـذي كانـت «شَـامَّةً» لـهُ، أصـلاً، منـذ سـنينٍ لا تـدري، الآنَ، عِدَادَهَـا. هـي قـد انفعلـت بخلائـطِ ذلـك كلّـه لاحقـاً وشَـخَطت بانفجارهـا الكامـل العنيـف فينـا مـمّا لـوى، بشراسـةٍ مادّيّـةٍ ودنيويَّـةٍ فاضحـة، تهويمـات سُـكر الولـد الرّيحـانيِّ، صَعْقَـةً، في زَنَـخِ شـعورٍ جعلـهُ، لسـاعتِهِ، يـصرخُ، مُضطَرِبَـاً في وجـهِ مجـذوب الطيّـب بالـذَّات: **هـل شـعرتُ يومـاً بأنَّـكَ تـأكُلُ حديـداً؟! حديـداً؟!**

كان السّـائقُ، الـذي كان اسـمُهُ أحمـد عبـد الرّحيـم الماحـي، يعمـلُ سـائقاً خاصَّـاً للسَّـيِّد عمـر عبـد اللـه الشّريـف، مديـر إدارة الشـؤون الهندسـيّة بمكاتـبِ مديريّـة الخُرطـوم. ثُـمَّ كان الولـدُ الرّيحـانيُّ الغائـبُ نفسَـهُ يشـتغلُ، في تلـك الأيّـام السـابقة لهجرتـه مـن البـلادِ ومـن ثـمَّ غيابُـهُ الحَـرَّاقُ الطَّويـلُ واللانهـائيُّ (فيـما بـدا)، سـكرتيراً خاصَّـاً لنفـسِ السـيّدِ والمُديـرِ إيّـاهُ والـذي شـافهُ مجـذوب الطيّـب مـرّةً أو مَرَّتـين فقـط فوقـع، للتـوِّ، في إحساسـه الإجتماعـيِّ الضّعيـفِ أو، عـلى الأدق، المُفْتَقِـرِ للسُّـلطة، أنَّ ذلـك السّـيّد والمُديـر كان، حقَّـاً، «مالئـاً لمركـزه» وأنَّـهُ ربّمـا كان لـهُ (حقَّـاً كذلـكَ) أن يُعـدَّ، حتّـى بالمقاييـس الأوربيّـةِ

ذاتِ الدّولـةِ والسّـيادةِ ذاتِهـا، **Officer & a Gentleman!** كان الولـد الريحـاني الغائـب يشـير، عنـد ذاك المديـر، لصديقـه مجـذوب الطيّـب، بأنّـه هـو، ببسـاطةٍ، «مجـذوب الطيـب المجنـون» أو هـو فقـط قـد يُشـيرُ إليـهِ بكلمـة «المجنـون» فحسـب. وتلـكَ كانـت، عنـدهُ، كلمـةً مثقلـة بـدلالاتِ إنفلاتيّـة، شـعوريَّة وفكريَّـة، خاصّـةً، لكـن مـع ذلـك مُحبّبـة بمعنـىً مـا، أو بحـسٍّ مـا، أو بآخـر. وقـد غـدا المديـر إيّـاهُ، فقـط لمجـرَّدِ كونـه كانَ تحـت سـكرةِ سـطوة ذاك الجّـمال المريـود لذلـك الولـد الرّيحـاني الطّيفـيِّ، تلقائيّـاً، ينـادي صديـقُ ذاك الولـد الريحانيِّ-الطيفـيِّ، مجـذوب الطيّـب، بذلـك الإسـم المثـير الغامـض فحسـب: المجنـون! وذلـك رُغـمَ أنَّـهُ لم يَشُـفْهُ، في الهيئـةِ الحـاضرة (أو غـير الحـاضرة كثـيراً- كي لا أقـولَ «في الغالـب»!)، سـوى، فيـما يذكـر مجـذوب الطيـب، مرتـين كانتـا في مكتبـه الكائـن وراء مكتـب صديـق مجـذوب الطيّـب السـكرتير الجَّنُوبَ-إيطـاليِّ السُّـمرةِ والنَّحافـةِ أو، بخـلافِ ذلـك، الولـد الريحـانيّ الغائـب نفسـه.

مـا فـاتَ لوهلـة (الـكلام عـن «سـكرةِ سـطوة الجـمال المريـود لذلـك الولـد الرّيحـاني الطّيفـي... إلى آخـرِهِ») لا شـكَّ أنَّـهُ يسـوقنا، إلا قليـلاً، نحـو إدراكِ أنَّ سـببَ انجـذابِ السـيِّد عمـر عبـد اللـه الشّريـف، مديـر إدارة الشـؤون الهندسـيّة بمكاتـب مديريّـة الخُرطـوم، إلى الولـدِ إيّـاهُ هـو، عـلى التَّعيـينِ الجَّـريءِ، جمالـه الفائـق ونحـولَ قوامِـهِ الرومانطيقـيِّ الـذي كانـت كثـيراً مـا يُذكّـر مجـذوب الطيّـب (خصوصـاً في سـنينِ غُربتِـهِ الأوربيَّـة اللاحقـة)، دونمـا سـببٍ واضـحٍ واعٍ أو ظاهـرٍ عقليّـاً، بقـوامِ فتـاةٍ إيطاليَّـةٍ عشرينيَّـةٍ جَذَابـةَ المـرأى لكنَّهـا، مـع ذلـكَ، ملولـةً الطبيعـة وقلقـةً إلى حـدٍّ، أحيانـاً، الكُفـرانَ بـذات

هويّتِها الشديدة الجمال ذاتها فيما (بالتحديد) تكون هي، آنذاكَ، مجدوعةً، بإغراءٍ مُهْمَلٍ أو دَعَةٍ حداثيَّةٍ مُتْقَنَةٍ، على شاطيءِ من شواطيءِ البُندُقيَّةِ- فينيسيا المُخلَّدةَ، دوماً، إعلانيّاً وسياحيَّاً! وقد كان أحد أقرباء الولد الريحانيّ الغائبّ (ابنُ عمٍّ له، باللَّفَّةِ، كما استرجعَ مجذوب الطيّب بتهويشٍ يُليقُ بهِ تماماً) يدعوه (بسببِ نحافَتِهِ الطّويلةِ تلكَ، كما وفي مُبالغةٍ واضحةٍ أريدَ بها التّنكيتَ الخبيثَ السّاخر المُخفَىْ فيما قد طُرِحَ ظاهريّاً على أنّهُ مُجَرَّدَ مرحٍ غيرَ مؤذٍ أو، كما في عاميّةِ بلادِ الوسطِ السُّودانيِّ، مُجَرَّدْ «هِظَار ساكت») بكُنيةِ «القَلَم». «صاحبَكْ القَلَم وينو الليله؟»؛ «ياخي انتَ والقَلَمْ ده جننتُونَا بي النِّقَّه أمبارح بي اللّيلْ. كُنْتُو بتقُولُوا في شنُو؟ أصلكُم عايزين تقلبُوا حكومة حتَّه واحدة كِدَهْ ولا أيهْ؟»؛ «بعدين القَلَمْ ده فاكر نفسُو شنُو يعني: قُفَّه ولا أضان قُفَّه؟ شَابِكْنَا المسرح المسرح كأننّا نِحنا ما شُفنا ولا سمعنا أي تمثيليات ومسلسلات في حياتنا دي كلَّها. ياخي طُزْ! ياخي قُوم بُولْ». كان ذلك القريب (و«لا ينفع الحاسد مع الرَّازِق»، كما كانوا يكتبُونَ قديماً على رفارِفِ اللَّواري المُزيَّنَة وعلى وشُوشِ البصَّات السّفريَّة المضرُوبَةَ «بُهْيَةً» جديدة) يهرجُ بتفاهاتٍ مقصودةٍ كتلكَ في كُلِّ حينٍ يرى فيه مجذوب الطيّب على مسافةِ سلامةِ نظرٍ منهُ. وكان ذلك يُصيبُ رُشاشٌ منه أذنيَّ الولدِ الريحانيِّ («الغائب») لكنّهُ ما كانَ، أبداً، يُبدي أيَّ زَعَلٍ كانَ من تلكَ التَّسمية. بل كان هو يُواجِهُهَا- حين يَسمعها (على مَرْمَى حَصْحَاصةٍ منهُ أو دُونَ ذلكَ) منطُوقَةً من لسانِ القريبِ إيّاهُ (الذي هو غير حَصَانِهَ!) أو مِمَّنْ أيٍّ مِمَّن قد يتحذُّونَ بهِ في نُكْتَتِهِ السَّخيفةِ تلكَ والتي كان يُحاولُ عبثاً أن يستُر بياختَهَا بما كان يَظُنُّهُ، بِنَشَازٍ جريءٍ، غطاءً خفيفاً

ومُحْتَمَلاً الطّرافةِ أو الظُّرْفِ أو حتَّى المَرَح- بابتسامةٍ جذّابَةٍ صغيرةٍ مُخفاةَ السُّخريةِ (والشفقة) تماماً لكنَّها مُبَطَّنٌ فيها، لمن يأنسَ في نفسهِ كفاءةَ الرؤية أو القراءة، تتفيهٌ واستغناءٌ مُوجعٌ عن الرَّدْ.

لكن مجذوب الطيّب ما كان لِيَلقُطَ في علاقةِ الولد الريحانيِّ مع ذلك المدير الذي كانَ هو سكرتيره شيئاً أكثرَ من مُجَرَّدِ مجّانيَّةِ الإنجذابِ الطبيعيِّ والجّماليِّ للوسامة لولا حادثةٌ صغيرةٌ كانت قد تبدو، في حدّ ذاتها، هامشيّةً وغيرَ هامَّة أو دالّة، بالضّرورةِ، على ما خطر لهُ آنذاكَ، في ومضةٍ خاطفةٍ مشوبةً بحسٍّ رهبةٍ اجتماعيةٍ-لا شعوريَّةٍ عتيقةٍ، حول حقيقة طبيعةِ ما كان جارياً فيما بين ذلك المدير وذلك «الولد». ربّما كانت تلك الحادثةُ- الهامشيّةُ ظاهريّاً- قد لُقِطَتْ على ما هيَ قد لُقِطَتْ عليهِ لأنّها كانت قد صُبِغَتْ، تَوّاً (أو حتّى، على نحوٍ غيرِ مُحدَّدٍ ما أوآخر، «مُسبَقَاً»)، بأكثرِ ممَّا تَيَسَّرَ ممَّا قد ظنّه مجذوب الطيّب تلميحاتٍ صغيرةٍ من صديقهِ الريحانيِّ عن «تورّطِهِ» مع السّيِّد عمر عبد الله الشّريف في علاقةٍ حِسِّيَّةٍ «عَدِيْلْ كِدَهْ». يا دينِ النّاس! أيوه: يا دينِ النَّاسْ!

والحادثة دي، يا ناس، كانت («يا سيدي الأمنتَ ليك») موعداً شخصيَّاً ضربهُ «سيِّد عُمر» مع الولد الرّيحانيِّ الغائبِ في بيتِ مُوظَّفٍ على صلةِ قرابةٍ شديدةٍ بالولدِ الرَّيحانيِّ الغائب. وقد كان ذلك المُوظّفُ في مأموريّةٍ خارج العاصمة السُّودانيّة، الخرطوم، ومُسَلِّمَاً الولدَ الرّيحانيَّ الغائبَ أمانةَ بيته ومفاتيحه حتى يعود. وكانت لتلك المُوظَّف زوجةٌ شغوفةٌ بالولد الريحانيِّ الغائبِ (وهي كانت، أيضاً، قريبةً لهُ تكبُرُهُ في العمرِ بسنينٍ واضحة) شغفاً يكادُ يكون، في ظَنِّ مجذوب الطيّب (وبعضُ الظَّنِّ وَصْمٌ!)، شَهْوَانيَّاً.

وقد تألَّمَ مجذوب الطيّب، ألماً شديداً، في نفسهِ، من ذلك الظَّنِّ الذي كان مُعلَّقاً بنفسهِ، أو مُعْتَلِقاً بها، بالأحرى، كَنَفَسِ شكٍّ خفيفٍ لكنَّه إِبَرَهُ الصغيرةَ الدقيقةَ الحدودِ، كثيراً او قليلاً، مُتواترةُ الوخز. ويُفسِّرُ الرّاوي هُنَا (وذنبُهُ، طبعاً، على جَنْبِهِ المَثَلِيِّ) أَلَمَ مجذوب الطّيب المعنيِّ ليس تَمَاماً من جِهةِ نظريَّةِ النَّظَرِ إلى كونِ أنَّ القريبةَ تلكَ كانت امرأةً مُتزَوِّجَةً و«مَضْيُوقَةَ الحِلُو»، بحسبِ ذلكَ التَّعبيرِ العاميّ-الغنائيِّ- الشّايقيِّ الشّهير (رُغم أن ذلك قد-رُغْمَ ذلكَ- يدخلُ، على نحوٍ مباشرٍ ما أو غير مباشرٍ، في بعضِ أوجهِ ذاكَ التَّفسير)، وإنَّما، أولاً، لأنّها، كانت، ببساطةٍ، تكبر الولدَ الرّيحانيَّ بسنواتٍ تكاد تبلغ نصفَ عمره، ثُمَّ، ثانياً، لأنَّ الولدَ الرّيحانيَّ الغائبَ نفسهُ ما ليجدَ لها مكاناً في بيتهِ الجُوَّانيِّ الذي لم يُخصِّصُهُ، أَبَدَاً أو في الغالب، لأَيِّ خَلْقٍ آخرينَ سوى «فنَّانِيْهِ» من الشّبابِ البَهِيِّيْ الطّلعةِ والذّوق، أو رُبّما حتى «الرّوح» (إن نشاءَ أن نَدِّيَ التّعبيرَ كوزاً أو كوزينَ من «الفَلهَمَة»!)، بحيثُ لم يَجِد معهُم، إلا قليلاً، خلاصَاً (والعهدة على إعادة الرواية الغنائيّة، مِنْ قِبَلِ المُطرب السُّوداني الرّاحل أحمد الجّابري، لتلك الأُغنية الحقيبيَّة-السّودانيّة المُومَئْ إليها هُنَا).

لكنَّ الموقفُ الإجتماعيُّ الإرتيابيُّ (بالمعنى الخبيث السّالب لكلمة «إرتيابي») الذي قد يقرأُ ما سبق قد يُلخِّصُ، بـ«أُفٍّ» واحدةٍ ممطُوطةَ الشّفتَين، موقفَ الولدِ الريحانيِّ الغائبِ ذاكَ من «فنَّانِيْهِ» بأنَّهُ ليس هو «إلا مُجرَّدَ موقفِ مِثْلِيَّةٍ جِنْسِيَّةٍ سالبة وبالتالي هو ليس إلا موقفٌ غير سوي طبيعيّاً و**أخلاقيّاً**». وأكثرَ من ذلك قد يتبدَّى الموقف إيّاهُ، لبعض المتأثرين بالتوجُّهِ السايكولوجيِّ

الفرويـديِّ المؤسـس عموماً عـلى فكـرٍ سـايكو-بايولوجيٍّ ضيّـق الرؤيـة، عـلى أنَّـه «صحيـحٌ وموضوعـيٌّ ومنطقـيٌّ»، بعـينِ المعنـى «العقـلانيِّ» البـاردِ المألـوف لعبـاراتٍ مثل»الصحّـة والموضوعيّـة والمنطقيَّـة». لكـنَّ ذلـك كُلُّـهُ مـا كانـت، ولـن تَكُـنْ، لـهُ- قطعـاً- أيُّ قُـدْرَةٍ، مـن الحـسِّ والخيـالِ تَخْصِيْصَـاً، عـلى أيِّ تَمَلُّـكٍ نَفْسيٍّ-رُوحـيٍّ لعصـبِ أوتـارِ جوهـرِ وضعيَّـةِ الولـد الرَّيحـانيِّ الغائـبِ تلـك. فعازِفَـاً عـلى الأوتـارِ الوجُوديَّـةِ المُتعـدِّدَةِ الأوجُـهِ والمعـاني والعلاقـات كان هُـوَ. كـما وكانـت، كذلـكَ، طبائـعُ صِلاتِـهِ و»فَنَّانِيْـهِ» أولئـكَ. مـا علينـا. لذلـكَ خَلُّـونِي (قبـل أن تُشـغلني تيـكَ الأفـكارُ المُتوهَّـةُ الفائتـةُ عـن «معرفـةِ دَرْبِ الرَّجْعَـةِ» إلى سرديَ الخالـصَ التَّهويميَّـةِ- والحمـدُ، في ذلـكَ، لمـن له/لهـا الحمـدُ) أرجـعُ إلى حكايـةِ المديـرِ الصَّغـيْرَةِ التـي كانـت مـع ذاك الولـدِ الرّيحـانيِّ الغائـب (الآن) ومـن ثَـمَّ، مـن بَعْـدٍ، إلى حكايـةِ قَعْـدَةِ مجـذوب الطيّـب والولـدُ الرَّيحـانيُّ الغائـبُ والولـدُ الصَّغَـيْرُونيُّ م. ر. مـع سَـائقِ «سـيّد عُمـر» الخـاص، أحمـد عبـد الرّحيـم الماحـي، التـي بـدأتُ بهـا هـذا الحـكي اللّولبـيِّ الأخـير المُنْدَمـجَ (كـما قـد أهـوى أو قـد آمَـلُ) في جِـمَاعِ هـذه الوسوسـةِ الدَّائريَّـةِ التـي مـا تـكادُ تَخْلَـصُ حَتَّـى يُغْـرَى مَـنْ يُخْـرَطُ فِيْهَـا (كَمِعْـدَنٍ)- فقـط لـو أُوْتِيَ طاقـةٌ عـلى ذلـكَ؛ لـو- باسـتعادَةِ حَكْيِهَـا (ولوعِنْـدَ حَـدِّ الشَّـفاهيَّةِ المُسَـمَّاةَ بسيطة فحسْـبْ)، مَـرَّاتٍ ومَـرَّاتْ.

كان الولـد الرّيحـانيُّ الغائـب قـد كلّـم مجـذوب الطّيـب (في منـزل العزّابـة بالدِّيـوم الشّرقيّـة الـذي كان مجـذوب الطيـب، أيَّامَذاكَ، يسـكن فيـه)، قبـل يومـين مـن ذلـك اللقـاء، بأنّـه قـد كان، في تلـك الأيـام الدّيسـمبريَّة الشّـتوية ظريفـةَ الهـواء، سـاكناً وحـده في منـزل الموظـف

القريـب الذاهـب في مأموريّـة وتَرّجّـاهُ أن يُشـاركهُ العيـش هنـاك لـ«يومـين تلاتـة». عليـه ركـب مجـذوب الطيـب، في عصريّـة اليـوم التـالي، رجليـه، مـن الدّيـوم الشرقيّـة بالخرطـوم، إلى ذلـك البيـت الـذي لم يكـن بعيـداً مـن نقطـة بوليـس الخرطـوم جنـوب وميـدان المولـد الـذي كان قـد تـمَّ تحويلـه، في «داك» الزّمـان وفي غـير أيّـامِ الإحتفـال بمولـد النبـيِّ الأمّـيِّ (وهـو نفـسُ النبـيِّ الأُمّـيِّ بِتـاع مَدْحَـةْ «واشـوقي لِـوْلادْ أمّي/قـالا النبـيُّ الأمِّـي» إيّـاهُ)، إلى سـوقِ جُمعـةٍ حـارّاً بالبضائـع الرّخيصـةِ المبذولـة، في كيـمانٍ مُجَدَّعَـةٍ عـلى قماشـاتٍ مفروشـة كِفَاحَـاً عـلى مُجـرّدِ نَشـافِ تـراب الأرضِ وحـدهُ ولا غـيره، لـذاتِ شَـعبِ عَشَـا البايتـاتِ ومُقْنِـع الكاشـفات المُعتَّـق القديـم الـذي قيـلَ عنـه، حديثـاً أو في سـيران المثـل الهتـافيِّ المُعـاصر، أنَّـهُ، والحمـدُ للصّانـع، «جيعـان لكنُّـو جبـان»! المُهـم كان مجـذوب الطّيـب فائضـاً بمحبَّـةِ «يـا فرحـاً قمريّـاً سوسـنني الليلـةَ بالموسـيقى!» عندمـا كان ماشـياً (وغـيرَ مُبـالٍ عـلى الإطـلاق بحكايـة «السّـعيِ إلى الحتـفِ بالظُّلـفِ» العتيقـةِ تلـكَ!) إلى «عشَّـةِ» الولـد الرّيحـانيِّ الغائـب المؤقّتـة؛ بكامـل طـينِ حنينـهِ العزيـز، ثُـمَّ بطـول شـارع حافـلات الصحافـة زلـط المُلَوْلَـوِ كلـه، خصوصـاً بعـدَ «محطّـة طُلمبـة الغـالي» وعنـدَ المُنحنـى النـازل إلى مـوازاةِ سـورِ حائـط «حديقـة القُـرشي» الشّرقـي. تذكّـر مجـذوب الطيّـب، عند ذلـك الحائط، مغامـرات الولـد الرّيحـاني الليليّـة الصغـيرة التـي كان يجريهـا هنـاك، كتجـاربٍ حـرّةٍ جديـدةٍ، بمتعـةٍ وصـوتِ خـوفٍ صغـيرٍ ممـزوجٍ بإحسـاسٍ مـوروث ومغيـظٍ بالذنـب- طفيفـاً ولاعنـاً لتقليـد عبـادةِ أسـلاف الـدم السّـنيّيِّن الـذي ورّطـه (منـذ ارتكاسـة القـرن السـادس عـشر في بـلاد السّـودان السّـاذج الكبـير!) في كلِّ شُـغلِ «الخطيئـةِ» و«الفضيلـةِ» ذاك لكنّـه- مـع كلّ توتُّـراتِ ذلـك الرّفـض الدَّاخـليِّ العنيـف- مـا فتـأ قابعـاً

هنـاك في لا شـعورهِ وملتصقـاً بأركانـه المُهملـةِ كالتصـاقِ خفيـفٍ، بيـد أنّـهُ عنيـدٌ، لذُبابـةٍ بأنـفِ متحـدِّثٍ في ليلـةٍ عامّـة. كـما وتذكَـر، عنـدَ تلـكَ الوقفـةِ، خوفـاً خاصَّـاً عليـه أحـسَّ بـه الولـد الريحـاني الغائـب تجاهـه في أحـدِ تلـك الليـالي المثـيرة البعيـدة وضحـكَ ضحـكاً خالصَـاً لوجهـه تَـدانَىْ! غـير أنّ الـراوي لـن يحـكي تلـك هنـا فيـما يبـدو وقـد يشـير، أو لا يُشـيرُ، إليهـا خفيفـاً في مُقبـلِ هـذا التّداعـى.

عنـدَ طرقِـهِ بـابِ المنـزلِ المَزْيُـور، في الخامسـة مـن عِصَـيْرِ ذلـكَ اليوم المُنْتَصَـفَ ثمَانِيْنِـي مـن القـرن العشريـن، أحـسَّ مجـذوب الطيّـب، دون أن يـدري لمـاذا (كالعـادة، أو كـما قـد يكتـبُ الروائيّـون المُحْدَثُـون)، بأنَّـهُ قـد يكـونُ هنالـكَ خطـأٌ أخلاقـيٌّ مـا في سُـكناه مـع الولـد الريحـاني الغائـب، وحـدَهُ، بـكُلِّ جمالـهِ (نعـم، بـكُلِّ **جَمَالِـهِ!**)، في ذلـك المنـزل الـذي كان عائليّـاً بامتيـاز. وقـد تأكّـدت تلـك «العائليّـة» في نَفْـسِ مجـذوب الطيّـب تـوّاً أو، عـلى الأدقِّ، تـوّاً بالـكاد. إذ مـا كاد يدخُلُـهُ ويعطـي الولـد الريحـاني الغائـب عنـاق السـلام المشـوق حتـى شـمَّ بقيّـةَ رائحـةِ أقـماطِ اطفـالٍ وفـوحِ لعـبٍ وصـمَ بصماتـهِ الواضحـةِ في قطـاراتٍ وعربَـاتٍ بلاسـتيكيّةٍ صغـيرةٍ متناثـرةٍ قـربَ بـاب الـدّار. (يبـدو أنّ سـيّدة الـدار، عنـد خروجهـا بالعيـالِ منـه، كانـت قـد بذلـت عنتَـاً شـديداً في إقنـاعِ أطفالِهـا بالرحيـل المؤقَّـت معهـا، إلى المـكان الجديـد، دون أن يأخـذوا معهـم لُعبَهُـم العصريّـة تلـك مِـمَّا خلّـف آثـار المعركـة العائليـة اليوميّـة المعهـودة عنـدَ بـاب الـدار الخارجـي الـذي ليـس منـه، ولـو مؤقتـاً، عـودةً إلى دارِ عـادةِ الإلـفِ العائـليِّ العتيقـة).

كان وجـهُ الولـدِ الرّيحـانيِّ، منـذُ وهلـةِ اللقـاء الأولى، يبـدو منطبعـاً بإخفـاء شيءٍ مُسـتَجِدٍّ كان يخـافُ مـن جُـرحِ مجـذوب الطيّـب بـه عـلى

نحوٍ ما أو آخر رُغم علمه التام أنَّ مجذوب الطّيب لا ينجرحَ منه أبداً أو- حتى نكون أكثرَ تحفُّظَاً وحِرْصَاً في الكلام- بسهولةٍ- مهما «عَمَلُّوْا».

في الليلة الأولى كان هنالكَ- إلا قليلاً- بساطةُ فوحِ الفُولِ العَدِيْلِ التَّصَلُّحِ بالطّعميّةِ والبصلِ وزيتِ السِّمسِمِ والمِلح والشّمار فحسب وذلكُم (في غالبِ الظَّنِّ) حتى لا يكن مجروحاً (دونَ لزُومِ اللّحظةِ) بإضافاتٍ أجنبيَّةٍ باذخة كالجُبنِ والكِبْدَةِ المُحمّرةِ المقليّةِ بثومٍ جديدٍ وحار أو (قُلْ) هو قد عُمِلَ كذلكَ عَمْدَاً على سبيلِ التّمنّي المُعَاكِسِ النِّكَائِيِّ ولا غير! وفي صباحِ اليومِ التالي ذهب مجذوب الطيّب إلى جامعتِهِ؛ الولدُ الرّيحانيُّ الغائبُ إلى مُديرِهِ. غير أنَّ تغيّر الوجه وانكشاف المستور الصغير حدثَ في عصريّةِ ذاتِ ذلك اليومِ التّالي الثّاني. فما أن ظهر مجذوب الطيّب، متأخّراً عن الولد الريحانيِّ الغائب، عندَ بابِ ذلك المنزل المُستعار المُؤقَّت، وفتح له الولدُ إيّاهُ الباب (كان يعلم أنَّه لا بدَّ أن يكون بالداخل قبله، مُوصّلاً، إلى هُناكَ، سريعاً، بعربةٍ حكوميّةٍ بأمرِ المدير الجّهيرِ الكبيرِ الخطيرِ نفسه!)، حتّى قرأ مجذوب الطيّب وجهَ الصّديق/**الآخر**، أو **الآخر**/الصّديق- على الأدقِّ رُبَّمَا، فيه للتَّوِّ وواتاهُ حزنُ انفصالٍ خفيف. شعر بأنّ هنالكَ مسافةُ أسى غامق الخضرة والخفَّة (لم يكن كثيفاً أو مُلبَّكاً كشعرِ جامايكيٍّ راستافاريٍّ مثلاً) قائمَةً بينه وبين الأخير-**الآخر**. علم الأخير-**الآخر** توّاً بذلك غذ اعترته رعشة خفيفةٌ عِنْدِ جانبيِّ الشِّفاه الرقيقة غير أنَّهُ لم يكن- آنذاك- يملُكُ أيَّ حيلةِ سيطرةٍ (ولو مُرائِيَةٍ) على مسيرةِ مؤامرةِ مغامرته المسائيّة الآتية مع المدير الكبير الذي قد يتطلّع (بمجرّدِ حكمِ هيئتِهِ

المَكِيْنَـةِ فحسـب!) إلى أن يكـون- قطعـاً أو بَـسْ «لِـمَ لا؟»- برتبـةِ وزيـر!

- ممكـن يـا مجـذوب الطيـب تدّيـني سـاعتين ونُـص في البيـت ده بـراي لمّـن تجـي السـاعة سـتّة ونـص؟ معليـش يـا حبيبـي لكـن ده ضروري- شُـغل ضروري.... سـيّد عمـر حيلاقيني بـراي هنـا سبعة إلا ربـع، قـال.

قالهـا بلهوجـةٍ شـديدةٍ وكانّمـا كان يخـشى عـلى نَفَسِـهِ أن يـأبَىَ تَكْمِلَتَهَـا دون أن تَرْتَعِـشِ رزانتَـهُ- ولـو قليـلا. واتى ذلـك الهبـوطُ الأليفُ الشَّـبيهُ بِمـا قـد يُـواتِيَ فـؤادُ مـن يركـب طائـرةً لأولِ مـرّةٍ في حياتـهِ عِنْدَ لحظتِـي الإقـلاع والهبـوطِ معاً نَفْسَ مجـذوب الطيّـب في لحظـةٍ واحـدةٍ ثَخينـةٍ وجامعـةٍ ثُـمَّ حَتَـلَ، تدريجيّـاً، وغـارَ فيـه لِمُسـتقَرٍّ لـه (كالشّـمسِ القُرآنيَّـةِ الجَّاريـةِ، مَثَـلاً). أو هُـوَ قـد كان الشـأنُ معـه- بتَـمَامٍ غريـبٍ- كشـأنِ مـن قـد قَـالَ عَـنْ نَفْسِـهِ، في أُغْنِيَـةٍ: [**في لحظـة عابـرة بـلا كلام قلبـي الغريـب بالهـم نـزف**].

عنـد عـودةِ مجـذوب الطيّـب إلى المنـزل الـذي كان معـه فيـه الولـد الرّيحـانيّ الغائـب رأى في وجـه الولـد الريحـاني الغائـب شـيئاً مثـل التذكّـر لـه مـن جديـد. كأنّـه كان قـد نسـاه لوهلـة السـاعتين ونـص وعـشر دقائـق- تمامـاً- فانجـرح مجـذوب الطيـب، تـواً، بذلـك النّسـيان (رُغـم تبريـره المقبـول بشـهوة الجسـد الواقعيَّـة العابـرة- أو غـير العابـرة- التـي اسـتدعت، في الأصـل، جمـع الولـد الريحـاني الغائـب بالمديـر الخطـير، رئيسـه في الشُّـغل) وشـحب الـدّمُ، بجـلاءٍ، في وجهـه بصُفـرةٍ مُباغِتَـةِ وكأنَّمـا كان هـو مُشْـتَمَلاً، دونمـا يـدري (فبـأيِّ **طريقـةٍ**، وعـلى أيِّ **طبيعـةٍ**، خَـبِّرُونِي، يَكُـن دَرَيَـانُ النَّـاسِ في مثـل لحظـاتِ إنجراح الأنانـاسِ فيهمـو تلـكَ، يـا نـاس؟)، بطوالـعِ ريـح يرقـانٍ صفـراء قادمـةً

إليـه مـن جُـزرٍ مريضـةٍ بعيـدةً في المـكانِ والحـسِّ والتَّخيُّـل. (كـدتُ اكتُـب «التّصـوّر» فوجدتُهـا سـتكون عتيقـةً ومأكولـةً، بعـضَ الـشيءِ، بالعَـثِّ، إن هـي قـد حُـشرت في هـذا المـكان، بالـذات، مـن روايـة هـذه النُّتـف التغييظيَّـة المُتعمّـدة مـن مـاضي سـيرةِ الولـدِ الرّيحـانيِّ الغائـب).

ثـمَّ، بعيـداً، عنـدَ تلـك الجـّزر اليرقانيّـة (ليـس في كُلِّ الوقـتِ، بالطبع أو، عـلى أسـوأ فـروضِ النّيّـاتِ بـكلام التهـذّب المُخفَّـفْ) وبفاصـلِ سـنينٍ مُدَرْدَقَـةٍ بالغيـابِ والغنـاء والذهـول وبعـض بهجـاتٍ صرفـةٍ غـيرَ مَحْرِيَّـةَ الوقـوع بيـد أنهـا مـع ذلـك- وباتصـالِ أسـبابٍ كونيّـةٍ مُسْـتَسِرَّةَ الوجـع والجـمال- ليسـت مجانيّـة، وجـد مجـذوب الطيّـب نفسـه يقـرنُ (**وجوديّـاً**، كـما قـد يحـبُّ البعـضُ أن يقُولُـوا!)، فيـما بـين أسى الذّكـرى وشـهقاتِ بغتـات النّدمِ/التَّنَدُّم/التّلوام/التَّأثُّـم الغامـض الفـارع المفاجـئ، فيـما بـين حدّوتـة الولـد الرّيحـانيِّ الغائـب الصغـيرةِ تلـك وحدَّوتَـةٍ صغـيرةٍ أخـرى موازيـةٍ لهـا- أو ربّمـا يصـحُّ هنـا أكـثر أن نزعـمَ أنّهـا كانـت، في الموقـف والجّوهـر العـام، **مُتعامـدةً** معهـا، بالأحـرى- شـخصيتاها هـذه المـرّة رجـلٌ إثيـوبيٌّ وامـرأةٌ حَبَشِـيَّةٌ-إيطاليَّةٌ وقـد كان أحدهـما، وهـو الرجـل، مَعْرِفَـةً عِنْـدَ مجـذوب الطيّـب بوكالـةِ صداقـةٍ فيـما بـينَ مجـذوب الطيّـب والإمـرأةِ الحَبَشِـيَّةِ-الإيطاليّةِ شـاءت (أو سـمحت) لهـا نفسُـهَا أن تتجسّـدَ بينهـما أكـثر عنـدَ لحظـاتِ الخمـر والشّـهوة التـي كانـت جامعـةً كثـيراً- وليـس كُليَّـاً- فيـما بـين مجـذوب الطيّـب وبـين تلـك المـرأة.

كانـت تلـك المـرأةُ مجنونـةً بنفـاذِ دَوْخَـةِ بـوخِ رائحـةِ الرّجـالِ «الطّبيعيِّـيْنْ» (شَـبِقَةٍ، بالعبـارةِ السـأيكولوجيّةِ الحديثـة). وقـد كانـوا يُسـمُّونَ امـرأةَ «قَونـدارٍ» تلْـكَ، في ماضيهـا السُّـودانيِّ الـذي بـترت

أعضـاء مسـيرته الفاتحـة، الباهـرة الغـزو والتنهّـدات والوهوهـات الحبشـيّةِ النّشـوةِ- الحُمَّـى والإصطبـاء (هـل هنالـك كلمـةٌ كتِلْـك؟!)، وقَطَّعِتْهَـا مِـنْ خِـلافٍ جِلْـفٍ، شريعـة الإمـام السـودانيِّ والجـنرال العاقر/العقيـم جعفـر محمـد نميري، بـ»بِتَاعـةَ الأسبُوع«، فهـي، فيـما كانـوا يُعَنْعِنُـونَ، لم تكـن تُقـضي مـع أيِّ رجـلٍ، مهـما كان لونـه أو وزنـه أو- جريـاً عـلى ذلـكَ- «حجمـه»، أكـثر مـن أسـبوع واحـدٍ تُشـاكلُهُ بعـدهُ، شَـكَلاً جهـيراً، وتُعنِّفُـهُ بأقـسى عبـاراتِ هـذه الدنيـا العُدوانيَّـةِ عـلى، وضِـدَّ، الرجـال- عـلى، وضِـدَّ، **الذِّكُـورةِ** بالتَّحْدِيْـدِ، بـكُلِّ اسـمِها ورسْـمِها اللاهـب المُنْتَصِـبْ- حتـى ينـبري لهـا آخَـرٌ، رجـلٌ هـو أيضـاً، فتحتضنـهُ، دونمـا إثـمٍ أو «خَجْلَـةٍ» أو حتـى ظـلال كبريـاء ممكنـة موروثـة مـن موقفهـا العنيـف الجهـير مـن الرجـال الـذي طالمـا أوغلـت في تغليـظ الألفـاظ المتوحّشَـةِ في شرحـهِ والقـذف بـه في وجـوهِ جميـع رجالهـا «الأسـبوعيّين» السـابقين. ثُـمَّ يُولـجُ فيهـا (الـذي هـو رجُـلٌ أيضـاً) رُجُولتَـهُ المنتعظـة بالفحولـة الجديـدةِ (عليهـا) فتنـامُ عـلى خـدرِ الإشـباعِ الجِّنـسيِّ المجيـدِ وعـلى فمهـا بقايـا عبـاراتٍ فاحشَـةَ التَّحنُّـنِ والتَّغنُّـجِ والتكيّـف بصـوتِ مـدروشٍ، أو مهرُوسٍ، ببحّـةِ شرابِ العَـرقِ اليونـانيِّ، أو الحَبّـشِيِّ الأرثوذكـسيِّ، نـومَ طفـلٍ مولـودٍ للتـوِّ في هـذا العالمِ الـدّوَّارِ دومـاً بالإحتـمالات الجديـدةَ اليقـينِ والـلا يقـين.

كانـوا (ثُلاثتهـم) مُسـتَرخيينَ في شـقة مجـذوب الطيّـب في تلـك المدينـةِ الضبابيّـةِ التـي كانـت، ومـا تـزالُ- إلى حـدٍّ كافٍ- عاصمـةً بيضاءَ لتلـك الجـزر البيضـاء (الموصوفـةَ، في سـابقِ هـذا الهذيـانِ، بـ»اليَرَقَانيَّة«) فيـما وراءَ بحـارِ العالمثالثيِّـين السّـود والسّـمر مـن النّـاس. وكانـت بينهـم زجاجـةُ نبيـذٍ أحمـرٍ مـن شـيليَ-الموزةِ (1983)، حامـضَ السُّـكَّرِ

العِنَبِيِّ والإختِمارِ ولاذعاً في الطَّعمِ كما الهُجران بيدَ أنَّه، مع ذلكَ، مُتَعْتِعَاً للألسنةِ بسُكرٍ، وكلامِ سُكرٍ، فاحشَ العاطفيّةِ و«التَّدَلْقُنْ»، كلاماً (في الغالب) أمهريَّاً مُنْدَلِقَاً بقوَّةٍ مُتَهَتِّكَةٍ، خُصُوصاً عِنْدَ مما يلي السّامع من جهَةِ «شَرْقِ» الحبشيّةِ-الطّليانيَّةِ الفصيحةِ و«بِتَاعَةِ الأسبوع» فهي قد كانت شاحنةً له، كأنّما كان الموقف حينذاك موقف هو أو الطوفان/الموت (رغم أنّه لم يكن، في الحقِّ، كذلكَ، على الإطلاق)، بكلِّ دُخانِ شواظِ بارُودِ صفاتها السَّابقةِ الآبقةِ تِلْكَ.

كان ذلك ذاتَ صيفٍ. بيد أنَّ ذاكَ الصّيفَ ما كانَ لِيُضِيعَ لبناً، بل هو حافلٌ باللبن والسمنِ والعسلِ وبنتَ العنب، كما وأشياء غامضةَ من كائناتِ الحنينِ اللا معقول لبلدان السّجمِ والرّمادِ التي كان القاعدون أصلاً منها ومقبلينَ عليها بشهيّاتِ ذكرياتٍ حارقةٍ كانطباعِ الحوافرِ على رملِ الجّسدِ الحيِّ وإن هي أدبرتهُم- سياسةً واجتماعا.

كان الناسُ الثلاثةَ، بما فيهم مجذوب الطيّب ذاته، مسترخيين بالسّكرِ، بشرابِ دمِ المُخلِّصِ الشفيفَ الحُمرةِ (هل كانوا- لِعَمرِ الرَّاوي- يذكرونهُ، ولو طيفيَّاً؟!) وببدايةِ انتعاظين خفيفين عندَ عُضويِّ الخُصوُبةِ في الرّجُلَينِ، فالمرأةُ كانت ساخنةً بالسّكر وبالذكرى وبما رحمها بها ربّي من طينيّاتٍ أخرى. كانت المرأةُ، بعاميّةِ العبارةِ الفصيحةِ «وحلانة يعني وعايزة الرّفعة-النّزلة اللذيذة!»، كما قد يُعبّرُ، عن ذلك الحال الخاصِّ، مسطولٌ حكيم الفكر في ذاتِ آنٍ لا توافقه المنطقيِّ (و«الإجتماعيِّ») مع الآخرين!

وبالذات عندَ «كيُوِّ» هبوبٍ خفيفةٍ من النّافذة على وجه

المرأةِ النّاعسِ بخدرِ السُّكرِ والشّهوةِ بدأت- المرأةُ- تتسلّقُ، كأفعى، جسدَ وَلَدِ أهلِها الحبش فيما تركت مجذوب الطيّب قائماً، وحدهُ، بالأسى- المهذّب الخفيف، بالضّرورة المُغيظة! كان مجذوب الطيّب قد جهّز لها الحمَّام وملأ حوضه بالماء الفاتر قبل أن يدخلَ عليهما، زائراً، «ولَدَ الأهلِ» ذاك فيتشوشَر الجوُّ بترقُّبٍ حزينٍ من عندَ جهة مجذوب الطيّب بالذات وانسحاباً مسكيناً إلى داخل الذات لم يمنع عضو خصوبته، على كلّ حالِ، من الإنتصاب فيه، فيما بعد، على النَّحو الذي آنفاً ذكرنا. ثم تعزّزَ حسُّ مجذوب الطيّب ذاك بإصرارِ الزائرِ الحبشيِّ على أن «يستعملَ»، بالذاتِ، ماء الحمّام الذي أخبرته هي، فور وصوله، بأنَّ مجذوب الطيّب قد أعدَّهُ لها هي، خِصِّيصَاً. لم يقل مجذوب الطيبالطيب شيئاً عندَ ذلك الموقف (ربّما كان قد تملكه، أو هو- بالأحرى- قد فَكَمَهُ، آنذاكَ، شيءٌ مثل مشاعر الشّهيدِ العاطفيِّ-الحسّيِّ-الجِّنسيِّ فصمت!). ثمَّ بدأ التسلق البطيء السّكران- بعد اعتذارٍ شديد الرّقّة والعاطفيّة المُفرطة المُشَكِّكَة لمجذوب الطَّيب عن موقف الرّجلِ الحبشِيِّ في تلكَ الحادثةِ المَحَلِّيَّةِ الصّغيرة- لجسدِ الرّجُلِ الحبشيِّ الزّائرِ بكُلِّ التواءِ ثُعبانِ جسدِ المرأةِ الشهوانيّةِ- بكلِّ التفافِ التّقوُّسِ المُمكنِ لها حينذاكَ بموجبِ عمرها البيولوجيِّ والنّفسيِّ، أعني. ندّت نظرةُ استغرابٍ جانبيّةٍ صغيرةٍ من مجذوب الطيّب مازجها السّكر بوسوساتِ شفقةٍ ذاتيّةٍ عتيدة. استدركته المرأةُ عاجلاً وقالت، مُتَعْتَعةَ اللّسانِ ومُسَخْسَخَةً ببدءِ الوحيح القريب: «...... ده [وذكرت إسمَهُ] **حبيبي وراجلي في الأيام دي. معليش يا مجذوب. ممكن تخلينا برانا لي حاجة زي ساعة كده وترجع، بعد داك، الشّقّة؟!**»َ لم يقل مجذوب الطيّب لها/لهما

شيئاً محدداً. كان الحنقُ ممتزجاً في نفسه بالرثاء للأنثى الحبشيّة التّعدُّديَّة (كي لا نقولُ، جُزافاً، «شرمُوطيَّة»!) وبشعوري ندم وإثمٍ عميقين وإن بديا خفيفين للنّاظر المراقب لهما، سواءً كان ذلك هو أو أيُّ متفرّجٍ آخرٍ مُحتمل. نظر من وراء نافذة الشّقّةِ الأستُوديو الوسطى العريضة كأنما كان يبتغي مُتنفّسَاً لعينيه أو صرفاً لهما في اتّجاهِ رؤوس البنايات العالية الأخرى البارزة من بين فتحات تلك النافذة ومن ثم النفاذ منها إلى السّماء، ولو بلا سُلطان! الحزن الخفيف، ممزوجاً بإثمِ المهانة خالطهُ قليلاً- قليلاً هو الكثير. كان حزناً خالياً تماماً من أيِّ ثرثرةٍ برَّانيّة. ثُمَّ تجرّع مجذوب الطيّب هواءَ الشقّةِ المُدخّنِ بالجّنسِ والندَّ وعطن عطر زجاجة النبيذِ الأحمرِ الأخيرةِ ومرق، بالباب، وبمفتاح شقته الخاص، بلا كلمةٍ واحدةٍ، إلى فضاءِ الشارع، البيوت، ثم إلى سوق الخضار الشعبيَّ الرّوائح، ثم إلى تلك الحديقة الصغيرة المثلثة المقابلة للمكتبة العموميّة لذلكَ الحيِّ الأفريقيِّ-البريطانيِّ بكُلِّ ثِقْلِ مانجو مركزِهِ الزّنجيَّ الرّطانات، كما ولليو سي آي سينما. لم ينتبه لمهجوس الرّاب الهندي-غربي العاطل ذاك وهو يُؤدّي ربرباته الصوتية النّصفَ مبلوعةٍ بلا انتهاء. ولم ينتبه، كذلك، لأحدِ باعة البنقو وهو يدُسُّ، تحت حجرٍ صغيرٍ منشقٍّ عن الأرضيّة الحجريّة المبلّطةَ، نِعْمَةً من مجلس الجزاءات البلدي لا تُوازي قط شطط ما ابتلعته كرش حاج «جَوْنِهِ» من مما قد يُسمَّي- بعموميّةٍ مُهذّبَةٍ وفضفاضةٍ- «ضريبة مجلس Council Tax». لم ينتبه لأيٍّ من تفاصيله اليوميّة الصغيرة تلك والتي كان كثيراً ما ينتبه لها، واعياً أو ساهماً، في أيِّ يوم سبق وأن تقلّبَ عليهِ «دهرهُ» قبل ذلك اليوم المخصوص [كما في «بص مخصوص»!] أو بعده، بتلذُّذٍ خاصٍّ ومحروقٍ ببنٍّ نوستالجيا

عتيقة (السّودان وما أدراك ما السّودان، طبعاً، لكن بما يكفي من الغموض العام المخفي لذلك تحت باب «اهتمامات ثقافية-سرديّة مُبهَمَة أو مُجْهَضَة»!). كلُّ ذلكَ، وغيرهُ من روائح السينما القريبة والكنتكي فرايد جِكِن وبنات الإنديز النصف عارياتِ في الصّيفِ بصورةِ الجّسدِ الطذميانِ بنفسِهِ، كان، بكلمةٍ واحدةٍ، قد اختفى كُلُّهُ، حينَذَاكَ، كالدّهانِ الجّديدِ في الجّلدِ المجرُوشِ الخشن، في شعورٍ حادٍ بالإشفاقِ على الذات مع الجّلدِ المستمرِّ لها لإيلاجها، منذ البدءِ، لنفسها في الصَّبابات الدّهليزيّةِ الملتوية لتِلكَ الحَبَشِيَّةِ القَاهِرِ الملعونةِ بِنْتِ النَّزْوَةِ... إلى آخر مما قد كانت تُثرثرُ به (في موقفٍ مثل ذاكَ وأمثاله من المواقف الشبيهة الكثيراً ما قد كان يظُنُّ- لمُجَرَّدِ التَّثَاقُفِ فحسبْ- أنّها قد تكونُ لا تزالُ مقموعةً في باطنهِ الذي قد يُسمَّى- بقُصُورٍ مُناسبٍ- «لا شِعُورِيّاً») أنا فرويد العُليا المزعومةَ فيه.

قد التقت في نفسه، إذاً، أو توازت، حادثة الولد الريحاني الغائب مع سيّد عمر عبد الله الشريف وحادثة الحبشيّة مع الرّجل الحبشي- مع اختلاف سياق الرائحة النفسيّة والأخلاقيّة البائن عندَ كلٍّ من الحالتين. دعني- إذاً- أرجع من هذا الدّخان النفسي المعطّن فيه الإثم بالنّدمِ ثمَّ بخزي هوانٍ غامضٍ (أهو جُرحُ الرّجُولة يا أيّها الفرويدويّون؟) إلى حكاية سائق مدير إدارة الشؤون الهندسيّة بمكاتب مدير الخرطوم، سيّد عمر عبد الله الشريف، لأختم، بحكيي المهترش- بالضرورةِ- لها، ما قبلَ الإستجماع الأخير الممكن لأطراف جُلبابِ هذه الرّواية الشَّملةَ-كِنيْزِيَّةً [والعهدة هُنَا على الشاعر السُّودانيِّ الشَّعبيِّ-الحديثِ محمد طه القدّال] الفضفاض.

كان السّـائقُ، الـذي كان اسـمُهُ أحمـد عبـد الرّحيـم الماحـي، يعمـلُ سـائقاً خاصّـاً للسَّـيِّد عمـر عبـد اللـه الشّريـف، مديـر إدارة الشـؤون الهندسـيّة بمكاتـبِ مديريّـة الخُرطـوم: إعـادة، ثُـمَّ نَحْنَحـة شـديدةَ التَّـبرُّم وصغـيرة. الهـواءُ يُسْـتَجْمَعُ، مـرَّةً أخـرى، في منخـري الـرّاوي فيعطـسُ عاليـاً، طـارداً فقاعـات أرواحٍ عفريتيّـةٍ خفيفـة الـشَّرِّ، واللُّـؤمِ، مـن داخـلِ جوفـهِ وإلا لمـاذا هـو يسـتعيدُ الآنَ، بهُزْءٍ مُسـتَخَفٍّ، منقُـولَ مجـذوب الطيّـب أنَّـهُ قـد سـمع الولـد الرّيحـانيَّ الغائـبَ يطفَـحُ، في تلـكَ العصريَّـةِ، تلـكَ العصريّةِ-الأمسـيةِ البعيـدةِ، بالجّملـةِ السُّـؤْلِيَّةِ، الإسـتنكاريَّةِ، التّاليـة، مُوجّهَـاً حديثـه، بتـمامِ الحُرقـةِ والبَكْيَـةِ، إلى مجـذوب الطيّـب: « **هـل شـعرتُ يومـاً بأنَّـكَ تـأكُلُ حديـداً؟! حديـداً؟!**»....؟!

الشُّـعُورُ إيَّـاهُ، لـو تَفَوَّهْنَـا النَّصِيْحـةَ، لم يكُـنْ حسُّـهُ، عِنْـدَهُ، حِـسَّ «أكلٍ للحديـدِ» بمُجـرّدِ مُجرَّدِهِ الفيزيـائيِّ وبَـسٍّ (إن يكـنْ هنالـك، أَصْلاً، مـا قـد نُسـلِّمُ بأنـه قـد يُمْكِـنُ أن يُوسـمَ، في الغالـبِ أو بحكـم عـصرِ تسـلط أيدولوجيـات العلـم التجريبـيِّ الميكانيكيِّ-الميكانيزمـيِّ هـذا حتـى مـن بعـدِ ادِّعائـهِ «الديالكتيكيَّـةَ»، بأنَّـهُ مُجـرَّدٌ فيزيـائيٌّ وبَـسٍّ!). ذلكـم (يـا نـاس) هـو شيءٌ لم يحببـهُ قـطَّ وإن تهـوَّسُ هـو بـه- مـن جهـةِ الحـدَّةِ والوَجَـعِ- تهـوُّسَ العاشـقِ بموضوعـةِ غرامـهِ الفريـدةِ المُفـردة. هـو شيءٌ؛ هـو قَهْـرٌ كان هـو بـهِ-فيـهِ كأنَّـهُ كان مُطَوَّبَـاً بكاتـمِ نَفَـسٍ حضـارةِ الحديـدِ وشراهـةِ السُّخَامِ البيئـيِّ والإسـتهلاك؛ بحوائـطِ الأسـمنتِ الإمبريـاليِّ المُسـلَّحِ مـن جهـاتِ الدُّنيـا الأربـع وليـس لـه منهـا مَنْفَـذٌ سـوى فتحـةِ ثُقْـبٍ صغـيرٍ مُشـوِّشٍ لمـرأى السَّـماءِ-الحُرِّيَّةِ عِنْـدَ السَّـجينِ. ثُـمَّ لم تكُـنْ شِـدَّةُ مُطالبتِـهِ، الضروريَّـةِ كالمـوتِ، بـكُلِّ

قُـوَّةٍ بقيـت لـه مـن تكثُّـفِ القَـرَفِ الإجتماعـيِّ عِنْـدَ شروخٍ بجوَّانيَّتِـهِ المُتقصِّفَـةَ أصـلاً والمسـدودةَ بـكُلِّ عُنْـفِ شراسـةِ مُفَصَّـلاتِ بَوَّابَـةِ التَّكنوقراتكنولوجيـا الإقصائيَّـة المُمَجَّـدَةْ ضِـدَّ جِـمَاعِ انتشـارِ غيُـومِ «إلى آخـرِهِ مـمّا يقـول الشُّـعراء» اليَيْتْسِـيَّة [مـن و. ب. ييتـس- الشَّـاعِرُ الأيرلنـديُّ المعـروف]، بمـرأى السّـماءِ-الحُرِّيَّةِ عنـدَ السَّجِيْنِ، بـأن يَنْفَتِحَ عليـهِ الثُّقْـبُ باهـلاً عرفـان زُرقـةِ شـجرِ غيـومِ السَّـماءِ، إلا «عَصْلَجَـةٌ» لم يَنْبَلِـجُ منهـا عليـه، عـلى الأقـلِّ في حـدود تِلْـكَ الآنَـاتِ المُسـتعادَةَ الآنَ روايَـةً وذكـرى، سـوى «قِرْبَـةِ» السَّـمَاءِ؛ تلـكَ الأُمثُولِيَّـةَ proverbial غـيرَ المُصغيـة؛ تلـكَ المَقْـدُوْدَةَ التـي مـا فتئُـوا- **هُـم**- ينفِخُـونَ فيهـا مـن عهـدِ حُطـامِ نُـوحٍ وأزانيـا وبنـينَ وتمبكتُو-المِلْـحَ القَدِيْـمْ.

هنالـك كانـت إمـرأة السـائق أحمـد عبـد الرحيـم الماحـي، إذاً؛ عنـد جهـة مطبـخ البيـت، مخفيـة حينـاً، وظاهـرةً حيناً، بمِقشاشـتِها الدائسـة لغبـار بيـت حـي الحلـة الجديـدة بغـربي الخرطـوم. تفاصيـل تقريريـة؟ ربمـا، أو حتـى نعـم! لكـن قـد يحتـج (مـع الإهـمال المتعمـد الإغاظـة، للمنطقيـين خصوصـاً، لمحاولـة إثباتهـا حجاجيـاً) بأنهـا ضروريـة للحـكي فمنهـا قـد يـأتي، عـلى نحـو عفـوي و/أو نـزق، مـا هـو غـير تقريـري، وإلا فـلا كتابـة جديـدة.

وجـه صاحبـة المِقشَاشَـةِ ينـمُّ عـن غضـبٍ مكتـوم إزاء حـال رجلهـا المايـل المتّهـم، عندهـا، ضمنيـاً، ليـس فقـط بشُـبهة السُّـكر اليومـي العـادي («شراب اللـه والرسـول ده!») وإنمـا، أفظـع مـن ذلـك، بشـبهة السُّـكر الشـديدَ الإنتعـاظُ الـذي يُمـارسُ، كـما غـرامٌ شـهويٌّ فاضـح لكـن، في ذات الوقـتِ، بإدغـام بغُنَّـة أو بالوكالـة، مـع صبيـةٍ صغـارٍ، شـبابٍ مليحـين (ليـس ثلاثهـم كلهـم، ينبغـي أن أقـول)، لاسـيَّما ذاك

الرَيحـانيُّ منهـم الـذي قـد شـعر، بفعـلِ وطـأةِ مـا تبـدى لـه عـلى أنـه **غثيـان** التجربـة، بأنـه **يـأكلُ حديـداً**. الأخـلاق. الأخـلاق- فاضلـة أو «غـير فاضلـة»! تقاليـد موغلـة في الإتِّهـام المُسـبق الدَّغْـمْ؛ المُسـبق الوصـم، ولـو دون بيِّنَـة، ولا بيِّنـة فاصلـةٌ ممكنـةٌ إذ مَـنْ، مـن بـين بنـي الآدميِّينَ ذوي الكِعَيْبَـاتِ، هـو العـارف- وَحْـدَهُ- بالنَّوايَـا- ذلـك الـذي قـد يُسـمَّى- بمعنـى المُتصوِّفَـةِ- **أصيـلاً**؟!

ليـس مهـماً، مـن بعـد كل مـا سـبق بطـول كل ذاك التَّعَـرُّجِ الحَكَيَانيِّ (والهَذَيَـانيِّ- بـكُلِّ سُرُورٍ طبعـاً!) وعرضـه، روايـة تفاصيـل مـا حـدث، بذلـك البيـت بالحلـة الخرطوميـة الجديـدة، مـن بعـد ذلـك. فقط لنرى آثـاره الآنيَّـة في مـا فعلـه أولئـك الثلاثـة بأنفسـهم مـن بعـد مشـيهم، متثاقلـين ببـوخ المسـاء الصيفـي وضعضعـة متـاه رَاحِ المَرِيسَـةِ الثَّخينَـةِ التـي شربوهـا عنـد السـائق أحمـد عبـد الرحيـم الماحـي، بعيـداً عـن البيـت إيَّـاهُ وحوشِـه المُضـاء، خفيفـاً، ليـس بكهربـاء المدينـة القويـة الحديثـة وإنمـا، وبَـسٍّ، بقمـرِ الصيـفِ الـذي قـد أكمـلَ، للتَّـوِّ، سَـبْعَتَيْهِ.

كان الأصغـر مـن بينهـم، الـذي مـا كان هـو مجـذوب الطيـب ومـا كان هـو- كذلـك- الولـد الرّيحـانيُّ، الأثقـلَ خطـواً، أكـثرَ تَعْتَعَـةً، في الـكلام والمـشي، معـاً، ومـن ثَـمَّ الأكـثرَ غيابـاً، آنيَّـاً وليـس فيـما بَعْدِيَّـاً- عـلى الأقـل، عـن الشُّـعور الحـادِّ بمترتِّبـاتِ اللحظـات السـابقةِ- **وجوديَّـاً** وأخلاقيَّاً. كانـوا ذاهبـين إلى فولهـم المـصريِّ المطبـوخَ والمُشَـهَّىْ بزيـتِ السِّمسـم والشّـمارِ والطَّعميَّـةِ فهـم لم يسـتطيعوا، مـع امـرأة السّـائقِ، صـبراً ليأكلـوا، عنـد السَّـائقِ، فاندفعـوا، مُتَرَتِّعِـيْنَ بمـا قـد يُكفـي أو لا يُكفِـي (حـدِّثْ ولا حَـرَجْ!)، إلى هـواء الشـارعِ الـتُّرابيِّ العريـض، بـكلِّ نكهاتـه ورطاناتـه السـودانية، وغـير السـودانيَّةِ، العريقـة.

كان مجذوب الطيب قد قال لهما، وهو يَرْضَعُ الولدَ الرَّيحانيَّ، بأحد رصعاتِهِ المفاجئةَ الوُدِّ تلك، إنهم يجب أن يمشُوا، في الحال، إلى المَفْوَلَةِ التي ليست بعيدة عن مبنى **النادي الأهلي** الرياضي السوداني بحي «الخرطوم تلاتة» حيث البائع قد يُعطيكَ كثيراً من البصل الفحل الحريف مع طبيخ الفول، دونَ أدنى زيادة في السعر. بل هو قد يهبك، لو كان مزاجه صافياً في تلك الليلة بسبب هبوب النسيم البارد فقط أو بسبب حدثٍ «سياسيٍّ» كبير (نعم، **سياسيٌّ**، فالسياسةُ، عند أولئكَ البائعين كانت، في تلك الأيَّام، تتبدى، أولاً وأخيراً، في احتدام المناكفات والخصومات الحُرَّة العنيفة في شأنِ كرة القدم ليس إلا!) كفوز فريق المريخ العاصمي- مثلاً- على الهلال بثلاثة أهداف دون مقابل، جبنةً عَدِيْلَةً دون أيِّ قرش زائدٍ تدفعه، ويا لنعمةَ الآلهة، حينذاك! ثم قال لهم إن تلك المَفْوَلَةَ، لئن نتحدَّثُ إستراتيجياً، قريبةٌ من منزل الأقرباء الشايقيَّة من عُراقَابِ حِلَّةِ نَوْرِيْ الذي كان يسكنه الولد الريحاني في تلك الأيام مما يسهل من مهمة الغوث اللوجستيِّ في حالة تمادى السكر، بالولد الثالث بالذات (أو بأيِّ واحدٍ في ثلاثتنا، for that matter)، إلى «تجريح» اليقين ومن ثم التشكي الباكي المؤدي برحمته، أخيراً ومهما يكن طول عذابه المُتفنِّنْ فيكَ، إلى النوم. لكن «الولد الثالثُ» أبى ذلك كله وركب رأسه وقال لا مَفْوَلَة ولا أيَّةَ حَاجَةٍ ثانيةٍ سترغمه على الذهاب إلى ذاك المحل الذي هو بقرب **النادي الأهلي** بالذَّات! وقال شنُو؟ قال- ها ها ها ها ها ها ها- نمشي نتم السَّكْرَة في **حديقة القرشي**- **حديقة القرشي** آلْ! لم ندري أيُّ غَيْرَةٍ ركبته، حينذاك، من مجذوب الطيب ودفعته للتشبث بذلك الموقف المريبَ العناد. قلتُ «غيرة» ولم أكن، أبداً،

مجانيَّاً في ذلك القول إذ أن مجذوب الطيب والولد الريحاني ما أن يأكلا معاً ذاك الفول، في ذاك المحل، لن يكن ثالثهما، مهما تكن قرابته إلى أيٍّ منهما في الصداقة أو الود، موجوداً معهما- وذلك عالم يخشى عليه منهما، بقوة عاطفيَّةٍ شديدةٍ، «الولد الثالث»، خشيةً أكبر من خشيتهما هما ذاتيهما عليهما منه- لو تفهمون ما أقول! فهما قد يغيبا عنه آنذاك، ناهيك عمن هو غيره، تماماً في أحوال عواطف غريبة درَّجَتْ صديقهما «جوني» (الذي أظن أنه، كما بلغة الأخبار الصحفية، مشارٌ إليه آنفاً)، وهو الوحيد الذي يحضران معه تمام الحضور- بل ربما أكثر من «تمام الحضور»- عندما يكون معهما، تدريجاً، نحو وصف أحدهما بـ«الولد الخرافي» (من هو قد كان مسمىً «الولد الريحاني» عند مجذوب الطيب)، والآخر («مجذوب الطيب») بـ«النور الاحمر المفرد الذي هو في الخلاء!) إذ أنه، عنده، ما أن تجتمع الخرافة بالنور حتى يكون الغياب الحاضر في كل شيء إلا ما سواه هو!

المهم، يا سيدي الأمنت ليك، تمكن الإثنان، في النهاية، من حمل «الولد الثالث» بعيداً عن حديقة القرشي، بكل ظلامها في تلك الأيام ووحشتها المهجورة المغوية، مع ذلك، بنكهاتِ مغامراتٍ سرية ولذيذة، بيد أنها غالباً ما تبدوا مُشحتَفَة الرُّوحِ ومُلَهْوَجَةً (بفعل كل الوساوس السودانية الإستنكارية العتيقة، دينية الأصل كانت أم غير دينيته، المضمرَ الكلامُ عنها بشأن الفعل الجنسي المثلي بالذات!)، كانت غالباً ما تتم، في تلك الحديقة بالذات دون غيرها، بين مثليين جنسيين، على حدة، وسكارى مغرمين، بالعرقي على الأرجح، على حدة أخرى ليس فيها جنس، أكثر مما بين

بنات قاهرات، «مختُوفات» أو «غير مختُوفات»، ورجالهن فمجالات «تخصصات» الممارسات الأخيرة لها أماكن وحدائق أخرى غير تلك تكن كائنة، في الغالب، بضلعي العاصمة المثلثة الأخريين الممثلين في مدينتي أمدرمان والخرطوم بحري السودانيتين أكثر من كون كونها كائنة- على الأقل في تلك الأيام الضبابية البعد والقرب معاً من ثمانينيات القرن العشرين الماضي- بمدينة الخرطوم حيث دواوين الحكومة.... إلخ.. إلخ، كما قد لاحظ ذلك مجذوب الطيب في تلك الأيام ، بطرافةٍ تامَّةٍ وشيِّقَةٍ وغيرِ معنية- بسرورٍ خليٍّ- بأي «تحديد موضوعي» أو- كما قد يقولون- «علميٍّ دقيق».

الفول إذاً هو الحل (كما في قول السَّلفو-إسلامويِّين الشَّهير «الإسلام- إذاً- هو الحل!») وذلكم لأنه بالتَّداعى الحر لبوخ الفول المُستَطْعَم، والشَّديد القوي، في يافوخ الرأس، يتم تحرير العواطف خالصة البشريَّة من تحكُّمِ قبضتي الجوع والسُّكر «اللَّطْ» السلبيين بالإنسان؛ أوقُل بذلك يقع «التحرير الثَّوري الشَّعبي» من قبضة السُّكر الفاحش الأثر الذي يكن معه الجوع، على أيٍّ من مستوياته الإنسانيَّةِ الشَّرِسَةِ، هو الرفيق. (قد يكون ضروريَّاً، لمن قد يقرأ ما قد سبق، أن يعلق هنا هاتفا، بحرارةٍ شديدةٍ مع رَصْعِهِ ليدِ صديقٍ مفضَّلٍ قريبةٍ منه، على الأسلم أو الأرجح، بعبارة «ده الكلام!»، أو كما قد يقول السُّودانِيْ!).

كانت تلك بعض نكهات آخر الأيام التي سبقت رحيل الولد الخرافي، بل غياب الولد الخرافي؛ ذلك الغيابُ الحارقُ، حتى بعد غَدِ الغَدِ، الذي أرَّق- خصوصاً- شعوري صاحبيه مجذوب الطيب و«جوني»، بجانب قلَّةٍ من«فنَّانيه» أولئك طبعاً! تلك الأيام، يقولُ

الـراوي ومجـذوب الطيّـب معـاً، التـي مـا رؤي، بعدهـا، الولـد الخـرافيُّ، عـلى نحـو إحتفـالي، ويـا للغرابـة، إلا قبـل مـا قـد يكـون يومـينَ فقـط مـن رحيلـه (والـراوي ليـس دقيقـاً في التذكـر هنـا) وعنـد احتفـال زواج «العصفـورة الضاحكـة» الـذي ذكـره، أيضـاً الـراوي ومجـذوب الطيـب معـاً، ورمـزا لـه بـكلام الشـاعر السـوداني الرائـد، محمـد عبـد الحـي، الـذي تهـدج فيـه قائـلاً: **بعيـداً آخر الاطيـار ترحـل عـن حديقتنـا.**

إستجماعٌ أخيرٌ أو مويجاتٌ صَغِيْرَةٌ وبعدَ-نهائيَّة:

لـن ألـوي هُنـا عـلى أيِّ مُحاولـةٍ، كـما حُفـاة الشـاعرِ السّـودانيِّ المُفـرطَ الرومانطيقيّـة- بإيجـابٍ- إدريـس جـمّاع المنعوتـين بالعبثيّـةِ في انفعالاتـه الشّـعريّةِ الشّـهيرةِ والحـادّةِ الإنسـانيَّة، لجمـعِ وتبئِـيْرِ دقيـقِ حـظِّ نُثَـارَاتِ هـذه الكِتابـةِ، هـذا الـرَّوِيِّ، عِنْـدَ، وحَتَّـى، حـدودِ تَقَطُّـعِ هـذي التِّخُـومِ الأخـيرةِ لِـكُلِّ مـا سَـبَقَ مـن حَـكْيٍ هَذَيَـانِيِّ الفيـضِ والتَّلَوْلُـبْ. فقـط سـأُدَوِّرُ كلُّ واحـدةٍ مـن تلـك المويجـات الصغـيرة وبعدَ-النِّهائيَّـة (كـما جـاء في تسـميتها مـن بعـد «أو» العنـوان أعـلاه)، بحسـبِ كَيفِهَا/كَيفِـي القـد يـردُ في اللَّحظـة الماثلـة آنيَّـاً، إلى حـدِّ انحسـارها، مدِّهـا، تمدُّدِهَـا، أو حتَّـى تَهَدُّمِهَـا، المُمْكِـنَ لـهُ أن يُـرَىْ، في الوقـتِ الحـالي مـن الزَّمـكان، في نَفْـسِ مـن كُتِبَـتْ كُلُّ هـذه الألـواح، هـذه الطَّواسـين، الحِكائيَّـةِ المُتَلَوْلِبَـةِ، أصـلاً، لفضحـهِ.

مويجةٌ خاتمةٌ أولى: سوسن...

هـذا شيء خاتـمٌ، قصـيرٌ، ومتهـدِّجُ الحـكي، إن يُمكـنَ لـهُ ذلـك، عـن سوسـن القمحيـة التـي كانـت تسـكن بحـي 28 بمدينـة كوسـتي السـودانية، أو مـا كان يُسـمَّى، في تلـك الأيـام مـن بعـضِ سـبعينات

وثمانينـات القـرن العشريـن المـاضي، بـ«المربعـات الجديـدة». ذلـك المـكان الـذي ذهـب إليهـا فيـه مجـذوب الطيـب وصديقـه وإبـن جيرانـه مـن رُفاعـة، شـمس الدّيـن، ذو الدراجـة المعشـوقة المزينـة بزخـارف كأنها منـارات أو علائـم دالـة عـلى مذهبـه في هـذا الوجـود في تلـك الزيـارة الشـهيرة في اليـوم الأول مـن عيـد الكَعَـكِ التـي وُصِفَـتْ (هَذَيَانِيَّـاً طبعـاً!) عنـد الهَـذْيِ السَّـادس مـن الكتـاب الأول مـن هـذه الرِّوايـة.

شـمس الديـن ذلـك كان فتـى **صعلـوكاً** تـام الحريّـة التـي لا صلـة لهـا بالأخـلاق وليسـت، بالـضرورة، **لا أخلاقيـة** (إن يكـن لأي صـورة في الحريَّـة أن تُصـف، عنـد جذرهـا الأصـلي، بأنهـا **أنطولوجيّـاً** «لا أخلاقيَّـة»). كان شـمس الديـن الـذي إيَّـاهُ أعنـي **صعلـوكاً** بتـمام معنـى الكلمـة الـذي لا يتـم دون حـوزة المسـمَّى صعلـوكاً عـلى إسـتقلال معتـد بنفسـه في المعـاش مقابـل ألا يُسـأل كيـف يتـصرف في حياتـه بـذاك المعـاش، كيـف ينفقـه أو، بالأحـرى، يُبعزِقُـهُ! ورغـم أن أبـاه كان غنيـاً بمقاييـس حـي الحلـة الجديـدة شـمال الشـعبي بمدينـة كوسـتي السـودانية- التـي كادت، ولمَّـا بَعْـدَ تفعـل، أن تقـع، حاليـاً وعرفيـاً، بجنـوب السـودان الجديـد؛ جنـوب سـودان مـا بعـد 9 يوليـو 2011م- إذ كان يملـك متجـراً وسـيعاً لمبيـع إسـبيرات السـيارات الجديـدة لَنْـجْ بمنطقـة كوسـتي الصناعيـة الجديـدة؛ تلـك التـي أقاموهـا عنـد الجنـوب الشرقـي لسـوق كوسـتي الكبـير بـدلاً عـن مكانهـا القديـم الـذي كان مُنبرشـاً ومتسـخاً بزيـت العربـات والـتُّراب ومُنـشَرَّاً- كخرقـة مـلاءة فلاتـةِ باليـة وكثـيرة التعاريـج كان سـادة تدميـس الفـول السـوُّوداني قـد ضرُّوهـا فوقهـا منـذ وهلتـين ولم يـزل عليهـا بـوخ حرارتـه التـي هـي

كحـرارة حفـرةٍ انتـزع منهـا للتّـو بيـض دجـاج حـارٍّ وجديـدٍ- عنـد طرف حـيٍّ المسـاكين السُّـودانيين العريـق الحيـاة والشَّجن/الشَّـجى المُسـمَّى «الدَّريسـة». لم يَكُـن ذلـكَ الحَـيُّ بعيـداً عـن النّيـل الأبيـض الوسـيع بـأُم صُوفَتِـهِ الطَّافيـة ومراكـب الفلاتَـة الهيميـن المنشغلة دومَـاً بصيـد السَّـمكِ كي يبيعونـه، طازِجَـاً ومُفَرْفِـراً، مـا يَنْفَـكُّ، في الشِّـباك، عِنْـدَ سُـوقِ الشَّـمِسِ، سُـوقِ «الزَّلْعَـةِ» الكبيـرِ في وسـطِ حـيٍّ زِنْدِيَّـة الـذي كان مـا يـزالُ، آنـذَاكَ، خليطـاً، في منازلِـهِ، مـن القـشِّ والطِّـينِ والزِّبَالَـةِ والجَّالُـوصِ وقليـلاً مـن بيـوتٍ وسـيعةٍ مُنْشَـأَةً مـن الطُّـوبِ الأحمـرِ الحـداثِيِّ الجَّديـدِ يَتَفرْشَـخُ، في عَرَصَاتِهَـا، كبـارِ الخُضُرجِيَّـةِ والجَزَّاريـن والمقاولـين العُصاميِّـين وأصحـاب «النَّبَـارِيْ» الزِّراعيَّـةِ القَاعِـدَةَ بقـربِ النِّيـلِ الأبيـضِ الماهـل، الكبـيرْ.

إلا أن ذلـك الإمتـلاكَ الجَّدِيْـدَ الشَّـديْدَ كُلَّـهُ لم يُكِـفْ شـمس الدِّيـن عـن التَّمَـرُّدِ، بـل قُـلْ هُـو لم يُغـرِهِ بعـدمِ التَّمَـرُّدِ، عـلى ذاك الأب، دونَ أيِّ خِشْـيَةٍ مـن فقـدان الإمتيـازات التـي تـأتي، مـع تلـك الحـوزة الأبَوَيَّة-البَنَوِيَّـة المَـارِدَة، طبيعيّـاً. ويُكفيـه فخـراً (بـلى، **فَخْـراً**، كـما قـد يقولـون في النـدواتِ العامِّوِيَّـة الضَّاجَّـةِ الفارغـة) أنـه قـد تـزوَّجَ نُوبَاوِيَّـة شـديدةَ السَّـواد (والرَّمَـادْ الهُـم مـا عايزنُّـو ده بالـذَّاتْ!) ليسـت لهـا أيُّ علاقـةٍ، عـلى الإطـلاق، بسُـمرة أهـل رفاعـة الفاتحـة (وبناتهـا الـلائي- كـما غنّـى السّـودانيُّ الرّاحـل، محمـد وردي- يظهـر جمالُهُـنَّ [بمعنـاه التّقليـديِّ السُّودَانوَسَـطِيِّ المُعتمـد إجتماعيّـاَ- وتلـك مـن عِندِيَّـاتِ الـرَّاوي المُتفلسِـفْ] مُنْـذُ يَفْعَـةِ الرِّضاعـة) كانـت تبيـع المريسـة بحـي «الرَّابِعَـةِ» العَشـوائيِّ بالمدينـة (الـذي قـد يكـون وُصِـمَ بتلـك التَّسـمية تيمُّنَـاَ تَطيُّرِيَّـاً، أو تطـيُّراً تَيَمُّنِيَّـاً، بدرجـةِ قطـارِ السَّـفَرِ

البُخـاريِّ العتيـق الرَّابعـة). وأدهـى وأمـرَّ مـن ذلـك، عِنْـدَ الأبِ إيَّـاه، أن شـمس الديـن كان مصاحبـاً لمقطُوعـةِ الطَّـارِي النوباويَّـةِ وشـارباً عتيـداً ومُتلـذِّذاً لمريسـتها وعَرَقِيهَـا بدرجـة امتيـاز!

لكـن ليـس هـذا مـكانٌ لتفصيـلِ سـيرة شـمس الديـن، صاحـب العجلـة الزّاهيـةِ. فـما يهمنـا مـن تلـك الكبسـلة المبتـسرة أعـلاه لِجِبِلَّتِهِ أن تلـك الشـخصية قـد أهلتـه لمعرفـة البيـوت وأهلهـا بكوسـتي، مـن أقصاهـا إلى أدناهـا؛ معرفـة مرتـاد حفـلات وحانـات شـعبية وأسـواق اللـه أكـبر، وأسـواق «غـير اللـه أكـبر»، حقيقيـة، كـما وحيـاة مدينـة تحتانيّـةٍ حقيقيـة قـد لا يضاهيـه في خبرتـه بهـا- ترابـاً وعرقـاً ونَفَسَـاً وروائـح مويـةِ غسـيلٍ ودخـانٍ وبخـور وعجَّـة طبيـخٍ شـديد اللَّـذَةِ رُغـم عـسرِ معـاش أصحابـه وصاحباتـه أو لعلَّـهُ بسـببِ ذاك العـسر المعـاشي **بالـذّات** -مـن جنـس النـاس الآخريـن سـوى جنـس العاهـرات الحكيـمات العارفـات الحقَّانيَّـاتِ بحـقِّ الدُّنيـا والرِّجـال!

ذلـك التأهيـل- الشّـاهد- هـو مـا جعلـه يحـدد لمجـذوب الطيّـب، فـوراً، خريطـة مـكان تلـك العائلـة ومواصلاتهـا وحافلاتهـا وكل مـما جميعـه بمجـرد طلبـه منـه أن يذهـب معـه إلى بيتهـا، ذاكـراً لـه، بالطبـع، إسـم إبنتهـا التـي كانـت هـي في جامعـة القاهرة-فـرع الخرطـوم، سوسـن القمحيّـة، وصفتهـا الفيزيائيـة وهيئتهـا وضحكهـا، كـما- كي لا ننـسى بـذات سرعـة امِّحـاء ذاكـرة التاريـخ الضّعيفـة عندنـا، كسُـودانويِّين [كـدتُ أن أَكْتُـبَ «سُـو[ء]دانويِّين!]- و»رفاقيّتهـا» اليسـاريّة التـي ، في أيّـام مَـدِّ مـا قبـل «الصّحو-بنكيّـة» الإسـلامية الفاجـرة بطغيـان زبدهـا حتّـى اللّحظـة حتـى تجرؤ- دون هـزَّةِ جـذعِ نخـلِ ذنـبٍ طفيفـةٍ حتَّـى- عـلى أن تسـمّى غيرهـا، ذلـك **الحـيُّ** وحـدَهُ،

مُجـرَّدَ «شَـذْوذٍ بالآفـاقِ» و«تفقُّـع»، كانـت جـاسرةً في العصريّـاتِ بـزيِّ الموضـةِ والحداثيّـات حتـى سَـمّى، بفعـل جيشـان زخمهـا فقـط ولا غـير، **مَدَنِيّـاً** ولاعبـاً بفريـق الأهـلي السُّـودانيِّ العريـقِ بمدينـة واد مـدني السّـودانيّةِ نفسـهُ، بجـرأةٍ لا تخـشى قـطُّ عـلى نفسـها مـن **سَلَفِ الإسـلام الباهـتِ العتيـقِ**، بكلمَـةِ **حَدَاثَـةً** فحسـبْ!

سِـمْتُ المويجـةِ الخاتمـةِ الأولى **نكهـةٌ**، شريحـةُ بَطِّيْـخِ طعـمٍ، مـن الليلـةِ الشـعريَّةِ التـي كانـت هـي آخـرُ عهـدِ مجـذوب الطيّـب بسوسـن القمحيَّـة والتـي أُقيمـت بنـادي حـي 28 الإجتماعـي الثقـافي آنـاءَ ثمانينـاتِ القـرنِ المـاضِي، أو في أواخـرِ سـبعيناتِهِ (لم يعـد الـراوي يتذكـر الموعـد الدقيـق سـوى غائميَّـاً بفعـل مـا قـد يُقـالُ عنـه أنَّـه ُ ثقـوب الذاكـرة المعهـودة الوقـوع بمُجـرَّدِ تَبَـدُّلِ العمرِ والمُنـاخِ الزَّمـكانيِّ)، بجُهدٍ أتى، أساسَـاً، مـن «الولـد الثالـث» الـذي ذكرنـاهُ [ذلـك الولـدُ الـذي قـال، قديمـاً وفي سـياقِ كتابـةٍ لحظـيٍّ وحاسـمٍ آخـرٍ، يحيـى الوُجُـودِيُّ، صديقُ كاتـبِ هـذه الرِّوايـةِ، إبراهيـم جعفـر، لـه عنـه أنَّـهُ قـد **تَجَـذَّرَ فيـهِ**]، كـما ومـن صديـقِ مجـذوب الطَّيِّـب الـذي انسَـلَّتْ مـن قلبِـهِ، غَـرَّةً كسـيفِ الصُّعْلُـوكِ قَطَـرِيٌّ إبـنُ الفُجَـاءَةِ، رسـالةُ «يُنقِـذُنِي منكُـم قلبـي» المشـهورة، ثُـمَّ صديـقٌ ثالـثٌ اتَّضـحَ، لاحقـاً، لمجـذوب الطيِّـب، أنَّـهُ قـد أقـامَ بماليزيـا وتـزوَّجَ مـن إحـدى آسـيَوِيَّاتِهَا القِصَـارَ الطَّلْعَـةِ (كـما يُـرَوْنَ بعـينِ شِـهُودِ خيـالِ الـرَّاوِيْ) رُغْـمَ قولِـهِ مُحتَجَّـاً، ذاتَ يـومٍ، عِنْـدَ صديقِـهِ «الولـدِ الثَّالـث»، مُعلِّقَـاً عـلى نقـلِ الأخـيرِ لَـهُ كلامـاً ضاحـكاً وشـديدَ الجِـدِّ الحَـذِرِ في ذاتِ الآنِ عـن حـبِّ فتـاةٍ مـن الحـيِّ لـه بالكلمـةِ السَّـاخرة المُوجعـة المُدَوِّيَـة: « **تَحِبَّنِـي لَيْبَـيْ**!»

في تلـك الليلـة كان المشـاركان، بالشـعر، هـما مجـذوب الطيـب

وصديقـه «جـوني»، أساسـاً، و»الولـد الثالـث» وصديقُـهُ «**تحبّنِـي لَيْـيَـيْ**» بالتنظيـم وترتيـب ورشّ واطـات- واطئـة- العصريَّـة بنسـيم المـاء الجديـد المنبعـث مـن بـوخِ طـين الخريـف الكوسـتاوي الجديـد، كـما وتصفيـف الكـراسي في ثـلاث مصفوفـات يفـترض أن يجلـس، عنـد أولهـا، الشـاعرين ومقدمهـما الأدَبِيُّ ذو الصـوت الجهـوري- ذلـك المنصـور الذي وصفنـا، قديمـاً في هـذه الرّوايـة، جلسـةَ مَشْرُوبِ شَـايِهِ، مـع مجـذوب الطيـب، في ذات أمسـية العصريَّـة التـي وقـع فيهـا، عـلى مجـذوب الطيّـب، المـرور الحاسـم- **بِي العَـصُر مُـرُورُو!**- لسوسـن القمحيـة الـذي وُصَـفَ في ذات الكتـابِ الـذي وصفـت فيـه، بـكُلِّ اسـتِمْخَاخٍ مَّمْكِـنَ الإِسْـتِرْجَاعُ في حينِـهِ، «جلسـة الشـاي» تلـك والـذي سبق، بيـوم واحـدٍ **تَنْقَرَنْـقْ**، يـوم عيـد الفطـر الـذي تسـلمت فيـه سوسـن القمحيّـة تلـك الرِّسـالة، مرفقـةً بالخربشـات الضَّرُوريّـة التـي سُـمّيت قصائـداً، مـن مجـذوب الطَّيِّـبْ، فيـا لَلَعِـبِ **المَصِـيرْ**!

قُلْـتُ «مُقَدِّمُهُـمَا الأدبيُّ» لأنَّـهُ قـد لزَمـت التقاليـد السـودانية العتيقـة، في كُلِّ أرجـاء **أرض اللـه** السـودانية الواسـعة، ومـا تـزال، مهـما يكُـن موقفُـكَ منهـا يـا داخِـلَ، ويـا داخلـةَ، دارِ هـذه القـراءةِ، أن تقُـدِّم الأمـاسي، ولـو تكـن شـعريَّةً كَافِرَةً-سـافِرَةً أو حتّـى غنائيَّـة حتـى حـدِّ التَّهَتُّـك بخمـر مُدامـةِ الحبيـبِ القديـمِ-الجّديـدِ، مـن قِبـل المُقـدّمِ الأدبيِّ، بمقدِّمَـينْ ضروريّـن (بمعنـى مـا يُعنـى حـين يُقـالُ، عـادةً، عـن شيء-سُـلوك مُخَسْـتِكٍ وعتيـق مـا أنَّـهُ **معْلُـومٌ مـن الدِّيْـنِ بالـضَّرُورَة**) آخريـن هـما المُقـدِّم الدّينـي (وتنميـطُ تقديمـه الشَّـهير هـو: «**دعنـا نبـدأ هـذه اللَّيلـة، سيّداتِي وسـادتي، بـشيءٍ مـن آيِ الذِّكْـرِ الحكيـم**») والمُقَـدِّم الإجتِمَاعِـيْ («الـذي يبـدأ صُوَاتَـهُ- غالبـاً- بكلمـة «بسـم اللـه

الرحمـن الرّحيـم» والصلاة عـلى رسُـولـ(ه) الكريـم، مرفقـة بعبـارة «صـلى اللـه عليـه وسـلّم» مدمُوغـةً حروفهـا ببعضهـا البعـض عـلى عجـلٍ وبلهوجـةٍ شـديدَةً السُّرعـة كلهوجـةِ قـارئ لـوح قـرآنٍ، صبـيٌّ وشـديدُ الفقـرِ، في خلـوةِ فقيـهٍ عـربيٍّ وهَاشِـمِيِّ الإدِّعَـاءِ ومُلْحِـمٍ، كـما يقتـضي تصَـوُّرُ الصَّبِـيِّ المحـرُومِ **بالـذَاتْ**، بهمشـكوريب!).

تُـرى مـاذا قـال المقـدم الأدبي في تلـك الأمسـية؟ ولمـاذا فـر مجـذوب الطيـب، سريعـاً، بجلـده المعـروش بالفانيلـة الحمـراء التـي أُسـتُنزِفَ، مـن داخلهـا، صـوت شـعره في تلـك الليلـة حتـى مـن قبـل أن يضـع «جـوني» سـفة الختـام المعهـودة منـه قبـل مغـادرة محـل نـادي حـي 28 الاجتماعـي الثقـافي بكوسـتي؟ ثـم لمـاذا كان عـلى منصـور و«جوني» أن يلحقـا بـه بالخـارج؟ هـل هـو كان قـد رأى صـورةً مـن حتفـه في جـدران ذاك البنـاء؛ صـورةً- مثـلاً- لأبيـه الراحـل، منـذ سـبعينات القـرن المـاضي، وهـو يدعـوه إلى لقائـه الحتمـيِّ («أيـن سـتهربَ، مـن سُـلطتِي، أيـنْ؟!»)، بكيـدٍ كبـيرٍ، بسـوط حقـدٍ وغـبنٍ طبقـي كبـير لم يكـن مجـذوب الطيـب- عـلى أيَّـةِ حـالٍ- مسـؤولاً عنـه. ذلـك حتَّـى ولـو يكُـن ذلـك مـن عنـدَ مِفْـرَقِ حُلُـمٍ مسـتقبليٍّ شرّيـرٍ- وإفـتراضيٍّ طبعـاً- بسـطوته عـلى حديـدِ وزهـو دولـة الطُّغيـان الفـاني السـودانيةّ؛ حُلُـمٌ كابُـوسيٌّ، ذلكُـم، ليـس لمجـذوب الطيـب، قطعـاً، أيُّ سـبيلٍ، مـن نفسِـهِ، إليـهِ.

مـاذا قـال المقـدم الأدبي، صاحـب مجـذوب الطيـب، و«جـوني» (الذي كان شـاعراً للخيبـة- كـما وسـمته صـور بعـض قصائـده القديمـة وفقـاً لطبـقِ أصـلِ مزاعـم مخطـط دراسـة نقديـة مـن جهـة مجـذوب الطيـب فُقِـدَ، طبعـاً، مـن عنـد حزمـة إضبـارات مجـذوب الطيّـب المُخرَّمَـة

الرّائحـةُ الطينيّةُ-الجّرجِيْريَّـةُ العتيقـة، بسـحر سـاحر إخفـاء الحقائـق القاسـية- فيـا للرحمـة! ربّمـا...)؛ ذلـك المنصـور الجَّوْفَ-قَعْـرِيَّ الصَّـوت؟

قـال فقـط إنـه **يعـرفُ** ذينكـما المُهوِّمـين، ثـم قـدم، أولاً، «جـوني»، باسـمه الـذي يُقـالُ عنـه إنَّـه قـد كان «حقيقيَّـاً» طبعـاً- ليقـول لنـا «**بقـدر الثنـا مـا يضـوع الجّمُـود**»- قصيدتـه. ثـم عـرج عـلى اسـم مجـذوب الطيـب، سريعـاً مـن بعـد ذلـك، كأنمَّـا مًـسَّ بكهربـاء غرابتـه، فجـأةً، فدخـل، مـن هنـاك (ومـن بعـد أدائـهِ «واجـب» السَّـكْتَةِ القصـيرة)، مجـذوب الطيـب، عـلى قراءتـه. وفي منتصـف سـبيل القـراءة- بالتحديـد- شـافت عينـاه القصـيرة القمحيَّـةَ- سوسـن- عنـد ركـن بـاب النـادي المـؤدي إلى الخـارج، باسـمةً، ناحيتَـهُ، عهـا أخـرى صُفـيرَاءَ، كقريبـةٍ.- سوسـن- عنـد ركـن بـاب النـادي المـؤدي إلى الخارج، باسـمةً، بخبـثٍ نسـويٍّ مُـدرَّبٍ، الطيـب، عـلى قراءته.بخبـثٍ نسـويٍّ مُـدرَّبٍ، ومعهـا أخـرى صُفـيرَاءَ، كأنّهـا كانـت قريبـة لهـا بوشـيجة الـدّمِ والسّـلالة. **ربمـا كان إسـم الأخـرى هـو «ابتسـام»، كذلـك.** لم يسـتطع مجـذوب الطيـب أن يكـفَّ نفسـه عـن الهمـس المفاجـئ، لنفسـه، بتلـك الجملـة، فـور أن رأى تلـك الأخـرى، علـماً بأنـه قـد كان يُفـترضُ فيـه (بقـوة حسـن الظـن الثقـافي فحسـب) أن يكـن هـو، حينـذاكَ، تـامَّ الإندمـاج في «داخـل» إحـدى عبـارات قراءتـه تلـك. ثـم تذكـر أنـه قـد كانـت لسوسـن- بالفعـل- صُفَـيْرَاءَ قريبـةً لهـا بوشـيجة الـدّمِ والسّـلالة كان قـد تزوجهـا أسـتاذ منتـدب كان زميـلاً لـه في الدراسـة في أيـام كليـة الآداب بجامعـة الخرطـوم البعيـدة، الغائمـة.

إنسـلّت سوسـن القمحيّـة، وصاحبتهـا، مـن بعـد ذلـك، بخفَّـةٍ، مـن عنـد بـاب نـادي حـي 28 الاجتماعـي الثقـافي ولم يرهـا مجـذوب الطيـب،

أبـداً مـن بعـد ذلـك، غـير أنـه سـمع، لاحقـاً، مـن شـقيقتها الصغـرى، في الخرطـوم في العـام 2003م، عـلى هاتـف كانـت تحادثـه فيـه- فيـما كانـت زوجـة مجـذوب الطَّيِّـب آنـذاك «الأبنوسـة التـي تـراءت زوجـة» تسـمعهما وهـي تامـة الغيـظ والغـيرة الدَّيَّاميَّـة الصافيـة- أنَّهـا قـد «أُخـذِتْ»، بحـينِ الغُـرَّةِ، في شـباك زواجٍ طـار بهـا، مـن بعـد ذلـك، إلى إحـدى الـ»ملايـاتِ» الطَّرَفِيَّـةِ بالولايـات المتحـدة الأمريكيَّـة!

مويجةٌ خاتمةٌ ثانية: بدريَّة...

سـيُحاول الـراوي هنـا أن يَسـتلَّ، مـن عجـين ذاكرتـه المُتبَدِّلَـة بـضرورات الزمـان والمـكان، خيـطَ قليـلٍ مـن الـسرد بشـأن خطـاب «مفاصلـة» مجـذوب الطيـب الاجتماعيـة مـع بدريـة الـذي ضـاع منـه، مُصدِّقَـاً بـأن ذلـكَ سـيكون مـن شـأنه كفايـةَ وصـفِ أدنى الحـد الأدنى- فقـط ولا غـير- مـن صـورة هـذه المويجـة الخاتمـة الثانيـة المتصلـة بحكايـة مجـذوب الطيـب العتيقـة مـع بدريـة الكوسـتاوية.

قـد تكـن تلـك البدريـة الكوسـتاوية قـد بـدا منهـا أنهـا قـد عـزَّت مجـذوب الطيـب حينـما ربطـت بينـه وبـين شـخصية «أديـب» في مسلسـل مـصري بهـذا الاسـم كان يعـرض في العـام الأول مـن العقـد الثمانـين مـن القـرن العشريـن المـاضي (ولا حَـوْلاَ!). غـير أنهـا، ببيـان العمـل، كانـت، مـن جهـة ماديّـة خشـنة أخـرى، قـد أضمـرت لـه، لاحقـاً، وبموجـب الوهـم الضـاري لـضرورة البقـاء الاجتماعـي اللائـق فحسـب (أي «وهـم مـلء المركـز»، بعبـارة أخـرى!)، الرَّفسـة الكـبرى عـن «مقامهـا» الـذي لم يكـن هـو، ضمنيـاً، قـدره عنـد مـا يسـمُّونَهُ «المجتمـع»- ذلـك الـذي مـا خـاب يومـاً، لسـوء الحـظ، عـن الترصُّـع بالنعـوت الفخيمـة الطويلـة الفارغـة، في الأصـل، مـن شـاكلة

«بروفسـور» و«دكتـور»، كـما وذلـك الـذي هـو، بعبـارة المصريـين الفاصحـةَ الدّارجيّـةُ، «أدّ الدُّنيَـا»!

وقـد بـدأ تـسرب «الأدلـة المُذلّـة»، بتعبير مجـذوب الطيـب، عـلى ذلـك، إلى نَفْـس ونَفَـس مجـذوب الطّيـب، باكـراً ومنـذ لحظـة رسـالة/ جُملـة «هـذا فـراق بينـي وبينـك» وهسهسـة ضرب الوتـر التحتـي الحـارق فيهـا (كـما في قصـة **السُّـوداني** إبراهيـم جعفـر، «**كيـف أنـام وفي دمـي هـذي العقـارب؟!**) عـلى «ضديـة نفسـانية» شـديدة قامـت فيـه إزاء عبـارة بدريـة الكوسـتاوية القاضيـة بضربـة أن مـا بينهـا ومـا بـين مجـذوب الطيـب كان «صداقـة فحسـب» إذ أنـه ليـس هنالـك عندَهـا، بتعبيرهـا القديـمَ الإرتبـاكُ الإسـتنكاريُّ، «**شيء** «**أحسـن مـن الصداقـة**»!

المهـم- يـا سـيدي الآمنـتَ ليـك- الرسـالة التـي لم يتذكـر مجـذوب الطيـب حروفهـا، ربمـا بـلا شـعور عمـدي التغيـظ، كانـت فيهـا مطالبـة بإجابـة نهائيـة، نَعَمِيَّـة أو لائِيَّـة، عـلى سـؤال شـديد البسـاطة والتحديد هـو هـذا السـؤال الـذي كان، في زمانِـهِ، صاعقَـاً، اجتماعيَّـاً، عـلى الأقـل: **هـل تتزوَّجِيْنِـي يـا بَدرِيَّـة؟!** وقـد أرفـق السـؤال إيّـاه باشـتراط مُشَـدِّدٍ عـلى إجابـةٍ «طَزِّيَّـةٍ» خالصـةٍ وليـس فيهـا أيُّ «كانِي مـانِيْ». أو- بمـا قـد يُشـبه عبـارات الشـعر- الإرتهـانُ، هنـاكَ، كان عـلى ورودِ إجابـةٍ واضحـةٍ كشـمسِ الخريـفِ العائـدةَ، عـلى مهلهـا، مـن بعـد تمـام هطـول المطـر. «جغمسـة» تجاهـل الرسـالة بمنتصفيَّـةِ الـلا إجابـة (أو أيُّ خرمجـةٍ نفسـيَّةٍ «مِهَبِّبَـةٍ» أخـرى مـن ذاك القبيـل)- قـال مجـذوب الطيـب لبدريـة في رسـالةِ آخـرِ جَـرَّةِ نَفَـسٍ منـه إليهـا- سـتفسّر، قطعـاً، في «دسـتورِهِ»، رُغـم كُلِّ جبنهـا وارتباكِهَـا المُـوارَبْ، عـلى أنّهـا **لا وبَـسْ!**

بذلـك القَطْـعِ النَّاشِـفِ أرى أن تُـرسى، بـلا أي فضفضـاتٍ زائـدةٍ، هـذه **الموجة الخاتمـة الثانيـة** عِنْـدَ زِنْـخِ حجـارةِ «دومِ» شـاطئها المَـمْ صَوصَةْ!

مويجـةٌ خاتمـةٌ ثالثـة: تَرَشْرُشَـاتُ «عـزُّوز النعناعـةِ» وبعـضٌ مـمَّا بـين وما قبـل ومـا آنـاء ذلـك، وربَّمـا شيءٌ مـمَّا بعـدِهِ، كذلـك...!

في ما بين مايو وسبتمبر من العام 1984م كان مجذوب الطيب معصوفاً بتشوش العاطفة واختلاطها بين عدة بنات ونيَّات متقاطعات في نفسه إذ هو قد كان، من جهة، متوقفَ الزمان الداخليّ، كما العملاق أطلس في لحظة رفعه الأخيرة لكرة الأرض قبل انهيارها بالتفتت الكوني الأخير فيما، من جهة أخرى، مُتحركاً جيَّاشاً بالزمان (وبالمكان) كأنما كان هو على عتبة انتقال جديد، في صورته وصيرورته، معاً. الطَّرَفُ الأوَّلُ من التَّوصيف (توقف الزمان الداخلي... إلخ إلخ) كان يخص حالته مع بدرية التي كان قد حدد موعداً نهائياً لردها، على رسالته الأخيرة الآخرة، بيوم الثلاثين من سبتمبر من العام 1984م. أما الطرف الثاني منه (الذي عبر عنه، جُمْلَـةً، الكلام عن كونه قد كان، أيَّامَـذَاكَ، «مُتحركاً جيَّاشاً بالزمان (وبالمكان) كأنما كان هو على عتبة انتقال جديد، في صورته وصيرورته، معاً») فهو قد كان واشماً، بكثافة، لزمن بدايات ظهور بنات، وبالتالي نيّات، جديدة (أو ربما كانت هي، على الأدقّ الأرَقّ قديمةً-جديدةً) في حياته كانت تلك الـ«العزُّوز النعنانة»، النّذيرةَ-البَشيْرَةَ، قد سبق لها، قبل ذلك الزمان بثمانية عشر شهراً وأيّام، وأن أرهصت بها.

كانت تزور مجذوب الطيب، في أوائل أيّام تعيينه بوكالة

السودان للأنباء («سونا») التي كانت قد بدأت عِندَ طليعة صباح يوم 18 من شهر أبريل من العام 1982م، فتاةٌ شيوعيّةَ الهوى اسمُها سلمى خضر بدوي. كانت سلمى خضر بدوي تلك ما تزالُ، في تلكم الأيام، تتلقى تعليمها- في سنتها الدراسيّة الثانية، أو الثالثة (لا يتذكر مجذوب الطيب ذلكَ الآنَ على وجه التحديد)- بكلية القانون بجامعة الخرطوم. كانت سلمى شديدة الخضرة المائلة لسواد الليل المطبق، وسطى الطول، كما وشديدة النحافة، مثل عود خيزران لم تنضج خضرتَه الشَّمسُ، بالسُّمرة، بعد. وكانت تلثغ بكلام ثقافي كبير عن ناس من أمثال محمود درويش وأحمد دحبور ومظفر النواب وناظم حكمت وعبد الرحمن منيف (وليس أدونيس وأنسي الحاج ونزيه أبو عفش، مثلاً) دون أن يتجهم لها وجه بوسم تلك «الصرامة المُتّهمة» التي تتميز بها، عادةً، وجوه مثقفي اليسار الآخرين عندما ينطقون بامثال تلك الأسماء. كانت ذكيّةً، بعفويّة لذيذة وغير جارحة على الإطلاق. صديق مجذوب الطيب الناقد (الذي جاءت سيرته في مكانها من الكلام عن ليلة شعرية بجامعة القاهرة/فرع الخرطوم في ثمانينات القرن الماضي ذات صلة بنهايات علاقة مجذوب الطيب العاطفية ببدرية) قال عنها إنه كان يستغربُ فيها، بجدّيّة شديدة، معرفة ذلك «الكلام الكبير» وتلك «الأسماء الثقافية اليسارية الكبيرة»، كما ولثغها بذلك «الكلام الثقافي الكبير»، عنما يُطالعُ طفولةَ وجهها البليغة. كانت هي تُحبُّ مجذوب الطيب (نعم، **تُحبُّهُ!**). غير أنَّ ذاك «**الحُبَّ**» له كان مُنْشَأً على (ومَسْتُوراً بـ) طريقة خاصة كانت تجتهدُ، كثيراً وبسبل غير مباشرة، في مداراة خُصوصيَّتهَا عن «زملائها» عندَ طَرَف اليسار السُّودانيّ-الجامعةَ-خُرطوميَّ، على الأخص. لكن ليس

عـن عمـوم **زميلاتهـا** بـذاكَ الطّـرَفْ. فهـي تُـدرك، بغريزتهـا الأنثويّـة النَّاقشة-الشَّـوَّافة، أن زميلاتَهـا إيَّاهُـنَّ ينزعـنَ، في دواخلهـنَّ التحتانيّـة العميقـة (أو، في بعـض أشـكال التّفاصُـح المـزدوج اللّغـة، الــdeep down)، (كلهـنَّ، أو بالـكاد)، إلى الاتـكاء عـلى «عـكّازات» علاقـات حميميـة مريحـة (كـما كـنّ، في الغالـب، يُظنَّـنَّ) مـع «دراويـش وجوديّـين مهَبلسـيْنْ» مـن أمثـال مجـذوب الطيّـب.

عندمـا كان مجـذوب الطيـب يعمـل محـرراً بوكالـة السـودان للأنبـاء («سُـونَا») كانـت سـلمى خـضر بـدوي تحـرص عـلى زيارتـه هنـاك عنـد عَصريَّـات ورديَّـة الظّهـر التـي كانـت تبـدأ في الواحـدةَ ظهـراً وتنتهـي في الثامنـة مسـاءً. كانـت- بغريزيَّـة مبهمَـة مـا- تتجنّـبَ لقـاءهُ، هنـاكَ، في تلـكَ الـ»سُـونَا»، في الصبـاح، في أول الظهـر، كـما وفي مـا بـين وقـت مغيـب الشّـمس والثامنـة مسـاءً. كان هـو، حينـذاكَ، جديـدَ الشـأن بالعمـل بالوكالـة، وجديـد الشـأن، ونَديَّـهُ أيضـاً، بحضـور «**عـزُّوز النّعناعـة**» بقربـه عنـد طاولـة المحرريـن الكبـيرة المسـتطيلة بقسـم الإرسـال الخارجـي بوكالـة السـودان للأنبـاء («سـونا») حيـث كانـت **عـزُّوز النَّعناعـة** تعمـل في قسـم التحريـر الفرنـسي مـن ذلـك القسـم فيـما كان هـو يعمـل في قسـم التحريـر العـربي منـه. كانـت زيـارات سـلمى خـضر بـدوي، الملهوجـة فيـه بالـكلام السريـع المتلهّـف حـول عـدة أشـياء متباينـة، شـخصية وعامـة، في وقـت واحـد، تتـمازج، في نفـس مجـذوب الطيـب، حينـذاك، بالتفاتـات صغـيرة إليـه، بوجـه جانبـي، مـن عنـد جهـة **عـزُّوز النعناعـة**، حتـى في أوقـات غيـاب **عـزُّوز النعناعـة** عـن المكتـب وحضـور سـلمى خـضر بـدوي! وكان طُغيـان حضـور تلـك «النعناعـة» التدريجـي فيـه، عـلى حضـور سـلمى خـضر

بـدوي (الخفيـفَ الثّقـلُ، عـلى كُلّ) فيـه في أيـام مـا قبـل تخرجـه ومـا بعدهـا بليـس أكـثر مـن عـام عـلى الأرجـح، قـد بـدأ يتوكَّـدُ، عنـده، مـن بعـد أن بـدأت «النّعناعـةُ» إيَّاهـا تَلـمُّ، في شـنطتها الأنثويّـة الخاصـة، وأحيانـاً قليلـةً في طـرف ثوبهـا وحيـث ملتقـى حجرهـا بثوبهـا مـن بعـد أن ترفـع الأخـير قليـلاً عـن جزئهـا الأسـفل إلى مسـتوى مـواز تمامـاً لسـطح طاولـة التحريـر الأسـفل بقسـم الإرسـال الخارجـي بوكالـة السـودان للأنبـاء («سـونا»)، قُصاصـات قصـيرة كان هـو يكتـب فيهـا كلامـاً عفويـاً سريعـاً فيـما بـين آنـات شـغل الأخبـار بسـونا، ثـم يدعهـا، بإهـمال سـاهم ودون أي خشـية مـن أي «فضيحـة شـعوريّة» ممكنـة مـا، منثـورة عنـد السـطح الأعـلى الرحيـبَ العـرضُ لنفـس تلـك الطاولـة الشّاهدةَ-الشَّـهيدة.

وذات مـرة- يذكـر سَـاردُ هـذه الروايـة المُتَلَولبَـةَ، عَرَضيّـاً- كان مجـذوب الطيـب يقـرأ فيهـا صفحـة «الأبـراج» بصحيفـة «**الأيـام**» السـودانية، قـرأ في برجـه، المشـترك- اختياريـاً، مـن جانبـه، أو، عـلى الأدق، بنـاء عـلى تقديـرات قديمـة عامـة، مـن جانـب والدتـه، بـت ود محجـوب، ترجـع إلى عهـد مـا قبـل دخولـه مدرسـة كوسـتي الأوليـة رقـم 4 - مـع بـرج شـهر يوليـو الـذي ولـدت فيـه «النعناعـة»، أن هنالـك «**حـبٌّ جديـدٌ يُولـدُ فيه/فيها**»فـما كان مـن «النعناعـة»، آنَهـا، إلا الصّيـاحَ، بعاطفـة شـديدة ومباغتـةً: «**ووب عـلي أنـا يـا مجـذوب الطَّيّـبْ!**». وقـع لهـا ذلـك «الحـادث الصغـير»، مـع مجـذوب الطيـب، رُغـم علـم زُمـلاء قريبـين، أو مُقرّبـينَ، لهـا في العمـل، «مـن الديـن بالـضرورة»، أنَّهـا كانـت، حينـذاك، مـا تـزالُ عـلى علاقـة خطوبـة مـع أحـد الطـلاب- سـابقاً- مـن «النـاس» الذيـن كانـت تعرفهـم منـذ عهـد

دراسـتها بقسـم اللغـة الفرنسـية بكليـة الآداب بجامعـة الخرطـوم.

لاحقـاً، هـي قـد أرسـلت، عـلى كل حـال، رسـالة قبـل أخـيرةً منهـا إلى مجـذوب الطَّيِّـبْ (إذ أنهـا لم ترسـل لـه أبـدَاً، مـن بعـد تلـك الرسـالة، سـوى رسـالة كاملـةٍ أخـيرةٍ واحـدةٍ أُضِيْعَـتْ- بفعـلِ مصيرٍ مُسـتقبليٍّ غامـض النِّيَّـة- مـن حوزتِـهِ. ذلـكَ بخـلافِ ردٍّ واحـدٍ، شـفهيٍّ وعَـدَائِيٍّ مُعَنَّـفَ اللَّهجـةِ والانفعـال، عـبر صديقـةٍ كانـت في تلـك الأيّـام مشـتركةً فيـما بينهُـما، عـلى رسـالةٍ عَفَوِيَّـةَ القَدَرِيَّـةٍ وعنيفـةَ الشَّـهوانِيَّةٍ واتتهـا، فجـأةً، منـه). وقـد أتـت تلـك الرسـالةُ القَبـلَ أخـيرةً، منهـا إليـه، في داخـل ظـرف رسـالةٍ لـذاتِ الصديقـةِ التـي كانـت، في تلـك الأيّـام، مُشـتركةٍ في مـا بينهـما وليـس كِفَاحَـاً مـن حيـثُ عنوانهـا (الـذي كان يعرفُـهُ) بمنفاهـا المعـاشي في إمـارة أبي ظبـي الخليجيـة حيـث كانـت هـي تعمـل مترجمـة للغـة الفرنسـية في أحـد المستشـفيات ذات الصلـة- في تقديـر مجـذوب الطيـب الظَّنِّـي، لا أكـثر ولا أقـل- بالأجانـب مـن المتحدثـين باللغـة الفرنسـية أو «الفرانكوفونيّـينَ»، عمومـاً. عـرف مجـذوب الطّيّـب منهـا، في تلـكَ الرِّسـالةِ القبـلَ أخـيرةٍ، أنَّهـا، وخطيبهـا السـابق (الـذي كان مجـذوب الطيـب قـد أشـار إليـه، في أحـد رسـائله إليهـا، ربمـا مـن بـاب التعاطـف التشـجيعي، فحسـب، كـما قـد يكـون قـد اتضـح، لهـا ولـه، فيـما بعـد، باسـم «**حقيقتهـا**»)، قـد انفصـلا عـن بعضهـما البعـض، فيـما قـد كان هـو في «سُـعوديّتِه» وهـي في «أبي ظَبْيِهَـا»، بغتـةً، ومـن ثَـمَّ بُوغِتـت هـي بالإحسـاس (الجَّـارح، مؤقَّتَـاً) بـأنَّ «**نعناعَهـا**»- هـي التـي كان اسـمُها العُضُـوِيُّ، الحـيَّ في هذيانَـاتِ مجـذوبِ الطَّيِّـبِ الحيَّـةَ الحقيقيَّـةُ، «**عـزُّوز النَّعنَاعـة**»- قـد بـدأ، آنـاءَ مُـدَّةٍ مـن بعـد ذلـك الفصـام المُحْرَج-الجَّـارح (بحسـبان طـول مـدة

العلاقـة السـابقة العبثيّـة النهايـة، فيـما قـد يبـدوا لهـا)، «يتضـاءلَ» أو هـو قـد بـدأ، بتأويـل راوي مجـذوب الطَّيِّـب الحـاضر، الرَّومانتيـكيّ، بالـضَّرورة، «يتـلاشى في العتمـةِ المغيبيّـةِ الأخـيرة لبسـاتينِ بغَرْنَاطـةٍ ماضَوِيَّـةٍ كان أصحابهـا المشرقيـون السـابقون قـد ظَنُّوهـا، طويـلاً، لهُـم مثـوى أندُلِسِـيَّاً أخـيراً!»

غـير أنَّ تلك»»**العـزُّوز النَّعنَاعـة**» قـد تزوجـت، بالفعـلِ وبغتَـةً كذلـك، مـن بعـد حادثـة الإنفصـال تلـك بوقـتٍ مُدْهِـشَ القِـصَر، الشيء الـذي قـد يدعونـا إلى أن نُخمِّـنَ، بقـدرٍ كافٍ مـن الإطمئنـان، أن حادثـةَ الإنفصـالِ إيَّاهَـا قـد بـدت لهـا- فيـما بعـدٍ ليـس بالبعيـد تمامـاً-»جارحةً مؤقتـاً فقـط ولا غـير!» ذلكُـم تمامـاً مثـل إحسـاس «تضـاؤل النّعنـاع» الـذي قالـت عنـه، في رسـالتها القبـلَ الأخـيرةِ إلى مجـذوب الطَّيِّـب، أنَّـهُ قـد تخلَّـف، عـلى الفَـورِ، ومِـنْ ثَـمَّ مؤقَّتَـاً طبعَـاً، عـن مـاضي علاقتهـا مـع خطيبهـا السـابق. كان زوجُ «**عـزُّوز النَّعناعَـةِ**» ذلـك ولـداً كانـت «تُدَلِّعُـهُ»- كـما قالـت لمجـذوب الطيـب في ذات رسـالة «تضـاؤُلِ النَّعنـاعِ» تلـك- باسـم الرِّيَـاحْ! بقـي لي- كـراوٍ- أن أقـول أخـيراً أن مـمَّا لا يـزالُ يُثِـيرُ عَجَـبَ نَفْـسٍ، حِـسٍّ ومُخيَّلَـةٍ، مجـذوب الطيِّـب، الشَّـدَيدِ، مُـذَّاكَ وحتَّـى لحظـةِ الكتابـةِ الحـاضرةِ هـذي، مـن صـدى عبـارات رسـالةِ « **عـزُّوز النَّعناعَـةِ**» الكاملـةِ الأخـيرةِ التـي- كـما قُلنـا عنهـا- إنَّهـا قـد «أُضِيْعَـتْ- بفعـلِ مصـيرٍ مُسـتقبليٍّ غامـض النِّيَّـة- مـن حوزتِـهِ»، صـدى ذكـرى مُشَوَّشَـةٍ لشـبه عبـارةٍ لا شـكَّ في أنَّهـا قـد تكـونُ، لحظيَّـاً عـلى الأقَـلِّ، قـد قبضَـتَ، ذَاتَ مَـرَّاتٍ قَادِمَـةٍ، بالوَجْـدِ والذِّكْـرَى، نَفْـسَ مـن عُنَيَـتْ، بعفويَّـةٍ، بِعَنَـاه (كـما في مِثْـلِ معنـى «العنَـى» في قصيـدة مُنشـد الفِكـرِ الجَمهُـورِيِّ السُّـودَانِيِّ، عـوض الكريـم مـوسى، المَعنِـيَّ في

عبارة «**خل يا فكر العنا* لست تعني ما عنى**». ذلكُم سَيَّمَا وأنَّ ذاك الصَّدى قد بات- لحظيَّاً، على الأقلِّ، وذاتَ مَرَّاتٍ قادِمَةْ- يَهْجِسُ له، في وسواسِهِ، وعلى كيفِهِ الخاصِّ المُراوِغِ-المُتَمَلِّصَ، أن «شبه العبارةِ» ذاك، قد باح طرفٌ له منهُ بأنَّ «**عزُّوز النَّعنَاعَةَ**» إيَّاهَا كانت قد كتبتْ له، في رسالتها الكاملة الأخيرة، أنها قد باتت- مُنْذَ، ورُغمَ، زواجها وبداية عهد شعرت فيه، كما وَشْوَشَتْ لَهُ في رسالتِهَا القبلَ الأَخِيْرَةَ إليهِ، بأنَّهَا «**طايرة في حتّة بس فيها سحابة مُلوّنة**» - **ترشفُ عسلاً تتذكّرَهُ** [آأي، هو، مجذوب الطَّيِّبْ!] **في عِزِّ ارتِشَافِهِ!**

مويجةٌ خاتمةٌ رابعة: «العصفورة الضَّاحكة»...

الأوبةُ الوَمْضِيَّةُ إلى «العصفورة الضاحكة، صديقة مجذوب الطيب الأبديّة (نعم، **الأبديَّة**، كما قد عاد هو يَشعر بها الآن مالكةً فيه، بقوَّةٍ، لهذا التوصيف بالذّات، في هذه اللحظة من الكتابة من اليوم الرابع من شهر يونيو من عام القرن الحادي والعشرين، 2013م) تبقى دائماً أوبةً شهيَّةً وحيَّة، فيا لحياةِ تلكَ البنتِ **السُّودانيّةِ** القَمحيّةِ التي كانت هي ما هي عليه دومَاً منذ عهد غنائهم-السّودانيّين- المُعتَّقَ لـ«ملكَ الطِّيُورِ» الحقيبيَّةَ العبدَ الرَّحمنَ- الرَّيَّحِيَّةَ تِلك. لكن، هل تُرى كان مجذوب الطَّيِّب **قد ذهبَ، أصلاً، بعيداً وحقّاً، من حيثُ ذاك الشعور في ثمانينات وبعض تسعينات القرن العشرين الماضي حتى نستطع القول عنه، بدقّةٍ فينومينولوجيّةٍ وأصليَّةٍ كذلكَ، إنه الآنَ يعودَ إليه في حياة قَرْنِهِ الحادي والعشرين التالي؟!**

الجـواب/ التعليـق: ذلكـم كان تُرابـاً مرشُوشَـاً، في الحـسِّ والخيـالِ، بعصـاري مـن الذكـرى والحنـين ليـس لبقايـا شـميم روائحهـا نفـاذ.

كانـت «العصفـورة الضاحكـة» كائنـةً، ذاتَ أواخـرِ صبـاحٍ شـتائيٍّ خُرطُومِـيٍّ وبعـضِ ظهـيرةٍ، بمكتـب مجـذوب الطيّـب، بشـعبة الفلسـفةِ، بكليـة الآداب بجامعـة الخُرطـوم. وكان هـو كائنـاً وراء كـرسي مكتبـه - ذلـك الكـرسي الـذي كان مجلّـداً بقـماش هـادئ الصفـرة العصريـة مثـل «تيبـان» البنـات المارقـاتِ في العصـارى في حـي الثـورة بأمدرمـان: ذات الصفـرة القبل-مغيبيَّـة لرمـال شـاطئ النيـل الأبيـض عنـد قريـة ود الـزاكي السـودانية! كانـت الوقـتُ ضحـىً؛ قبـل منتصـف نهـار اليـوم، بقليـل. لم تكـن هنالـك حاجـة لمروحـة سـقف، فهبايـب شـباك المكتـب الوحيـد الكبـير، المتعلقـة بحوافـه أطـراف فـروع شـجرة مسـكيت، «تمـر أبونـا»، عتيقـة وكبـيرة، كانـت بـاردة كطعـم عصـير ليمـون منعـش يتـدلي في الجـوف في عـز ظهـيرة سـوق الخرطـوم القديـم الحارقـة.

كان مجـذوب الطيـب قـد التقـى، في الليلـة السـابقة لـذاك اليـوم، بـ»الولـد الريحـاني الغائـب» وتعـشى معـه، فـولاً أصليَّـاً بزيـت السمسـم والبصـل فقـط، عنـد الـدكان القائـم عنـد طـرف نـادي فريـق الأهـلي الريـاضي السـوداني الغـير بعيـد مـن حديقـة القُـرشي بالخرطـوم جنـوب. ببقايـا مَحَنَّـةِ ذلـك اللقـاء (التـي كانـت هـي شـيئاً أشـبه، في الذكـرى، بـ»يـا فرَحَـاً قَمَرِيَّـاً سَوْسَـنَنِي الليَّلـةَ بالموسـيقى» [مـن: شـعر إبراهيـم جعفـر]) كان مجـذوب الطيـب- إذاً- «شـايفَاً» ومُفْتَكِـراً، في «الوَكْـتِ دَاكْ»، صـورةَ وجـهِ «العصفـورة الضاحكـة» الحـيِّ قبـل أيـام ليسـت بالكثـيرة مـن يـوم زواجهـا ورحيلهـا، «حزمـةً- لَزْمَـةً»، إلي مـن كانـت سـتُنجب منـه عيالهـا في «بـلاد الشـيك الخَـدْرِيْ». وبِشَـوْفِ تلكـم

الصورة في بوابتي روحه-عينيه كانت «العصفورة الضاحكة»، فيما يبدو، تضجُّ بحياتها أمامها. اليدين، بالذات، كانتا منها مطوحتين، بإيقاع فيثاغوريٍّ منسجم في «أرقام» الموسيقى السحرية اليونانية القديمة، برقص متفجر بالإيماءات كانت أبلغَ- في تفسيره لما كانت هي حينذاك قائلةً له- من أي هرطقات كلامات كانت هي مهتاجة بها أحياناً، كعاصفةٍ صُغرى، أو متهدجة، أو متهدّلةً، أو حتّى «مِقَوقِيَةً» بها، أحياناً أخرى، كماء، أو حمامةٍ، أو حتّى قُمرِيَّةٍ.

تقُولُ لمجذوب الطيّب- «العصفورةُ الضَّاحكةُ» كانت- إنها، بطبيعتها، جَماعيَّة المِزاج، حيال الرجال خصوصاً، ولا تحبُّ إلا أن تكونَ دومَاً ذائبةَ المِلحِ في «لَمَّةِ» منهم. غريزتُها، كما صدحت له «مليكةُ طير الأغاني» تلك، كانت تنفر، تلقائيَّاً، من الانفراد بأيِّ أحدٍ من الرّجالِ إيَّاهُم في مكان يخصهما وحدهما، أو «هما» يحاولان-على الأقل- أن يجعلاه يخصهما، وحدهما. بيدَ أنها، مع، أو – على الأدق- رُغم، الـ«ذلكَ» منصخبها الحي كله، كانت تقول لمجذوب الطيب، كذلك، بتناقض حاد مع مزاجيَّتِها الموصوفة تلك، أنها حينما لا يكون هنالك بُدٌّ من انفرادها برجل تُضبط مُتلبِّسَةً، معهُ، بحالة الزَّواج (أو قُل في «زِقاقِ الزَّواج») فإنَّها لن تُغامر، حينها، بغير «استئجار» المفرد القوي الأمين من «الشبعانين» جداً، على حد تعبيرها الدقيق.

هي، بالجُّملةِ الأخيرةِ، قد انتهت، بالفعل، إلى التَّلَبُّسِ المُذنبِ (ولا أدرى من أيِّ نَفْسٍ فِيَّ قد انسربت، برُغمها الخاص، إلى هذا السَّرد، كلمة «المذنب» هذي!) بفعل ذلك بالضبط، أو ما قد كان شُبِّهَ لها منهُ، على الأقل، فيما يبدو، عندما تزوجت من كانت تُشر إليه،

في رسائلها إلى مجذوب الطيب من «بلاد الشّيك الخدري» السالفة والطيبة الذكر- طبعاً، باسم مفرد واحد هو «الخير» إذ كانت هي دوماً لا تغفل عن أن تُضمِّنَ الجُنُوبَ السُّفليَّةَ المُغْفَلَةَ القصوى لرسائلها تلك هامشاً صغيراً كانت كلماته القليلة لا تُخطئ، أبداً، في أن تقولَ، لمجذوب الطيِّب، باقتضاب مغصُوب النَّفَسْ: «**تَقبَّلْ سلامْ الخَيْرْ!**»

مويجةٌ خاتمةٌ خامسة: «الأبنوسة التي تراءت زوجة!» أو نَظَرٌ وامِضٌ من بين فُرُجاتِ أبواب رسالة قديمة من مجذوب الطيِّبْ إلى «الأبنوسة التي تراءت زوجة»...

[الحبيبة: ....

لعلني لا أكون مخطئاً إن قلت إنَّك قد ركَّزْت، في قراءتك لخطابي الأخير إليك، على ما بدا لك أنه جارحٌ فيه ونَسيت أو لم تَنْتَبهي- لسبب ما لعلَّهُ الأحوال النّفسيّة الرديئة التي أعلمُ أنّك تعيشينها الآن لأسباب معلومة لكلينا- إلى ما يكمن «تحت» تلك السطور من من اهتمام بك ومحبَّة لك عبّرت عن نفسها- بصراحة- في أماكن أخرى من الخطاب لا شكَّ أنّك ستجدينها وتحسّينَها- بما لديك من رهافة شعور وذكاء وحساسيَّة نسائيَّة عالية- إن اخترت أن تقرئي ما يقوله الخطابُ المَعنيُّ بتَعمُّق كاف وبلا عصبيَّة. أنا لا أريد، كما ولا أرغبُ في، أن أُدافع عن نفسي وعن ما كتبتُهُ لك في خطابي السابق لأنَّهُ، إن كان شَيْنَاً أو زَيْنَاً في اعتقادك، فهو شيءٌ صدر عن، ومن، نفسي وتركتُهُ يُمشي على عواهنه ووفقَ حريَّته المطلقة. هو ليس «فلسفة» ولا غير فلسفة وإنّما تصويرٌ غيرَ متَحَفّظ وتامَّ الحريَّة لأحوالي النّفسيّة وبعض أحوالي الجَّسَديَّة

المُعتَلَّـة في خـلال السّـنَة الأخـيرة بالـذَّات، لا أكـثر ولا أقـل.

لــكِ عــذري الشــديد وأســفي وحــزني عليــه ولــكِ أن تُمَزِّقِيْــهِ أو تعتبريــهِ لاغيــاً إن لم يَسْــتَبِنْ لــكِ فيــه شيءٌ جميــلٌ مــا تحــت ركام مــا اعتبرتينــهُ قسـوةً ونَشَـافاً فيـه. فقـط قبـل أن تفعـلي ذلـك- إذا قـرَّرتِ أن تفعليـهِ- إعطِـهِ فرصـةً ثانيـةً مِـنْ بَالَـكِ واقرئيـه عـسى أن يُتـاح لـكِ «فهمَـه» عـلى نحـو أكـثرَ إنصَافـاً. ذلـك رُغـم مـا قـد يشُـوبُ الفقـرات التـي ركَّـزْتِ عليهـا فيـه مـن مـا بـدا لـكِ أنَّـهُ قسـوةٌ شـديدةٌ وهـو لم يكُـنْ- حسـب نظـري أنـا لـه- سـوى كلام صريـحٍ طلـع منِّـي باختيـارهِ هـو فانطلـق مُفصِحَـاً عـن اعتلاجـات بعضهـا قديـمٌ وحبيـسٌ في نفسي وآخـرٌ جديـدٌ وراهـنٌ أخرجَتْـهُ مِـن محْبَسِـهِ ظـروفي الأخـيرة هنـا التـي وصفَهَـا لـكِ ذلـك الخِطـاب «المظلُـوم» بقـدرِ إمكانِـهِ والتـي انتهـت بي الآن- كـما أخبرتْنِـي الممرِّضَـةُ في العيـادةِ الطِّبِّيَّـةِ التـي أنـا مُسَـجَّلٌ فيهـا الآن في يـوم الأثنـين المـاضي (10/8/1998م)- إلى أن يَصـيرَ عِنـدِيَ ضغـطُ دمٍ عـالٍ. لا عليـكِ مـن ذلـك فالعافيـةُ والمـرضُ بيـدِ الأُلُوهَـةِ الكريمـةِ التـي تـدري- أفضـلَ بمـا لا يُقَـاسُ مـن كُلِّ مخلُوقَاتِهَـا- مـا هـو خـيرٌ لهـم في هـذه الحيـاةِ وفي حَيَـوَاتٍ قادِمَـةٍ في عَوالِـمٍ أُخَـرٍ هُـم ماضُـونَ إليهـا صُعُـدَاً بإذْنِهَـا هـي فقـط ولا سـواه.

المُهـم لا أَزِيْـدُكِ كلامَـاً عـن هـذا الأمـر وأتـرُكِ لتقديـرِكِ وفهمَـكِ لـه وحَسْـبْ. ثُـمَّ لـكِ بعـدَ أن تُقَيِّمِيْنِـي- إن شِـئْتِ- بعَـدْلٍ ومـن ثَـمَّ ألقـى مـا تريـنَ أنِّي أسـتَحِقُّهُ مـن قبُولَـكِ، غُفْرَانَـكِ أو سَـمَاحَكِ، إن رأيـتِ أنِّي أسـتَحِقُّ ذلـكَ وإلا فـلا. خَـلاَصْ؟

غـدت الدراسـةُ- تقريبـاً- في أواخرهـا. هـي الآنَ أضحـت كذلـكَ، أخـيراً، رُغـمَ، وبعـدَ، كل اختـلاط نفـسي الشُّـكُوكِيِّ الطَّويـلَ والأليـمَ

وقِسْـمَةِ الدَّهْـرِ الضَّيْـزَي عَـلَيَّ عـلى سـبيلها (مـع كلِّ تَشَـكِّيَاتِ «حَرَامَاتِهَـا» العراقيَّـةَ اللَّهْجَـة، خصوصَـاً حـين تنطعـنُ- فجـأةً- لهجَـةُ العراقيِّـين، وهـم مفعَمِـيْنَ بِبَدَاهَـةِ وجعِهـم التَّاريخـيِّ التِّلقـائيِّ، بكلمـة «حَرَامَـاتِ» فيصيحُـونَ مُعْتَلِجِـيْنَ بالتَّعَاطُـفِ الإنسـانيِّ الجَّمِيْـل: «واللَّـه حَرَامَـاتْ!!). وأنـا لا أدري مـاذا سـأفعل بعـد أن تنتهـي تِلْـكَ غـير أن أعـود إلى السُّـودان مـا دام وصولـك إلى هنـا صعب- بل شـبه مسـتحيل- الآن لأسـبابٍ تعرفينهـا جيـداً ولا داعـي لتكـرارا ذكرهـا هنـا ومـا دام، كذلـك، لم ينفتـح لـكِ الطريـقِ، حتـى الآن، فتتوفقـي في الخـروج مـن البلـد إلى أيِّ بلـدٍ أخـرى مـن بـلادِ اللـه، حتـى ولـو ليبيـا أو اليمـن، كـما قلـتُ في بعـض خطابـاتي السـابقة (وذلكُـم رغـم وصـف قـول اجتماعـيٍّ دارجٍ لهـما لهـما بأنَّهُـمَا «ضيـاعُ زمَـنْ!).

في ختـام الرسـالة لـكِ السَّـلام والإحـترام وكل الأمـل والرَّجـاء في قُـربِ الوصـال، مـع الامتنـاع النهـائي الخاتـَمِ- بأمـرِ الأُلُوهـةِ المُنْعِمَـةِ- لفِصـالِ الأعـوام الطويلـة، العديـدة، الماضيـة، المُمِضَّـةَ الطَّعْـمِ كالمِعْـدنْ. ثُـمَّ سـلامٌ، كذلـك، إلى كل أصدقائـك وصديقاتـك وأهلـك بالسُّـودان الحبيـب وعقبـال اللَّمَّـة القريبـة إن شـاءت الأُلُوهَـةُ أن تَعْـدِلَ، في وقـتٍ قريـبٍ، ظروفنَـا التـي تعلمـين وأعلـم ومـا ذلـكَ عليهـا ببعِيـدْ... آمين يـا رحمان ويـا رحيـم وعسى «ريحُ القُـرب» تَهُـبُّ علينـا فينتفـي عنَّـا عنانـا وأسى بُعدنَـا الـذي طـال فـوق الاحتـمالِ واللـهِ....

مجذوب الطَّيِّبْ

لندن، أغسطس، 1998م]

مويجةٌ خاتمةٌ سادسة: «الولدُ الرَّيحانيُّ الغائب»...

«الولد الريحاني الغائب»: من هلاويسِ الصِّبَا:

«أتحدث هنا عن حدث غريب. هو ليس غريباً لأنه لا يوجد غريبٌ في ذاتٍ غريبة «الغرباء يتعارفون». غير أني أعني بـ«غريب» هنا الغرابة عن مألوفية «العاديين» من الناس. وقبل أن أسرد ذلك الحدث سأحكي حدثاً قديماً مشابهاً له جرى لي، بالتقريب، قبل نحو ثلاث سنوات. كنت أستلقي، على سريري، بالديوان- «بيت الرجال»- بمنزلنا بكوستي. واتتني غفوة أضحت نوماً. أحسستُ بشيءٍ يجثمُ على صدري ويضغط على عنقي. جرَّبْتُ الصّراخ فلم ينفع. بدأت، بطريقة تلقائيَّةٍ مريحةٍ ما دريتُ دافعي إليها، في تلاوة آية الكرسي. حين أتممتها بدأ «الشيءُ» يزول (علماً بأنني لما أكُن أصلِّي بانتظامٍ حينها وفي آن الحدث فرَّطْتُ في الانتظام). كان ذلك حدثاً فريداً في حياتي. غيرَ أنِّي لم أندهش له لأنني لا أندهش- تقريباً- لأمثال تلك الأشياء. كيف أندهش لذلك- أتساءلُ- وأنا لم أندهش من تفكيري في الطَّيَرَان! أجل، أنا سأطيرُ وأنتظرُ ذلك وسيحدث ولن أندهش!! الحدثُ الآخر وقع في يوم 1/5/1985م- اليوم السابق ليوم ذكرى ميلادي. لا أُلمِّحُ- بالتأكيد- لصلة ذلك بالحدث. غير أني أقول إنه قد كان في ذهني، حينذاك، الاحتفال بعيد ميلادي، في الغد، بطريقتي الخاصة: كنتُ أفكر في عمل شيء غير مألوف بتلك المناسبة!! المهم أتيتُ من المكتب واستلقيتُ وشرعتُ في مطالعة جريدة يومية. نمتُ، قليلاً جداً، بعدها. ثم تغدَّيتُ وشربتُ الشَّاي وحاولت استدعاء النوم بشتى الطرق. الشاي كان عادة ما يوقظ حسّي ويجعلني «مُدَهْدَهَاً». تطرقتُ،

في محـاولاتي، لـدرس مـن أبجديـات «اليُوقَـا»: الإسـتلقاء عـلى الظهـر، وضـع اليديـن جانبـاً عـلى ظهريهُـنَّ، إغـماض العينـين والتنفـس شـبه الضعيـف عـن طريـق الأنـف.. وإراحـة التفكـير مـن كل شيء وتعتيمـه تمامـاً وإراحـة الجسـم وإرخائـه إلى أقـصى درجـة.... ذلـك التمريـن قـد يُخـرجُ روحـي مـن جسـدي تمامـاً إذ هـو يجعلنـي، أحيانـاً، لا أكاد أحـس بوجـودي وأودُّ أن أُحـرِّكَ نفسي فأجدُهـا لا تتحـرَّكْ (أخـشى مـن أن يكـون حديثـي هـذا مؤثـراً عـلى تعليـل الحـدث). غـيَّرْتُ، مـن بعـد ذلـك، رقـدتي إذ توسَّـدْتُ راحـة يـدي اليمنـى وجعلـتُ بقيَّتَهَـا معقُوفَـةً عـلى وجهـي، مغطِّيَـةً عينـي (الرقـدةُ كانـت مـن عـلى جانبـي الأيمـن). وضعـتُ رجـليَّ عـلى زاويـة حـادَّة. أحسسـتُ، مـن بعـد ذلـك، بالنَّـومِ يُداعبُنِـي ويَسـتَغْرِقُنِي. ثـم أحسسـتُ بـشيءٍ («شِـبهِ حيوانٍ») يُمسـكني مـن ظهـري ويجعـل يديـه في صـدري ويضغـطُ عـليَّ شـالاً حركتـي. يـداه كانتـا كأظـلافِ الجـمال، يكسـوهما صـوف شِـبهِ أبيـض. كـما وكان لـه عضُـوٌ غـرزه في ظهـري، كمخلـب القطـب، أو أَسْـمَكَ، رأيتُـهُ رُغـم عـدم التفـاتي لـه في خيـال.. عـصرني.. شُـلَّت حركتِـي. اسـتيقظتُ. حاولـتُ الـصِّراخ، غـير أني أحسسـتُ، حينـذاكَ، بـأني كنـت أصرخ، لكـن لا يخـرُجُ منـي صـوت. نظـرتُ إلى سريـر ابـن خـالي، شـمس الديـن، الـذي كان يقابلنـي فوجدتـه صاحيـاً صاحيـاً يتوسَّـدُ يَـدَهُ ويُقلِّـبُ عينيـه. صرخـتُ مـرة أخـرى. لا شيءْ. «الـشيءُ» كان يَشُـدُّ عـليَّ. قبلهـا، بقليـلٍ، كنـتُ قـد اسـتنجدتُ باسـم اللـه الرحمـن الرحيـم. لم يكـن بي إحسـاسٌ خـوف، بـل إحسـاس القتـال المريـر. صرخـتُ، حـين رأيـتُ شـمسَ الدِّيـنِ صاحيـاً: «يـا شـمس الدِّيـن، يـا شـمس الــ... دِيـن..!» لم يسـمعني. حركـتُ يـدي اليمنـى تجاهـه وكان ذاك أقـصى شيء اسـتطعتُ فعلـه. بعـد ثـوانٍ، كالعُمْـرِ، زال «الـشيء»... غـير أنّي

بقيتُ كذلكَ لمدة ليست قصيرة. وحين تحرَّكْتُ وجدتُ يدي ما تزالُ مرتفعةً وشَمسُ الدِّينِ يجوبُ ببصره.. لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله! ألم تسمعني، يا شمسُ الدِّيْنْ؟! كان ردُّهُ معروفاً، طبعاً...!»

من كتابة الصديق الغائب: عبد الله محمد أحمد عبد الحميد العراقي

شتيمه للولد الخُرافي

مرّ الزّمن والدور عليك

يا شادّي عنق المستحيل

راجي الخطاوي الميته

من عابر سبيل

ملحود على كفن السنين

مسبوحه عينيك في البعيد

مخروم وسط صدرك... قديم

يا مختفي واهلك عجاف

مقروشه عضمة فكّهم

خارتين لحم وش السّلام

وانتَ بتعضّي على اللّجام

والضّلْ كمل

قبّلتْ آلاف الجّهاتْ

ما شفتَ غير السّبتهِنْ

يا منتشر سُم الكلام

يا ماشّي ما داير الطّريق

غربل مشاعرك وشُرّها

ونشّف عروقك واستحم من دمّها

فتّشْ على الألم السّمحْ

وافردْ جوانحك للبكيل خشمك ترابْ

النار بتاكلك وتفنى فيك وتكمّلكْ

ضوق العذاب

البعدو راحه وإقترابْ.

طارح سؤال فوق كلّ شِيْ

وسايب الإجابه على الزّمن

يا مادّي عنق المستحيل

يا فار قرض شدر الحياه

وملم جِتَتْ أهل الصّلاه

وفرّشْ عليهم جبّتُو

وحاكى القرود

الليل بخيِّم عن قريب

وانتَ البتدّارق علَيه

وتَغَبَا الدّرب

مليون نجيمه بحنّو ليك

وانتَ بتقشّرْ في الدّرِبْ

راجي الخطاوي الاتلغثْ؟

23 /11 /1983م

من شعر: عثمان محمد عثمان منسي

مويجةٌ خاتمةٌ سابعة: تَوشِيحَاتُ الخِرُوجْ أو مُنَمنماتٌ وِداعيَّة...

هـل الشَّأنُ الـسَّرديُّ السَّـابقُ كلَّـه ليـس إلا تشبُّـثٌ مهـووس بدفّـة مركـب نهـريّ يُغـري بالوقـوع المفاجـئ، في النفـس، لتهاويـم العتـمات والشـعر؟! وهـل ذاك التشـبُّث المهـووس ليـس، بـدوره، إلا «فَرفَـرَةِ» أجنحـةِ محـاولاتٍ ضروريَّـةٍ، بـل اضطراريّـةٍ، لتجـاوز مـا هـو كائـن في مـا كتبـه مجـذوب الطّيـب، في 22 أكتوبـر 1978م، وفي الثالثـة مـن سـنين دراسـة كليـة الآداب بجامعـة الخرطـوم، مـن مـا يُشْـعِرُ بـأسى نفسـاني، بـل روحـيّ شـديد، لا يُعـرف لـه أسـاسٌ معـاشيٌّ عينـيٌّ قائمـاً بذاتـه، بوضـوح وتَحَـدُّد نهـاريّ سـافر، وتَهَجَّـدَ فيـه بأنـه «**عندمـا يمـوتُ الشّـعرُ ينفتـحُ بـابُ السَّـأم الأبـديّ... ويبتلـعُ الـذي قـد كانَ شـاعراً فـماتَ خاويـاً، ملآنـاً، باللا شيء.. والـلا مُعَـرّفْ والـلا حيـاةَ ولا مَشَـاعرَ... ملآنـاً بالمـوت قبـل انتهَـاء الحيـاة..!**»؟! هـل جُلَّـةُ الأمـر،

جميعَـهُ، حقَّـاً، كذلـكَ؟!

لا، ليـس، وشَـفَقَ الأُلوهـة، في ذاكَ يبقـى العَشَـمْ، ولا شَـميمَ رُوح القُـرب الـذي هـو نَـمْ! وإلا فـما هـي جـدوي العمـق الشـخصي الحميم لهاتـين الرسـالتين التاليتـين المُتَّصلتَـين أو، عـلى الأرَقِّ (وليـس «الأدَقِّ»، بالطَّبـعِ وتثبيتـاً لـروح التَّغييْـظْ الخالقـة عِنـدي، كَـمَانْ!)، **محاولتـي الحيـاة** الشـجية العميقـة التاليتـين المُتَّصِلتَـينَ ذينكُـمَا واللَّتـينَ ذهبَتَـا، مـن يَـدِ ونَفَـسِ، كاتـب هـذه الروايـة، إبراهيـم جعفـر، إلى صديقـه، الرَّشـيد أحمـد الشَّـيْخْ، في يـوم 7/12/1983م و 19/12/1983م (ولكـم أن تتدبـروا في مـا قـد كان قـد بـدأ في النِّـزُولِ مـن السـوء-دان عـلى بـلادِ السُّـودان قبـل ذلـك التاريـخ بقليـل، إن تجـرؤوا عـلى أن تشـاؤووا!):

7/12/ 1983م

****

الأخ العزيز:- الرِّشيد أحمد الشَّيخْ..

وأيـن الشِّـعْرُ يـا (رشـيد) ولسـانُ حـالي هـذه الأيّـام يُـردِّدُ شـكوى النُّـور عثـمان أَبَّكَـرْ ولسـانُ حـالي هـذه الأيـام يُـردّدُ شـكوى النُّـور عثـمان أبَّكَـرْ: (إلهـى طـال هـذا الهجـرُ، غـابَ الشِّـعرُ، شـاخت في العـروقِ النَّـارُ...- صحـو الكلـمات المنسـيّة) ودعائـه: (إلهـي إعْطِنـي صَحـوَ العبُـورِ السَّـمْحِ، جَنِّبنـي شـتاءَ المـوتِ في النَّفْـسِ...- صحـو الكلـمات المنسـيّة)...هجرني الشِّـعرُ وأُحـنُّ إلى زيارتـهِ ولكنّـهُ لا يـأتِي وقـد لا يـأتِيْ... ويبقـى الأمـلُ والإنتظـارُ الـذي قـد يكـونُ عبثِيّـاً... لا أدري....

هـذا الصَّبَـاحُ زارني شيءٌ مـن (فـرح المـاضي القريـب)... أتتنـي

(«الكوستاويَّةُ الخَضْرَاء») التي كانت علاقتي بها قد انتهت إلى طريقٍ مسدودٍ منذ أكثر من عام (منذ سبتمبر *1982*م).. على الرّغم مما حدث ورُغم سنوات الموت والمعاناة التي حاولتُ تحويلها لفنٍّ فقد زارَنِي (البَهَجُ المُريحُ) هذا الصّباحوالآنَ بقيت فقط بعضُ آثارهِ التي تُومئُ إليهِ ولا تُسمِّيهِ.. ثُمَّ غاب.. رُبَّمَا إلى الأبد..!

وصلني خطابك، الطويل و«المعاتب القصير».. بخصوص مسائل الشعر والنقد، والكتابة عموماً، أنا في هذه الأيَّام في حالةٍ تتأرجَحُ بين «الغَثَيَانِ» و«الإرتِبَاك» وهجرتني كُلُّ أشكالِ الكتابةِ، الشِّعرُ منذُ ديسمبر *1982*م، والنَّقْدُ منذُ زمانٍ ويكفي أنّهُ بحوزتي الآنَ مقالٌ طويلٌ عن الشَّاعرين الشَّابَّين محمد نجيب محمّد علي وأُسامة الخوَّاض مادَّتُهُ مجمُوعةً منذ *1981*م وبدأتُ في صياغتهِ هذا العام ولم أستَطِعْ إكمالَهُ حتَّى الآن.. ولا أدري ما مُسَتقبَلُهُ..!، القصَّةُ أيضاً منذُ العام الماضي هجرتني... لم يَبْقَ شيءٌ...

وحتّى القراءةُ لم تَعدْ مُستَمِرَّة وعميقة والحصارُ داخليَّاً وخارجيَّاً، حصار الحالة الذاتية غير المهيئة إطلاقاً للإبداع أو التَّلَقِّي الثَّقافي، والحالة الخارجيّة التي تُحاصرُنَا بالّثهاثِ اليومِي.. قد أكون اقتربتُ من نهايةٍ ما.. أو بدايةٍ جديدةٍ لإبراهيمٍ جديد.. رُبَّمَا.. رُبَّمَا انتهى عهد «إبراهيم الأديب»ليحل محَلَّهُ «إبراهيم» آخر يتشكَّل ولا أعرف ملامحُهُ بعد...

مسألةُ النّشاط الأدبي: أنا أحضرُ الآنَ منتدىً أدبيَّاً نقيمُهُ نحنُ الشّباب كلَّ صباحِ جُمعةٍ بكليّةِ الطّب طُرحت فيه دراسات وبحوث جيّدة ومثيرة للحوار منها ما هو حول المنهج البُنيوي-

أو البُنـائي- في النقـد الأدبي (دراسـتان أولهـما بعنـوان «قـوة النـص»، والثانيـة عـن السـيماطيقا أو علـم العلامـات الـذي ابتدعهـا الناقـد الفرنـسي فردينانـد دي سوسـير، قدَّمهُمَاعبـد اللطيـف عـلي الفـكي... وثالثـة بعنـوان «النقـاد الشـكليُّون الـرُّوس»، ورابعـة بعنـوان «التدويـر في الشِّـعر»، قدّمهـما أسـامة الخـوّاض.. فيـما قدَّمـتُ أنـا دراسـة بعنـوان «الإسـتبصارات الوجوديَّـة في شـعر النّـور عثـمان أَبَّكَـرْ» كتبتهـا في العـام *1980م..!)* ذلـك إضافـةً لدراسـات أخـرى لا بـأسَ بهـا....... هـذا مـا تبقَّـى تقريبـاً مـن مظاهـر علاقتـي بالكتابـة الإبداعيَّـة ومنتدياتهـا، زيـادةً عـلى أنّي قـد بـدأتُ أشـترك في بعـض الأمسـيات الشـعريّة بجامعـة القاهرة/فـرع الخُرطُـوم، ثُـمَّ الآنَ معهـد الدراسـات الإضافيّـة (مـن المقـرر أن أُشـارك مـع محمـد نجيـب محمـد عـلي وأسـامة الخـوّاض وآخريـن في أمسـيةِ شـعر في *17/12/1983م)* وقـد عينتنـي /الزرقـاء/ (مجلـة رابطـة سـنار الأدبيـة) محـرراً لهـا في الخرطـوم وكُلِّفـتُ بجمـع مـواد لهـا وتوزيعهـا، بالمشـاركة مـع أخٍ آخـر، في العاصمـة القوميَّـة، للأدبـاء والفنانـين المرسـلةَ لهـم.

وعن مسألة «الإغتراب» الجَّوّابُ هو فقط «لا أدري..*!*»..

***19/12/1983*م**

***

امتنـاني لـك يـا رشـيد لتقديـرك لمحـاولاتي في الكتابـة وإشـادتك بمقـالي الـذي أتمنـى أن تكـون مقـالاتي المرتقـب نشرهـا قـد تجاوزتـه عمقـاً في الرؤيـا وجـمالاً في اللغـة (الشَّـكل الفنّـي).. أحيانـاً يأتينـي المقـال كـما القصيـدة، (يفيـض) ويتدفَّـقْ منِّـي بلغتـه التـي اختارهـا

(رُغم أنه يُقال دائماً أنَّ النَّقد ممارسة (عقليّة مُحَكَّكَة) وليس (فيضَاً)، عملية موضوعية وليست (ذاتية) ولكنّي أختلف مع هؤلاء (وربَّما كان (هؤلاء) جميع نُقَّادنا الحاليِّين (عبد اللطيف علي الفكي، عبد القدوس الخاتم، حامد بدوي، أسامة الخوّاضن مجذوب عيدروس وآخرين) وأتوقّع من الناقد والقاص صابر بابكر جمعة أن يتفق معي في هذا الفهم... أفهمُ أنَّ التَّدَفُّق والفيض اللاعقلانيَّين هما سمة ليس فقط القصيدة النَّاجحة بل أي عمل أدبي عظيم سواءً كان قصَّةً أو مسرح، أو حتَّى دراسة..!!.. ومثال للمقال الذي أتاني (متدفِّقَاً) مقالي المنشور- اخيراً- بالأيَّام]«الصحيفة السُّودانيَّة- الرَّاوي»[عن قصَّة /الثَّوب/ لديلان توماس في 27/9/1983م.

إزداد اهتمامي (الذي يتوهَّجُ أحياناً قليلةً وسط الحصار اليومِيْ) بمشكلة المعنَى (وهي مشكلةٌ وجُوديَّةٌ صميمَةٌ، كما تعلم) وازددتث تقديراً للحضاراتِ البُدائيَّةِ التي بداتُ أفهَمُ، بعون كولن ويلسون ود. هـ. لورانس، مدى عظمتها وعدم كفايَة تفسير نشوء الأديان والسِّحر بالحاجة الاقتصاديَّة-الاجتماعيَّة (أو مفهوم الحاجة عموماً!).... إزددتُ تقديراَ وعشقَاً لكولن ويلسون الذي كُنْتُ أُحبُّهُ منذُ زمانٍ كما تعلم (رؤيا «إله يكبُرُ في أعماقِي») ولنيتشة وللفلسفة الوجُوديَّة عموماً وابتعدتُ عن الفهم المادّي الفلسفي لظواهرِ الوجُود وأنا أعرفُ أنِّ بذا أكونُ قد اختلفْتُ عنْكَ كثيراً وفي بالي قولُكَ ذاتَ مَرَّةٍ وأنتَ تزورُنِي بالسَّجَّانة [«حيٌّ شعبيٌّ بالخُرطُوم- الرَّاوِي»] ما مفادَهُ أنَّكَ قد أصبحتَ تعتتبر /لينين/ أعظمَ، أو من أعظمَ، شخصيّات العصر

التي تُقدّر طريقة تفكيرِهَا! وأذكر أن ملامح الإختلاف قد بدأت تتبدَّى في حوارٍ معك- لم يكتمل للأسف- بشارع النّيل ونحنُ كُنَّا نمشي على الأقدام... أتمنّى لو أُتيحتْ لي قراءة عميقة وتجارب شعورية عميقة تجعلني أحيا وأكتُبُ شعراً في هذا الإتّجاه!

أنتقلُ لموضوع آخر عقب استطرادي التفصيلي في وصف ما في «جُوَّانيِّتي» وهو أين قصصك القصيرة التي حدثتني عنها؟ هلا أرسلتَ لي نماذج لأقرأها وأحاول نشرها في ملاحقنا الثقافية؟... مجذوب عيدروس لميتوقف عن الكتابة، بل هو مشغول تماماً هذه الأيام بامتحان المعهد (معهد الموسيقى والمسرح) وبالمهرجان الثقافي للإقليم الأوسط...

من شعر الشّباب الجميلين أحاولُ أن أُهدِيْكَ، في البدءِ، قصيدة نثر للصّديق الطيّب عبد الخالق (نشرها في «إيقاعات»/مجلة الإذاعة والتلفزيزن والمسرح/*6* نوفمبر *1980*م). وهو قد توقَّفَ عن كتابةِ الشّعر منذُ زمان ويكتب، حاليّاً، القصّة القصيرة:-

<u>عندما توضَّأتُ للدّخُول</u>

أيَّتُهَا المملوءةُ

بالعُشبِ والأسماكِ

والصّحو الذي يمتدُّ عبر

خارطةِ الوجوهِ

أيَّتُهَا البِنت المطمئنَّة

إنَّني اللَّيلَةَ مَدعُوٌّ

لرسمِ الدفءِ في عينَيْك،

والورد، الذي يمتدُّ في وجهِ المدينةِ،

نحو خاتمَة البُكاء

طالعتُ، قبل الفجرِ،

ذاكرةَ العصافيرِ القديمةِ،

واشتهاءات النَّباتْ

وشرختُ واجهةَ المدينةِ بالصّراخ

«إننى الليلةَ مدعوٌّ إليكْ»

غنَّيتُ للحُزنِ، والأطفالِ،

والوجدِ الذي يمتدُّ بين مُهْجَتِي والطَّريقْ

ونَفرتُ عن وجهي الغريقْ

إذ صِرْتُ مدعُوّاً إليكْ

أرتاد وجهك والنَّدى

اليُسقِينِي أسماءَ البلاد

يحتلُّ أنفي

يُحيلُنِي، في الليل، أشواكاً وملحا

كُنتُ أذكرُ

عندما صادرتُ ثَغْرَك

أنهاراً لأبناء العذابْ

كيف أنّي سقطتُ الوهلَةَ الأولى

وتصاعدتُ رمادْ

«يحتويني الآنَ نفسُ الصَّمْت

يلتَفُّ في عنقي البُكاء»

ها أنا اللَّحظَةَ مدعُوٌّ إليك

أتوضَّأُ... [*... فُقد من الرسالة]

ألبسُ وَجهك... [*... فُقد من الرسالة]

أحمل صدرك المملوءُ... [*... فُقد من الرسالة]

والقيعان والسّكك الحديديّة

اَبُثُّك نحو... [*... فُقد من الرسالة]

والعشق الذي... [*... فُقد من الرسالة]

بياض الضُّوء والقصص الخرافيّة

ويـا رشـيد فاضت الرسـالة وبـدأت تسـتطيلُ فيـما مسـائل أخـرى مـا تـزال تطـل برأسـها، مُتَهوّسـةً باحتـمالات مـوت الفجـاءة أو- تَعشُّـمَاً- البعـث الجديـد القريـب.

ولكَ السّلامات

***

هكـذا يتملَّـص- مثـلَ «فَقِـيْرٍ هِنـدِيٍّ» متشـبِّثٍ بصلـواتِ التَّخَـلِّي

رُغـمَ أنَّـهُ كان مـا يـزالُ يـرى صـور خيـولٍ برتقاليَّـةٍ في الغيـم- سـلطان السِّـيرة والتّدويـن بعيـداً عـن اسـتهواءِ راوي هـذا الـسَّرد اللولبـيِّ المُغْـوِي، المُعتَّـق، العريـق، ولا يَعُـدْ صالحَـاً للنَّفـاذِ فيـه. ثُـمَّ لا يَبْقَـىْ لـه، مـن بعـدِ ذلـكَ، مـن حيـاة مجـذوب الطيّـب الأخـرى فيـما وراء تلـك **المويجـات السَّـبع**، سـوى مُـزُقٍ وأشـباه هلاويـسٍ متشـتَّةٍ لم يقـو شُـعورُهُ، بعـد، عـلى شـأنِ اسْـتِجْمَاعِهَا طـيَّ صُرَّةِ حكيـه الهذيـانيَّ وذلـكَ، أوَّلاً، بمُوجـبِ مُجـرَّدِ طبْعِـهِ ومِزَاجِـهِ الغريـب، ثُـمَّ، ثانيـاً، بمُجَـرَّدِ ضرورة تعـيُّنِ الـ«مجـذوب الطَّيِّـبِ» إيَّـاهُ في الزَّمْـكَان الـذي كان هُـوَ فِيْـهِ، ذاتَهُ، كائنـاً.

آخرُ الكلامِ، إذاً، على طه السَّلام!

.........AND SO THE CURTAINS CLOSED ....

لندن، الأحد، 28 يوليو، 2013م

إبراهيم جعفر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس